



سَيُّرُتِي الذَّاتِيَّة

برتراند رسل

سیرتی الذاتية

١

١٨٧٢ - ١٩١٤

ترجمة

الدكتور عبد الله عبد الحافظ الدكتور فايز اسكندر

الدكتور شفيق مجالى الدكتور أمين العيوطى

مراجعة

الدكتور شوقي السكري



دارالمعارف بمط

.

الناشر : دار المعارف بمصر -- ١١١٩ كورنيش النيل -- القاهرة ج.ع.م.

المحتويات

استهلال : ما عشت من أجله

- ١ - الطفولة
- ٢ - المراهقة
- ٣ - كامبردج
- ٤ - الخطوبة
- ٥ - الزواج الأول
- ٦ - أصول الرياضيات
- ٧ - كامبردج مرة أخرى

استهلال

ما عشت من أجله

لقد تحكمت في حياتي انفعالات ثلاثة ، بسيطة بيد أنها متناهية في القوة :
الحنين للحب ، والبحث عن المعرفة ، والإشفاق الشديد على الذين يقاسون
ويتعذبون . ولقد تقاذفتني هذه الانفعالات ، كالرياح العاتية في طريق غير
مستقيم فوق بحر عميق من العذاب ، يصل إلى حافة اليأس ذاتها .

تلمست الحب ، أولاً ، لأنه يجلب النشوة ، وهي نشوة وصلت من العمق
حداً كان يمكن معه أن أضحي بما بقي من الحياة من أجل بضع ساعات من
هذه السعادة . ثم تلمسته ، ثانياً ، لأنه يخفف الوحدة ، هذه الوحدة الرهيبة
التي يشرف فيها الوعي الراجف على حافة عالم يدلف إلى هوة باردة سحيقة
لا يسبر لها غور ولا حياة فيها . ثم تلمسته ، أخيراً ، في الرؤية التي تتمثل
للشعراء والقديسين حينما ينظرون بعين الخيال إلى الفردوس وذلك عن طريق الحب
الذي يربط بين قلبين رباطاً كاملاً فيستشعران تجارب العشاق الإلهيين . هذا
هو ما سعت إليه ، وبالرغم من أنه قد يبدو أفضل مما تمنحه حياة الإنسان ،
فقد كان — في النهاية — هو ما وجدته .

وبنفس الدافع سعت إلى المعرفة . كنت أرغب في فهم قلوب الناس ،
ومعرفة السبب الذي يجعل النجوم تضيء . كما حاولت أن أثبتن القوة التي قال
بها فيثاغورس والتي بمقتضاها يسيطر بها العدد على فيض الكائنات . ولقد
حققت شيئاً من ذلك ، ولكنني لم أصل إلى الكثير .

وقد أدى بي ذلك الحب وتلك المعرفة ، بقدر ما توفر لي منهما ، إلى التسامى
الذي بلغ بي عنان السماء . ولكن عاطفة الإشفاق كانت تعيدني ثانية إلى

الأرض . إن صرخات الألم تتردد أصداؤها في قلبي . إن وجود أطفال يتضورون جوعاً وضحايا يتعذبون على أيدي الطغاة . وشيوخ عاجزين قد أصبحوا عبئاً مقيتاً على أبنائهم — إن وجود عالم من الوحدة والبؤس والألم لما يحيل الحياة الإنسانية كما يجب أن تكون إلى سخرية للساخرين . إنني أتوق إلى تخفيف وطأة الشر ، ولكنني لا أستطيع ، فإنني أعاني منه أنا الآخر .

تلك كانت حياتي . لقد وجدت فيها ما أستحق أن أعيش من أجله ، ولو منحت الفرصة لأسعدني أن أعيشها مرة أخرى .

إلى إدبث

عبر الأعوام الطوال
ظلمت أبحث عن السلام
ولكنى وجدت النشوة وجدت العناء المصنى
وجدت الجنون
وجدت الوحدة
وجدت الألم الموحش
الذى يحز فى القلب
أما السلام ، فلم أجده
والآن ، وقد أدكنى الشيخوخة
وأشرفت على النهاية
عرفتك

ومن خلال معرفتى بك
وجدت النشوة وجدت السلام
وعرفت الراحة
بعد سنوات عديدة من الوحدة الموحشة
عرفت كيف تكون الحياة ، وكيف يكون الحب
فإذا ما رقدت الآن
فإننى أرقد راضى النفس .

برقراند رسل

الفصل الأول

مرحلة الطبقولة

كان أول ما أذكره بوضوح وصولي إلى « بمبروك لودج » في فبراير ١٨٦٧ . ولكي أكون دقيقاً أقدر أني لا أذكر لحظة وصولي إلى ذلك المنزل ، ولو أن ذاكرتي ما تزال تعي السقف الزجاجي الكبير لإحدى محطات لندن التي تقع في نهاية الخط الحديدي ، وأغلب الظن أنها بادنجتون ، التي فيها غادرت القطار والتي خلتها جميلة إلى حد يفوق كل تصور . وكل ما أذكره من أحداث يومى الأول في « بمبروك لودج » هو الشاي الذي قدم في قاعة الخدم ، وهي حجرة رحيبة عارية من الأثاث بها منضدة ضخمة ، كما كان هناك عدد من المقاعد أحدها عال وبغير مسند . وفي هذه الحجرة كان الخدم جميعاً يتناولون الشاي باستثناء المشرفة على المنزل ، والطاهي ، والوصيفة ، والساقى ، وهؤلاء كانوا يكونون فيما بينهم نوعاً من الأرستقراطية تتخذ مكانها في حجرة مدبرة البيت . ولقد أجلس على الكرسي العالى لأتناول الشاي ، وأذكر بمنتهى الوضوح أني عجبت للسبب الذي حلما بالخدم إلى الاهتمام بأمرى إلى درجة كبيرة . ولم أكن أعرف في ذلك الحين أني كنت بالفعل موضع مداولات سجادة بين كبير الأمناء وعدد من أعضاء مجلس الملكة النابهن وغيرهم من الأشخاص البارزين ، ولم أتنبه للإحاطة بالأحداث الغريبة التي سبقت مجيئى إلى « بمبروك لودج » إلا بعد أن تقدم بى العمر .

كان والدى « اللورد أمبرى » قد توفي منذ زمن وجيز ، بعد فترة طويلة من التدهور الذى أخذ يتفاقم ، ثم ماتت والدتى وشقيقتى على إثر إصابتهما بالدفتريا بعد عام ونصف من وفاته . ولقد كانت والدتى ، كما عرفتها من خلال

مذكراتها وخطاباتها ، قوية البنية ، تفيض حيوية ، لائحة ، جادة ، قادرة على الابتكار ، لا يتطرق إليها الخوف . ولا بد أنها كانت جميلة كما توحى صورها . أما والذي فكان يميل للفلسفة ، والدروس ، عزوفاً عن الدنيويات . سوداوى المزاج ، متمتاً . وكان كلاهما متشيعين متحمسين للإصلاح وصاحبي نظريات فيه ، كما كانا مستعدين لتطبيق أية نظرية كانا يعتنقها . وكان والذي من مريدى الفيلسوف جون ستيوارت مل كما كان صديقاً له . ومن هنا كان تشيعه لتحديد النسل ولحق المرأة فى التصويت مما أدى إلى فقدته متعده فى البرلمان . كما تعرضت والذي فى بعض الأحيان للمتاعب نتيجة لآرائها المتطرفة ، وقد حدث فى حفل أقامه والدها الملكة ماري أن قالت دوقة كامبردج فى صوت مرتفع : « أجل ، إني أعرف من أنت ، إنك زوجة الابن . بيد أنى أسمع الآن أنك لاتبين سوى الراديكاليين^(١) والأمريكيين القذرين . إن لندن كلها تعرف ذلك ، وجميع المنتديات تتحدث عنه . لابد أن أتفحص ثيابك الداخلية ، لأرى ما إذا كانت نظيفة !! »

ولعل الخطاب التالى من القنصل البريطانى فى فلورنسا لا يحتاج إلى توضيح :

٢٢ سبتمبر ١٨٧٠

عزيزتى الليدى أمبرلى

لست من المعجبين بما تزينى^(٢) ، بل إني أكره شخصيته ومبادئه أشد الكراهية وأمقتهما إلى أبعد الحدود ، وبالإضافة إلى هذا فإن المنصب الذى أشغله يمنعنى من أن أكون وسيلة تبادلان بها المراسلات ، بيد أنى لا أود أن أسبب لك ضيقاً فى هذا الصدد ، ولهذا فقد اتبعت السبيل الوحيد الذى يمكننى اتباعه حتى يتسلم خطابك ، وهو أن أضعه فى مكتب البريد وأرفق به العبارة التالية « طرف بروكيوراتورى دليل رى ، جايتا » .

المخلص

١ . باجت

(١) الراديكاليون هم أعضاء الأحزاب السياسية التى تؤمن بالسياسة الليبرالية التحررية .

(٢) ماتزنى هو الزعيم الإيطالى الثائر الذى كان ينادى بوحدة إيطاليا وحريتها .

ولقد أهدي ماتريني والدتي حافظة ساعته^١ ، وهي الآن في حوزتي .
ولقد درجت والدتي على إلقاء الخطب في جانب إعطاء المرأة حق التصويت ،
وفي مذكراتها وردت فقرة تتحدث فيها عن جماعة « أخوات بوتز » ، وهي تضم
مسز سيلدني ويب والليدي كورنبي بوصفهما من زهرات المجتمع . ولقد تهيأت
لي فيها ثلاثاً من سنوات فرصة التعرف إلى مسز سيلدني ويب عن كثب ، وشعرت
نتيجة لهذا باحترام كبير لوالدتي لما كان لها من رصانة وجدية عندما ذكرت ما كانت
تحسه في شئ عصية مسز ويب من خفة وعثب ، في حين كنت أرى من خلال
خطاباتها هي ، وأسوق منها على سبيل المثال خطابها لهنري كرومبتون ، وهو من
دعاة الفلسفة الوضعية^(١) ، أنها كانت في بعض المناسبات تلجأ للخفة والتدلل .
بحيث إن الجانب من شخصيتها الذي واجهته به العالم ربما كان أقل لإزعاجاً
من ذلك الذي بدا في مذكراتها .

كان أبي متحرر الفكر ، وقد كتب مؤلفاً ضخماً نشر بعد وفاته ، أسماه
« تحليل العقيدة الدينية » ، كما كان يملك مكتبة غنية تضم مؤلفات آباء
الكنيسة ، وكتابات عن البوذية ، ودراسات عن الكونفوشيوسية ، إلى غير ذلك .
ولقد قضى وقتاً طويلاً في الريف لإعداد كتابه . على أنه درج ، هو والدتي ،
في المرحلة المبكرة من زواجهما على قضاء بضعة أشهر من كل عام في لندن ،
حيث كانا يقيمان في منزلهما في « دينزيارد » . وقد تنافست والدتي وشقيقها ،
مسز جورج هوارد ، (التي أصبحت تدعى بعد زواجهما الليدي كارليل) في
الاهتمام بالتعبير الفني في صورة حياة المنتديات الأدبية أو الصالونات ، فكنت
تشهد في « صالون » مسز هوارد جميع الرسامين الذين ينتمون إلى مدرسة ما قبل
رافائيل^(٢) ، في حين ضم المنتدى الأدبي الذي كانت تقيمه والدتي جميع الفلاسفة
البريطانيين ابتداء من مل إلى من هم دونه .

(١) الفلسفة التي أسسها أوجست كونت وهي تقوم بالحقائق الثابتة وترفض المطلقات .

(٢) تأسست سنة ١٨٤٨ في إنجلترا وتهدف إلى العودة إلى ما قبل الفنان رافائيل الذي عاش

في عصر النهضة في إيطاليا ، وذلك من ناحية الروح الابتكارية والبعد عن التقاليد الجامدة السائدة .

وفي عام ١٨٧٦ سافر أبي وأمي إلى أمريكا ، حيث توثقت أواصر صداقتهما بجميع الراديكاليين في بوسطن ، ولعل بصرهما لم يمتد إلى المستقبل فيتصورا أن من كانا يعجبان بحماسهم للديمقراطية وبمعارضتهم الناجحة للرق من أمريكيين وأمريكيات ، سيأتى من صلبهم من يقتل « ساكو وفانزى » .

لم يكن أبي وأمي قد تجاوزا الثانية والعشرين عندما تزوجا ، وكان ذلك في عام ١٨٦٤ ، ثم رزقا بشقيقى بعد تسعة أشهر وأربعة أيام من زواجهما ، وهو أمر كان يراه — أى شقيقى — مبعث فخر كما يبدو من سيرته الذاتية . وقبل أن أولد بقليل أقام والدى في منزل موحش تماماً يدعى « رافتر كروفت » (واسمه الحالى « جليدان هول ») وهو يقع في غابة تمتد فوق جانبي نهر « واى » الشديد الانحدار . ومن هذا المنزل ، كتبت أمى بعد أن ولدت بأيام ثلاثة ، تصفنى لوالدتها : وزن المولود ٨ ٣/٤ رطل ، ويبلغ طوله إحدى وعشرين بوصة ، وهو مكتنز الجسم ، قبيح الصورة إلى حد بعيد والكل يراه شبيهاً « بفرانك » ، عيناه زرقاوان متباعدتان ، وذقنه يكاد لا يبين ، وهو يشبه فرانك تماماً حينما كان رضيعاً . إن لى الآن غزير . لو أنى تأخرت في إرضاعه لحظات ، أو لو أنه كان يعاني من الغازات أو أية متاعب أخرى ، فإنه يثور ثورة هائلة . . . ويصرخ ويركل ويتنفض حتى يهدئ أخذ من نائزته . . . وهو يرفع رأسه وينظر إلى ما حوله بكثير من الحيوية .

ولقد جاءوا لأخى بمدرس على درجة كبيرة من العلم ، كما أتصو على الأقل من خلال الإشارة لأبحاثه التي وردت في مؤلف وليم جيمس ، « علم النفس »^(١) . وكان هذا المدرس من المتشيعين « لداروين » ، كما كان مهتماً بدراسة غرائز اللدجاج ، مما حدا بأفراد أسرتى ، تسهيلاً لدراسته ، أن يتركوا اللدجاج يعيش فساداً في كل حجرة في البيت ، بما في ذلك حجرة الاستقبال . أما عن تكوينه الجسماني ، فقد كان مصدوراً برح به الداء ، ولم يمهله الأجل

(١) انظر بالإضافة إلى هذا مقالة ج . ب . س هولدين : « المجلة البريطانية لسلوك الحيوان » الجزء الثاني رقم ١ ، ١٩٥٤ .

طويلاً بعد وفاة والدى . ويبدو أن أبى وأمى قررا ، على أساس نظرى بحت ، أنه بالرغم من أن الواجب يقضى ألا ينجب هذا المعلم أطفالاً نظراً لعلته، فإن من الظلم له أن يعيش كالأعزب محروماً من رعاية امرأة . ومن ثم فقد سمحت له والدى بأن يعيش معها ، ولو أنه ليس هناك ما يدل على أنها كانت سعيدة بذلك . ولم يستمر هذا الترتيب سوى فترة قصيرة ، إذ بدأ تنفيذه عقب ميلادى، ثم ماتت أمى بعد ذلك بعامين فقط ، على أن أبى رأى أن يبقى المدرس بعد هذا إلى حين، وعندما حانت منية أبى وجعلوا أنه أوصى بأن يتولى الرجل ، بالاشتراك مع كوربدن ساندرسون ، وقد كان كلاهما ملحداً ، مهمة الوصاية على ولديه .

غير أن جدى وجلى اكتشفا من خلال كتابات أبى الراحل ما حدث فيما يخص برعاية أمى لهذا المعلم ، مما سبب لهما ذعراً بالغاً يتفق وتزمت الفكتوريين ، ومن ثم قررا أن يحتكما إلى القضاء إذا اقتضى الأمر حتى ينقلنا طفلين بريئين من برائن كافرين متآمرين . واستشار الكافران المتآمران سير هوراس دافى (اللورد دافى فيما بعد) فأكد لهما أن الدعوى لن تكون فى صفهما ، ولعله اعتمد فى تقديره على سابقة مشابهة فى حالة الشاعر شيللى . ولهذا أرسلت أنا وأخى إلى تشانسرى لتنفيذ الوصاية علينا ، وهكذا سلمنى كوربدن ساندرسون إلى جدى وجلى فى اليوم الذى أشرت إليه . وما من شك أن هذا الجانب من حياتى ساعد على اهتمام الخدم بأمرى .

أما عن أمى فلا أذكر من أمرها شيئاً ، فيما عدا سقوطى يوماً من عربة يجرها مهر ، ولا بد أن أمى كانت موجودة وقتئذ . وأعتقد أن هذا الجانب من ذكرياتى حقيقى ، فقد تأكدت من صحته فى مرحلة متأخرة ، وبعد أن ظلت أحفظ به فى نفسى مدة سنوات . أما فيما يخص أبى فإنى أذكر عنه أمرين : أولهما أنه أهدانى صفحة عليها طباعة باللون الأحمر ، وهو لون بعث فى نفسى الرضا ، كما أذكر أنى رأيته يوماً فى الحمام . ولقد دفن أبى وأمى فى حديقة منزلهما فى رافتركروفت بيد أن رفاتهما نقل بعد هذا إلى مقبرة العائلة فى تشينيز . وقد كتب أبى إلى أمه الرسالة التالية قبل وفاته بأيام :

رافنزكروفت
مساء الأربعاء
أبى العزيرة

سيسعدك أن تعلمى أنى أنتوى أن أعرض نفسى على رادكليف بمجرد استطاعى ذلك ، ويؤسفنى أن أحيطك بالسبب ، وهو أنى أعانى من نزلة شعبية حادة يحتمل أن تلزمنى فراشى فترة من الوقت . تسلمت رسالتك المكتوبة بالقلم الرصاص ، وأسفت إذ علمت أن المرض قد ألم بك أيضاً . وبالرغم من أنى فى حالة من الإعياء فقد رأيت أنه لا بأس فى الكتابة إليك . حيث إنى مسهد . ولا حاجة بى للقول إن مرضى ليس خطيراً ، كما أنه ليس من المتوقع أن يتفاقم . غير أن خبرى عن سرعة استفحال الأمراض كانت من المראה بحيث لم أعد فى منأى من القلق ، أو أفترض السلامة حيث لا سلامة . إن رثى ملهبتان وقد تزداد حالى سوءاً . أتوسل إليك ألا تبرق أو تتصرف بشىء من التسرع . إن لدينا طبيباً شاباً رقيق الحاشية بدلاً من أودلاند ، ولعله سيقوم بكل ما يمكن عمله من أجلى إثباتاً لقدوته حيث إنه قد بدأ يباشر عمله هنا . أكرر القول إنى أتوقع أن أتمثل للشفاء ، على أنه لو ساءت حالى فإنى أتمنى أن أموت بنفس الهدوء والسكينة اللذين يستشعرهما ذلك الذى « يلم أطراف الغطاء حوله ثم يستسلم لنوم تتخلله الأحلام السعيدة » .

أما عنى فليست أحس قلقاً ولا ترددأ ، ولكنى أشعر حقاً بألم عميق بالنسبة لقله سأضطرب أن أفترق عنها ، وبالأخص أنت . وإنى إذ أكتب والألم والضعف يلازمانى لست أجد ما أقدم لك سوى هذا التعبير القاصر عن تقديرى العميق لحبك الخالص الذى لا يتحول ، وعطفك علىّ ، حتى لو بدا أنى لا أستحقهما . وإنه لما يسبب لى أسفاً عميقاً أنى اضطررت فى بعض الأحيان أن أبلو فقط ، وإن كان كل ما رجوت أن أستظهره لا يعدو المحبة . لم أنجز إلا القليل جداً مما كنت أرجو أن أؤديه ، ولكنى آمل ألا يكون هذا القليل قد أنجز بصورة خاطئة . لو وافتنى المنية فإنى أموت وفى نفسى إحساس بالرضا

إذ أنجزت عملاً هاماً واحداً في حياتي . أما عن طفلي الحبيبين فأمل أن تزوريهما كثيراً وبقدر ما يمكنك ، وأن يجدا فيك أمّاً لهما . إن جئاني سيجد مستقراً كما تعلمين في الغابة التي أحبتها وفي البقعة الجميلة التي أعدت لي . لست من التفاؤل بحيث أمل أن تشيخي جئاني ، بيد أنه يسعدني أن أتصور إمكان حدوث ذلك . ولعلني جد أناني إذ أسبب لك ألماً من خلال هذه الرسالة ، وكل ما هناك هو أنني أشفق أن أصبح في حالة من الضعف لا تمكنني من الكتابة . وسأولى الكتابة ما دام في استطاعتي ذلك . أود أن أقرر أيضاً أنني لم أجد من أبي الحبيب سوى العطف والرفقة طوال حياتي ، وهو أمر أحس لإزائه بامتنان عميق . وآمل مخلصاً أن تجنبه الأقدار في نهاية حياته الطويلة النبيلة الألم الناشئ من فقدان الابن . ولا يسعني سوى أن أبعث بحبي العميق لأبائنا ووالدو وويللي المسكين إذا أمكن .

ابنك المحب

إن « بمبروك لودج » ، حيث كان يسكن جدي وجليتي ، منزل « حبيب يقع في ريتشموند بارك » ويتكون من طابقين وقد كان هذا المنزل نفحة من نفحات الملك ، وقد اشتق اسمه من اللبدي بمبروك التي أغرم بها جورج الثالث عندما أصيب بالجنون . وكانت الملكة قد أهدت هذا المنزل إلى جدي وجليتي في الأربعينات من القرن التاسع عشر ليسكناه مدى الحياة ، وفي هذا المنزل تم الاجتماع الشهير لمجلس الوزراء ، ذلك الاجتماع الذي وصفه الكاتب كينجليك في مؤلفه « غزو شبه جزيرة القرم » ، وذكر كيف استغرق عدد من أعضاء مجلس الوزراء في النوم حين اتخذ قرار دخول حرب القرم . ولقد عاش كينجليك في الفترة المتأخرة من حياته في ريتشموند وإلى لأذكره جيداً . وقد سألت سيرسبنسر ولبول يوماً عن السبب الذي حدا بكينجليك أن يبغض نابليون الثالث إلى هذا الحد ، فأجاب أنها تشاجرا بسبب امرأة . وكان من الطبيعي أن أسأله « هلا سردت على القصّة ؟ » وكان رده « لا يا سيدي لن أفعل » . ومات بعد ذلك بقليل .

وكانت مساحة حديقة بمبروك لودج أحد عشر فدانا ، معظمها متروك على حاله . وقد لعبت هذه الحديقة دوراً في غاية الأهمية في حياتي حتى ناهزت الثامنة عشرة من عمري . فإذا اتجهت شمالاً طالعك منظر رائع يمتد من أبسوم داونز إلى ونلسور كاسل بين هايند هيد وليث هل . وقد تعودت عيناى مرأى الآفاق الفسيحة ومنظر الغروب الذى لا يعوقه شيء . ولقد فقدت سعادة العيش منذ أن حرمت التطلع إلى هذين المنظرين . كان هناك الكثير من الأشجار الجميلة ، البلوط والزان وشهبلوط الهند والقسطل الأسبانى والزيزفون والأرز البالى الجمال وأشجار الكريبتوميريا والديودارا التى أهدها أمراء الهند . كما كان هناك أشخاص وأسوار من نبات العليق وخنازل من نبات الغار . وكل الأماكن المتوارية التى يمكن أن يتوارى فيها المرء عن الكبا بصورة لا يمكن معها كشفه . كما كان هناك عدد من الحدائق المخصصة للزهور بها أسوار من النبات . ولقد زاد إهمال الحديقة تدريجياً خلال الأعوام التى قضيتها في بمبروك لودج . إذ تساقطت الأشجار الكبيرة ، ونمت الشجيرات في الممرات . واستطالت الحشائش المنفرة على الخضيرة ، ونمت هذه الأسوار من النبات حتى طاولت الأشجار . وبدا كما لو أن الحديقة تعود بالذاكرة أسفاً إلى أيام مجدها الخاليات . عندما تمشى فوق خضيراتها سفراء الدول ، وأعجب الأمراء بأحواض زهورها . عاشت الحديقة في ماضيها ، وعشت معها في ذلك الماضي . ونسجت فيها أوهاماً عن والدى وشقيقى . وتصورت ما كان عليه جدى في عنفوانه . وكان معظم الأحاديث التى سمعتها يدور حول أشياء حدثت في القديم . منها ما كان يتردد من أن جدى زار نابليون في جزيرة إلبا ، وأن العم الأكبر بلخلى تولى الدفاع عن جبل طارق أثناء حرب الاستقلال الأمريكية ، وأن مجلس الولاية قاطع جدها لأنه قال إن العالم خلق قبل عام ٤٠٠٤ ق . م ، واستند في رأيه إلى وجود كثير من الجسم على سفوح إتنا . وتدرجت الأحاديث في بعض الأحيان إلى فترات زمنية أحدث ، وهنا قد يقول لى البعض إن كارليل^(١) نعت هربرت سبنسر^(٢) بأنه

(١) كارليل (١٧٩٥ - ١٨٨١) مؤرخ وأديب إسكتلندى .

(٢) سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) فيلسوف إنجليزى معروف .

« سطحي تماماً » ، وإن داروين أحس أنه قد حظى بشرف رفيع لما زاره مستر جلادستون^(١) . وكان أبي وأمي قد توفيا واعتدت أن أتساءل : ترى أى نوع من الناس كان والدائ؟ كما كان من عادتي أن أتجول في الحديقة وحيداً ، أجمع بيض الطيور أو أتأمل في دورة الزمن . وإذا جاز لي أن أحتكم إلى ذكرياتي الشخصية فإن انطباعات الطفولة الهامة ذات الأثر الفعال لا تصل إلى مستوى الشعور إلا في اللحظات العابرة وأثناء انشغال الأطفال باهتمامهم ، والأطفال لا يصرحون بهذه الانطباعات مطلقاً للكبار . وأعتقد أن فترات الاطلاع الحر من جانب الصغار حيث لا تفرض التزامات من الخارج ، لها أهمية بالنسبة لهم حيث إنها تتيح الفرصة لتكوين هذه الانطباعات التي تبدو عابرة ولكنها جوهرية فعلاً .

كان جدي كما أذكره شيخاً جاوز الثمانين ، ينتقل على مقعد ذي عجلات في أرجاء الحديقة أو يجلس في حجرة يقرأ هانسارد (مضبطة البرلمان) . وكنت في السادسة عندما مات جدي وأذكر يوم وفاته أنني رأيت شقيقى (وكان يومئذ في المدرسة) وهو يستقل عربة في طريقه إلى المنزل على الرغم من أن الفصل الدراسي لم يكن قد انتهى . وهتفت صائحاً « مرحى » ، وقالت مربيتى « صه لا تقل اليوم (مرحى) » . ومن هذا يمكن استنتاج أن جدي لم تكن له أهمية كبيرة عندي .

ولكن الأمر كان على العكس من هذا في حالة جلتى . كانت تصغر جدي بثلاثة وعشرين عاماً ، كما كانت أهم شخص بالنسبة لي خلال طفولتي . كانت إسكتلندية الأصل ، تعتنق المذهب الكنسي المشيخي ، كما كانت ليبرالية في معتقداتها السياسية والدينية (ثم أصبحت تؤمن بالوحداية في سن السبعين) ، غير أنها كانت غاية في الصرامة في كل ما يتعلق بالأخلاق . كانت صغيرة السن ، حية ونحجولاً ، عندما تزوجت جدي ، في حين كان هذا الأخير

(١) جلادستون (١٨٠٩ - ١٨٩٨) تولى رئاسة الوزارة الإنجليزية بوصفه زعيم الأحرار من

١٨٦٨ - ١٨٧٤ ومن ١٨٨٠ إلى ١٨٨٥ ومن ١٨٩٢ - ١٨٩٤ .

أرمل ولديه طفلان من زوجته الأولى عدا أربعة من أبنائها هي . وقد وصل إلى منصب رئيس الوزراء بعد أعوام قليلة من زواجه بجلدى . ولابد أن أعباء هذا المنصب كانت ثقيلة الوطأة على هذه الأخيرة ، وهي تقص كيف دعيت يوماً لتناول الإفطار في منزل الشاعر روجرز ، وكيف أن المضيف بعد أن لاحظ خجلها واضطرابها قال : « عليك بقليل من هذا اللسان . إنك في حاجة إليه يا عزيزتى » . وكان واضحاً من حديثها أنها لم تستشعر يوماً أحاسيس الحب . ذكرت لى مرة أنها أحست هدوءاً عميقاً عندما جاءتها أمها أثناء شهر العسل . وفي مناسبة أخرى سمعتها تبكى أسفها لما تراه من أن كثيراً من القصائد يدور حول موضوع الحب بالرغم من شدة سخافته . ولكنها كانت زوجة وفيه بجلدى ، ولم ألحظ يوماً ، بقدر ما تهيأ لى من الإدراك ، أنها تقاعست في أى وقت من الأوقات عن أن تؤدى ما كانت تعتبره ، بحكم مقاييسها الصارمة ، واجبات عايتها لإزاده .

ولقد كانت بعد هذا ، كأم وكجدة ، شديدة الحنان . وإن لم يكن حنانها دائماً في محله . وفي تصورى أنها لم تكن تقدر مطالب الغرائز الحيوانية في الإنسان أو الطاقة المتوثبة فيه . وكانت تتطلب من الناس أن ينظروا إلى كل شيء من خلال ضباب عاطفى كذلك الذى تميز به العصر الفكتورى ^(١) . وأذكر أنى حاولت مرة أن أقنعها أنه مما لا يستقيم مع المنطق أن تطالب بأن يتخذ كل فرد مسكناً لائقاً ثم ترتاع في الوقت نفسه من بناء المساكن الجديدة لأن منظرها قذى في العيون . كانت ترى أن لكل عاطفة من العواطف حقوقاً خاصة بها ، بحيث لا يضحي بواحدة منها في سبيل الأخرى من أجل شيء بارد كالمنطق . وكان تعليمها على السنن المعهودة في عصرها ، فكانت تتكلم الفرنسية . والألمانية ، والإيطالية دون ما خطأ بل دون أن تلاحظ في إحداها لكنة الأجنبي . كما أنها درست بتمعن شكسبير وملتون وشعراء القرن الثامن عشر . وكانت تحفظ عن ظهر قلب أسماء الاثنى عشر برجاً وأسماء ربات الشعر التسعة . كما كانت

(١) أى العصر الذى حكمت فيه الملكة فكتوريا وهو عصر متميز بالجمود على تقاليد معينة ويشهد في السلوك الشخصى .

ملمة إلاماً دقيقاً بتاريخ إنجلترا من زاوية حزب الأحرار ، هذا علاوة على إحاطتها بالأعمال الأدبية الخالدة الفرنسية والألمانية والإيطالية . وتركزت معرفتها بالسياسة وإدراكها الشخصي الوثيق بها في الفترة التي تلت ١٨٣٠ . ولكن لم يكن هناك في تربيتها وثقافتها محل لأي شيء يتطلب لإعمال الفكر أو يمت بصلة لحياتها العقلية . فما كانت تفهم مطلقاً كيف يعمل الهويس في مجرى النهر ، مع أني سمعت الكثيرين يحاولون أن يشرحوا لها فكرة الهويس . وكان دستورهما الخلق هو الدستور الشائع بين المترمطين في عصر فكتوريا ، فما كان يمكن أن تقتنع بأن من استخدم عبارة بديهة في إحدى المناسبات ، يمكن أن يتوفر له رغباً عن هذا بعض الحصال الحميدة . بيد أنها كانت تستثني من هذه القاعدة الأخيرة بضع حالات ، منها أنها كانت تعرف آتستين من عائلة بيرى وكانتا صديقتين لهوراس وولبول^(١) ، وقد قالت لي يوماً دون أي تحفظ « كاننا تنتميان للعجيل القديم ، وتستخدمان بعض ألفاظ السباب في أحيان قليلة » . وكانت جدتي كالكيث من هن على شاكلتها تستثني بايرون^(٢) بطريقة لا تستقيم مع منطقها الأخلاقي ، فتعتبره ضحية نعمة لحب فاشل أيام الشباب . أما بالنسبة لشيلى^(٣) فلم تكن بهذا التسامح ، إذ كانت تعتبره إباحياً كما كانت تعتبر شعره متهاقاً . أما كيثس^(٤) فلا أظن أنها سمعت به يوماً . وعلى حين كانت متفقهة في دراسة الأعمال الخالدة لكتاب أوروبا حتى جوة وشيلر فإنها لم تكن تعرف شيئاً عن كتاب أوروبا المعاصرين لها . ولقد أهداها مرة تورجينيف^(٥) إحدى قصصه ولكنها لم تقرأها قط ، بل لم تكن ترى فيه أكثر من ابن عم لبعض أصدقائها . وكانت تعرف أنه مؤلف ، غير أن هذا كان شأن الكثيرين في ذلك الوقت . وبالطبع كانت خالية الذهن تماماً عن علم

(١) هوراس وولبول (١٧١٧ - ١٧٩٧) نبيل إنجليزي اشتهر بكتابة قصص الرعب التي أشهرها (قلمة أوترانتو) .

(٢ و ٣ و ٤) بايرون وشيلى وكيثس من شعراء الرومانسية الإنجليزية الذين عاشوا في الربع الأخير من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر . . .

(٥) تورجينيف (١٨١٨ - ١٨٨٣) قصاص روسي معروف .

النفس بمعناه الحديث . وكل ما كانت تعرفه هو أن هناك دوافع معينة للسلوك الإنسانى ، فحب الوطن وروح الخدمة العامة ، وحب المرء لأطفاله ، كلها دوافع محمودة . أما حب المال ، وحب السلطة والغرور ، فكلها دوافع ذميمة . وكان رأيها أن الصالحين من الناس يتصرفون دائماً بوحى من دوافعهم الخيرة . ولكن الأشرار ، حتى أسوأهم ، ليسوا بمجردين من الخير ، ولو فى بعض الحفلات . وكانت ترى فى الزواج نظاماً محيراً ، كان واضحاً لديها أن واجباً على الزوج والزوجة أن يحب كل منهما الآخر ، ولكنه واجب لا ينبغى المغالاة فيه . فإذا كانت الرغبة الجنسية هى التى تجمع بين الزوجين فلا بد أن هناك شيئاً مريباً . ما كانت بالطبع لتفصح عن رأيها هذا فى مثل هذه العبارات ، وإنما كان غاية ما تستطيع قوله فى هذا الصدد ، وما قالته بالفعل هو : « لست أعتقد ، كما تعلم . أن حب الأزواج يرقى فى مستواه إلى حب والالدين للبنين ، لأن هناك دائماً شيئاً من الأنانية فى الحب الذى يربط بين الأزواج » . وكان هذا أقصى ما يمكن أن تصل إليه أفكارها فيما يتعلق بموضوع الجنس . وأظننى سمعتها يوماً تقترب من هذا الموضوع المحرم بدرجة أكبر ، وذلك عندما قالت إن اللورد بالمرستون كان مختلفاً عن غيره من الناس من حيث إن سلوكه لم يكن طيباً تماماً . ولم تكن جدتى تميل لشرب الخمر ، وتكره الطباقي ، وتكاد تتحول إلى شخص نباتى . كانت حياتها غاية فى التقشف . طعامها فى منتهى البساطة ، وإفطارها فى الثامنة . وإلى أن ناهزت الثمانين لم يحدث أن جلست يوماً على مقعد مريح إلا بعد الانتهاء من تناول الشاى . وكانت متجردة تماماً عن الدنيوية ، كما كانت تحقر أولئك الذين يقلدون ما تمنحه الحياة من بجاه وشرف . ويؤسفنى أن أقول أن موقفها من الملكة فيكتوريا لم يكن ينطوى على شىء من الاحترام . وكان من عاداتها أن تروى بكثير من الاستمتاع كيف أنها كانت ذات يوم فى قصر ويلسور وألمت بها وعكة ففضلت الملكة قائلة : « لا بأس فى أن تجلس الليدى رسل . أما الليدى كندا والليدى كذا فعليهما أن تقفا أمامها » .

ولما بلغت الرابعة عشرة من عمرى بدأت أضيق بقصور جدتى الفكرى .

كما بدا لي دستورهما الأخلاقي البيوريتاني صارماً متطرفاً . ولكن حبها العميق لي وأنا طفل ، واهتمامها الكبير بكل ما في صالحى ، جعلانى أحبها ، وهىآلى شعوراً بالأمن والطمأنينة ، وهو ما يفتقر إليهما الأطفال . وأذكر عندما ناهزت الرابعة أو الخامسة من عمرى أنى رقدت فى فراشى متيقظاً أفكر فيما يمكن أن يكون عليه الموقف من بشاعة لو ماتت جدتى . وعندما توفيت فعلاً ، وكان هذا بعد أن تزوجت ، لم أهتم مطلقاً . ولكنى إذ أسترجع الذكريات ، وقد تقدم بى العمر ، يزداد إدراكى لأهمية الدور الذى لعبته فى تشكيل نظرتى إلى الحياة . ولقد أعجبت بشجاعتها ، واهتمامها بالقضايا العامة ، وعدم اكترائها بالمواضعات أو برأى الأغلبية ، وكان لهذه الصفات أثرها على نفسى باعتبارها تستحق التقليد . ولقد أهدتنى إنجيلاً كتبت على صفحته الأولى النصوص الأثرية لديها . ومن هذه « لا تتبع المجموع فى فعل الشر » . ولقد كان من أثر توكيدها لهذا النص ما جعلنى فى فترات متأخرة من حياتى لا أخشى الانثناء إلى أقليات ضئيلة العدد .

وعندما كنت غلاماً كان لجدتى أربعة أشقاء ما زالوا على قيد الحياة ، وشقيقتان ، وكان من عاداتهم جميعاً المحبىء من وقت لآخر إلى بمبروك لودج . كان أكبر الأشقاء لورد منتو ، وكنت أناديه باسم الخال ويليام . والثانى سير هنرى إليوت وقد أمضى حياة حافلة فى الميدان الدبلوماسى ، بيد أنى لا أذكر عنه الكثير . أما الثالث - الخال تشارلى - فأذكره جيداً نظراً للمساحة الطويلة التى يشغلها اسمه وألقابه على أغلفة الرسائل : الأميرال الميجل سير تشارلس إليوت ، حامل الرتبة الثانية من وسام K.G.B ؛ وسمعت أيضاً أنه تقلد منصب أمير البحار وأن هناك رتبة أرفع هى أميرال الأسطول ، وأذكر أن هذه الإشارة أملتني وشعرت أنه كان يجب على خالى ألا يسكت على ذلك .

ويأتى أخيراً جورج إليوت - الشقيق الأصغر - وكان أعزب . كنت أعرفه باسم الخال دودى . وكان أهم شىء طلب لى ملاحظته فيما يخص به هو شبهه الوثيق بجد جدتى ، المستر بريلدون ، الذى أدت فكرة حمم بركان إتنا به إلى

هرطقة يؤسف لها . وفيما علدا ذلك لم يكن هناك ما يميز الخلال دودى . وأعود إلى الخلال ويليام فأذكر عنه شيئاً كان غاية في الإيلام . جاء مرة إلى مبروك لودج في إحدى أمسيات شهر يونيو ، وكان اليوم كله مشمساً بحيث استمتعت بكل لحظة فيه . وعندما حان الوقت لأقرب القوم تحية المساء قال لى في وقار إن قدرة الإنسان على الاستمتاع بشيء تتناقص مع مرور الأعوام ، ولأنه لن يتوافر لى التمتع بيوم آخر من أيام الصيف كذلك الذى انقضى . وانفجرت باكياً . . انهمرت الدموع من عيني كأنها نهر يفيض . . وظللت أبكى مدة طويلة بعد أن رقدت في فراشى . ولقد أثبتت تجربتي فيما بعد أن ملاحظته هذه لم تكن صحيحة بقدر ما كانت قاسية .

كان الكبار الذين عشت بينهم قاصرين بشكل واضح عن فهم حدة انفعالات الأطفال . اصطحبوني يوماً ، وكنت في الرابعة من عمري ، إلى مصور في ريتشموند . ولأقى الرجل صعوبة كبيرة في إقناعي بالجلوس دون حركة ، وأخيراً وعدني بفطيرة إذا فعلت . وكنت حتى ذلك الوقت لم أكل مثل هذه الفطيرة سوى مرة واحدة . وظل هذا الإحساس يمثل في نفسي قمة النشوة . ولهذا حبست أنفاسي ونجحت الصورة . بيد أنى لم أحصل على الفطيرة .

وفي مناسبة أخرى سمعت أحد الكبار يقول لآخر « متى سيأتى ليون^(١) الصغير ؟ » وأرهفت أذنى وسألت « هل تنتظرون قدوم أسد ؟ » وكانت الإجابة « نعم ، سيأتى يوم الأحد . إنه أليف جداً ، وستراه في حجرة الاستقبال » . وظللت أعد الأيام حتى كان يوم الأحد ثم مرت ساعات الصباح ، وأخيراً قيل لى إن الأسد الصغير في العرفة وإن فى استطاعتي أن أذهب إلى هناك لأراه . وفعلت هذا ، وإذا به شاب عادى يدعى ليون . وهنا غلبنى الشعور بخيبة الأمل ، وما زلت أذكر العذاب الذى برح بى وأنا أتقلب فى أعماق اليأس .

لنعد بعد هذا إلى عائلة جلدتى . لا أذكر سوى القليل عن شقيقتها ليدى

(١) الكلمة تحتل معنى أسد .

إليزابيث روميل، فيما عدا أنها كانت أول من ذكر أمانى اسم رديارد كبلنج^(١)، وكانت تعجب أشد الإعجاب بمؤلفه « قصص بسيطة من التلال ». وأما الشقيقة الأخرى ، ليدى تشارلوت بورتال ، وكنت أدعوها الخالة لوتى ، فكانت أكثر حيوية . قيل إنها سقطت من فراشها وهي طفلة ، ثم تمتعت دون أن تستيقظ « نكست رأسى ، وفقدت كبريائى » . وقيل أيضاً إنها إذا سمعت الكبار يتحدثون عن المشى فى أثناء النوم ، نهضت من فراشها فى الليلة التالية وأخذت تسير بطريقة تمتعت أن تقنع الآخرين بأنها تمشى وهي نائمة . أما الكبار ، وقد رأوها يقظى ، فقد قرروا ألا يتناولوا الموضوع بالحديث . وكان لهذا الصمت ما ملأ الصبية بالأسى والخيبة ، وأخيراً قالت « ألم يرئى أحد بالأمس أسير وأنا نائمة ؟ » . وظلت فى حياتها معرضة لأن يجانبها التوفيق فى تعبيرها عما تشعر به . أرادت مرة أن تطلب عربية لثلاثة أشخاص ، وحارت كيف تتصرف ، فالعربة ذات العجلتين أصغر من أن تتسع لثلاثة ، وذات العجلات الأربعة أكبر من أن يستخدمها ثلاثة ، ولذا طلبت من الخادم أن يأتى بعربة ذات عجلات ثلاثة . وفى مناسبة أخرى توجهت إلى المحطة فى طريقها إلى القارة وكان فى توديعها خادم يدعى جورج . ودار فى خاطرها أن من المحتمل أن تكتب إليه فى شأن خاص بالمنزل ، وتذكرت فجأة أنها لا تعرف اسمه الكامل . وتحرك القطار وأخرجت المرأة رأسها من النافذة وصرخت « جورج ، جورج ، ما اسمك ؟ » وجاءها الرد « جورج يا سيدتى » . وعند هذا الحد كانت المسافة قد بعدت فتعذر عليه سماعها .

وبالإضافة إلى جلدتى كان يقيم فى المنزل شخصان هما العم روللو والعمة أجاتا ، ولم يكن أى منهما متزوجاً . لعب عمى روللو دوراً هاماً فى سنى الأولى ، حيث كان يجلدنى كثيراً عن أمور علمية ، وكان يعرف الكثير عن العلم . كان يعاني طوال حياته من خجل مرضى وصل من الحلة أن منعه من إنجاز أى شىء يقتضى اتصالاً بالآخرين . ولكنه فى صلته بى ، وطالما كنت طفلاً ، لم يكن

(١) كبلنج (١٨٦٥ - ١٩٣٦) شاعر وقصاص اشتهر بتحمسه للإمبراطورية البريطانية.

يستشعر الخجل ، بل درج على أن يتحدث إلى بشيء من الدعابة والمجون لم يعتدهما الكبار فيه . وأذكر أني سألته يوماً لماذا يحتفلون بالزجاج الملون في نوافذ الكنائس ، فأجاب في وقار شديد أن الأمر لم يكن بهذه الصورة قديماً . وإنما حدث يوماً ، بعد أن اعتلى القس المنبر ، أن رأى من خلال النافذة شخصاً يحمل على رأسه دلوّاً به طلاء أبيض . وإذا بقاع الإناء يسقط والطلاء يسيل على الرجل فيغطيه باللون الأبيض . وانتابت القس نوبة من الضحك أعجزته عن الاستمرار في العظة ، ومنذ هذا التاريخ وضع الزجاج الملون في نوافذ الكنائس لحجب المراثيات . كان يعمل في وزارة الخارجية . ولكنه كان يعاني ألماً في عينيه . وعندما عرفته أولاً لم يكن يستطيع أن يقرأ أو يكتب . وتحسنت حالته بعد ذلك ، ولكنه انقطع بعد هذا عن العمل في المكاتب . كان أحد علماء الأرصاد الجوية ، وقام بأبحاث قيمة عن الآثار التي ترتبت على ثورة بركان كراكاتوا عام ١٨٨٣ ، وقد تسبب عن هذا الانفجار في إنجلترا اضطراب في غروب الشمس . بل لقد ظهر يوماً في سماءها قمر أزرق . وكان من عادته أن يحدثني عن الدليل على أن كراكاتوا هو السبب في غروب الشمس في غير الساعات المألوفة . وكنت أستمع إليه بكل جوارحي . وكان لحديثه أثر كبير في شحذ اهتمامي العلمية .

كانت عمتي أجبانا أصغر الكبار المقيمين في بمبروك اودج . إذ كانت تكبرني بتسعة عشر عاماً أي أنها كانت تناهر الثانية والعشرين عندما جئت أولاً إلى المنزل . وقد حاولت مراراً أن تلقى عليّ دروساً في العام الأول من وصولي . ولكنها لم تلاق نجاحاً واضحاً . كانت تحتفظ بثلاث كرات ملونة : حمراء وصفراء وزرقاء . وأذكر أنها كانت تمسك بالكرة الحمراء وتسال : « أي لون هذا ؟ » فأقول « الأصفر » . وهنا تقرّبها من العصفور الكناري وتقول « هل تظن أن هذا هو نفس لون العصفور ؟ » فأجيب « لا » . ولكن لأنني لم أكن أعرف أن لون الكناري أصفر لم تغدني محاولاتها كثيراً . ولا بد أني تعلمت التمييز بين الألوان بمرور الزمن ، ولكني لا أذكر سوى الفترة التي كنت فيها عاجزاً عن التمييز بينها . ثم حاولت عمتي أجبانا أن تعلمني القراءة ولكن الأمر كان

أصعب من أن أنجزه . وإن كنت - كتلميذ لها - قد نجحت في قراءة كلمة واحدة وهي « أو » . أما الكلمات الأخرى فلم تستوعبها ذاكرتي ، وإن كانت كلها بنفس الطول . ولا بد أن هذا كان مثبطاً لعزيمتها ، حيث إنى أرسلت إلى مدرسة للأطفال قبل أن أناهز الخامسة بقليل ، وهذه نجحت أخيراً في تعليمي هذه العملية العسيرة وهي القراءة . وقد تولت عمى أجانا العناية بي وأنا في السادسة أو السابعة وعلمتني تاريخ تطور الحركة الديمقراطية في إنجلترا . ولقد شغفت بهذه الدراسة فعلاً ، وما زلت أذكر حتى اليوم الكثير مما علمتني في هذا السبيل .

إنى أحتفظ حتى الآن بالكراسة الصغيرة التي كتبت فيها أسئلتها وأجوبتها ، وقد أملتها على . ولعل بعض الأمثلة توضح رأيها .

س : ولماذا تشاجر هنرى الثانى ^(١) وتوماس بكيت ^(٢) ؟

ج : لأن هنرى أراد أن يضع حداً للشرور التي ترتبت على وجود حاشية قوية - كالحاشية الملكية - تحيط بكل أسقف - من الأساقفة ، وبذلك أصبح هناك قانونان منفصلان ، أحدهما للكنيسة والآخر لسائر الناس . ولم يقبل بكيت أن يقلل من نفوذ الأساقفة ، ولكنه اضطر أخيراً أن يوافق على دساتير كلارندن ^(٣) (وسترده أحكامها فيما بعد) .

س : وهل حاول هنرى الثانى أن يصلح حكومة البلاد أم لا ؟

ج : نعم ، فهو لم ينس مطلقاً ، خلال فترة حكمه المزدحمة بالأعباء ، أن يصلح القانون ، فازدادت أهمية قضاة المحاكم الجزئية الجوالين الذين لم يفصلوا فقط في أمور المقاطعات المالية ، كما كانوا يفعلون في أول الأمر ، ولكنهم أيضاً نظروا في الدعاوى ، وفصلوا في القضايا . ويرجع

(١) هنرى الثانى ولد سنة ١١٣٣ وكان ملكاً من ١١٥٤ إلى ١١٨٩ على إنجلترا وأيرلندا .

(٢) أما بكيت فقد كان رئيساً لأساقفة كانتربرى ودافع عن استقلال الكنيسة ضد هنرى

الثانى .

(٣) في ١١٦٤ أصر هنرى الثانى على السيطرة على الكنيسة الإنجليزية .

الفضل في ظهور بدايات نظام المحاكمة أمام الحلفين ظهوراً واضحاً إلى الإصلاحات التي قام بها هنري الثاني .

ولم يرد ذكر لمقتل بكيت في هذه الأسئلة والأجوبة ، في حين جاء ذكر إعدام تشارلز الأول ، دون تعقيب على إدانته .

وبقيت عمى أبحاثاً بلا زواج . وكانت قد خطبت لقس ، ولكنها كانت تصاب أثناء فترة الخطبة بنوبات جنون ، مما أدى إلى فسخ هذه الخطبة . وأصبحت بخيلة ، تعيش في منزل كبير لا تستعمل إلا القليل من حجراته حتى توفر الفحم ، ولم تكن تستحم إلا مرة واحدة في الأسبوع للسبب نفسه . كما كانت ترتدى جوارب سمكة من الصوف تسترخى دائماً على كعبيها . وفي معظم الأوقات كانت تتحدث حديثاً عاطفياً عن طيبة بعض الأشخاص المتناهية . أو سفالة بعض الأشخاص الآخرين . ولم يكن هؤلاء وأولئك إلا من منع الخيال . وكانت تكره كلاً من زوجتي وزوجة أخي طالما كان كل منا على وفاق مع زوجته . ولكنها أحبتهما بعد انفصالهما عنا . وحينما اصطلحت زوجتي الثانية إليها لكي تراها للمرة الأولى وضعت صورة زوجتي الأولى على المدفأة ، وقالت لزوجتي الثانية : « حينما أراك لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في أليس العزيزة وإنني لأتساءل عما يمكن أن يحدث لو أن برقي تركك ، لا قدر الله . » وفي إحدى المرات قال لها أخي : « إنك يا عمى دائماً لا تعرفين إلا الزوجة قبل الأخيرة » . وبدلاً من أن تثور غضباً لهذه الملاحظة ضجعت بالضحك وأخذت تسرد هذه الملاحظة لكل من قابلها . وكانت أحياناً تثير دهشة من يحسب أنها امرأة عاطفية ترتج عليها الأمور بسرعة ، بما تظهره فجأة من فطنة وذكاء . لقد كانت ضحية تزلزلت جذري . ولربما استطاعت أن تعيش سعيدة ، وناجحة . وقادرة على التصرف ، لو لم يعلموها أن الجنس إثم .

وكان أخي يكبرني بسبع سنوات . ولذا لم يكن يرافقني طويلاً . فلم أكن أراه إلا في العطلات لتغيبه الدائم في المدرسة . وكنت أكن له ذلك الذي يحسه بالطبيعة كل أخ إزاء أخيه الأكبر ، وكنت أشعر في بداية العطلات بسعادة

لعودته ، ولكنى سرعان ما كنت أتمنى أن تنتهى هذه العطلات ، لأنه كان يسخر منى ويضايقنى . وأذكر أنه فى إحدى المرات حين كنت فى السادسة من عمرى ، صاح ينادينى بصوت عال قائلاً : « يا ولد » ورفضت غاضباً أن أرد عليه معتبراً أن هذا ليس اسمى . وقد قال لى فيما بعد إنه كان يحمل عنقود عنب كان يزعم تقديمه لى لو أننى ذهبت إليه . ولما كنت ممنوعاً منعاً باتاً من أكل الفاكهة ، فقد ألتئى هذه الحسارة . وكان هناك أيضاً جرس صغير كنت أعتقد أنه يخصنى ، ولكن أخى كان يدعى كلما عاد أن هذا الجرس يخصه هو ، فكان يأخذه منى ، رغم أنه كان أكبر سنّاً من أن يشعر بسعادة لامتلاكه هذا الجرس . . . وظل يحتفظ بالجرس حتى بعد أن كبر . وظللت أشعر بالغضب كلما وقعت عينائى عليه . ولقد عانى والداى (كما يظهر من الخطابات المتبادلة بينهما) الأمرين من دحى . وعلى كل فقد كانت أى تفهمه لأنه كان ينتمى بطبيعته ومظهره إلى آل ستانلى وهم آلهما . ولم يكن آل رسل يفهمونه مطلقاً . بل كانوا ينظرون إليه منذ البداية على أنه من أعوان الشيطان^(١) . ولما وجد أخى أن هذا هو رأيهم فيه ، حاول بطبيعة الحال أن يكون أهلاً لهذه الشهرة . وكانت هناك محاولات لإبعادى عنه . ولكنى ما كدت أعلم بهذه المحاولات حتى استنكرتها . وكان بالرغم من ذلك طاغى الشخصية ، ولقد شعرت بعد أن قضيت معه بعض الوقت ، وكأننى لا أستطيع أن أتنفس . وظللت طوال حياته أشعر نحوه بمزيج من الحب والخوف . وكان هو يفتقد من أعماقه حب الناس له ويتمناه . ولكنه لم يستطع أن يبنى على حب أحد له لفرط غلظته . وكان يشعر بمرح داخلى حينما يفقد حب أحد له ، ويصير قاسياً ، مجرداً من الضمير . غير أن أسوأ أفعاله كانت ترجع إلى أسباب عاطفية .

وفى سنواتى الأولى فى « بمبروك لودج » كان الخدم يلعبون فى حياتى دوراً

(١) كتب جدى فى إحدى المناسبات لوالدى يطلب منه ألا يأخذ مشاغبات أخى مأخذ الجد ولا سيما أن تشارلز جيمس فوكس كان أيضاً طفلاً مشاغباً ، وبالرغم من هذا فقد سطع نجمة (أصبح رئيساً للوزراء) .

أهم من دور أفراد الأسرة . كانت هناك مدبرة المنزل العجوز ، وتدعى مسز كوكس ، كانت تعمل مربية لبلدى حينما كانت بلدى طفلة . وقد كانت منتصبة القامة قوية البنية ، حازمة ، مخلصه للأسرة ، كما كانت دائمة العطف على . كذلك كان هناك ساق يدعى ماكالبين وهو اسكتلندى قبح كان يجلسنى على ركبتيه ويقرأ لى عن حوادث القاطرات فى الصحف اليومية . وكنت إذا رأيته تسلفت ساقه وقلت : « أخبرنى عن حادثة حدثت » . وكانت هناك أيضاً طاهية فرنسية تدعى ميشو . وكانت مخيفة ، ولكن بالرغم من صفاتها التى كانت تثير الرهبة لم أكن أستطيع أن أمنع نفسى من الذهاب إلى المطبخ لكى أتفرج على اللحم وهو يدور على الشواية العتيقة الطراز . ولكى أسرق قطع الملح الذى كنت أحبه أكثر من السكر ، وكانت هى تجرى خلفى وفى يدها سكين اللحم . غير أنى كنت أهرب منها بسهولة . وفى خارج المنزل كان يوجد بستانى يدعى ماكروبي غير أنى لا أذكر عنه إلا القليل لأنه ترك الخدمة حينما كنت فى الخامسة من عمري . وكان هناك أيضاً ، إلى جانب هؤلاء ، الحارس وزوجته ، مسر ومسر سنجلتون ، وكنت أحبهما لأنهما كانا يعطينانى التفاح المشوى . والبيرة ، وكانت من الممنوعات بالنسبة لى . وقد خلف ماكروبي بستانى آخر يدعى فيلى ، ذكر لى أن الإنجليز هم القبائل العشرة المفقودة من بنى إسرائيل . ولا أظن أننى صدقته تماماً وقتئذ . وحينما جئت « بمبروك لودج » للمرة الأولى . كانت لى مربية ألمانية تدعى مس هتشل ، وكنت حينئذ أتكلم الألمانية بنفس الطلاقة التى أتكلم بها الإنجليزية . ولقد تركت الخدمة بعد أيام من وصولى إلى « بمبروك لودج » ، وخلفتها مربية ألمانية تدعى ويلهلمينا ، أو مينا من باب الاختصار . وأذكر جيداً الليلة الأولى التى أرادت أن تعطينى فيها حماماً فقد وجدت أنه من الحكمة أن أقاومها ، فلم أكن أعرف ما تنوى أن تفعله . وأخيراً اضطرت أن تطلب مساعدة من الخارج ، بعد أن باءت محاولاتها بالفشل . ولكنى سرعان ما أحببتها ، فعلمتنى أن أكتب الحروف الألمانية . وأذكر أننى قلت لها بعد أن تعلمت كل حروف التاج والحروف العادية الألمانية : « والآن

بقى أن أتعلم الأرقام » وشعرت بالارتياح والدهشة حين علمت أن الأرقام في الألمانية هي نفس الأرقام في الإنجليزية . ولقد كانت تصفني أحياناً ، وأذكر أنني كنت أبكي كلما فعلت ذلك . غير أن ذلك لم يكن ليقبل من صداقتي لها . وظلت معي حتى بلغت السادسة . وكانت لي ، أثناء وجودها ، خادمة تدعى آدا كانت توفد المدفأة في الصباح وأنا ما أزال في سريري . وكانت تنتظر حتى تنهض الأخشاب ثم تضيف الفحم . وكنت أتمنى ألا تضع فحمًا لأنني كنت أحب قصف أعواد الخشب وتوهجها ، وكانت المربية تنام معي في الغرفة . ولا أذكر أبداً أنها ارتدت أو خلعت ملابسها . وليفسر أتباع فرويد ذلك كما يحلو لهم .

أما من ناحية الطعام ، فقد كنت أعامل في سنواتي المبكرة بأسلوب إسبرطي صميم ، بما قد لا يتفق في نظر الناس في هذه الأيام مع قواعد الصحة . فقد اعتادت سيدم فرنسية عجوز ، تقطن في ريتشموند ، وتدعى مدام ديتشيجويان — وهي ابنة أخ تاليران وزير خارجية نابليون — أن تقدم لي علبة كبيرة من أفخر أنواع الشيكولاتة ، ولم يكن يسمح لي إلا بعلبة واحدة في أيام الأحد . ولكنني كنت أضطر إلى تقديم هذه العلب للكبار ، سواء كان اليوم يوم أحد ، أو أحد أيام الأسبوع . كما كنت مغرماً بتكسير الخبز في الصلص ، وكان يسمح لي أن أفعل ذلك في حجرة نومي ، وليس في حجرة الطعام . وكانت عادتني أن آخذ قسطاً من النوم قبل تناول طعام العشاء ، فإذا تأخرت في نومي تناولته في حجرتي . أما إذا استيقظت في الوقت المناسب فكنت أتناوله في حجرة المائدة . ولذا كنت أظهار بأنني تأخرت في نومي حتى أتناول طعامي في حجرتي . وأخيراً خامرهم الشك في أنني أظهار بالنوم ، ففي أحد الأيام ، وبينما أنا راقدة في سريري ، لكزوني ، فضربت جسدي حاسباً أن هكذا يكون الناس أثناء النوم . ولكنني سمعهم يقولون : « إنه ليس نائماً ، لأن جسده متصلب » ، ولم يكشف أحد لماذا كنت أظهار بالنوم . وأذكر مرة في وقت الغداء ، وبعد أن استبدلت الأطباق ، أن أعطى كل واحد برتقالة إلا أنا . ولم تقدم لي برتقالة للاعتقاد

الراسخ بأن الفاكهة ضارة بالأطفال . وكنت أعرف أنه لا ينبغي أن أطلب واحدة ، لأن ذلك يدل على سوء الأدب . ولكن ما إن أعطيت بحفنة فارغة حتى جمعت أطراف شجاعتي وقلت : « طبق ، ولا شيء عليه » . ونسجلك الجديع . ولكنى لم أحصل على برتقالة .

ولم أكن أتناول فاكهة ، أو سكرًا بالمرة . ولكنى كنت أتناول الكثير من المواد الكربوهيدراتية . وبالرغم من ذلك لم أمرض يوماً واحداً . إلا حينما أصبت بالحصبة ، إصابة خفيفة ، في سن الحادية عشرة . ومنذ أصبحت أهتم بالأطفال . وذلك بعد مولد أطفالى ، لم أعرف طفلاً يتمتع بنفس الصحة التى كنت أنا فيها . وإنى واثق أن أى خبير بتغذية الأطفال قد يظن أنه كان لابد أن أصاب بمختلف أمراض سوء التغذية . وربما أنقذتنى عادة سرقة التفاح البرى . وهى عادة لو عرفها أهلى لأصيبوا بالرعب والانزعاج الشديدين . ولقد كانت غريزة المحافظة على النفس ، هى السبب فى أول كذبة كذبتها . فقد حدث أن تركتني مريضاً لمدة نصف ساعة بعد تعليمات صارمة ألا أكل التوت فى غيابها . ولما عادت كنت أقف إلى جانب الشجيرات بشكل يدعو إلى الريبة . فقالت : « كنت تأكل توتاً » فقلت : « لا » فقالت : « أرنى لسانك » . وتملكنى الخجل . وشعرت بأننى من الأشرار :

ولقد كان عندى فى حقيقة الأمر استعداد للشعور بالذنب . وحينما كنت أسأل عن التريمة المفضلة عندى كنت أقول : « أتعبتنى الحياة . وأثقلت كاهلى الذنوب » . وفى إحدى المرات ، حينما قرأت جلدتى قصة الابن الضال ، أثناء صلاة الأسرة ، قلت لها بعد أن انتهت : « أعرف لماذا قرأت هذا . لأننى كسرت لإبريقى » . وقد اعتادت أن تسرد هذه الحكاية فى سرور بعد ذلك بسنوات ، غير واعية أنها كانت مشغولة عن ظاهرة مرضية سببت عند أولادها نتائج خطيرة تدعو للأسى .

وتدور أوضح ذكرياتى الأولى حول المواقف التى كنت أتعرض فيها للامتهان ، فلقد استأجر جدائى فى صيف عام ١٨٧٧ ، من رئيس أساقفة كنتربرى ،

منزلاً بالقرب من برودستيرز ، يسمى « ستون هاوس » . وكانت الرحلة بالقطار تبدو لي طويلة جداً . حتى بدأت أتخيل بعد فترة من الوقت أننا لابد أن نكون قد وصلنا إلى اسكتلندا ، ولذلك قلت : « في أى قطر نحن الآن ؟ » . فضحكوا جميعاً وقالوا : « ألا تعرف أنه لا يمكنك أن تخرج من إنجلترا دون أن تعبر البحر ؟ » . ولم أشأ أن أشرح لهم لم تساءلت ، وتولاني خجل شديد . حينما كنا هنالك زلت إلى البحر في عصر يوم مع جدتي ومع عمتي أجاتا ، وكنت أرتدى حذاء جديداً . وكان آخر شيء قالته لي مربيتي وأنا خارج هو : « حاذر أن تبل حذاءك » . غير أن المد أحاط بي وأنا فوق صخرة ، فطلبت إلى جدتي وعمتي أجاتا أن أخوض في الماء كي أبلغ الشاطئ . ولكني لم أشأ أن أفعل ذلك ، فخاضت عمتي وحملتني . وحسبوا أنني كنت خائفاً ، إذ أنني لم أخبرهم بأوامر مربيتي ، ولذلك تقبلت صاغراً محاضرة عن الجبن كان لابد منها نتيجة لسلوكي هذا .

وجملة القول ، أن الوقت الذي أمضيته في « ستون هاوس » كان ممتعاً بوجه عام . وما زلت أذكر « نورث فورلاند » التي كنت أحسب أنها إحدى زوايا إنجلترا الأربعة ، لأنني كنت أتخيل إنجلترا ، في ذلك الوقت ، على أنها مستطيل . وما زلت أذكر الآثار القديمة في ريتشورو التي راقت لي ، « والحجرة المظلمة » في رامسجيت ، التي جذبتني أكثر . وأذكر أيضاً حقول القمح المتموجة ، والتي اختفت ، لأسنى الشديد ، حينما عدت إلى هذا المكان بعد ثلاثين عاماً . وما زلت ، بالطبع ، أذكر مباحج الشاطئ المعتادة من أصداف وكائنات بحرية وصخور ، ورمال ، وقوارب صيد ، ومنازل . وأدهشني أن الأصداف تزداد التصاقاً بالصخور ، حينما يحاول الإنسان أن ينتزعها منها . فقلت لعمتي أجاتا : « هل الأصداف تفكر يا عمتي ؟ » فأجابت : « لست أعرف » . فأضفت قائلاً : « إذن يجب أن تتعلمي » .

ولست أذكر جيداً الواقعة التي عرفتني بصديقي هوايتهد (الفيلسوف ألفريد نورث هوايتهد) . فلقد قيل لي إن الأرض مستديرة ولكنني رفضت أن أصدق سيرة الذاتية

ذلك . فكان أن دعت أسرقى قس الأبرشية الذى كان بالمصادفة والد هوأيتها .
لكى يقنعنى بذلك . وتحت تأثير هذا العامل الدينى تبينت هذا رأى وبدأت
فى حفر ثقب يوصل إلى الجهة المقابلة لى من سطح الأرض . وعلى كل فأنا
أعرف عن هذه الحادثة سماعاً فقط .

وحينما كنت فى برودستيرز ، أخذونى كى أرى موسى مونتيورى ، وهو يهودى
عجوز كان يعيش فى المنطقة ويلقى كثيراً من التبجيل ، (وفى دائرة المعارف .
الإنسيكلوبيديا بريتانكا — ذكر أنه تقاعداً عام ١٨٢٤) . وكانت هذه هى
المرة الأولى التى أسمع فيها عن وجود يهود ، خارج الكتاب المقدس . ولقد شرح
لى أفراد أسرقى شرحاً جيداً ، قبل أن يأخذونى لزيارة هذا العجوز ، مدى
ما يستحقه من احترام وإعجاب ، والمظالم التى منى بها اليهود قبل أن يعدل جدى
على إزالتها . وكان لتعاليم جلتى فى هذه المناسبة ، تأثير واضح على . ولكنها
كانت تركبى حائراً ، فى مناسبات أخرى . ولقد كانت شديدة التحسس لشكوة
اقتنصار إنجلترا على حدودها ، وكانت ترفض الحروب الاستعمارية بشدة .
وقد أخبرتنى أن حرب الزولو حرب آثمة غاية الإثم . وأن المسئول الأول عن
هذا الإثم هو السير بارتل فريير ، حاكم رأس الرجاء الصالح . ومع ذلك . فعحين
جاء السير بارتل ليقم فى ويمبلدون ، واصطحبتنى لزيارته ، لاحظت أنها لم تعامله
على أنه وحش ضار . وقد وجدت هذا التناقض شديد العسر على فهمى .

وقد اعتادت جلتى أن تقرأ لى بصوت عال ، وخاصة قصص ماريما
إدجويرث . وكانت بين قصص الكتاب قصة بعنوان : « المفتاح المزيف » ،
وصفتها جلتى بأنها قصة غير مهذبة . قائلة إنها تفضل لذلك ألا تقرأها لى .
ولكنى قرأت القصة بأكملها ، إذ كنت فى كل مرة أحضر فيها الكتاب لجلتى
من فوق الرف ، أقرأ جملة . ولقد باعت محاولاتها لمنعى من معرفة الأشياء
بالفشل . ففى أثناء قضية طلاق السير تشارلز ديلك المثيرة ، التى نظرت بعد
ذلك ، كانت تحرص على أن تحرق الصحف كل يوم ، ولكنى اعتدت أن

أذهب لإحضار هذه الصحف لها من عند بوابة الحديقة ، وأن أقرأ كل كلمة عن الطلاق قبل أن تصل الجرائد إليها . وما زاد اهتمامي بهذه القضية أنني كنت قد ذهبت معه ، في إحدى المرات ، إلى الكنيسة وكنت أتساءل عن مشاعره وهو ينصت إلى الوصية السابعة من الوصايا العشر . حينما تعلمت أن أقرأ بطلاقة ، اعتدت أن أقرأ لها ، وبهذه الطريقة استطعت أن أُلِمَّ بالأدب الإنجليزي إلماماً كبيراً . فقرأت معها شكسبير وملتون^(١) ، ودرایدن^(٢) وقصيدة « الواجب » لكوبر^(٣) و« قصر الحمول »^(٤) لطومسون ، وروايات جين أوستن^(٥) ، ومجموعة كبيرة من الكتب الأخرى .

وهناك وصف جيد لجو « بمبروك لودج » في الكتاب الذي ألفته آما بل هوث جاكسون (واسمها جرانت دف قبل الزواج) وعنوانه : « طفولة فيكتورية » . وكان أبوها هو السير ماونتستيوارت جرانت دف ، وكانت أسرتهما تقطن في منزل كبير في تويكنام . وقد كنا ، أنا وهي ، أصدقاء منذ سن الرابعة إلى أن ماتت أثناء الحرب العظمى الثانية . ومنها سمعت لأول مرة عن الشاعر فيرلين^(٦) ، والروائي دستوفسكي^(٧) ، وعن الرومانسيين الألمان ، وكثيرين غيرهم من كبار الأدباء . ولكنها في كتابها تتحدث عن ذكريات فترة باكورة أسبق من هذه الفترة فتقول : « كان صديقي الوحيد هو برتراند رسل ، الذي كان يعيش في بمبروك لودج ، في حي « ريتشموند بارك » . وقد كنا ، برقي وأنا ، صديقين حميمين ، وكنت

-
- (١) ملتون هو الشاعر الإنجليزي جون ملتون صاحب ملحمة الفردوس المفقود .
 (٢) درایدن هو الشاعر الإنجليزي الذي مات في سنة ١٧٠٠ ولكنه عدّ من أئمة شعراء القرن الثامن عشر ، وقد كتب قصائد ومسرحيات كثيرة ومشهورة .
 (٣) كوبر هو الشاعر وليام كوبر الذي عاش في القرن الثامن عشر في إنجلترا .
 (٤) طومسون هو الشاعر جيمز طومسون الذي عاش في القرن الثامن عشر في إنجلترا .
 (٥) جين أوستن روائية إنجليزية مشهورة عاشت في أواخر القرن الثامن عشر في إنجلترا .
 (٦) فيرلين شاعر فرنسي يعد زعيماً للمدرسة الرمزية وعاش من ١٨٤٨ إلى ١٨٩٦ .
 (٧) دستوفسكي (١٨٢١-١٨٨١) قصاص روسي مشهور صاحب (الجريمة والعقاب) و (الإخوة كارامازوف) وقصص أخرى .

أكن لأخيه فرانك الجعيل الموهوب ، إعجاباً شديداً في السر . ويؤسفني أن أقول إن فرانك كان يوافق أخى في نظرته إلى الفتيات الصغيرات . وكان من عادته أن يربطني من شعري إلى الأشجار . أما برتى ، الولد الصغير الجاد الذي كان يرتدى ستر من القطيفة الزرقاء ، ويمسح بحبه معه مربية جادة مثله ، فقد كان دائماً كريم الخلق ، وكنت أسعد كثيراً بتناول الشاي في بيمبر وك لودج . ولقد تحققت ، برغم أنى كنت لا أزال طفلة ، أن هذا المكان لا يصلح لتنشئة الأطفال .. ولقد كانت الليدى رسل تتحدث حديثاً هامساً ، أما الليدى أجاثا فكانت تتشج دائماً بشال أبيض وتبدو مغلوقة على أمرها . أما رولاو رسل فلم يكن يتكلم أبداً . وكان يصافح الإنسان بطريقة تكاد تحطم عظام أصابعه . ولكنه كان ودوداً للغاية . وكانوا يدخلون الحجرات ويخرجون منها وكأنهم أشباح . ولم يبد أن أحداً منهم يشعر أبداً بالجوع . لقد كانت هذه تنشئة غريبة لولدين صغيرين موهوبين وغير عاديين .

وكانت أهم ساعات يومى ، خلال الجزء الأكبر من طفولتى . هى تلك التى كنت أقضيها بمفردى في الحديقة . وكان أكثر جوانب حياتى وضوحاً ، هو ذلك الذى كنت فيه وحيداً . وكنت لا أذكر أفكارى الجادة للآخرين إلا فيما ندر . وكنت أشعر بالندم دائماً كلما فعلت ذلك . كنت أعرف كل ركن في الحديقة ، وكنت أترقب سنة بعد أخرى ورود الربيع البيفضاء في مكان ما وعش الطير في مكان آخر ، وزهرة اللبخ وهى تبرز من اللباب المتشابك . وكنت أعرف أين توجد أول زهور البنفسج ، وأى أشجار البلوط تورق قبل غيرها . وأذكر أنه في عام ١٨٧٨ أورقت شجرة بلوط في الرابع عشر من أبريل . وكانت نافذتى تطل على شجرتين من شجر الحور اللومباردى ، يبلغ ارتفاع كل منهما مائة قدم . واعتدت أن أراقب ظل المنزل يزحف مرتفعاً عليهما أثناء غروب الشمس . وكنت أستيقظ مبكراً جداً ، وأحياناً كنت أرى كوكب الزهرة يطلع . وفي إحدى المرات ظننت أن الكوكب مصباح في الغابة . وكنت أرى الشروق في معظم الأيام ، وفي أيام أبريل المشرقة ، كنت أتسلل من المنزل

لأقوم بجولة قبل الإفطار . وكنت أقرب الغسق وهو يصبح الأرض بالحمرة
والسحب بلون الذهب . وأصغيت للريح ، وهملت للبرق . وكان ينتابني طوال
طفولتي شعور متزايد بالوحدة وباليأس من مقابلة إنسان يطيب لي الحديث
معه . ولقد أنقذتني الطبيعة والكتب والرياضيات (فيما بعد) من اليأس التام .
ومع ذلك كانت سنوات طفولتي الأولى سعيدة ، ولم تصبح هذه الوحدة غير
محتملة إلا مع اقتراب المراهقة . لقد كان عندي مريبات ألمانيات وسويسريات
وكنت أحبهن . ولم يكن ذكائي قد نما نمواً يجعلني أعاني من نقص أسرتي في
الدكاء . ولا بد أنني ، برغم ذلك ، كنت أشعر ببعض الحزن ، لأنني أذكر أنني
كنت أتمنى لو أن والدي كانا على قيد الحياة . ولقد عبرت ذات مرة عن شعوري
هذا بلحدي ، وكان عمري حينئذ ست سنوات ، فقالت لي إنه من حسن حظي
أنهما ماتا . ولقد تركت ملاحظتها هذه أثراً سيئاً في نفسي ، في ذلك الوقت ،
ونسبتها إلى الشعور بالغيرة . ولم أكن بطبيعة الحال أعرف أنها قالت ما قالته
لسبب وجيه ، من وجهة النظر النيكيتورية القائمة على التزمّت في الأخلاق .
ولقد كان وجه جدتي من الوجوه المعبرة ، وبالرغم من تجربتها العظيمة في العالم
الكبير ، لم تتعلم مطلقاً فن إخفاء عواطفها ، وكنت ألاحظ أن أية إشارة للجنون
كانت تصيها بنوبة من العذاب ، وكنت أتساءل عما يمكن أن يكون سبب
ذلك . ولم أكتشف ، إلا بعد سنوات عديدة ، أن لها ولداً في مستشفى للأمراض
العقلية ، كان ضابطاً في كتيبة من كتائب النخبة ، ثم فقد عقله بعد بضع
سنوات . والقصة التي سمعتها ، ولا أستطيع التثبت من صحتها برغم ذلك ، هي أن
زملاءه الضباط كانوا يعابثونه لأنه كان طاهراً لا يقرب النساء . وكانوا يحتفظون
بدب ، كحيوان الكتيبة المدلل ، وذات يوم من باب التسلية ، أطلقوا الدب
عليه فهرب ، وفقد ذاكرته . وحينما عثر عليه يتجول في شعاب الريف ، وضع في
ملجأ للعمال لأن شخصيته لم يمكن التعرف عليها . وفي منتصف الليل قفز
صائحاً : « الدب . الدب » . وخنق أحد المتشردين ، وكان ينام في السرير
المجاور له . ولم يسترد ذاكرته بعد ذلك ، ولكنه عاش حتى تعدى الثمانين
من عمره .

وحينما أحاول أن أتذكر كل ما يمكننى أن أسترجعه من طفولتى المبكرة . أجد أن أول شيء أذكره بعد وصولى إلى بمبروك لودج هو السير فى الثلوج التى كانت الشمس الساطعة قد بدأت تذيبها ، بعد حوالى شهر من وصولى . ورؤيتى شجرة زان كبيرة ملقاة على الأرض ، تقطع إلى كتل خشبية . والشئ الثانى الذى أذكره هو عيد ميلادى الرابع ، حين أهدى إلى بوق أخذت أنفخ فيه طيلة اليوم ، وتناولت الشاى مع كعكة عيد ميلادى فى منزل صيفى . والشئ التالى الذى أتذكره ، هو دروس عمى عن الألوان والقراءة . ثم فصل الروضة الذى بدأ قبيل بلوغى الخامسة ، واستمر ما يقرب من عام ونصف . ولقد ملأتنى ذلك بالسرور البالغ . وكان الدكان الذى اشتري منه البوق كما يتبين من العبارات المكتوبة على الصندوق ، فى شارع برنرز المتفرع من شارع أكسفورد . وما زلت حتى يومنا هذا ، أفكر فى شارع برنرز ، ما لم أستجمع انتباهى . كشئ أشبه بقصر علاء الدين (فى قصص ألف ليلة وليلة) . وعرفت فى فصل الروضة هذا أطفالاً آخرين ، لم أعد أعرف شيئاً عن معظمهم . ولكنى قابلت واحداً منهم ، وهو جيمى بيللى ، فى عام ١٩٢٩ فى فانكوفر وذلك حينما كنت أهيئ لى أحد القطارات . وأعلم الآن أن السيدة الطيبة التى كانت تقوم بتعليمنا كانت تنهج منهج فروبيل السليم ، مما كان يعتبر ، فى ذلك الوقت . أحدث الأساليب . وما زلت أتذكر ، إلى حد ما ، كل الدروس بالتفصيل . ولكنى أعتقد أن ما هزنى طرباً أكثر من أى شئ آخر ، هو اكتشافى أن اللونين الأصفر والأزرق يكونان اللون الأخضر .

وحينما بلغت السادسة مات جدى . وبعد ذلك بوقت قصير ذهبنا إلى سانت فيلانز فى برتشاير ، لكى نقضى الصيف . وأذكر الحانة القديمة الغريبة ، ذات الأبواب الخشبية ، والجسر الخشبي فوق النهر ، والحلجان الصخرية فى البحيرة ، والجبل الذى يرتفع فى الناحية الأخرى . وأذكر أن الوقت الذى قفسيته هناك كان وقتاً سعيداً .

أما الذكرى التالية ، وهى أقل إمتاعاً ، فعن حجرة فى لندن ، فى منزل رقم ٨

في ميدان شيشام، حيث ثارت مربيتي على وأنا أحاول أن أستدكر جدول الضرب، غير أن دموعي كانت تعوقني باستمرار. وقد استأجرت جدتي منزلاً في لندن لبضعة أشهر حينما كنت في السابعة، فبدأت حينئذ أرى أسرة أمي. وكان جدي لأمي ميتاً، أما والدته أمي، وهي الليدي ستانلي أوف آلدرلي، فكانت تعيش في منزل كبير، رقم ٤٠، شارع دوفر^(١)، مع ابنتها مود. وكنت كثيراً ما أذهب لأتناول الغداء معها. وبالرغم من أن الطعام كان شهيئاً، لم يكن سروري كاملاً، لأنها كانت سليطة اللسان، ولم تكن تلقى اعتباراً لأحد مهما كان عمره أو جنسه. وكان الخجل يملكني في حضرتها. وكان هذا يضيقها لأنه لم يكن هناك في أسرة ستانلي إنسان خجول. وكنت أبذل جهد المستميت كي أثير إعجابها، ولكن جهودي كانت تفشل بشكل لم أكن لأتنبأ به. فأذكر أنني قلت لها إن طولي ازداد بوصتين ونصف بوصة في الأشهر السبعة الماضية، وإنني طبقاً لهذه النسبة، سوف أنمو ٤ بوصات في السنة. فقالت: «ألا تعلم أنه لا يصح أن تتكلم عن أية كسور إلا الأنصاف والأرباع؟ هذه حذقة». فأجبت: «أعلم هذا الآن». فقالت وهي تلتفت إلى خالتي مود: «من شابه أباه فما ظلم». كانت أحسن جهودي تضيق بصورة أو أخرى كما حدث في هذه المناسبة.

واستدعني في إحدى المرات، وكنت في الثانية عشرة تقريباً، إلى حجرة مليئة بالزائرين، وسألني إذا كنت قد قرأت سلسلة كاملة من الكتب التي تتناول العلوم بأسلوب مبسط، وأخذت في سردها كتاباً كتاباً. ولكني لم أكن قد قرأت أيّاً منها. وأخيراً نهدت، والتفتت إلى الزائرين قائلة: «ليس لدى أحفاد أذكىاء». لقد كانت عقليتها من طراز العقلية الإنجليزية في القرن الثامن عشر، فكانت عقلانية، يعوزها الخيال، تؤمن بحركة التنوير وتحقّق التزمّت الفيكتوري الذي ليس له ما يبرره. وكانت من الشخصيات الرئيسية التي كان لها شأن في

(١) در تماماً في الحرب العظمى الثانية، أثناء الهجوم الذي كانت تشه الطائرات

إنشاء كلية جيرتون^(١) ، ولها صورة معلقة في قاعة جيرتون ، غير أنه بعد ثمانيتها ضرب بآرائها عرض الحائط إذ كانت دائماً تقول : « ما دمت على قيد الحياة فلن تبني كنيسة في جيرتون » . فبدأ البناء في الكنيسة الحالية في نفس اليوم الذي توفيت فيه . وما كدت أبلغ دور المراهقة حتى بدأت تحاول إلغاء ما اعتبرته سيئاً في تربيتي . فكانت تقول : « لا يستطيع أحد أن يقول شيئاً ضدي ، ولكني أقول دائماً إن كسر الوصية السابعة من الوصايا العشر لا يعا شيئاً إلى جانب كسر الوصية السادسة . لأن ذلك يتطلب على أي حال . رضا الطرف الآخر^(٢) » . ولقد أدخلت السرور على نفسها في إحدى المناسبات حين ظابت رواية تريسيتام شاندي^(٣) كهدية لعيد ميلادي . فقالت : « لن أكتب فيه إهداء ، لأن الناس سوف يقولون ما أغرب جدتك » . ومع ذلك فقد كتبت الإهداء . وكانت النسخة طبعة أولى ممهورة بإمضاء المؤلف . وهذه هي المناسبة الوحيدة ، على ما أذكر ، التي استطعت فيها أن أبعث السرور في نفسها . وكانت تحتقر بشدة كل ما تعتبره سخيلاً . واعتادت أن تقيم في أعياد ميلادها حفل عشاء لثلاثة عشر شخصاً ، وأن تجعل أكثر الموجودين إيماناً بالخرافات يخرج أولاً^(٤) . وأذكر ذات مرة ، أن إحدى حفيداتها . وكانت متكلفة في تصرفاتها جاءت لزيارتها وفي صحبتها كلب مدلل أثار جدتي بنباحه . فاحتججت الحفيدة بأن كلبها ملاك . فقالت جدتي ساخطة : « ملاك ؟ ... ملاك ؟ » . ما هذا الهراء ؟ أتعتقدين أن له روحاً ؟ » فقالت السيدة الصغيرة على الفور : « نعم ، يا جدتي » . وظلت جدتي ، طول فترة العصر ، وحفيداتها في صحبتها ، تقول لكل زائر على حدة : « أتدري ما تقوله هذه الفتاة الغبية جريزل ؟ إنها تقول إن للكلاب أرواحاً » . وكان من عادتها أن تجلس بعد ظهر كل يوم في حجرة الاستقبال الكبيرة حيث تأتي جماعات من الزائرين وبينهم

(١) بجامعة كامبردج ، وهي إحدى كليتين للبنات بالجامعة .

(٢) الوصية السادسة : لا تشرق .

والوصية السابعة : لا تزن .

(٣) من أشهر قصص الكاتب لورانس ستيرن (١٧١٣ - ١٧٦٨) .

أشهر كتاب العصر ، لتناول الشاي . وإذا ما ترك أحدهم الغرفة التفتت إلى الآخرين قائلة بأسى : « إن الأغبياء متعبون جداً » . ولقد نشأت يعقوبية^(١) ، إذ كانت تنتمي إلى عائلة ديلونز الإيرلندية ، التي هربت إلى فرنسا بعد معركة بوين ، والتي كان لها فرقة خاصة بها في الجيش الفرنسي . وعقدت الثورة الفرنسية الصلح بينها وبين إيرلندا ، ولكن جدتي نشأت في فلورنسا ، حيث كان أبوها وزيراً . وفي فلورنسا كانت تذهب مرة كل أسبوع لزيارة أرملة الشاب المطالب بعرش إنجلترا . وكانت تقول إن الشيء الوحيد الذي كانت تعتبره مستخيفاً في أسلافها هو انتمائهم لليعاقبة . ولم أكن أعرف جدي لأمي ، ولكني سمعتهم يقولون إنه اعتاد أن يمتنن جدتي ، وشعرت أنه إذا كان الأمر كذلك فلا بد أنه كان رجلاً رائعاً^(٢) . ولقد كانت لها أسرة ضخمة من الأبناء والبنات ، كان معظمهم يأتي لتناول الغداء معها في أيام الأحد . وكان ابنها الأكبر مسلماً ، ويكاد يكون أصم تماماً . أما الثاني ، ليولف ، فقد كان حر التفكير . وكان ينفق وقته ، وهو في مجلس إدارة مدرسة لندن ، في مهاجمة الكنيسة . وكان الابن الثالث ، الجرنون قساً كوثوليكيّاً ، وياوراً بابوياً ، كما كان أيضاً أسقف أموس . وبينما كان ليولف فطناً ، واسع المعارف ، سليل اللسان ، كان الجرنون بديناً ، شراً ، حاضر النكته . أما هنري المسلم ، فقد كان محروماً من كل مزايا الأسرة ، كما كان ، في رأيي ، أثقل من عرفت طول حياتي ظلاً . فبالرغم من صميمه كان يصر على أن يسمع كل ما يقال له . وكان غداء الأحد تتخلله مناقشات عنيفة . إذ كان بين البنات وأزواج البنات من ينتمي إلى الكنيسة الرسمية ، كنيسة إنجلترا ، ومن يمثل الفلسفة الوضعية ، ومن يؤمن بوحداية الله وينكر التثليث . هذا إلى جانب المذاهب الدينية التي كان أزواج البنات يمثلونها . وحينما كان الجدل يصل إلى درجة كبيرة من العنف ، كان هنري يشعر أن هناك ضجة ، فيسأل عن السبب ، وحينئذ كان من يجلس

(١) أي حزب الوريث الاسكتلندي المطالب بعرش إنجلترا في القرن الثامن عشر .

(٢) هذا حقيقي ، انظر « سيدات آلدري » بقلم نانسي ميتفورد ١٩٣٨ .

قريباً منه ، يصيح في أذنه بأقوال تدل على التحيز فيصيح الآخرون : « لا ، لا ، يا هنرى ، ليس الأمر هكذا » . وهنا كانت الضمجة تصبح شديدة حقاً . وكانت لعبة خالى ليولف المفضلة أثناء تناول غداء الأسماء هي أن يسأل : « من منكم يؤمن بالمعنى الحرفى لقصة آدم وحواء ؟ » وكان هدفه من توجيه هذا السؤال هو أن يرغم المسلم والقس على أن يتفقا معاً وهو الشيء الذى كانا يكرهانه . وكنت أذهب إلى مآدب الغداء هذه فى خوف وارتعاد ، لأننى كنت أخشى أن تنقلب هذه الطغمة علىّ . وكانت هناك صديقة واحدة كنت أعتد عليها . ولم تكن تنتمى ، من ناحية المولد ، إلى آل ستانلى . وكانت هذه الصديقة هي زوجة خالى ليولف ، شقيقة السير هيو بل . وكانت جدتى دائماً تعتبر نفسها واسعة الأفق جداً . لأنها لم تعترض على زواج ليولف من بنت تاجر أو ما كانت تسميه مصاهرة الأرستقراطية لمهنة « التجارة » . ولكنى لم أكن متأثر بكلامها هذا ، لأن السير هيو كان أكثر من مليونير .

وبالرغم من أنه كان لجدتى شخصية طاغية ، كانت لها نقائص . ففى أحد الأيام ، حينما كنا ننتظر مستر جلادستون لتناول الشاي معنا ، قالت لنا إنها سوف تبين له أوجه الخطأ فى سياسته نحو منح الحكم الذاتى لإيرلندا . وكنت حاضراً من أول الزيارة حتى نهايتها ، ولكنى لم أسمعها تنفوه بكلمة نقد واحدة لهذه السياسة . حتى هى ، استطاع جلادستون أن يفهمها بنظرة من عينه التى تشبه عين الصقر . وقد أخبرنى اللورد كارليل ، زوج ابنتها . بقصة أخرى أكثر إزدلالاً لها حدثت ذات مرة حينما كانت تقيم فى « نورث كاسل » . فقد كان مع الفنان المصور بيرن جونز ، الذى كان يقيم هناك أيضاً . حافظة للتبغ على شكل سلحفاة . وكانت توجد هناك سلحفاة حقيقية تسالت خطأ . ذات يوم ، إلى المكتبة . وأوحى ذلك بحيلة لطيفة إلى الحاضرين من الشباب . إذ وضعوا حافظة التبغ ، أثناء الغداء ، بجوار مدفأة حجرة الجلوس . وحينما عادت السيدات من حجرة الطعام اكتشف أحدهم بطريقة مسرحية كيف أن السلحفاة قد تسالت إلى حجرة الجلوس . وحينما رفعت من مكانها ، صاح أحدهم بدهشة

قائلاً إن ظهر السلحفاة قد أصبح رخواً . وهنا أحضر لورد كارليل الجزء المطلوب من دائرة المعارف ، وتظاهر بأنه يقرأ فقرة في الكتاب تقول إن الحرارة الشديدة قد ينتج عنها ذلك الأمر (ليونة ظهر السلحفاة) . وأظهرت جدتي اهتماماً كبيراً بما ظنته حقيقة ومن ظواهر التاريخ الطبيعي ، وقالت إنها كثيراً ما أشارت إليها في مختلف المناسبات . وبينما كانت تتشاجر مع ابنتها الليدي كارليل ، أخبرتها ابنتها في خبث ، بحقيقة ما حدث . فقالت جدتي : « قد تكون لي نقائص عديدة ، غير أنني لست غبية ، وأنا أرفض أن أصدقك » .

وكان أخي ، الذي كان له طبع آل ستانلي ، يحب هؤلاء ، ويكره آل رسل . أما أنا فكنت أحب هؤلاء الأخيرين ، وأخشى آل ستانلي . غير أن عواطفني تغيرت حينما كبرت . فأنا مدين بنجلى ، وحساسيتي ، وحيي للميتافيزيقا ، لآل رسل . ومدين للأسرة ستانلي بطاقتي ، وصحتي الجيدة وروحي المعنوية العالية . وعلى العموم ، فإن ما ورثته عن هؤلاء الأخيرين ، أفضل مما ورثته عن الأولين .

وأعود إلى الحديث عما أتذكره من طفولتي ، فأقول إن ما أذكره بوضوح بعد ذلك هو شتاء ١٨٨٠ — ١٨٨١ ، الذي كنا نقضيه في بورتموث . ولقد عرفت هناك لأول مرة اسم توماس هاردي ، الذي كانت روايته « نافخ البوق » ، ذات الأجزاء الثلاثة ، موضوعة على منضلة حجرة الجلوس ، وأعتقد أن السبب الوحيد الذي أنى أذكره ، هو أنني تساءلت حينئذ عما يكون نافخ البوق ، وعرفت أن الرواية كانت بقلم مؤلف « بعيداً عن الحشد المائج » ، ولم أكن أعرف أيضاً ماهو الحشد المائج . وبينما كنا هناك قالت لي مربيتي الألمانية إنه لا يمكن لأحد أن يحصل على هدايا عيد الميلاد ما لم يؤمن « بابا نويل » . ولقد أبكاني هذا لأنني لم أستطع أن أؤمن بمثل هذه الشخصية . والشئ الآخر الذي أذكره عن هذا المكان هو العاصفة الثلجية التي لم أر لها مثيلاً ، وأذكر أنني تعلمت هناك الانزلاق على الجليد ، وهي التسلية التي كنت شديد الولع بها في صباي . ولم تكن تفوتني فرصة واحدة للانزلاق على الجليد ، ولو كانت الثلوج غير مأمونة . فبينما كنت أقيم ذات مرة في شارع دوفر ، ذهبت إلى حديقة سان

جيمس لأترحلق ، وهناك سقطت . وأحسست بالعار . وأنا أجبرت ميتلاً في الشوارع ولكنى لم أفلح عن عادة الانزلاق على الثلوج الرقيقة . ولا أذكر شيئاً بالمرة عن العام التالى ، غير أن عيد ميلادى العاشر ما زال عالقاً بذاكرتى بوضوح تام ، وكأنه كان بالأمس . كانت الدنيا مشرقة ودافئة . وكنت أجلس فى شجرة لبرنون مزدهرة . ثم بعد ذلك جاءت سيدة سويسرية لتلعب معى بالكرة . وكانت قد جاءت للاختبار الشخصى ، وبعد ذلك ألحقت بالعمل كمرربة لى . وصححت لها لفظة « امسك » بالكرة التى أخطأت فى استعمالها . وحينما كان علىّ أن أقطع كعكة الميلاد ، شعرت بخجل شديد لأننى لم أستطع أن أسحب القطعة الأولى . غير أن الشيء الذى ما يزال عالقاً بذاكرتى . هو إشرار الشمس .

وفى سن الحادية عشرة بدأت دراسة هندسة إقليدس . وكان أخى يقوم بتدريسها لى . وكان ذلك من أهم أحداث حياتى ، وقد برزنى كأنه الحب الأول . لم أكن أتخيل أن هناك فى الحياة شيئاً أكثر إمتاعاً . وبعد أن تعلمت الاستدلال الخامس ، قال لى أخى إنه من الأجزاء التى يجمع الآخرون على صعوبة . ولكنى لم أجد صعوبة تذكر . وهذه هى المرة الأولى التى تحققت فيها من أننى على شيء من الذكاء . ومنذ هذه اللحظة حتى انتهائى أنا وهوايتهد من تأليف « أصول الرياضيات » ، وكنت حينئذ فى الثامنة والثلاثين . كانت الرياضيات هى شغفى الأول ، ومنبع سعادتى الرئيسى . غير أنها ككل سعادة لم تكن خالصة بغير شوائب . فلقد قيل لى إن إقليدس قد أثبت أشياء ، ثم أصيبت بخيبة أمل شديدة عندما عرفت أنه ابتداءً ببديهيات . ورفضت فى أول الأمر أن أقبل بديهاته ما لم يقدم أخى لى الأسباب التى تدعونى لقبولها ، ولكنه قال : « إذا لم تقبلها فلن تستطيع الاستمرار ، ولما كنت أرغب فى الاستمرار فقد قبلتها مؤقتاً على مضض . ولقد لازمنى الشك الذى خامرنى حينئذ بخصوص مقدمات الرياضيات ، وحددت اتجاه العمل الذى قمت به بعد ذلك .

وجدت أن بدايات الجبر أكثر صعوبة ، وربما كان ذلك نتيجة

لتدريسها بأسلوب سيء . فلقد كان عليّ أن أحفظ الآتي عن ظهر قلب :
 « إن مربع مجموع عددين يساوي مجموع مربعيهما مضافاً إليه ضعف ما ينتج
 عنهما » . ولم تكن لدى أدنى فكرة عن معنى هذا الكلام . وحينما كنت أنسى
 هذه الكلمات كان مدرسي يرميني بالكتاب ، وهو شيء لم ينشط
 ذكائي بأي شكل . ومع ذلك سار كل شيء على ما يرام بعد البدايات الأولى
 للجبر . ولقد اعتدت أن أثير إعجاب المدرس الجديد بمعلوماتي . وفي إحدى
 المرات ، وكنت في الثالثة عشرة من عمري ، برمت ، أمام مدرس جديده ،
 بنساً ، فقال لي : « لماذا يدور هذا البنس ؟ » فأجبت : « لأنني أديره بازدواج
 إصبعي » فقال : « وماذا تعرف عن الازدواج ؟ » فقلت : « إنني أعرف كل
 شيء عن الازدواج » . وكانت جلدتي في خوف دائم من أن أرهق نفسي بالعمل ،
 لذلك قصرت من ساعات دراستي . وكانت النتيجة أنني اعتدت أن أعمل في
 غرفة نومي^١ في الخفاء مستعيناً بشمعة واحدة . وكنت أجلس إلى مكتبي في
 قميص النوم في الليالي الباردة على استعداد لأن أطفى الشمعة وأقفز إلى السرير
 عند سماع أقل صوت .

وكنت أكره اللاتينية واليونانية ، وأعتقد أنه من الغباء أن أتعلم لغة لا يتكلمها
 أحد . وكنت أحب الرياضيات أكثر من أي شيء آخر ، وبعدها التاريخ .
 ولما لم يكن هناك إنسان آخر أقارن نفسي به ، فقد بقيت لوقت طويل لا أعرف
 إن كنت أحسن أو أردأ من الأولاد الآخرين . ولكنني أذكر أنني سمعت يوماً
 عمي روللو يقول « وداعاً » لجويث ، عميد كلية باليول بأكسفورد ، عند الباب
 الخارجي ، ثم يردف قائلاً : « نعم ، إنه يتقدم بطريقة حثيثة حقاً » وعرفت ،
 بالرغم من أنني لا أدرى كيف ، أنه كان يتكلم عن دراستي . وما كدت
 أتتحقق من أنني ذكي ، حتى قررت أن أقوم بشيء ذي أهمية فكرية إذا كان
 ذلك في الإمكان . وصبح مني العزم في مرحلة الشباب كلها على ألا أسمح لشيء
 مهما كان أن يقف في سبيل تحقيق طموحي هذا .

إن الزعم بأن طفولتي كانت كلها جدّاً ووقاراً ينطوي على تضليل تام . لقد

نعمت بالحياة لغاية ما أستطيع . وإن كان بعض ما استمتعت به ينبع من نزعة شريرة . فقد اعتاد طبيب العائلة ، وهو اسكتلندي عجوز بسوالف تشبه صوف الغنم ، أن يزورنا في عربته التي كانت تنتظره عند الباب الخارجى ريثما ينتهى من علاج مرضاه . وكان لسائقه قبعة عالية توحى بعلو كعبه في مهنته . فكنت أصعد إلى سطح المنزل حيث أطل على غطاء الرأس الفاخر هذا ، وألقى على حافته المستوية بأكام الورد المتعفن الذى كنت أجمعه من البالوعة . فكانت تتناثر هنا وهناك محدثة صوت ارتطام بالقبعة مما كنت أطرب له . وسرعان ما كنت أخفى رأسى حتى يعتقد أنها تتساقط عليه من السماء . بل إننى كنت أحياناً أقوم بأسوأ من ذلك ؛ كنت أقذفه بالكرات الثلجية وهو يقود السيارة معرضاً حياته وحياة سيده ، الثميتين ، للخطر . كما كانت لى تسلية أخرى تطيب لى كثيراً . فحينما كانت الحديقة تزدهم أيام الآحاد بالناس كنت أتسلى شجرة زان كبيرة تقوم عند نهاية أرضنا . وحينما كنت أصل إلى أعلى قمة فيها . كنت أتدلى منها ورأسى إلى الأرض ، ثم أخذ فى الصياح . وكنت أرقب الجماهير التى احتشدت وأخذت تتناقش باهتمام بالغ فى الطريقة المثلى لإنقاذى . وحينما كنت أرى أنهم على وشك أن يتخذوا قراراً فى هذا الشأن ، كنت أعتدل ، وفى هدوء أهبط إلى الأرض . وكنت آتى أعمالاً أشد عبثاً ، فى تلك الأثناء التى كان جيمى يبلى يقيم فيها عندنا . فقد اكتشفنا مقعد الحمام ذا العجلات ، وأذكر أن جدى كان يجلس عليه ويدفع من مكان إلى آخر ، فأخذناه من الحجرة التى كان مخزوناً فيها ، وأخذنا ندفعه على كل التلال التى عرفناها . وحينما علم أفراد أسرنا بذلك ، اعتبروه كفراً ، وأنبونا تأنيباً شديداً . كما كنا نقوم ، إلى جانب ذلك ، بأشياء لم يكن الكبار يعرفون عنها شيئاً . فكنا ثلاثاً نربط حبلاً فى غصين شجرة ، ونأترجح ، بعد مران طويل ، فى دائرة تامة لنعود إلى النقطة التى بدأنا منها . ولولا مهارتنا الفارقة لتوقفنا عند المنتصف ، وارطمنا بجذع الشجرة ، ذلك الارتطام الذى يؤلم الظهر . وكنا ، إذا ما زارنا أولاد آخرون ، نعرض عليهم هذه اللعبة بنجاح . فإذا ما حاولوا أن يقلدونا ، كنا نشعر بفرح

خبيث طاغ ، إذا ما فشلوا في مسعاهم وتألما . وكان لعمى رولو الذى ظللنا بعض الوقت نقضى معه ثلاثة أشهر في العام ، ثلاث أبقار وحمار . ولما كان الحمار أكثر ذكاء من الأبقار ، فقد تعلم أن يفتح البوابة التى تفصل بين الحقول . وكانوا يقولون إنه حمار جامع عديم الجدوى . ولكنى كنت لا أوافقهم على ذلك ، فقد تعلمت ، بعد محاولات غير موفقة ، أن أركبه بلا سرج أو عنان . وكان يرفس ويقفز ولكنه لم يفلح في الإلقاء بي إلا في تلك المرة التى ربطت فيها بذيله صفيحة ملبنة بالأحجار . ولقد اعتدت أن أمتطيه وأطوف به الريف ، حتى حينما كنت أذهب لزيارة ابنة اللورد ولزلى الذى كان يعيش على مسافة تقرب من ثلاثة أميال من منزل عمى .

الفصل الثانى

مرحلة المراهقة

كانت طفولتى ، بوجه عام ، سعيدة ومستقيمة ولا التواء فيها . وشعرت أثناءها بإحساس ودى نحو معظم الكبار الذين تم احتكاكى بهم . ولكنى أذكر تغييراً واضحاً محمداً طراً علىّ عندما بلغت ما يسمى فى علم نفس الطفل الآن بمرحلة (البلوغ) فى تلك المرحلة كان يلذ لى أن أستخدم اللغة الدارجة وأتظاهر بانعدام الشعور وأتشبه « بالرجال » عامة ، وبدأت أحتقر أهلى الذعرهم الشديد من تلك اللغة واعتقادهم السخيف بأن تسلق الأشجار يفضى إلى المهالك . وبلغ من كثرة ما حرم علىّ أن أفعله أن تولدت عندى عادة الكتمان والخفادعة التى لازمتنى حتى من الحادية والعشرين . وأصبحت بعد ذلك أصدر عن طبع راسخ حين أحتفظ لنفسى بما أريد أن أفعله ، لا أفضى به لأحد . ولم يفارقنى ذلك الشعور الطاغى أبداً بل كان يدفعنى بشكل غريزى نحو الإخفاء والتعمية . وما زالت عندى إلى الآن نزعة إلى إخفاء الكتاب الذى أقرأ فيه عندما يحل علىّ الوافدون ، وإلى لأمسك لسانى عادة عن الإفشاء بالمكان الذى كنت فيه والإفصاح عما كنت أفعله . ولا يتسنى لى التغلب على هذه النزعة إلا بعد جهد جهيد من فعل الإرادة ، ذلك أنها تولدت عندى ونمت على مر السنين التى كان يتعين علىّ فيها أن أشق طريقى بين مجذوعة من المحرمات السخيفة التى لا معنى لها .

كانت سنوات المراهقة بالنسبة لى يملؤها الإحساس بالوحدة والشقاء . وكانت مضطراً فى حياتى العاطفية والعقلية إلى التذرع بالكتمان عن الناس ، وكانت اهتماماتى موزعة بين الجنس والدين والرياضيات . وذكرياتى فيما يتعلق بموضوع الجنس إذ ذاك يشوبها شعور من عدم الارتياح ، ولا أحب أن أعود بالذاكرة

إلى ما كنت أشعر به في تلك السنين ، ولكنني سأبذل قصارى وسعى في سرد ما وقع لي بالفعل لا ما كنت أود أن يحدث . كانت المرة الأولى التي وقفت فيها على حقائق الجنس عندما كنت في الثانية عشرة من عمري وعلى يد صبي اسمه إرنست لوجان كان أحد رفاقي في روضة الأطفال ونحن صغار . وقد نمت معه ذات ليلة في نفس الغرفة ، فأخذ يشرح لي طبيعة العملية الجنسية ودورها في إنجاب الأطفال معتمداً في توضيح ما يقوله على الحكايات اللطيفة التي تثير الضحك . ووجدت ما قاله مثيراً للاهتمام إلى أقصى حد ، ولكن كلامه لم يثر في جسمي أى رد فعل لصغر سني . وبدأ لي بدهيئاً إذ ذاك أن الإباحية الجنسية هي النظام الأمثل ، وأن نظام الزواج المسيحي مرتبط بالخرافات المسيحية التي تجاوز حد العقل (وأنا واثق أن هذه الفكرة لم تطرأ إلا بعد مرور فترة وجيزة على إدراكى الحقائق) .

وعندما بلغت الرابعة عشرة من عمري ، ذكر لي مؤدبي الخاص أني بصدد الدخول في مرحلة هامة من التغير الجسدي . وكنت إذ ذاك قادراً ، على نحو ما ، أن أفهم مرماه ، إذ كان معي في تلك المرة غلام آخر اسمه جيمي بيلي . وهو نفس الشخص الذي قابلته في مدينة فانكوفر فيما بعد في عام ١٩٢٩ ، وكنت وإياه نقلب وجوه الرأي ، بل كنا نشرك معنا الخادم الذي كان في مثل سننا ، ولعله كان يكبرنا بسنة وكان يعرف أكثر مما نعرف . وعندما تسرب الخبر بأننا قضينا فترة العصر في حديث مريب مع الخادم تعرضنا لكلام فيه لهجة الأسى العميق وأمرنا بالذهاب إلى الفراش ولم يصرف لنا من طعام إلا الخبز والماء . والغريب أن هذه المعاملة لم تصلني عن الاهتمام بموضوع الجنس بل قضينا وقتاً طويلاً في حديث يعد خارجاً عن حدود اللياقة وفي التعرف على أشياء كنا نجهلها ، وقد وجدت القاموس الطبي مفيداً في هذا الصدد . ولما بلغت الخامسة عشرة من عمري أخذت تجتاحني مشاعر الجنس . بحيث لم أكن أقوى على احتماها . فبينما كنت أجلس مستعداً للعمل أحاول التركيز كان ذهني يتشتت على الدوام بسبب الرغبة الجنسية . وتولدت عندي العادة السرية ولكنني كنت دائماً ألزم

حدود الاعتدال ولا أشتط ، وظللت أمارسها حتى سن العشرين ثم أقلمت عنها فجأة حين عرفت الحب .

كان المؤدب الذى أخبرنى بقرب حلول فترة الباوغ هو نفسه الذى تحدث معى بعدها بعدة أشهر عن صدر الرجل ونهدى المرأة (والكلمة الإنجائزية التى تدل على المعنى الثانى هى نفسها التى تدل على المعنى الأول مع زيادة الحرف S الذى يبين صيغة الجمع) وكان لملاحظته هذه من شدة الوقع فى نفسى ما جعلنى أبلو وقد صدمت ، وقد عاوننى على استجماع حياى وترمتى بعدها . وفى فترة البلوغ بددت ساعات طويلة كل يوم فى اشتواء النظر إلى جسد أنثى . وكنت أسترق النظر من خلال النوافذ إلى الخادومات وهن يقمن بارتداء ملابسهن على أمل رؤيتهن ولكن دون جدوى . وقضيت أنا وصديقى فترة فصل من فصول الشتاء فى بناء بيت تحت سطح الأرض ، كان يتكون من نفق طويل يتعين على المرء لكى يجتازه أن يزحف على يديه وركبتيه وينتهى إلى غرفة من ست أقلام مكعبة . وكانت عندنا خادمة كنت أتوسل إليها كى تصحبنى إلى المنزل وهناك كنت أحضنها وأقبلها . وفى مرة طلبت إليها أن تقضى معى ليلة . ولكنها قالت إنها تؤثر الموت على أن تجيبنى إلى ما طلبت . وصديقها فقد ظهرت عليها الدهشة وقالت إنها كانت تظننى ولداً صالحاً ، ووقفت عند هذا الحد فلم أتماد معها . وكنت فى ذلك الوقت قد تخليت تماماً عن الاتجاه العقلى فى تناول موضوع الجنس بعد أن تمسكت به فى مرحلة النمو السابقة ، وتقبات الآراء السائدة حينئذ على أنها آراء سديدة تماماً وركبى الهم فأصبحت أعد نفسى من الأشرار الفجار . وفى الوقت نفسه زاد شغفى بدراسة نفسى إذ عكفت على دراستها بعناية وبغير قليل من الذكاء . ولكن قيل لى إن الانشغال بعملية الاستبطان ظاهرة مرضية . فاستقر فى روعى أن هذا ليس إلا دليلاً آخر على شذوذى وخروجى على المألوف ، ولكنى بعد سنتين أو ثلاث فى الاستبطان أدركت فجأة أن هذا هو السبيل الوحيد القائم للحصول على قدر كبير من المعارف الهامة ومن ثم لا يصح استنكاره ووصمه بأنه ظاهرة مرضية . وشعرت بارتياح عندما وصلت إلى هذه النقطة .

هذا الانشغال الجسدى كان يلازمه تعلق شديد بالمثاليات ولم أفطن إذ ذاك إلى أن لهذا التعلق أساساً جنسياً . وأصبحت أستمري جمال الغروب والسحب والأشجار في فصل الربيع والحريف ، وكان شعورى نحوها مشوباً بالعاطفة المتقدة نظراً إلى أن هذا الشعور ليس إلا تسامياً بالجنس في اللاوعى ومحاولة للهرب من الواقع . وأقبلت على قراءة الشعر . وابتدأت بالشعر الردىء والبالغ الرداءة كشعر قصيدة « الذكري » للشاعر تينسون أمير شعراء الإنجليز في عصر فكتوريا ، ثم قرأت في السادسة عشرة والسابعة عشرة من عمرى ، على قدر ما أتذكر الآن ، كل أشعار ملتون ومعظم أشعار اللورد بايرون وعدداً كبيراً من مسرحيات شكسبير . وأجزاء كبيرة من شعر تينسون ثم انتهيت بالشاعر شيللى ، وقد عثرت عليه بمحض المصادفة ذات يوم حين كنت جالساً في غرفة الاستقبال في بيت خالى مود الكائن بشارع دوثر . في فترة الانتظار فتحت ديوان شيللى عند قصيدته « الأستور » . وبدت لى أجمل قصيدة قرأتها في حياتى ، وكان السر الأكبر فى إعجابى بها كامناً ، بطبيعة الحال ، فى بعدها عن الواقع . وسألت الكبار عما إذا كان شيللى يعتبر شاعراً عظيماً فوجدتهم يسيئون الظن به ، ولكن هذا لم يصدنى عنه فاندفعت إلى قراءته فى وقت فراغى كله وحفظته عن ظهر قلب وأنا أعلم أنه ليس هناك من أفضى إليه بما يجول فى ذهنى وخاطرى بشأنه . وكنت أتمنى فى قرارة نفسى لو أنى التقيت بشيللى وعرفته فى حياته فما كان يخطر لى أن هناك إنساناً أتعجب معه فى الشعور بقدر ما تعجبت مع شيللى .

وإلى جانب اهتمامى بالشعر كنت أهتم بالدين والفلسفة اهتماماً كبيراً وكان جدى لأبى من أتباع الكنيسة الإنجليكانية (كنيسة إنجلترا) فى حين كان جدى لأمى من أتباع الكنيسة المشيخية الاسكتلندية ، ولكنه انتهى تدريجياً إلى مذهب التوحيد . وكانوا يصحبونى يوم الأحد ، إلى الكنيسة الأسقفية الخاصة بالأبروشية فى بترشام أسبوعاً ، ثم يصحبونى فى الأسبوع التالى للكنيسة المشيخية فى ريتشموند ، فى حين كانوا يلقنونى فى البيت مذهب التوحيد ،

وقد آمنت به حتى سن الخامسة عشرة تقريباً . ففي تلك السنة بدأت بشكل منظم في تمحيص الحجج والبراهين العقلية التي تساق لإثبات الأركان الأساسية التي تقوم عليها الديانة المسيحية . وقضيت ساعات لا تنتهي في تأمل ذلك الموضوع ، ولم أستطع مفاتحة أحد في شأنه خوفاً من إيدائه في مشاعره ولحاجتي أنا أيضاً إلى الهدوء . وخيل إلى أني لو توقفت عن الإيمان بالله وبخيرية الإرادة وبالخلود أصبحت بالشقاء . ومع ذلك بدت لي الأسباب المبررة لها غير مقنعة إطلاقاً . وكان أول ما تخليت عنه هو الاعتقاد في حرية الإرادة ، ففي سن الخامسة عشرة أصبحت متنعاً بأن حركة المادة ، سواء كانت هذه المادة حية أم ميتة ، تتبع تبعية تامة لقوانين الديناميكا . ومن ثم لا يمكن أن يكون للإرادة من أثر على الجسم . وقد تعودت في ذلك الوقت كتابة كل ما يعن لي من أفكار خاصة في لغة إنجليزية تكتب بحروف يونانية وجدتها في كتاب « الترمينات اليونانية » ، وفعلت ذلك لكيلا يطالع أحد على ما كنت أفكر فيه . وقد أثبت في مذكري اعتقادي بأن الجسم البشري ليس إلا آلة . وكان ينبغي أن أجد لذة عقلية فيما صرت إليه من التعلق بالمذهب المادى ، ولكنني توصات استناداً إلى أسس مطابقة تقريباً لما ذكره الفيلسوف ديكارت (وكانت كل معرفتي به قائمة على أنه مخترع الإحداثيات في علم الرياضيات) توصات إلى الاعتقاد بأن الوعي حقيقة لا يمكن إنكارها ، ومن ثم فإن المادية المطلقة لا يمكن أن تقوم . كان هذا في سن الخامسة عشرة . وبعد ذلك بسنتين تقريباً أصبحت أعتقد أنه لا توجد حياة بعد الموت ، ولكنني بقيت على اعتقادي في وجود الله لأن « العملة الأولى » كانت في نظري حجة على وجود الله لا يمكن دحضها . ومع ذلك فلما بلغت الثامنة عشرة من عمري ، وقبيل التحاق بجامعة كامبردج وقعت على كتاب ملل هو (سيرته الذاتية) قرأته فلفتت نظري جملة فيه مؤداها أن والده عاصه أن هذا السؤال : من خلقك ؟ لا يمكن العثور له على جواب شاف . وذلك لأنه يوحى مباشرة بسؤال آخر : ومن الذى خلق الله ؟ وصرفني هذا عن حكاية « العلة الأولى » وأصبحت بعدها ما بعداً . ولكنني في أثناء تلك الفترة الطويلة من الشكوك

الدينية كان يتتابنى الشعور بالشقاء والتعاسة لأننى كنت أتخطى تدريجياً عن عقيدتى ، غير أن هذه العملية ما كادت تتم وتصل إلى قرار حتى وجدت لفرط دهشتى أننى مسرور جداً لأننى تخلصت من الموضوع برمته .

ولكنى لم أتخل عن القراءة قط طيلة تلك المدة . بل كنت أقرأ بشراهة وعلمت نفسى وقرأت من اللغة الإيطالية ما كان يكفينى لقراءة الشاعر دانتي صاحب « الكوميديا الإلهية » والمفكر السياسى ماكيافيللى صاحب « الأمير » . كما قرأت للفيلسوف الفرنسى أوجست كونت غير أنى لم أعبأ به كثيراً ، كذلك قرأت للفيلسوف جون ستيوارت مل كتابيه فى « الاقتصاد السياسى » و « المنطق » ولخصتهما تلخيصاً دقيقاً . وقرأت للمفكر كارليل بشغف كبير ولكنى رفضت رفضاً باتاً تلك الحجج العاطفية التى كان يسوقها لإثبات الدين ، إذ كان رأى الذى ثبت عليه منذ ذلك الوقت ، أن القضية الدينية يجب ألا تقبل إلا إذا كان لها سند كالسند المطلوب فى قضية علمية . وقرأت المؤرخ جيبون^(١) وكتاب ميلمان المسسمى « تاريخ المسيحية » كما قرأت رواية « أسفار جليفر » للأديب سويفت فى الطبعة الكاملة غير المنقحة . وكان لما ذكره كاتب الرواية فى معرض حديثه عن قوم اسمهم « ياهو » أثر كبير فى نفسى ، وأخذت أنظر إلى المخلوقات البشرية فى ضوء تلك الرؤية .

أرجو أن يكون مفهوماً أن تلك الحياة العقلية التى كنت أحيها لم يفتضح أمرها لأحد ممن كنت أعاشرهم بل ظلت مدفونة فى خاطرى ، فقد كنت من الناحية الاجتماعية خجولاً وكان فى تصرفى شئ من الطفولة وقلة الكياسة وكنت أتحرى الأدب وأحب الخير للناس ولكنى كنت أحسد أولئك الذين يدخلون فى علاقات اجتماعية ببساطة وبلا تحرج أو مضاضة فى النفس . أذكر أنه كان هناك شاب اسمه كاترمول لم يكن يتمتع بسمعة طيبة من الناحية

(١) إدورد جيبون (١٧٣٧ - ١٧٩٤) هو المؤرخ الإنجليزى المشهور وصاحب (سقوط

الإمبراطورية الرومانية) .

الأخلاقية . لاحظته مرة يمشى مع فتاة أنيقة وقد ارتفعت بينهما الكلفة . وكان واضحاً أنه يسرها ، فأليت على نفسى ألا أتصرف أبداً بطريقة تسر أى فتاة أتعلق بها . وقبل حلول عيد ميلادى السادس عشر كانت قد تجمعت لدى القدرة أحياناً على التحدث عن بعض الأشياء مع الذين كانوا يتولون تعليمى الخاص . فحتى ذلك الوقت كان تعليمى كله فى المنزل ولكن القائمين عليه من المدرسين الخصوصيين لم يكونوا يعملون أكثر من ثلاثة أشهر . ولم أدر لماذا سبباً ولعل ذلك مرجعه إلى أنى كنت أحملهم على الدخول معى فى مؤامرة نخدع بها أهلى كلما اشتطوا فى مطالبهم منى ، وكان أحد هؤلاء المدرسين من أنصار مذهب اللاأدرية . وكان يسمح لى بالتجادل فى الدين معه وأظن أن هذا كان هو السبب فى طرده عندما انكشف أمره . أما أقرب أولئك المدرسين إلى أهلى وأطولهم بقاء معى ، فرجل مصلوب على شفا الموت كان نفسه كرهه الرائحة إلى حد لا يحتمل . ولم يخطر ببال أهلى إذ ذاك أن وجودى فى محضره على الدوام شىء غير مستحب من الناحية الصحية .

وقبل عيد ميلادى السادس عشر أرسلونى إلى أحد المدرسين الملحقين بالجيش فى أولد ساوثجيت التى كانت إذ ذاك بقعة ريفية ، ولم يكن يقوم بالتدريس ليعمدنى للدخول للجيش ، بل لكى أنجح فى امتحان المسابقة للدخول كلية ترينتى بجامعة كامبردج ، وكان الآخرون جميعاً تقريباً يستعدون للالتحاق بالجيش فيما عدا واحداً أو اثنين كانا يستعدان للتقدم إلى الدراسات اللاهوتية . وكانوا ، باستثنائى ، فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة . فكنت أصغرهم سنّاً . وكانوا فى السن التى تسمح لهم ببدء الاتصال الجنسى بالعاهرات ، وكان هذا الموضوع هو شغلهم الشاغل كلما تحدثوا . وكان أشدهم إثارة للإعجاب شاباً يتشلق بأنه أصيب بالزهرى وشفى منه ، مما أثار زهوه . فكانوا يجلسون حوله يتندرون ببذء الحكايات ، وكالما أتوا على أحدث من الأحداث أتاح لهم ذلك فرصة لإبداء ملاحظات غير لائقة . وأذكر أن المدرس أرسل أحدهم مرة ومعه مذكرة منه إلى منزل مجاور ، فلما عاد حكى للآخرين

أنه دق الجرس فخرجت له خادمة قال لها : « إننى أحمل رسالة (والكلمة فى الإنجليزية تحمل معنى الرسالة ومعنى الغلاف الواقى من الحمل) فردت عليه : « إننى مسرورة لأنك تحمل الرسالة » . وفى مرة سمعوا إحدى الترانيم الكنسية ترتل وفيها هذه الجملة « سأقيم نصباً تذكاريّاً من الحجر » فتهامسوا فيما بينهم ، وكأن فى هذه الكلمات تلميحات جنسية . وعلى الرغم من انشغالى الصامت بالجنس - فيما سبق - فقد سببت لى مواجهتى له على هذا النحو الفاضح صدمة عميقة . وأصبحت متمزناً فى آرائى وقررت أن الجنس بلا حب عميق ليس إلا عملية بهيمية ، فأجفلت عنه وانطويت على نفسى وقالت من احتكاكى بالآخرين بقدر الإمكان ، ومع ذلك وجدوا فى مادة طيبة للمداعبة ، فكانوا يجعلونى أجلس على كرسى فوق مائدة وأغنى الأغنية الوحيدة التى كنت أعرفها إذ ذاك وهى :

إبراهيم العجوز مات وانطوى
ولن نراه بعد الآن مرة أخرى
وقد اعتاد أن يلبس سترة كبيرة بالية
مزرة تماماً من الأمام
وكانت له أيضاً سترة أخرى
من نوع مختلف
وبدلاً من أن يزررها من الأمام
كان يزررها من الخلف

وسرعان ما أدركت أن فرصتى الوحيدة للإفلات منهم كانت فى تدرعى بروح الفكاهة السمحة . وبعد فصل دراسى أو اثنين وفد عليهم فى آخر يصلح لعبهم ويمتاز عنى بأنه كان يستثار بسهولة وسرعة فانصرفوا عنى وتركونى لشأنى ، كما أنى تعودت بالتدريج حديثهم ولم يعد يسبب لى صدمة . ومع ذلك تولانى شعور عميق بالتعاسة . وكان هناك عمر ضيق عبر الحقول يؤدى إلى نيوساوثجيت كنت أسلكه كلما أردت مشاهدة الغروب وحدى أو التفكير

في الانتحار . ولكنى لم أنتحر لأنى كنت تواقاً إلى الاستراحة من الرياضيات . ولو عرف أهلى نوع الأحاديث التى كانت تدور إذ ذاك لأصابهم الذعر طبعاً ، ولكن لما كان تقدمى فى الرياضيات يسير بشكل مرض فقد كانت رغبتى على العموم فى أن أبقى حيث أنا ولم أفه بكلمة عن نوع المكان الذى كنت أتردد عليه . وفى نهاية السنة ونصف السنة ، دخلت امتحان المسابقة فى ديسمبر عام ١٨٨٩ وحصلت على منحة دراسية صغيرة . وطيلة الشهور العشرة التى سبقت ذهابى إلى كامبردج لزممت المنزل أستذكر مع الشخص الذى أحضره مدرسى الجيش ليعلمنى .

وكان لى أثناء ترددى على المدرس الخصوصى صديق ، هو إدوارد فنزجرالد . وكانت أمه أمريكية وأبوه كندياً . وقد اشتهر إدوارد فنزجرالد فى السنين الأخيرة بوصفه من أعظم متسلقى الجبال الذين قاموا بمجهودات باهرة فى جبال الألب النيوزيلندية وجبال الأنديز . وكان أهله من الأثرياء الذين يسكنون فى قصر منيف هو رقم ١٩ فى رتلاند جيت^(١) . وكانت له أخت تكتب الشعر ، كما كان هو نفسه صديقاً للشاعر روبرت براوننج^(٢) الذى كنت أقابله كثيراً عنده فى القصر . وقد أصبحت فيما بعد زوجة للورد إدموند فترموريس . ثم زوجة لرجل أسباني تسمت باسمه فأصبحت سنيورا دى فليبي . وكانت هذه الأخت تكبره بكثير ، كما كانت على إلمام تام بالدراسات الكلاسيكية . وقد أضمرت فى نفسى إعجاباً رومانسياً شديداً بها ، إلا أننى عندما قابلتها بعد ذلك بمدة ، تبين لى أنها ثقيلة الظل بشكل لا يطاق . وكان أخوها إدوارد قد تلقى تنشئته الأولى فى أمريكا ، كما كان على جانب كبير جدّاً من الثقافة . ولكنه كان يميل إلى

(١) انهدم القصر الآن .

(٢) براوننج (١٨١٢ - ١٨٨٩) شاعر إنجليزى من أئمة شعراء القرن التاسع عشر .

كنت قد قابلت براوننج قبل ذلك وعمرى ستان عندما كان مدعواً للنداء فى ممبروك لودج . وكان براوننج يتحدث بلا انقطاع فى حين كان الجميع يريدون الاستماع إلى المسئل سلفينى الذى كان قد أحضره . وعند ما فاض بى الكيل صرخت قائلاً :

« كم أود أن يكف هذا الرجل عن الكلام » ، وقد كف بالفعل .

الكسل والتكلف المزدول وكان متصدراً جداً في مجالات كثيرة وخاصة في الرياضيات إذ كان في وسعه أن يذكر السنة التي صنع فيها نوع مشهور من الخمر أو السيجار الفاخر ، كما كان يستطيع أن يبتلع ملء ملعقة من المستردة المخلوطة بالتوابل الحارقة . وكانت له معرفة وثيقة بمواخير أوربا ، كما كان إلمامه بالأدب واسعاً . وفي أثناء فترة التحضير للدرجة العلمية الأولى بجامعة كامبردج ، جمع مكتبة عظيمة من الطبقات الأولى لبعض الكتب . ولا تقابل وإياه للمرة الأولى ، أنست إليه في التول لأنه كان ، على أي الأحوال ، بعكس الآخرين ، إنساناً مهذباً رقيق الحاشية . (مات في تلك الفترة الشاعر روبرت براوننج ، فلم يبد على أي من الآخرين أنه سمع به على الإطلاق) . وكنت وإدوارد نتوجه لقضاء عطلة آخر الأسبوع معاً في منزله فنتغدى أولاً مع أهله ثم نقضي فترة السهرة الباكرا معاً . وكان أهلي قد أخذوا يجمعون المعلومات عن أهله فأكد لهم روبرت براوننج أنه لا غبار عليهم . وحتى ذلك الوقت كنت أشعر بالوحدة والانزواء . فلما توثقت عرى المودة بيني وبين إدوارد اندفعت في حبي له إلى حد سخيف . ولما حل شهر أغسطس دعاني ، لفرط سروري ، إلى اصطحابه هو وعائلته في رحلة إلى خارج البلاد . وكانت تلك هي المرة الأولى التي أخرج فيها منذ أن كنت في الثانية من عمري . ولذلك تطلعت بشغف إلى مشاهدة بلاد أجنبية . ذهبنا أولاً إلى باريس حيث كان يقام معرض ١٨٨٩ وصعدنا إلى قمة برج إيفل التي كانت جديدة في تلك السنة . ثم ذهبنا إلى سويسرا حيث تنقلنا في السيارة من مكان إلى آخر لمدة أسبوع . وكانت نهاية المطاف عند إنجادين . وقد تسلقت ، أنا وإدموند ، جبلين هما بيزكورفاش وبيزبالو . وفي كلتا المناسبتين هبت علينا عاصفة ثلجية أصابتني الأولى بدوار يعرف بلوار الجبال وفي المرة الثانية أصابه هو الدوار . وهذه المناسبة الثانية كانت مثيرة للغاية فقد هوى أحد المرشدين الذين كانوا يرافقونا من فوق صخرة عالية وكان لابد من تدلية جبل لالتقاطه . وأثرت فيّ رباطة جأشه إذ كان وهو يهوى إلى أسفل يسب ويلعن ، حدث في تلك الفترة لسوء الحظ أن اختلفت مع إدوارد فترجالد اختلافاً

خطيراً نوعاً ما ، إذ كان يتحدث مع أمه بلهجة نائية لا تغتفر . ولما كنت صغيراً ومتحمساً فقد عنفته على ذلك مما أثار حفيظته ، وقد أسرها في نفسه لعدة شهور . فلما عدنا من الرحلة ، وكنا نسكن معاً ، حرص على أن يوجه إلى "كلاماً موحياً" كان يتفنن فيه . وأصبحت أمقته مقتناً شديداً ، وهو شيء غير مفهوم لي الآن حين أنظر إليه بعد كل تلك السنين . وأذكر أنه في مناسبة من المناسبات ، استبد بي الغضب إلى حد أني قبضت على عنقه وبدأت أضغط عليه حتى أخنقه ، وكان في نيتي أن أقتله ولكن عندما بدأ لون وجهه يمتقع تراجع . ولا أعتقد الآن أنه كان يعرف أني كنت أنوى قتله . على كل حال أصبحنا بعد ذلك وطوال تلك المدة التي قضاها في كامبردج والتي انتهت بزواجه في نهاية العام الثاني ، أصدقاء على جانب كبير من المودة .

كنت في خلال هذه الفترة أبتعد بعواطفى شيئاً فشيئاً عن أهلى . صحيح أنني ظلت متفقاً معهم في الآراء السياسية ، ولكنى كنت أختلف معهم فيما عدا ذلك . وحاولت في أول الأمر أن أتحدث معهم أحياناً في أشياء كانت تشغلنى ، ولكنهم كانوا يسخرون منى دائماً وأدى هذا إلى أن أمسكت ولم أعد أفتح فمى بكلمة . كان يبدو لى بديهياً في ذلك الوقت أن الغاية من وراء كل عمل يجب أن تكون سعادة بنى الإنسان ولكنى اكتشفت ، لفرط دهشنى ، أن هناك أناساً لا يقرون هذا الرأى ؛ وكان الاعتقاد في سعادة بنى الإنسان ، فيما عرفت بعد ذلك ، يقرن بمذهب المنفعة^(١) . وكان يعتبر مجرد نظرية من بين نظريات أخرى في علم الأخلاق . ولذلك تمسكت بذلك المذهب بعد أن اكتشفته واندفعت بطيشى وحماقى إلى جلدنى لأمى كى أعلنها بذلك . فأغرقت فى السخرية منى ، وأخذت منذ ذلك الحين تعرض على "عقد" أخلاقية وتطلب منى حلها طبقاً للمبادئ النفعية . ولاحظت أن رفضها للمذهب النفعى لم يكن يعتمد على أسس قوية ، وأن معارضتها له لا تستند على أفكار ذات بال . وعندما اكتشفت أننى أهتم بالميتافيزيقا (أى ما وراء الطبيعة) . ذكرت لى أن

الميتافيزيقا كلها يمكن إيجازها في هذه العبارة : « ما هو العقل ؟ إنه شيء غير المادة . وما هي المادة ؟ إنها شيء لا داعي لأن تشغل عقلك به » . وعندما كررت هذه الملاحظة للمرة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة فقدت طرافتها بالنسبة لى . على أية حال لقد استمر تحيز جلدتى ضد الميتافيزيقا طوال حياتها ، كما يبدو من هذه الأبيات التالية :

يا علم الميتافيزيقا ،
 الملىء بالألغاز ،
 إنك تزيد متاهة الحياة تيهاً ،
 وأنت تباهى بأنك تلقى الضوء ،
 على ألغاز معتمة مثل الإرادة والقدر ،
 ولكنك تزيدها تعقيداً وعموضاً .
 إنك تشرح بطريقة مرضية ،
 سبب كل عمل
 وفي غياهب العقل وجنباة
 تدعى أنك تجولت ،
 وتسمى البديهيات كشوفك العلمية ،
 تناولت الصواب والخطأ بالتشريح ،
 وجمعت أشناتهما ،
 أما معتقداتنا فلا تهملك فيما يبدو ،
 ولكن أنسجة العنكبوت التى نسجتها
 وما وقع فيها من ذباب تافه
 لا تحتاج إلى مكنسة عجبية لإزالتها .
 إنك لا تترك أكثر منى
 ما معنى الضحك أو الدموع أو التهديدات
 أو معنى الحب أو البغض ، أو الغضب ، أو الرثاء .

إذن ، وداعاً ، يا علم الميتافيزيقا .
واعتقادی أنك ستصبح عالماً بالياً عما قريب .

وأذكر أنها قالت لي ذات مرة عندما كبرت : « سمعت أنك تكتب كتاباً آخر » قالتها في لهجة من يريد أن يقول : « سمعت أن لك طفلاً آخر غير شرعي » . ولم تعترض على الرياضيات بشكل قاطع . ولكن كان عسيراً عليها أن تدرك أن لها نفعاً . وكانت تأمل أن أصبح قساً في الكنيسة التوحيدية . ولزمت الصمت بالنسبة لآرائى الدينية حتى بلغت الحادية والعشرين من عمري . وفي الحقيقة لقد وجدت أن حياتى في المنزل لن تكون محتملة إلا إذا لزمت الصمت التام تجاه كل شيء يثير اهتمامى . لقد كانت جدتى تمارس نوعاً من المزاج مليئاً ، على الرغم من طرافته الظاهرية ، بالتجريح والتعريض . ولم أكن أعرف في ذلك الوقت كيف أرد عليها بالمثل . ولذا كان نصيبى الألم والشقاء . وكانت أجاناً لا تقبل سوءاً ، وكان عمى رولو قد انطوى على نفسه حزناً على وفاة زوجته الأولى . أما أنى الذى كان يلنّس في كلية باليول فقد أصبح بوذيّاً . واعتاد أن يذكر لي أن الروح يمكن أن يحتويها أصغر مظروف خطاب . وأذكر أنه جالت بخاطرى كل الأغلفة الصغيرة التى رأيتها ، وتخيلت أن الروح كانت تنبض بداخلها كالقلب ، ولكن حديث أنى عن غرائب البوذية لم يقدم لي شيئاً ذا فائدة . ولم أره إلا لماماً بعد أن بلغ سن الرشد ، لأن العائلة اعتبرته آتماً خبيثاً . ولهذا ابتعد عن البيت . وكانت تسيطر على جوارحى الرغبة في أن أقوم بعمل جليل في مضمار الرياضيات عندما أكبر ، ولكنى لم أعتقد أنى سألتقى يوماً ما بشخص يمكن أن تربطنى وإياه أواصر الصداقة ، أو يمكننى أن أفضى له بأفكارى في حرية ، كما أنى لم أكن أتوقع أن يخلو أى جانب من حياتى من شقاء كبير . وطوال حياتى في ساوثجيت كنت كثير الاهتمام بالسياسة والاقتصاد . فقرأت كتاب مل « الاقتصاد السياسى » الذى كنت أميل إلى الموافقة تماماً على ما فيه من آراء . كذلك قرأت للفيلسوف هربرت سبنسر الذى بدا لي جامداً أكثر من اللازم في تمسكه بالنظريات ، وذلك في كتابه « الإنسان ضد الدولة » ،

ولكنى كنت أوافق بوجه عام على اتجاهه المتحيز . وأرشدنى عمى أجانا لمؤلفات الكاتب الاشتراكي هنرى جوج صاحب كتاب « التقدم والفقر » . وكانت معجبة بمؤلفاته أيما إعجاب . واقتنعت بأن تأميم الأرض سيأتى بكل المزايا التى يأمل الاشتراكيون أن يجنوها من الاشتراكية ، وظالت أومن بهذا الرأى حتى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) .

وتحمست جدلى لأبى وعمى أجانا فى تأييد سياسة جلاستون فى منح الحكم الذاتى لإيرلندا ، واعتاد كثير من أعضاء البرلمان الإيرلندى زيارة ممبروك لودج . وكان هذا فى الوقت الذى أعلنت فيه جريدة « التايمز » أن لديها وثائق تثبت أن الزعيم الإيرلندى بارنيل ، الداعية الكبير لاستقلال إيرلندا ، كان شريكاً فى جريمة قتل . وهو رأى شارك فيه كل عليه القوم تقريباً ، بما فى ذلك الغالبية العظمى من الرجال الذين ظلوا يناصرون جلاستون حتى عام ١٨٨٦ . إلا أنه فى عام ١٨٨٩ ثبت بطريقة مثيرة عدم صحة هذه التهمة عندما عجز المزور بيجوت عن هجاء كلمة « التردد » . ولقد كانت جدلى وعمى ترفضان بشدة الرأى القائل بأن أتباع بارنيل متحالفون مع الإرهابيين . وكان بارنيل ، الذى صافحته مرة ، موضع إعجابهما . ولكن عندما تورط بارنيل فى الفضيحة سايرتا جلاستون فى التنكر له .

وزرت إيرلندا مع عمى أجانا مرتين . واعتدت فيهما أن أخرج للنزهة إما بمفردى أو مع الوطنى الإيرلندى ميشيل دافيت . ولقد كان لجمال المناظر الطبيعية أثر عميق على نفسى . وأتذكر على وجه الخصوص بحيرة صغيرة فى مقاطعة ويكلو تسمى لوجالا . وترتبط فى ذهنى منذ ذلك الحين ، لا لسبب قوى ، بهذه الأبيات :

كما تسير الأمواج نحو الشاطئ المفروش بالحصى
كذا تهرع دقائق حياتنا نحو نهايتها .

وبعد ذلك بخمسين عاماً عندما قمت بزيارة صديقى كرومبتون ديفز فى دبلن ، ألححت عليه فى أن يأخذنى لزيارة لوجالا . ولكنه أخذنى إلى غابة عالية

تطل على البحيرة ، وقفلت راجعاً وأنا مؤمن بأنه يجب على الإنسان ألا يحاول إحياء الذكريات القديمة^١.

وفي عام ١٨٨٣ اشترى عمى روللو منزلاً على منحدرات هايندهد ظللنا لوقت طويل نتردد عليه ثلاثة أشهر كل عام . ولم تكن توجد في ذلك الوقت منازل في هايندهد ، إلا حانان مهجورتان ، حانة الأكواخ الملكية وحانة الأشواك السبعة (إنهما الآن ليستا مهجورتين) . وكان البناء يسير قديماً في بيت تندهال الذي كان قدوة لغيره في بناء منازل هناك . وكثيراً ما ذهبت لرؤية تندهال الذي أعطاني أحد كتبه يسمى « أشكال الماء » . ولقد أعجبت به . كعالم من العلماء البازين . وكنت أتمنى بشدة أن أترك انطباعاً طيباً في نفسه . ولقد نجحت في ذلك مرتين . كانت الأولى عندما كنت أتحدث مع عمى روللو وأنا أضع على أصبعي في شكل متوازن عصوين بمقبضيهما . ولقد سألتني تندهال عما أفعل فذكرت له أنني أفكر في طريقة عملية لتحديد مركز الجاذبية . والمرة الثانية كانت بعد الأولى بسبع سنين عندما أخبرته أنني تسلقت جبل بيزبالو . وكان هو من رواد التسلق على جبال الألب . وكذلك كنت أجد سروراً أعجز عن وصفه في التجول وسط نباتات الخليج مبتدئاً من أعلى نقطة في بلاكدون ، نازلاً إلى بنشبول حتى أصل إلى « الديفلز جمبس » عند تشيرت . وأتذكر على وجه الخصوص تجولي في طريق صغير يدعى « حارة الأم بنش » (وهو الآن طريق مزدحم بالمنازل ، عليه لافتة مكتوب عليها « حارة بنش ») . وظل هذا الطريق ينكمش حتى أصبح مجرد ممر يفضي إلى تل هيرت . وعلى حين غرة ، ودون انتظار سابق ، رأيت منظرًا عظيمًا يضم نصف مقاطعة سكس وكل مقاطعة سرى . مثل هذه اللحظات كان لها أثر في حياتي ، إذ أنني تبين أن الأشياء التي حدثت لي خارج المنزل ، قد أحدثت انطباعاً أعمق من تلك التي وقعت داخله .

ملحق : « تمرينات يونانية » :

٣ مارس ١٨٨٨ - سأكتب الآن عن موضوعات شغلتنى . لقد دفعتنى ظروف شتى لأن أمعن النظر فى أسس الدين الذى نشأت عليه . فى بعض الأمور أكدت النتائج التى توصلت إليها عقيدتى السالفة ، وفى أمور أخرى توصلت إلى آراء لا تفرع الناس فحسب ، بل سببت لى كثيراً من الألم . لقد وصل إيمانى إلى حد التأكد من أشياء قليلة ، ولكن آرائى ، وإن لم تبلغ حد المعتقدات ، كانت فى بعض الأمور أقرب إلى اليقين . ولم تكن لدى الشجاعة بأن أكاشف أهلى . فإن اعتقادى بالخلود لم يكن جازماً . ولقد تعودت أن أتحدث فى حرية عن مثل هذه الأمور لمستر إيوين . ولكنى الآن لا أستطيع الإفضاء بأفكارى لأحد ، وهذه هى الطريقة الوحيدة التى أنفس بها عن نفسى . أعنى التحدث عن مشاكل فى هذا المجال .

١٩ مارس - إننى أنوى اليوم شرح أسس إيمانى بالله . ويمكننى القول بادئ الأمر إننى أؤمن بالله إيماناً أكيداً ، وإنه يجب أن أسمى نفسى ربوبياً ، إذا كان على أن أطلق اسماً على عقيدتى . وفى البحث عن دواعى إيمانى بالله سأقتصر على الحجج العلمية . إن هذا عهد قطعه على نفسى ، وكلفنى التمسك به أو عدم الانسياق لأى عاطفة ، الكثير من العناء والجهد . وعند البحث عن دواعى علمية للإيمان بالله يجب أن نعود إلى بدء الخليقة . نحن نعلم أن قوانين الطبيعة الحالية كانت ثابتة على الدوام . وأن نفس كمية المادة والطاقة الموجودة الآن فى الكون كانت موجودة حتماً منذ الأزل ، ولكن نظرية السدم تشير إلى تاريخ غير صحيح كان الكون فيه ممتلئاً بخليط لا يمكن تمييزه من المادة السديمية . ولذا فمن الممكن جداً أن المادة والطاقة الموجودة الآن قد خلقت ، وهذا يعنى بوضوح أن قوة إلهية قد خلقها . وإذا فرضنا أنها كانت موجودة منذ الأزل ، فنأين أتت هذه القوانين التى تنظم تفاعل الطاقة بالمادة ؟ أعتقد أنه لا يمكن أن تعزى إلا لقوة إلهية مهيمنة ، وهى التى أسميها الله .

٢٢ مارس - والآن دعنا نبحث عما إذا كانت هذه الحجج يقبلها العقل

أم لا . فلنفرض أن الكون الذى نراه الآن ، نشأ بمحض المصادفة . كما يدعى البعض ، فهل نتوقع إذن أن كل ذرة تتفاعل فى ظروف معينة تتفاعلاً مماثلاً تماماً لتفاعل ذرة أخرى ؟ أعتقد أنه إذا كانت الذرات خالية من الحياة فليس هناك ما يدعو لأن ننتظر منها أى تفاعل دون قوة مهيمنة . ومن الناحية الأخرى إذا فرض أنها زودت بإرادة حرة فإن هذا يدفعنا إلى الاعتقاد بأن كل ذرات الكون قد تجمعت فى رابطة مشتركة والتزمت بقوانين لا يحيد عنها أى منها . من الجلى أن هذا فرض سخيف ، وهذا يدفعنا إلى الإيمان بالله . ولكن إثبات وجود الله بهذه الطريقة فيه إنكار لوجود المعجزات ومظاهر أخرى للقوة الإلهية . وإن كان على أية حال لا ينكر احتمال حدوثها . لأنه فى إمكان مخرج القوانين أن يلغىها ، بالطبع . ويمكن أن ننكر وجود المعجزات بطريقة أخرى . إذ أنه إذا كان الله مخرج القوانين ، فإن المعجزات تعنى بالتأكيد عيباً فى القوانين ذاته . إذ لا بد من تغييره بين الحين والحين . ومثل هذا العيب لا يمكن أن نرده إلى قوة إلهية . ومن أمثلة هذا ما ورد فى الكتاب المقدس من أن الله ندم على فعله .

٢ أبريل - والآن أتناول موضوعاً يهمنا نحن أبناء الفناء المساكين أكثر من أى موضوع آخر ، أعنى به الخلود . لقد سبب لى هذا خيبة أمل . وعذاباً أكثر من أى موضوع آخر . هناك طريقتان لمعالجة هذا الموضوع ، أولهما عن طريق التطور ومقارنة الإنسان بالحيوان ، وثانيهما عن طريق مقارنة الإنسان بالله . إن الطريقة الأولى علمية أكثر لأننا نعلم كل شئ عن الحيوان لا عن الإله . وإذا بدأنا بحرية الإرادة ، وفرضنا أنه لا يوجد حد فاصل بين الإنسان والحيوانات البروزيوية ، وجب علينا إذن أن نمنح حرية الإرادة لكل منها ، وهذا أمر من العسير القيام به . لهذا ، فإنه ما لم نكن راغبين فى منح حرية الإرادة للحيوانات البروزيوية ، فإنه لا يتسنى لنا منحها للإنسان . هذا أمر ممكن وإن كان من الصعب تصوره ، فإذا ما تجمعت البروتوبلازيمات ، وهذا يبدو محتملاً على ما أرى ، بطريقة طبيعية دون تدبير إلهى خاص ، فإن هذا يعنى أننا وكل الكائنات الحية لا تسيرنا إلا قوى كيميائية ، وأننا لانفوق الشجرة التى لا يدعى

أحد أن لها حرية إرادة ، وحتى إذا كان لدينا معرفة كافية بالقوى التي تؤثر على أى إنسان فى وقت ما ، والدوافع المسيرة والرادعة ، وتركيب مخه فى أى وقت ، حينئذ يمكننا الجزم بما سيقوم به من أفعال . ومن الناحية الدينية نجد أن ادعاءنا حرية الإرادة أمر يتسم بالتبجح ، إذ أن هذا بالطبع تدخل فى قوانين ثابتة سنّها الله ، تسير أعمالنا . أعتقد أنه يجب أن نترك لله سن القوانين التي لا تخرق أبداً والتي تحدد أفعالنا . وبما أننا لا نملك حرية الإرادة فلا يمكن أن ننعم بالخلود .

الاثنين ٦ أبريل — أتمنى أن أومن بالحياة الأبدية إذ أنه لما يشقني كثيراً أن أفكر فى الإنسان على أنه مجرد آلة منحت ، لتعاسفها ، الوعى . على أنه ليست هناك نظرية أخرى تتمشى مع القدرة الشاملة لله التي يقدم العلم شواهد كافية عنها . وهكذا فليس هناك من سبيل إلا أن أكرن ملحداً ! أو غير مؤمن بالخلود. وعندما وجدت الأمر الأول مستحيلاً ، أثرت الاختيار الثانى ، دون أن أخبر أحداً . وعلى الرغم من أن هذه الفكرة عن الإنسان مخيبة للآمال إلا أنني أعتقد أنها تعطينا فكرة مدهشة عن عظمة الله إذا فكرنا أن الله فى البداية استطاع أن يسن قوانين أنتجت بتفاعلها مع مجرد كتلة سديمية من المادة — ربما كانت مجرد أثر منتشر فى هذا الجانب من الكون — أنتجت مخلوقات مثلنا لا تشعر بوجودها فحسب بل تستطيع أن تتعمق إلى حد ما فى تفهم الأسرار الإلهية وكل هذا دون تدخل من جانبه . والآن دعنا نرى إذا كان مبدأ عدم وجود الإرادة الحرة أمراً يثير السخف أم لا . إذا تحدثنا عنه لأى إنسان فإنه يتغامز ولا يكثرث . قد يكون هذا خارجاً عن إرادته لأنه يتصدى لأمر يستلزم تقديم براهين منا ، لا قبل له بها . وهكذا نرى أنه فى كل عمل نقوم به لا بد من دوافع وراءه . وكذلك ليس هناك حد فاصل بين شكسبير أو هربرت سبنسر وأحد سكان بابوا . ولكن بينهما وبين أحد سكان بابوا اختلافاً كبيراً كاختلاف أحد سكان بابوا عن القرد .

١٤ أبريل — إلا أن هناك صعوبات تقف فى سبيل المبدأ القائل إن الإنسان سرقى الذاتية

لا يملك الخلود أو حرية الإرادة أو الروح ، وإنه باختصار نوع راق من أنواع الآلة قد زود بالوعي . إذ أن الوعي في حد ذاته صفة تميزه عن المادة الصماء . وإذا كان للإنسان صفة تميزه عن المادة الصماء فلماذا لا تكون له صفة أخرى ، ولتكن حرية الإرادة ؟ وأعني بحرية الإرادة أنه على سبيل المثال لا يخضع للقانون الأول للحركة ، أو أن اتجاه الطاقة التي يستغلها على الأقل لا يعتمد كلياً على ظروف خارجية . وفوق ذلك ، يبدو أنه من المستحيل أن نتصور أن الإنسان بما له من عقل ، ومعرفة بالكون ، وآراء عن الصواب والخطأ ، وعواطف كالحب والكراهة ، وبما له من دين ، لا يعدو كونه مجرد مركب كيميائي زائل تعتمد شخصيته والأثر الذي يتركه ، سواء أكان خيراً أم شريعراً ، اعتماداً تاماً على الحركة المعينة للجزيئات المخ ، وأن كل عظماء الرجال تكمن عظمتهم في تفاعل جزيئة من المخ مع أخرى بسرعة أكثر مما نجد عند غيرهم من الناس . ألا يبدو هذا أمراً غير معقول تماماً ؟ أليس من يؤمن بهذا السخف مجنوناً ؟ ولكن ما هو البديل ؟ إذا سلمنا بنظرية التطور التي تثبت صحتها عملياً والتي تقول إن ذكاء القردة ازداد تدريجياً ، وإن الله فجأة وبمعجزة أضفى على أحدها العقل العجيب الذي لا ندرك سر امتلاكنا له . إذن ، هل يمكن أن نسمى الإنسان بحق أعظم خلق الله ؟ هل يقدر على الإنسان أن يهلك تماماً بعد أن تطور خلال عصور شتى ؟ إننا لا ندرى ، ولكني أؤثر تلك الفكرة على القول بأن الله سعى إلى معجزة لخلق الإنسان ثم تركه حرّاً يفعل ما يشاء .

١٨ أبريل — وإذا سلمنا بالنظرية القائلة بأن الإنسان فان لا يملك حرية الإرادة ، وهذه مجرد نظرية على الدوام لأن مثل هذه الأمور لا تعدو كونها تخمينات ، فما فكرتنا إذن عن الخطأ والصواب ؟ يتساءل كثير من الناس إذا ما ذكرت مبدأ القدرية السخيف ، الذي يعنى أنه لا إرادة لنا ، على غير ما يعتقد رجال الدين ، يتساءلون عن الضمير الذي يعتقدون أن الله غرسه في الإنسان . إنني أعتقد أن الضمير يرجع أولاً إلى التطور الذي يكون بالطبع غرائز حب البقاء . ولتأخذ على سبيل المثال الوصايا العشر كتوضيح للأخلاق البدائية . كثير منها

يؤدى إلى حياة هادئة للمجتمع ، وهى أفضل للمحافظة على النوع الإنسانى . وهكذا فإن أسوأ جريمة يمكن حدوثها ، والى يعقبا أكبر ندم يشعر به إنسان هى جريمة القتل لأنها إفناء مباشر للنوع . ونعلم أيضاً أن العبرانيين كانوا يعتقدون أن من نعم الله أن يرزقهم أطفالاً كثيرين ، ومن نقمته أن يحرمهم من الولد . كذلك نرى أن الرومان كانوا يمتقنون الأرامل وكانوا يحرمون عليهن البقاء بدون زواج أكثر من عام . ما الداعى لهذه الآراء الغربية ؟ أليس لأنها لا تأتى ببشر جديد ؟ لهذا ندرك تماماً سبب انتشار هذه الآراء عندما يتحكم العقل فى البشر ، إذ أنه لو انتشرت الجريمة والانتحار بين قبيلة ما ، فإن هذه القبيلة ستقرض ومن ثم امتازت القبيلة التى تمتعت مثل هذه الأفعال عن نظيراتها . بالطبع ، لقد طرأ تعديل على هذه الآراء فى المجتمعات المتعلمة . أما عن رأيي فإننى سأعرضه فى المرة القادمة .

٢٠ أبريل -- إني أعتقد أن الأخلاق النظرية تنبع دائماً من فكرة بقاء النوع . ولكنى لا أعتقد أنه ينبغى للمجتمعات المتحضرة أن تسير وفق هذه القاعدة . أما قاعدتي فى الحياة ، التى تهدينى فى سلوكي والى أعتبر أى انحراف عنها خطيئة ، فهى أن أسلك بطريقة قد تجلب أكبر سعادة ممكنة ، سواء فى الكم أو الكيف . لقد اعتبرت جدتي هذه القاعدة غير عملية إذ أنه لا يمكن أبداً معرفة الشيء الذى يأتى بأ أكبر سعادة ، لهذا من الأفضل أن يسير الإنسان وفق ضميره . والضمير ، على أية حال ، يعتمد غالباً على التعليم ، فالإيرلندى العادى مثلاً لا يعتبر الكذب ذنباً ، وهذه حقيقة تكفى لإنكار قدسية الضمير . وبما أن الضمير ، على ما أعتقد ، ما هو إلا نتاج مشترك للتطور والتعليم ، فمن السخف إذن أن نتبعه ، بدلاً من اتباع العقل . إن عقلي يهدينى ويجعلنى أؤثر الأيام بأعمال تجلب أكبر سعادة . وعبثاً حاولت أن أقتنى طريقاً غير هذا ، ولم أكن أقصد سعادتي الذاتية بصفة خاصة ، بل سعادة الجميع دون تمييز بين نفسى ، وأقربائى ، وأصدقائى ، أو حتى الغرباء عني تماماً . لا أكثرث كثيراً بمشاركة الناس لى فى رأى ، لكن من الجلى أنه إذا

تسنى للناس اكتشاف آرائى . فمن الأفضل أن أفعل ما يعتقدونه صواباً . وأعمال هذا الرأى بما يلى :

أولاً لا سبيل لى غير ذلك بعد أن اضطررت ، كما يفعل كل إنسان يفكر تفكيراً جدياً فى التطور ، أن أتخلى عن الفكرة القديمة بأن ألبأ إلى ضميرى ، ثم إنه يبدو لى أن السعادة شىء عظيم نسعى إليه . وكتطبيق عملى لهذه النظرية يمكننى القول إننى إذا كنت فى موقف لا يمس إلا شخصى . هذا إذا فرض وجود مثل هذا الموقف ، فإننى أسلك سلوكاً يرضى نفسى تماماً . ولنفرض أننى ووجهت بالمصادفة بموقف أستطيع أن أتقذ فيه رجلاً موته أفضل من حياته . من الجلى أننى إذا سرت وراء سعادتى الذاتية فإننى ألقى بنفسى لإتقاده . لأنه إذا فقدت حياتى فإن هذه طريقة جميلة لإنهاؤها ، وإذا ما أتقذته . فسأشعر بسعادة للشئاء الكبير الذى سألقاه من الناس . ولكن إذا ما تركته يغرق فإننى سأضيق فرصة طيبة للموت وأشقى من اللوم الذى سيعصب على . هذا وإن كان موته أفضل لعالمنا ، ولحياتى بدلاً من تعرضها لمجازفة ما .

٢٩ أبريل — لقد قطعت على نفسى عهداً أن ألتبس فى كل شىء هدى العقل لا الغرائز التى ورثت جانباً منها من أجدادى الذين حصلوا عليها تدريجياً طبقاً لعملية الاختيار الطبيعى ، وجانباً آخر من تعليمى . إنه من السخف أن نسير وفق الغرائز فى الحكم على الخطأ والصواب . إذ أن الجانب الموروث ، كما لاحظت سلفاً ، لا يعدو كونه مبادئ تؤدى إلى حفظ النوع الذى أنتسب إليه ، لأن الجانب الذى نتج عن التعليم قد يكون خيراً أو شراً تبعاً لتعليم الفرد . إلا أن هذا الصوت الداخلى ، هذا الضمير الذى دفع الملكة ماري سفاكة الدماء لأن تحرق البروتستانت ، هو ما يجب علينا نحن العقلاء أن نسير بهديه . إننى أعتقد أن الاهتداء بالغريزة أمر بعيد عن الصواب ولذا سأحاول قدر استطاعتي أن أسترشد بعقلى . وإذا كان مثلى الأعلى هو أن أقوم بأعمال تؤدى فى النهاية لأكبر سعادة لأكبر عدد من الناس ، فإنه يجب أن أحكم العقل فى تبين الطريق الذى يحقق هذا الهدف . وفى أحوالى الخاصة ، على أى حال ، أسير أيضاً وفق ضميرى نظراً لما حصلت عليه من تعليم ممتاز : إلا أنه من الغريب

أن نرى الناس يكرهون التخلي من غرائزهم البهيمية والاسترشاد بالعقل . أذكر أن أوين^(١) المسكين تورط في جدل طوال وقت العشاء لأنه هاجم الدوافع الغريزية . واليوم أثناء شاي بعد الظهر تناقشت والآنسة بوهلر طويلاً لأنني قلت لأنني أتبع العقل لا الضمير في المسائل التي تتعلق بالخطأ والصواب . إنني أمقت جداً اعتناق آراء غريبة لأنني إما أن أحفظ بها في طيات نفسي ، وإما أفزع الناس بتشككي ، وهو أمر لا يقل سوءاً عن الانطواء على نفسي . إنني سأشعر بالأسف عندما ترحل الآنسة بوهلر لأنني كنت أفتح قلبي لها أكثر من أهلي ، مع ما في هذا من غرابة .

٣ مايو — رحلت الآنسة بوهلر وتركنتني لوحدي وانطوائى . من حسن الحظ ، على كل حال ، أن كل شيء كان معداً لسفري إلى ساوثجيت في مدى أسبوع تقريباً . وهذا ، على ما أعتقد ، سينقلني من التفكير الممل أثناء الأسبوع ، لانشغالي بالعمل ، ولجدة المكان . ولن أتوقع أن أقضى وقتاً ممتعاً إلا بعد مضي فترة من الزمن ، كما أتى واثق بأن سفري سيكون مفيداً لعملى ، ولرياضتي ، ولسلوكى ولسعادتى المستقبلية .

٨ مايو — ما أسعد حياتى ، لولا أفكارى التبعة حول اللاهوت . غداً سأرحل ، وهذا المساء قامت جدتي بصلاة جميلة من أجل حياتى الجديدة ، ومن بين ما ذكرت فيها دعوتها بأن يهدينى الله لمعرفة مدى حبه الكبير لى . إن هذا الدعاء لا يمكن أن أردده من كل قلبى ، وإن كنت فى ميسس الحاجة إليه . إذ أنه طبقاً لأفكارى عن الله ليس هناك سبب يدعو للافراض بأنه يولينا حبه . إذ أنه اكتفى بإدارة الآلة فى بادئ الأمر ، وتركها تستخلص النتائج الضرورية لها . والآن يمكنك الادعاء بأن قوانينه وضعت بشكل يهين أكبر سعادة ممكنة لنا ، نحن البشر الفانين ، لكن هذا القول يفقر إلى الدليل . إذن ، لا أرى ما يبرر الاعتقاد بأن الله عطوف على ، على الرغم من تأثرى من دعاء جدتى بالجميل ونيتها الخالصة . إنه لأمر يجلب السعادة حقاً أن يكون

حولك مثل هؤلاء الناس ، وماذا كان يحل لي يا ترى لو أنني نشأت في وسط أسوأ من هذا .

دعنا ننقل الآن إلى موضوع أكثر بهجة . لقد قضيت أنا ومارشال^(١) يوماً ممتعاً . إذ ذهبنا إلى شاطئ النهر ، وسرنا إلى بروم هول حيث كان يعيش أخي ، وركبنا زورقاً يملكه فرانك وجدناه هناك ، ثم جلدنا أبعاد من كوبري كنتجستون دون أن يشاهدنا أحد في بروم هول سوى رجل عجوز أعرج لا أدرى من يكون . وكان مارشال تواقاً لشرب بعض الشاي ولذا ذهبنا إلى نذل وضيق . وكان كل منا يبدو كالأبله وهو يسير دون سترة بدلتها إذ تركناها عند مرسى القوارب في تدينجتون ، ولذا اعتقدت الخادمة التي كانت صفيقة لدرجة لم أعهداها من قبل ، أننا نجانر أنيا لإصلاح البيت . ثم جلدنا عائدين بأسرع ما يمكن وكان العرق يتصبب منا بغزارة . ولقد وصلنا إلى البيت متأخرين عشر دقائق . بعد هذه الفترة القصيرة من التجديف .

٢٠ مايو — هأنذا في بيتي بعد عودتي من ساوثجيت مباشرة . إنه مكان لطيف ، على ما يبدو ، وإن كان من المؤسف حقاً أن أرى مثل هؤلاء الصبية الذين لا إدراك لهم ، ولا تفكير مستقل ، ولا ولع بالكتب المفيدة ، ولا بالقيم الأخلاقية السامية . إنه من المؤسف حقاً أن نرى أولاد عليية القوم في مجتمع متحضر وفي بلد من المفروض أنه متمسك بالأخلاق في مثل هذه الحالة المزرية . ولقد شعرت بالسعادة لأنني لم أرحل بعيداً عن منزلي قبل ذلك ، وإلا كنت مجرد واحد منهم (بهذه المناسبة ، إنني أزداد تظاهراً بالتدين بشكل مريع) إنني أعتقد أن الستة الأشهر التي مضت منذ رحيل بيلى ، قد أحدثت تغييراً في نفسي . لقد أصبحت أكثر هدوءاً ، وتفكيراً وشاعرية عن ذي قبل . وأستشهد على ذلك بشيء بسيط . لم أكن أفكر في مناظر الربيع ولكن هذا العام استولى على جمالي لدرجة أنني سألت جدي عما إذا كانت تبدو أكثر جمالاً من المعتاد . فأجاب بالنفي ، إنني أهوى الشعر أكثر من قبل . ولقد تمتعت بقراءة

(١) هو أحد الذين تولوا تعليمي سابقاً .

كل مسرحيات شكسبير التاريخية ، وأود أن أقرأ قصيدة « الذكرى » للشاعر تينيسون .

٢٧ مايو — كما ذكرت في المرة الماضية ، إنني أحاول أن أسير وفق مبادئ دون انتظار أدنى جزاء ، وحتى دون الاسترشاد بالضمير على أنه ضوء لا يُضِلُّ السبيل وواضح أن من العسير على أى إنسان أن يسير على الطريق السوى دون عون من الدين ، ومكتفياً بما يمليه عليه ضميره فحسب . لقد حاولت ذلك دون جدوى . لكن من المؤسف أنه لا ملجأ لى سوى الضمير ، فليس لدى دين يعيننى . ومبادئى ، بحالتها الراهنة ، لا تعيننى فى حياتى اليومية أكثر من معادلة جبرية . ولكن أكثر حافز إلى حياة صالحة بالنسبة لى ، هو حب جدتى لى والألم البالغ الذى أسببه لى إذا ما أخطأت . لكنها ستموت يوماً ما ، فلمن ألقاها يا ترى ؟ إن معظم ما أخشاه هو أن حياتى بعدها ستتخطم دون سند من الدين . وأكبر ما أتمناه هو ألا ينتشر دينى لأنه ينبغي على ، دون كل الناس ، ونظراً لتربيتى وشدة العناية بالجانب الأخلاقى فيها ، أن أكون أكثر الناس تمسكاً بالأخلاق . وكان ذلك ممكناً لولا أفكارى التعسة ، إذ أنه من اليسير على الإنسان الذى يتعرض لإغراء شديد أن يقنع نفسه بأن السعادة لا تأتى إلا بالرضوخ لهذا الإغراء ، عندما يرى على ما أعتقد ، أن السبيل الذى نشأ على مقتته قد أصبح فاضلاً . وإذا ما تحطمت آمالى فإننى سأقدم هذا الكتاب لتعليل ذلك .

إننا فى حاجة إلى لوثر جديد يحدد الإيمان وبيعث الحياة فى المسيحية ويفعل مثل ما يفعله أنصار مذهب التوحيد لو أن لهم زعيماً عظيماً كلوثر يتولى أمر مبادئهم . لأن الديانات ، كالأشجار ، تطعن فى السن ، ما لم تتناولها يد الإصلاح من وقت لآخر . لقد كانت للمسيحية مبادئها الحالية أيام مجدها . إننا نريد شكلاً جديداً يتمشى مع العالم ويرشدنا فى الوقت نفسه لحياة طيبة .

٣ يونيو — من الغريب جداً أنه لم يتيسر لى الإيمان إلا بعدد قليل من المبادئ أو العقائد ، إذ أننى تبيننت أن العقائد التى كنت أؤمن بها بدأت تنزلق واحدة بعد الأخرى إلى مناطق الشك . لم أشك لحظة ، على سبيل المثال فى أن الحقيقة

شيء طيب ينبغي للإنسان أن يتمسك به . لكنى الآن يستبد بى عظيم الشك والارتياب لأن السعى وراء الحقيقة قد أدى بى إلى هذه النتائج التى دونتها فى هذا الكتاب ، فى حين لو كنت رضيت بتعاليمى التى تلقيتها فى شبابه لأرحت نفسى من عناء هذا الشك . إنه السعى وراء الحقيقة الذى حطم معظم معتقداتى السابقة ودفعنى إلى ارتكاب خطايا ما كان أغنانى عنها ، ولا أعتقد أن هذا قد جعلنى أكثر سعادة . إنه بالطبع قد زاد شخصيتى عمقاً وجعلنى أزدرى التفاهات ولا أكثرث بالسخرية ، لكنه حرمنى من الانشراح وزاد من صعوبة تكوين صداقات حميمة ، وأدهى من ذلك وأمر أنه حال بينى وبين الدخول فى علاقات غير متكلفة مع الناس وهذا جعلهم لا يألفون بعض أفكارى العسيرة التى إذا صادف أن أفصحت عنها لم أصبحت على التزم موضع سخرية كانت مريرة على نفسى إلى درجة لا توصف ، وإن كانوا لا يمتدنون لىذائى إلى هذا الحد . وهكذا فى حالتى الخاصة أعتقد أن تأثير السعى وراء الحقيقة كان شره أكثر من خيره . إلا أن الحقيقة التى أقبلها يمكن القول إنها ليست حقيقة ما . وقد يقال لى أنى أنال سعادة كبيرة لو توصلت إلى الحقيقة الأصلية ، وإن كان هذا فرضاً مشكوكاً فيه للغاية . ولهذا فإننى أشك كثيراً فى أن الحقيقة لا تنطوى إلا على الخير . إن الحقائق البيولوجية بالتأكيد قد حطت من نظرتنا إلى الإنسان ، وهذا أمر مؤلم . وعلاوة على ذلك ، فإن الحقيقة قد نفرت الأصدقاء القدامى منى ووقفت حائلاً دون تكوين أصدقاء جدد ، بكل أسف . على أى حال ، ينبغي أن ينظر الإنسان إلى هذه الأمور على أنها نوع من التضحية بالذات ، لأن الحقيقة التى يتوصل إليها إنسان ما غالباً ما تزيد من سعادة كثيرين غيره ، وإن كان لا أثر لها على سعادته هو . على العموم ، لى أنى أميل إلى مواصلة السعى وراء الحقيقة ، من هذا النوع الذى ذكرته فى هذا الكتاب ، وإذا كانت هذه حقيقة بالفعل فإننى لا أنوى نشرها بل العكس هو الصحيح .

١٥ يوليو - لقد بدأت إجازتى منذ أسبوع تقريباً ، وبدأت أعتاد حياة المنزل ، وأنظر إلى ساوشجيت على أنها حلم من أحلام الماضى . فعلى الرغم

من أنى أذكر للناس أننى مولع بهذا البلد ، إلا أن الحياة هناك فى الحقيقة تزخر بالمتاعب والمواقف المحرجة ، وإن كانت أفضل مما كنت أتوقع . لا أظن مثلاً أن إنساناً يعمت الإزعاج ولا يحتمل السخرية مثل ، وإن كنت أظهار بفصط النفس . إننى أشعر باشمزاز أكثر من غيرى بكثير إذا ما أجبرت على الغناء أو الوقوف على الكراسى أو الاستيقاظ فى منتصف الليل للسكر والعريضة . إننى دائماً أفكر بطريقة منطقية فيما يجب علىّ قوله أو عمله إذ لدى من ضبط النفس ما يمكننى من تقديم أفضل ما عندى ، ولذا فإن الانفعال الذى يبدو بسيطاً للآخرين ، يرهقنى ويهز أعصابى . وعلى كل فهو أمر جميل إذ أنه يزيد من مقدرتى على التمتع ويدعم أخلاقى إلى حد كبير . ولن أنسى وسط هذه العجالة دهشتهم لأننى لا أستخدم كلمة « ملعون » ، الأمر الذى يجعلنى فى نظرهم مجرمًا . إن هذا ، على أية حال ، أمر سيئ بالنسبة لهم ، على الرغم من أن هناك جرائم كثيرة ترتكب بالفعل . . . وأشعر بالسعادة إذ إننى لم أذهب إلى المدرسة من قبل ، وإلا افتقرت إلى الشجاعة والمقدرة على التفكير المبدع المستقل ، الأمر الذى إن كان يسبب لى شقاء وألمًا ، فإنه أكبر ملاذ لى وقت الشدة . وكثيراً ما يشد من أزرى ما أشعر به من احتقار وازدراء ، حتى وإن كان فى غير موضعه ، نحو كل من يعاملنى بحقد أو اضطهاد . وأعتقد أن شعور الاحتقار له ما يبرره إذا سمعت إنساناً اعتاد ترديد عبارات سقيمة ممجوجة . ربما لو أننى لم ألتق تعليماً ممتازاً لأصبحت واحداً مثلهم . على كل ، إننى أشعر بأنه يجب أن أمتع نفسى بحياة المنزل أكثر من ذى قبل ، وأن أتخيل نفسى بطلاً مقدماً حتى يتسنى لى تقبل ما حدث فى ساونجيت من متاعب وشقاء .

٢٠ يوليو — يمكن أن ننظر إلى مسألة حرية الإرادة من ثلاث زوايا مختلفة ومتشابهة فى نفس الرقت ، أولاً تتعلق بقدرة الله المطلقة ، وثانيها من وجهة نظر حكم القانون ، وثالثها تتعلق بالحقيقة التى نقول بأن كل أعمالنا ، إذا ما أمعنا النظر فيها ، تبدو وكأنها ناتجة عن دوافع معينة . نحن نرى فى الحال أن هذه الزوايا الثلاثة واحدة ، فقدرة الله المطلقة تعنى نفس الشىء كحكم

القانون ، وتحديد الأعمال بدوافع هو المظهر الخاص الذى يراه حكم القانون عندما يحكم على إنسان . دعنا نمنع النظر فى كل من هذه الوجوه الثلاثة . ماذا نعنى أولاً بـ "بحرية الإرادة إذا نظرنا للأمر من وجهة نظر القدرة المطلقة لله ؟ إن هذا يعنى أنه إذا كان أمامنا مجالات عديدة للعمل أمكننا أن نختار أحدها . ولكن طبقاً لهذا التعريف ، إن الله لا يتحكم فيها ، وإننا دون الخلق أجمعين ، لا نعتمد عليه . إن هذا يبدو أمراً غير محتمل ، وإن لم يكن مستحيلاً . إذ أن قدرة الله المطلقة ما هى إلا استنتاج . ولنتنقل إلى الزاوية الثانية التى تتعلق بحكم القانون . من الواضح أن القانون يسيطر سيطرة كاملة على كل شئ نعرفه ، إلا الحيوانات الراقية . ويتبين وقوع الإنسان تحت سيطرة القانون من إمكان وجود قانون مثل قانون « جريم » ومن إمكان التنبؤ أحياناً بأفعال الإنسان . إذا كان الإنسان خاضعاً للقانون ، ألا يعنى هذا أن أعماله محددة سلفاً كتحديد النبات ونموه ؟ حقاً إن دوق « أرجايل » يتحدث عن الحرية داخل نطاق القانون ، لكن هذه العبارة لا معنى لها ، فى نظرى . لأن الخاضوع للقانون لا بد أن يعنى نتيجة ما تتبع دائماً ظروفاً معينة . حقاً إن اختلاف الناس يجعلهم يسلكون سلوكاً متبايناً لو وجهوا بنفس الظروف والمواقف ، لكن هذا راجع لاختلاف شخصياتهم ، مثلهم مثل مذنبين يتجهان من نفس المكان اتجاهاً متبايناً ، وذلك لاختلاف الصفات الخاصة بكل منهما . أما الزاوية الثالثة ، وهى التى تتعلق بالنظر للدوافع ، فهى أقوى الزوايا الثلاثة . فإذا ما تأملنا أى عمل مهما كان أمره ، وجدنا وراءه دائماً دوافع ، لا سيطرة لنا عليها أكثر من سيطرة المادة على القوى التى تتفاعل معها ، والتى تسبب أعمالنا . إن دوق « أرجايل » يقول إنه فى إمكاننا تقديم دوافع لأنفسنا ، لكن ألا يسمى هذا عملاً تحدده شخصيتنا وأشياء أخرى لا حيلة لنا فيها ؟ إن الدفاع عن حرية الإرادة على أنها شئ نشعر به لا يستحق منا عناء الإجابة ، لأننا لا نشعر بالدوافع التى توجد بالفعل ، ولا نشعر بتبعية العقل للمخ ، وغيرها من الأمور . على أى حال إننى لست على استعداد لإنكار حرية الإرادة لإنكاراً باتاً ، إذ

٧٥

أننى كثيراً ما تبينت أن الحجج السليمة التى تثبت قضية ما من القضايا لا تنضح إلا إذا ذكرها شخص ما . إننى أميل بطبعى لإنكار حرية الإرادة ، ولكن قد تكون هناك حجج ممتازة تؤيد حرية الإرادة ، حجج لم تخطر ببالي ولم أشعر بها شعوراً قوياً . . . ليس من السهل أن أقدم على الانتحار دون مبالاة ، الأمر الذى أعتقد أنه يجب على القيام به ، لولا تفكيرى فى أهلى وعشيرتى .

الفصل الثالث

كامبردج

كان أبى قد نال تعليمه فى كامبردج ، لكن أخى تعلم فى أكسفورد . والتحقّت أنا بكامبردج لاهتمامى بالرياضيات . وكانت بداية تجربتى بكامبردج فى ديسمبر ١٨٨٩ عندما دخلت امتحان القبول للمنح العلمية . أقمت فى جناح فى الفناء الحديد ، وكنت أخجل من أن أستفسر عن الطريق إلى دورة المياه ، فكنت أسير كل صباح إلى المحطة قبل أن يبدأ الامتحان . كنت أرى خلفيات المباني من خلال بوابة الفناء الحديد ، لكننى لم أجرؤ على ارتيادها لشعورى أنها ربما كانت أماكن خاصة . وحدث أن دعيت للعشاء مع العديد ، الذى كان من قبل ناظر مدرسة هارو^(١) أيام والدى . وهناك كان أول لقاء بينى وبين تشارلز وبوب^(٢) تريفلان . وكان بوب جرياً على عادته قد استعار حلة من أحسن حلل تشارلز ، وأغمرى عليه أثناء العشاء لأن أحد الحاضرين تكلم عن إحدى العمليات الجراحية . كنت منزعجاً من مثل هذه المتاعبة الاجتماعية الموهولة ، لكننى كنت أقل انزعاجاً مما كنت عليه منذ بضعة أشهر مضت عندما تركت فى خلوة مع جلادمتون^(٣) حين قدم علينا ليقم فى بمبروك لودج ، ولم يدع أحد ليكون فى استقباله . ولما كنت الرجل الوحيد فى العائلة ، فقد تركنا أنا وهو وحدنا على مائدة العشاء بعد أن انسحبت السيدات . وقد أبدى ملحوظة واحدة قائلاً : « إنه صنف جيد جداً من النبيذ هذا الذى قدموه لى ، ولكن لماذا

(١) مدرسة ثانوية خاصة فى إنجلترا .

(٢) روبرت هو الاسم الكامل .

(٣) رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الوقت .

قدموه في كأس مخصصة بشراب الكلاريت^(١) ؟ » . ولم أكن أعرف الإجابة ، فوددت لو ابتلعتني الأرض . ومنذ ذلك الحين لم أجرب مرة ثانية العذاب الرهيب الذي ينتج عن الرعب .

كنت أتوق إلى النجاح في امتحان المنحة العلمية ، وأثرت عصبيتي في إجاباتي . ولكنني مع ذلك حصلت على منحة صغيرة سعدت بها سعادة بالغة . فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي أمكنني فيها أن أقارن نفسي بأبناء جيلي من الطلبة النجباء .

ومنذ اللحظة وصولي إلى كامبردج في بداية أكتوبر ١٨٩٠ سار كل شيء على ما يرام . فقد وفد لزيارتنا خلال الأسبوع الأول من الفصل الدراسي كل الطلبة المقيمين في الكلية حينئذ ، والذين أصبحوا فيما بعد من أخلص أصدقائي . ولم أكن أعرف في أول الأمر سبب مجيئهم ، لكنني اكتشفت فيما بعد أن هوايتهم ، الذي تولى امتحانات المنح ، قد طلب من كل الناس أن يبحثوا عن سانجر وعني . كان سانجر قادماً جديداً مثلي ، وكان يدرس الرياضيات كذلك ، وكان أيضاً ممن حصلوا على منحة صغيرة . وكان كلانا يقيم في جناح في فناء هويويل . وكانت طريقة ويب ، معلمنا ، أن يوزع المخطوطات على طلبة فصوله ، وكان من نصيبي أن أسلم سانجر مخطوطاً بعد أن انتهيت منه . ولم أكن قد رأيته من قبل ، لكنني ذهلت للكتب التي كانت على الرفوف . قلت « إن لديك كتاب دربير عن تطور أوربا الفكرى ، وهو في اعتقادي كتاب قيم جداً » . قال : « أنت أول شخص لقيته قد سمع به » . ومن هذه النقطة انطلق بنا الحديث ، وفي نهاية نصف ساعة كنا صديقى العمر . قارنا مذكراتنا ومقدار ما قطعناه في الرياضيات . والتقت وجهات نظرنا في اللاهوت والميتافيزيقا . واختلفنا في السياسة فقد كان يومئذ محافظاً ، ولكنه انتمى في آخر حياته لحزب العمال . وتكلم عن برنارد ش الذي لم أكن قد سمعت باسمه حتى ذلك الوقت . وتعودنا أن نستذكر الرياضيات معاً . كان سريع الفهم بدرجة

(١) نوع من النبيذ معروف ببرودته .

لا يمكن تصديقها ، فكان عادة يقترب من حل المسألة قبل أن أكون أنا قد فهمت السؤال . وقد كرسنا السنة الرابعة من دراستنا الجامعية لدراسة علم الأخلاق ، لكنه درس الاقتصاد ، وانهجت أنا لدراسة الفلسفة . وحصلنا على درجة الزمالة في وقت واحد . وقد كان سانجر من أطيب الناس قلباً ، وفي أخريات حياته أحبه أطفالاً مثلما أحبيته . ولم أعرف أى إنسان آخر جمع بين نفاذ البصيرة ودفع العاطفة إلى هذا الحد الكامل . وقد أصبح محامياً أمام المحاكم العليا ، واشتهر في الأوساط القانونية بأن أعد للنشر كتاب جارمان عن الوصايا ، ذلك الإعداد الذى بلغ حدّاً عالياً من سعة العلم . وكان كثيراً ما يأسف لأن أقرباء جارمان منعه من أن يذكر في المقدمة أن جارمان مات بلا وصية . كما كان أيضاً اقتصادياً ممتازاً . وكان يستطيع أن يقرأ في عديكاد لا يخصى من اللغات ، بما في ذلك اللغات غير المألوفة مثل المجرية والفنلندية . وكنت أرافقه في جولاته بإيطاليا ، وكان يجعلنى أقوم دائماً بكل المحادثات مع أصحاب الفنادق ، ولكننى تبينت عندما كنت أقرأ الإيطالية أن معرفته بهذه اللغة كانت تفوق بمراحل معرفتى بها . وقد حزنت لموته عام ١٩٣٠ حزناً عظيماً .

أما الأصدقاء الآخرون الذين عرفتهم خلال الفصل الدراسى الأول فكنت مدينياً بمعرفتهم لتزكية هوايتييد . وقد علمت فيما بعد أن طالباً آخر كان قد حصل في امتحان المنحة على درجات أكثر منى ، ولكن هوايتييد رأى أننى أكفأ الاثنين ولذلك أحرق كشوف الدرجات قبل اجتماع الممتحنين وأوصى بى وفضلنى على الطالب الآخر . وكان كرومبتون وثيرودور لويلين دينيز من أقرب أصدقائى . كان أبوهما قساً فى أبرشية كيركبي لوزديل ، وقد قام بترجمة جمهورية أفلاطون في طبعة تسمى « النخيرة الذهبية » . وكان باحثاً ممتازاً يميل إلى اللامذهبية في الدين ، ويستمد آراءه في هذا الشأن من ف . د . موريس . وكان ربباً لأسرة مكونة من ستة أبناء وبنت واحدة . وكان يقال ، وأعتقد أن هذا صحيح ، أن الأبناء الستة ، الذين كان كرومبتون وثيرودور أصغرهم ، تمكنوا من أن يتموا تعليمهم خلال مراحل الدراسة في المدارس

والجامعة عن طريق المنح ، دون أن يكبدوا أباهم أية تكاليف . وكان معظمهم أيضاً وسيماً بشكل ملحوظ ، بما في ذلك كرومبتون الذي كانت عيناه الزرقاوان الرقيقتان تشعان بالمرح أحياناً ، وتسمان بمسحة من الجلد العميق أحياناً أخرى . وكان أصغرهم ثيودور ، الذي كان كرومبتون يقاسمه مسكنه عندما بدأت معرفتي بهما ، أكثرهم كفاءة وأقربهم إلى قلوب أفراد العائلة . وقد حصلنا على درجة الزمالة بالطريقة المعتادة ، ولكن لم يسمح لهما بالإقامة في المدينة الجامعية . وأقام الاثنان معاً في بيت صغير قريب من أسقفية وستمنستر ، ويقع في شارع هادى غير مطروق . وكان كلاهما ناهياً متوقفاً الذهن ، مشبوب العاطفة ، وكانا يلتقيان بوجه عام على نفس الآراء والمثل العليا . وكان ثيودور ذا نزعة عملية في الحياة أكثر من كرومبتون . وقد أصبح سكرتيراً خاصاً لمجموعة متتالية من وزراء الخزانة المحافظين ، هداهم واحداً وراء الآخر إلى سياسة حرية التجارة في وقت كان باقي أعضاء الحكومة يأملون منهم أن يفكروا تفكيراً مغايراً . وكان يعمل بمجدية منقطعة النظر ومع ذلك كان يجد الوقت لتقديم هدايا إلى كل أبناء أصدقائه ، وكانت الهدايا دائماً مناسبة تماماً . وكان يحرك في كل من يعرفه تقريباً شعوراً عميقاً بالمودة . ولم أعرف مطلقاً إلا امرأة واحدة لا تتمنى الزواج منه . وكانت هي ، طبعاً ، المرأة الوحيدة التي كان يتمنى الزواج منها . وفي ربيع عام ١٩٠٥ ، عندما كان في الرابعة والثلاثين من عمره ، عثر على جثته في بحيرة صغيرة بالقرب من كيركبي لوزنديل ، يبدو أنه كان قد نزل للاستحمام فيها وهو في طريقه إلى الحطة . ولا بد أن رأسه ارتطم بصخرة أثناء غوصه في الماء . وقد عانى كرومبتون ، الذي كان يحب أخاه حباً جماً ، معاناة تفوق طاقة الاحتمال . وقضيت أنا معه الأسابيع التالية لموت ثيودور ، وكان من الصعب علىّ أن أجده ما أقوله له^(١) . كان منظر تعاسته يشقيني . ومنذ ذلك الوقت ورزبن أجراس وستمنستر يعيد إلى ذهني ذكرى الليالي التي قضيتها ساهراً في ذلك الحين . وفي يوم الأحد الذي تلا الحادث ، كنت في الكنيسة عندما تولى والده ، بجلد وعزم ، إقامة الصلاة كالعادة ، ونجح بصعوبة في منع نفسه من الانهيار . وقد استعاد كرومبتون

(١) انظر خطابي إلى لوسي دارلي ، بالملحق ص ٢٨٤ ، وأيضاً خطاب كرومبتون ديفيز ص ٣١٥

بالتدريج تمالكه لنفسه ، ولكنه لم يشف تماماً من أثر الصدمة إلا بعد زواجه . وبعد ذلك ، ودون مسبب مفهوم ، لم أره لسنوات عديدة حتى سمعت ذات مساء ، عندما كنت أسكن في تشلسي ، زنين جرس الباب الخارجي . وجدت كرومبتون على عتبة . وكان سلوكه كما لو كنا قد التقينا في اليوم السابق ، وكان ماحراً كالعادة ، وأصر على رؤية أطفالي وهم نيام . وأظن أنني ارتبطت في ذهنه لحد كبير بما قاساه بعد موت ثيودور حتى أصبح لقائي محركاً لشجونه لفترة طويلة .

ومن ذكرياتي الأولى عن كرومبتون لقائي معه في أظلم جزء من درج الكلية الحارزوني ، وكان أول ما سمعته منه ترديده لأبيات الشاعر بليك الشهيرة « أيها النمر . أيها النمر . يا من تلهب متوهجاً ، في أجمة الليل » . ولم أكن حتى تلك اللحظة قد سمعت بالشاعر بليك . وقد هزنتي القصيدة حتى لقد أصابني دوار جعلني أستند إلى الحائط ، ولم يكن يمضي يوم دون أن أتذكر حادثاً ما مرتبطاً بكرومبتون ديفيز— أحياناً نكتة ، وأحياناً تقطيعية تعبر عن استنوازه من تصرف حقير أو حديث نفاق ، وفي أغلب الأحيان أتذكر مودته الغياضة الدافئة . ولو نازعتني النفس ذات مرة إلى أن أخون ثقته ، لكان مجرد تفكيرى فيما يستتبع ذلك من استنكاره باعثاً لى على الإحجام السريع . وكان يجمع بين حضور البديهة ، والعاطفة المتقدمة ، والحكمة ، والتعالى عن الصغائر . والرقه ، والنزاهة لدرجة لا يمكن أن يرقى إليها أحد قط . وفضلاً عن كل هذه الصفات . كانت مودته التى لا يمكن أن تتغير تتيح لى وللآخرين فى السنين المتأخرة . مرسى للاستقرار فى عالم متفكك .

كانت الأشياء التى يتعلق بها مقصورة عليه وحده . فقد كان عاجزاً عن أن يتبع أى جماعة سواء فى الخير أو الشر . وكان يجاهر باحتقاره لكل القضايا التى كان أصداقاه يتحمسون لها ، ويسخر من هذه القضايا وهو يضحك فى ازدياء من « جمعية كذا وكذا » أو « العصبة العالمية للدفاع عن كذا وكذا » فى حين كان طول الوقت يتحمس بينه وبين نفسه لإيرلندا ضد إنجلترا ، ولصغار

التجار ضد كبار التجار ، وللمعلمين ضد الملاك ، وللمنافسة ضد الاحتكار .
ولكن حماسه الأساسى كان ينصب على موضوع فرض الضرائب على قيمة الأرض .

ويعتبر هنرى جورج الآن أشبه بنبي منسى . ولكن فى عام ١٨٩٠ ، عام لقائى بكرومبتون ديفيز ، كانت نظريته القائلة بأن كل الإيجار يجب أن يدفع إلى الدولة لا إلى ملاك الأراضى ما زالت النظرية المنافسة للاشتراكية منافسة فعالة عند كل الساخطين على الظروف الاقتصادية السائدة يومئذ . وكان كرومبتون ديفيز فى ذلك الوقت من أنصار هنرى جورج المتعصبين فعلاً . وكان يضمم للاشتراكية كراهية شديدة ، وهو أمر متوقع ، كما كان يضمم إختلاصاً عميقاً لمبدأ حرية التجارة وللفلسفة الليبرالية . لم يكن يمتق الرأسمالى الذى يثرى من الصناعة ، ولكنه كان يعد ملاك الأراضى الذين يرفضون الضرائب على صناعات الآخرين كابوساً اجتماعياً لأنهم يملكون الأرض التى يحتاج إليها الغير . ولا أظن أنه سأل نفسه كيف يمكن أن تعجز الدولة عن بلوغ القوة العظمى لو تمتعت بكل الدخل الذى تجنيه من ملكية الأرض . وكان الإصلاح فى رأيه ، كما كان فى رأى هنرى جورج ، يتمثل فى استكمال الليبرالية الفردية ، وتحرير الطاقات التى تخنقها اليوم قوة الاحتكار . وفى ١٩٠٩ كان كرومبتون ديفيز يعتقد أن مبادئ هنرى جورج هى المبادئ التى كان يطبقها لويد جورج ، الذى أسهم ديفيز فى الوصول بميزانيته إلى حد الكمال .

وفى بداية حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ كان كرومبتون ديفيز مستشاراً قانونياً لمصلحة البريد ، ولكن تأييده المتحمس لآراء زوجته ، التى كانت من أنصار القومية الإيرلندية والتى سبجت بسبب عضويتها فى الحزب الإيرلندى المنادى باستقلال إيرلندا ، جعل موقفه شائكاً ، فطرد على الفور . وبرغم التعصب الذى كان شائعاً وقتئذ فقد قبل فوراً شريكاً فى شركة كوارد وتشانس وشركائهما ، وهى إحدى المؤسسات الرئيسية التى تضم المستشارين القانونيين فى المدينة . وفى عام ١٩٢١ كان هو الذى وضع مشروع معاهدة السلم التى أرسى قواعد الحكم الذاتى للإيرلندى ، برغم أن هذا لم يعلن مطلقاً . وقد كان إنكاره لذاته سبباً فى الحيلولة بينه وبين أى نجاح مادى هام ، إذ أنه لم يكن يعترض سبيل الآخرين سيرى الذاتية

الذين كانوا يحنون ثمار ما يقوم هو به من أعمال ، ولم يكن يبالي بالاعتراف بفضلته وتقديره على المستوى العام . وبرغم أنه كان ذا كفاءة فائقة ، إلا أن هذا لم يكن السبب الذى جعله إنساناً لا يمكن نسيانه .

ولم تكن كفاءة كرومبتون ديفيز هى ما جعله فى نفس الوقت مثيراً للإعجاب لطيفاً ، وإنما إفراطه فى الحب والكراهة ، ودعابته التى تفوق الخيال ، وأمانته الوطيدة . كان من أسرع من عرفت حضور بديهة ، وكان يجمع إلى حبه العظيم للبشر كراهية يشوبها الازدراء لمعظم الأفراد . ولم تكن أساليبه بحال من الأحوال أساليب قديس . حدث مرة ، ونحن فى صدر شبابنا ، أن كنت أتنزه معه فى الريف ، وأوغلنا فى أرض أحد المزارعين وأقبل المزارع يعبر خلفنا . وهو يصيح وقد احمر وجهه غضباً . ورفع كرومبتون يده إلى أذنه ، وقال بمنتهى الوداعة : « هل تسمح برفع صوتك قليلاً ؟ إن سمعى ثقيل جداً » . واختنق صوت المزارع وهو يحاول أن يثير ضجة أكبر من الضجة التى كان يثيرها فعلاً . وقد سمعته قبل موته بوقت قصير يحكى هذه القصة بإسهاب ومبالغة ، وهو يعزو دوره فيها إلى ، وأنا أقاطعه قائلاً : « لاتصدقوا كلمة واحدة من هذه الحكاية . فلم أكن أنا الذى فعلت كل هذا ، وإنما فعله كرومبتون » ، حتى أنهى حكايته وسط ضحكاته التى كانت تنبعث من قلبه . ١

وكانت ثيابه عادة بالغة الرثالة ، حتى إن بعض أصدقائه اعترضوا على هذا . وقد أدى ذلك الاعتراض إلى نتيجة غير متوقعة . فعندما حاولت أستراليا الغربية أن تنفصل عن الكومنولث الأسترالى عن طريق التقاضى ، لجأت إلى المؤسسة القانونية التى كان يعمل بها ، وتقرر أن تنظر القضية فى حجرة ارتداء الأرواب الرسمية . وقد سمع كرومبتون وهو يطلب ياور الملك تليفونياً ويقول له : « لقد وجه بعضهم نظرى أخيراً إلى حالة سراويل التى لا تسر . وقد فهمت أن القضية ستنظر فى حجرة الملك لارتداء الأرواب الرسمية . ويحتمل أن يكون الملك قد ترك هناك سراويلاً قديماً يصلح لى » .

وكان يعبر دائماً عن امتعاضاته العديدة الشديدة بطريقة تدعو للضحك .

وذات مرة عندما كنا نقيم هو وأنا مع أبيه ، كان هناك أيضاً أسقف قد نزل ضيفاً — وكان نموذجاً لرجل الدين الوديع المسالم ، من ذلك النوع الذى يمكن أن يقال عنه إنه لا يؤذى ذبابة . وكانت آراؤه السياسية لسوء الحظ رجعية لحد ما . وعندما خلونا أخيراً إلى أنفسنا ، اتخذ كرومبتون سمة أسير على سفينة قرصان ودمدم قائلاً : « يبدو أنه شخص قانط » .

وعندما تولى حزب الأحرار الحكم فى نهاية عام ١٩٠٥ ، وعين لورد هولدين البلدين ، المترف ، اللطيف ، فى وزارة الحربية ، قال كرومبتون بمنتهى الجدية : إنه اختير لكى يحول دون إصابة الجنرالات بالسكتة القلبية عندما تعرض المقترحات الخاصة بالإصلاحات اللازمة فى الجيش .

وكان يضايقه أن أصحاب السيارات لا يحفلون بالمارة . فكان يعبر شوارع لندن دون أن يلتقى بالـ "إليها" ، وعندما كان السائقون يستعملون آلة التنبيه وقد استشاطوا غضباً ، كان يدير رأسه متبرماً مشاكساً وهو يقول : « لا تحدثوا هذه الضجة » . وبرغم أنه كان يتجول وقد بدا عليه التشبث الفكرى الحالم ، وهو يرتدى قبعته على مؤخر رأسه ، كان سائقو العربات يعتقدون أنه شخص بالغ الأهمية ، وينتظرون فى صبر بينما يواصل هو طريقه .

وكان ديفيز يحب لندن شأن « لام » ودكتور « جونسون »^(١) . وذات مرة ، عندما كان يندد بالشاعر ورد زويرث^(٢) لكتابته عن الأماكن الأقل شأنًا ، قلت له هل تستثير إعجابك قصيدته عن « جسر وستمنستر » ؟ فأجاب « آه ، طبعاً ، لو أنه فقط كتب عنه بنفس المستوى » . وفى آخريات حياته كنا نمشى معاً فى لندن بعد العشاء ، هو وزوجتى وأنا . وكان كرومبتون يأخذ بذراعينا ، كأنه لم يكن يمسك بهما فعلاً ، أثناء مورونا

(١) تشارلز لام : أشهر كتاب المقالات فى إنجلترا فى القرن التاسع عشر . وصامويل جونسون أكبر شخصية أدبية فى القرن الثامن عشر .
(٢) زعيم شعراء الرومانسية فى إنجلترا فى القرن التاسع عشر . ومن أشهر قصائده قصيدته عن كوبرى وستمنستر الوارد ذكرها هنا .

أمام كنيسة القديس كليمنت دينر التي بناها رن^(١)، ليدكرنا أن ننظر إلى أحد المناظر المحيية إلى نفسه ، وهي المنارة التي ترتفع قائمة أمام لون السماء الأزرق المتوهج وقت المساء . وكان أحياناً يدخل أثناء هذه الزهات في حديث مع الناس الذين كنا نلتقي بهم . وأذكر أنه دخل في نقاش مع أحد حراس الحدائق ، وربما في موضوع قيمة الأرض . وكان الحارس في أول الأمر مصرّاً على أن يتذكر كل منا طبقته ويلزمها ومكانته الرسمية ويحافظ عليها . وكان يعامل كرومبتون في استنكار مشوب بالاحترام . فقد كان الحارس يرى أن الأغراب لا ينبغي أن يحادثوا الأغراب ، وأن السادة لا ينبغي لهم أن يتبسطوا مع العمال . كما كان يرى أنه لا ينبغي مخاطبة أى موظف رسمى أثناء تأديته عمله . ولكن سرعان ما ذاب جمود الحارس ، فقد كان كرومبتون ديمقراطياً أصيلاً ، وكان يخاطب موظفى مكتبه وخدمه بنفس اللهجة التي كان يخاطب بها ذوى المكانة كالمهرجات الهنود الذين كان يدير لهم أعمالهم . وكان سلوكه في أى كوخ إيرلندى من غرفتين لا يختلف بتاتاً عن سلوكه في أى حفل يضم المشاهير . وما زلت أذكر دمايته الفائقة حين وقف ينحنى ويصافح خادمة الصالون ، عندما علم أنها كانت من نفس الناحية التي جاءت منها أسرته .

وكان يميل إلى الفوضوية بطبعه ، ويكره النظام والتنظيم وتطابق الأشياء . وقد حدث ذات مرة ، عندما كنت أعبر معه جسر وستمنستر ، أن أشار مبتهجاً إلى عربة صغيرة يجرها حمار وسط زحمة المرور ، قائلاً : « هذا هو ما أحبه . الحرية لكل الأنواع » . ومرة أخرى ، عندما كنت أسير معه في إيرلندا ، ذهبنا إلى محطة أتوبيس ، وهناك اتجهت أنا دون تفكير صوب أكثر السيارات فخامة وراحة . فاجذبني هو من ذراعى ، وقد اكسى وجهه بتعبير مأخوذ ، وأسرع بي إلى سيارة صغيرة رثة عتيقة ، وهو يشرح لى في جدية أنه كان يتحدثى بكل ما أوتى من شجاعة الشركات الاحتكارية .

وكان يشط في آرائه أحياناً ، ولم يكن لديه مانع من أن يطلق العنان

(١) مهندس معمارى شهير في إنجلترا .

للآراء التي يتعصب لها . وكان يحب المتمردين ربما أكثر مما يتمشى مع المنطق . وكان يفزع من أى رأى يشتم منه أنه يحسب الأشياء حساباً دقيقاً . وقد صدم صدمة عنيفة عندما قلت له مرة إن أى حرب لا يمكن تبريرها ما لم يكن احتمال النصر قائماً . فقد كان يرى روعة فى أى تحد بطولى يائس . وكانت معظم نواحي تعصبه متفقة مع مشاعري ، لدرجة أن قلبي لم يطاوعني على مناقشتها — فقد كان هذا أمراً ميثوساً منه على أية حال .

وبهذه الطباع وهذه الآراء ، كان من الطبيعي أن يكره كرومبتون ديفيز سيدنى ويب وبياتريس ويب^(١) . وعندما تبني سيدنى ويب وزوجته قانون إصلاح أحوال الفقراء ، كان كرومبتون يقول إنه لما رفض كل الناس محاولتهما لسن هذا القانون . اضطررا أخيراً إلى جمع الفقراء العزل وتنظيمهم سياسياً . وكان ينسب إليهما أنهما استخدما واحداً من الفقراء ذا ساق صناعية من الخشب لكي يخفر بها في الأرض حفراً لزراعة البطاطس ، ويضرب هذا مثلاً على انتصاراتهما في التنظيم .

وقد كان محامياً لى مدة سنوات طويلة ؛ وهو عمل تكفل به بدافع الصداقة . فقد كان أكثر مزاولته للمهنة يتركز في القضايا الكبرى التي تتعلق بالأمراء الهنود وحكومات الدومينيون والبنوك الرئيسية . وقد كشف ، في المسائل القانونية ، عن استقامته التي لا تنحرف ، وعن مهارته وصبره ، ذلك الصبر الذي كان يثير الدهشة حقاً ، لأنه كان بطبعه أقل الناس صبراً . وبهذه الأساليب التي كانت توحى بالثقة حتى بين خصومه ، تمكن من تحقيق نتائج لم يكن من السهل تحقيقها عن طريق الخداع البارع . وما زلت أذكر التعبير الجامد الذي بدا على وجهه عندما اقترح أحدهم عليه أثناء إحدى الاستشارات القانونية سبيلاً ملتوياً .

ولكنه برغم جديته الراسخة في نفسه ، كان دائماً المرح . فقد كان يصل إلى أ

(١) كانا من دعائم الجمعية القابية التي كانت تنادى بالاشتراكية الديمقراطية في إنجلترا إذ ذاك وكان مشهوراً عنهما الدقة في جمع البيانات والولع بالإحصائيات .

أى حفل عشاء ، بعد يوم طويل من العمل المضنى ، وهو يفرض مرحاً كأنه قد استمتع لتوه بجرعة طيبة من الشمبانيا ، وينشر الضحك بين الجميع . وقد مات فجأة وسط حفل عشاء بالسكتة القلبية ، وربما كان يعلم احتمال حدوث هذا ، لكنه احتفظ بهذا العلم لنفسه . وتذكر أصدقاؤه فيما بعد أنه كان يلوح تلميحات لطيفة إلى أنه لم يكن يتوقع أن يعيش طويلاً ، ولكنها لم تكن كافية لأن تثير مخاوف أولئك الذين كانوا يعرفون قدره .

وفى أخريات حياته كان يقضى الجزء الأكبر من وقت فراغه يؤلف كتاباً فى الفلسفة ، وكان يشير إليه باستخفاف على أنه « طبق الفطير » الخالص به . وهذه إشارة وردت فى إحدى مسرحيات ابسن إلى رجل عجوز يملك موهبة وحيدة ، هى صناعة أطباق الفطائر ، وله مطعم وحيد وهو أن يصنع طبق فطير جيد فعلاً قبل أن يموت . وكانت الفلسفة هى شغله الفكرى الشاغل فى صدر شبابه ، وكانت تلى اهتمامه بالشعر اليونانى ، وفى بداية تعارفنا كنا نقضى وقتاً طويلاً نناقش فى علمى الأخلاق والميتافيزيقا . ثم شغلته حياته المهنية الخافلة ، فى منتصف عمره ، بالأمور العملية . ولكنه تمكن أخيراً من أن يوفر بعض الوقت للتفكير النظرى الذى عاد إلى ممارسته بابتهاج صادق . وعندما أوشك على الانتهاء من الكتاب فقد منه فى قطار ، مثلما يفقد الناس أحياناً أعز ما لديهم . ولم يستعده أبداً . ولا بد أن أحداً قد أخذه على أمل أن يحصل منه على قيمة مالية . وقد ذكر لى هذه الخسارة فى حزن وإيجاز قائلاً : إنه لم يكن أمامه إلا أن يبدأ من جديد فى كتابته من المذكرات القليلة التى كانت عنده ، ثم تكلم فى موضوع آخر . وخلال الأشهر القليلة التى سبقت وفاته قلت رؤيتنا له ، رغم أنه فى المرات التى رأيته فيها كان مرحاً بشوشاً كعادته . كان يصرف معظم طاقاته الزائدة عن حاجته فى محاولة لإتمام الكتاب الذى فقد منه ، ولكن طبق الفطائر لم يكتمل أبداً .

وكان الفيلسوف ماكتاجارت ، الذى كان أكثر منى خجلاً ، صديقاً آخر من أيام كامبردج . فذات يوم سمعت طرقاً على بابى ، طرقاً رقيقاً جداً ، فقلت :

« ادخل » ولكن لم يحدث شيء . فقلت بصوت أعلى : « ادخل » . وفتح الباب ، ورأيت ماكتاجارت واقفاً أمام عتبة الباب . كان رئيس اتحاد الطلبة في ذلك الوقت ، وعلى وشك أن يحصل على درجة الزمالة ، وكان يوجه إلى بالرهبة بسبب شهرته في الميئافيزيما . لكن خجله منعه من الدخول ، ومنعني خجلي من دعوته إلى الدخول . ولا أستطيع أن أذكركم دقيقة مرت وأنا في هذا الموقف . ولا أدري كيف دخل حجرتي في النهاية وبعد ذلك اعتدت أن أتردد على مائدته للإفطار معه . وقد اشتهرت مائدة إفطاره بضآلة ما عليها من الطعام ، والواقع أن كل من ذهب إليها مرة كان يحضر معه بيضة في كل مناسبة تالية . وكان ماكتاجارت من أتباع الفيلسوف هيجل ، وكان في ذلك الوقت شاباً متحمساً . وكان له نفوذ فكري عظيم على أبناء جيلي ، ورغم أنني لا أظن كلما استعدت الذكر أنه كان تأثيراً طيباً . وظللت مدة سنتين أو ثلاث واقعاً تحت تأثيره ، ومن المتحمسين مثله لهيجل . وما زلت أذكر اللحظة التي أصبحت فيها من أتباع هيجل أثناء السنة الرابعة . كنت قد ذهبت لأشترى علبة تبغ ، وبدأت أعود أدراجي في شارع ترينيتي ، عندما قذفت بها في الهواء إلى أعلى وأنا أصبح : « يا ربنا العظيم . إن البرهان على وجود الله صحيح » . وبرغم أنني لم أعد أتعقب فلسفة ماكتاجارت بعد عام ١٨٩٨ ، إلا أنني ظلت متعلقاً به إلى أن كف عن دعوتي لزيارته خلال الحرب العالمية الأولى لأنه كان يضيق بآرائه . وتبعاً لذلك لعب دوراً رئيسياً في طردى من التدريس بالجامعة .

وكان لويس ديكنسون وروجر فراي^(١) صديقين آخرين التقيت بهما في السنوات الأولى من حياتي في كامبردج واحتفظت بصدائهما منذ ذلك الحين . وكان ديكنسون يملأ الناس حباً له لفرط مودته ورقته . وعندما كان زميلاً بالجامعة

(١) عاش روجر فراي بين ١٨٦٦ و ١٩٣٤ ، وتعلم في كامبردج ، فكان من أبرز الفنانين المصورين الإنجليز ومن أبرز نقاد الفن في زمنه وقد اشتهر باهتمامه بالقالب والتصميم والتكنيك . وقد ترك جملة مؤلفات في النقد الفني تعد من أهم الآثار في نقد الفن وأهمها (سيزان) في ١٩٢٧ و (الرؤيا والتصميم) في ١٩٢٠ وقد عين أستاذاً للفنون الجميلة في كامبردج عام ١٩٣٢ .

وكنّت لا أزال طالباً ، أدركت أن من الممكن أن أجرح شعوره بأقوالى الفظة عن الحقائق التى كنت أراها كريهة . وكانت أحوال العالم التى تجعلنى لا ذعاً تجعله حزيناً ، وحتى آخر أيامه كنت أخشى عندما ألتقى به أن أضعف من تعاسته بالواقعية المجردة . ولكن ربما لم تكن كلمة واقعية هى الكلمة الصحيحة . فإنما أقصد فى الواقع وصف الحقائق غير المحتملة بصراحة منفرة تستفز غضب الآخرين على . وقد قال لى ذات مرة إننى أشبه كورديليا ، ولكننى لا أستطيع أن أقول إنه كان يشبه الملك لير .

ومنذ لحظتى الأولى فى كامبردج ، كنت ، رغماً عن خجلى ، اجتماعياً للغاية . ولم أجد أى عائق مطلقاً بسبب تعليمى الذى تلقينته فى البيت لا فى المدرسة . وتحت تأثير الصحبة اللطيفة أصبحت بالتدريج أقل تزمناً . وكان مما يبعث على الشوة اكتشافى أننى أستطيع أن أقول الأشياء التى كنت أفكر فيها . وأن ألتقى ردوداً على أسئلتى دون فزع أو استنكار كما لو كنت قد قلت شيئاً معقولاً . ولفترة طويلة كنت أظن أنه فى مكان ما بالجامعة كان هناك طلبة أذكىاء لم ألتق بهم بعد ، وأننى يجب أن أبادر إلى التعرف إليهم باعتبارهم يفوقونى فكرياً . لكننى اكتشفت خلال السنة الثانية أننى كنت قد تعرفت فعلاً على أذكى الناس فى الجامعة . وقد خيب هذا ظنونى ، لكنه منحنى ثقة متزايدة فى نفسى . وفى السنة الثالثة تعرفت على ج. ا. مور ، وكان طالباً حديث الالتحاق بالجامعة عندئذ ، وجدت لبضع سنوات أنه يحقق مثلى الأعلى فى العبقرية . وكان وقتئذ وسياً رقيق القوام ، ذا نظرة ملهمة ، وبصيرة حادة عميقة مثل بصيرة سبينوزا ^(١) . وكان على درجة عالية من الصفاء . ولم أنجح قط فى حمله على الكذب إلا مرة واحدة . قلت له يوماً « أجبنى يا مور ، هل تقول الحق دائماً ؟ » وأجابنى « لا » وأعتقد أن هذه كانت الكذبة الوحيدة التى قالها فى حياته . كان أهله يعيشون فى دليتش ، حيث ذهبت لزيارتهم ذات يوم . كان أبوه طبيباً متقاعداً ، وكانت

(١) سبينوزا ١٦٣٢ - ١٦٧٧ فيلسوف هولندى .

أمه تلبس « بروشاً » ماسياً يحمل صورة للكوليزيوم^(١). وكان له عدد كبير من الإخوة والأخوات ، أكثرهم إثارة للاهتمام الشاعر ستيرج مور . كان مغامراً مقدماً في عالم الفكر ، ولكنه كان طفلاً في عالم الحياة اليومية . وقد قضيت معه أياماً طويلة نتجول معاً على ساحل نورفوك خلال السنة الرابعة . وتصادف أن التقينا بشخص أجش الصوت راح يتكلم عن بترونيوس^(٢) مستملاً للغاية قلة احتشامه . وكنت أميل إلى تشجيع الرجل ، الذي وجدته نموذجاً مسلياً . وظل مور صامتاً تماماً حتى مضى الرجل ، فاستدار إلى قائلاً : « كان ذلك الرجل فظيلاً » . ولا أظن أنه كان يجد أقل متعة في القصص والأحاديث غير المهذبة طوال حياته . وكان مور مثلي متأثراً بما كتاجارت. وكان من أتباع هيجل لفترة قصيرة ، ولكنه تخلص من تأثيره بأسرع مما تخلصت . وكانت مناقشاتي معه هي التي دفعتني إلى الإعراض عن كانط وهيجل معاً . وبرغم أنه كان يصغرنى بعامين إلا أنه أثر في نظرتي الفلسفية تأثيراً عظيماً . وكان من التسليات المفضلة عند كل أصدقاء مور هي ملاحظتهم إياه وهو يحاول أن يشعل غليونه . كان يشعل عود الثقاب ، ثم يشرع في الجدل ، ويستمر حتى يحرق العود أصابعه . ثم يشعل عود ثقاب آخر ، وهكذا ، حتى يأتي على العلبة كلها . ولا شك أنه انتفع من هذا صحياً لأنه أعفاه من التدخين المتواصل .

ثم كان هناك الإخوة الثلاثة تريفيليان . وكنا جميعاً نعتبر أكبرهم ، تشارلز ، أقل الثلاثة كفاءة ، ويلييه بوب صديقي الخاص وقد أصبح شاعراً واسع العلم إن لم يكن شاعراً ملهماً ، ولكنه في صغره كان ذا مزاج غريب الأطوار . وذات مرة عندما خرجنا في رحلة للقراءة في منطقة البحيرات ، نزل إيدي مارش ، بعد أن استغرق في النوم ، مرتدياً قميص النوم ليرى إن كان طعام الإفطار معداً ، وهو يبدو مقروراً بانساً . وأسماء بوب (الشكل الأبيض البارد) وظلت هذه التسمية ملتصقة به لفترة طويلة . وكان جورج تريفيليان^(٣) أصغر بكثير

(١) كوليزيوم مسرح روما الشهير في الهواء الطلق سنة ٨٠ م استخدم ساحة للعب .

(٢) بترونيوس شاعر روماني عاش في القرن الأول الميلادي أيام الإمبراطور نرون .

(٣) ولد المؤرخ الإنجليزي الكبير جورج تريفيليان في ١٨٧٦ وتعلم في كامبردج ، وفي سنوات الحرب العالمية الأولى عين قومنداناً لفرقة الإسعاف الأولى البريطانية في إيطاليا . وفي ١٩٢٧ عين =

من بوب ، ولكن معرفتي به توثقت فيما بعد . وكان هو وتشارلز يحبان المشي حباً جمّاً . وذات مرة عندما خرجت في رحلة على الأقدام مع جورج في ديفونشاو ، استخلصت منه وعداً بأن يقنع بمسافة خمسة وعشرين ميلاً في اليوم . وحافظ على وعده حتى آخر يوم في الرحلة ، ثم تركني قائلاً " إنه ينبغي عليه أن يقوم بعد هذا بجولة صغيرة على الأقدام . وفي مناسبة أخرى . عندها كنت أسير وحدي ، وصلت ذات مساء إلى فندق (السحلية) . وسألهم إن كان يمكنهم أن يجدوا لي سريراً . وأجابوني « هل اسمك مستر تريفيليان ؟ » قلت « لا . هل تتوقعون وصوله ؟ » قالوا « نعم وزوجته هنا فعلاً » . وأدهشني هذا . إذ كنت أعلم أن ذلك اليوم كان يوم زفافه . ووجدتها وقد أضنتها الوحدة ، فقد تركها في ترورو قائلاً " إنه ليس في استطاعته أن يواجه اليوم كله دون جولة صغيرة على الأقدام . ووصل حوالي الساعة العاشرة مساء ، وفي حالة إعياء تام ، وقد قطع أربعين ميلاً في وقت قياسي ، ولكنني رأيت هذه بداية غريبة لشهر العسل . وفي يوم ٤ من أغسطس ١٩١٤ سرنا سوياً في شارع ستراند بلندن ونحن نتشاجر . ومنذ ذلك الوقت لم أراه إلا مرة واحدة ، عندما عدت إلى كلية ترينيتي عام ١٩٤٤ ، أي بعد أن أصبح عميداً للكلية . وعندما كان طالباً أوضح لي مرة أن آل تريفيليان لا يرتكبون أخطاء في الزواج . قال إن الواحد منهم ينتظر حتى يصبح في الثلاثين ، ثم يتزوج من فتاة تجمع بين العقل والمال . وبرغم الأوقات العصبية التي كانت تحل بي من آن لآخر ، إلا أنني ما تمنيت يوماً أن أتبع هذه المشورة .

وكان بوب تريفيليان ، فيما أظن . أكثر من عرفت لإقبالاً على القراءة . كان يرى ما تحويه الكتب مثيراً بينما يرى واقع الحياة شيئاً يمكن إغفاله . وشأن

= أستاذاً للتاريخ الحديث بجامعة كامبردج . وأهم مؤلفاته في عهد أسرة ستوارت في ١٩٠٧ وجاريدالدي وبناء إيطاليا في ١٩١١ ، وسيرة جون بريت (الزعيم الراديكالي المعروف في القرن التاسع عشر) في ١٩١٣ ، وتاريخ اللورد جراي وقانون الإصلاح الأكبر في ١٩٢٠ ، وتاريخ بريطانيا في القرن التاسع عشر في ١٩٢٢ ، وتاريخ إنجلترا في ١٩٢٦ ، وإنجلترا في عهد الملكة آن في إلخ . ١٩٣٠ .

كل أفراد العائلة ، كان على علم دقيق بالاستراتيجيات والتكتيكات التي اتبعت في كل معارك العالم الكبرى ، كما وردت في كتب التاريخ المشهورة . وأثناء أزمة معركة المارن^(١) كنت أقيم معه ، ولما كنا في يوم الأحد ، لم يكن من الممكن أن نحصل على صحيفة إلا إذا سرنا ميلين . ولكنه كان يرى أن المعركة ليست مثيرة لدرجة أنها تستحق الاهتمام ، لأن وصف المعارك في الصحيفة يبدو مبتذلاً . وقد ابتكرت ذات مرة سؤال اختبار كنت أوجهه إلى الكثيرين لأكتشف ما إذا كانوا متشائمين أم لا . كان السؤال هو « لو كان بمقدورك أن تدمر العالم ، فهل تفعل ذلك ؟ » وقد وجهت إليه هذا السؤال على مشهد من زوجته وطفله ، فأجاب : « ماذا ؟ أدمر مكتبي ؟ — أبداً » . وكان دأبه أن يكتشف شعراء جديداً ويقرأ شعرهم بصوت عال ، ولكنه كان دائماً يبدأ قراءتها مستنكراً فيقول : « ليست هذه القصيدة أحسن قصائده » وذات مرة عندما ذكر اسم شاعر جديد أمامي وقال إنه يود أن يقرأ لي بعض قصائده قلت : « لا بأس ، على ألا تقرأ لي قصيدة إلا إذا كانت من أحسن قصائده » . وأفحمه هذا تماماً ، فنحى الكتاب جانبا .

ولم يسهم أعضاء هيئة التدريس إلا قليلاً في متعنى بكامبردج . فقد كان العميد أشبه بشخصية خرجت لتوها من كتاب المتعجرفين لثاكري . وكان عادة يبدأ ملاحظاته بقوله « منذ ثلاثين سنة تماماً » أو بقوله « هل تذكرن بالصدفة ما كان السيد بت يفعله من مائة سنة تماماً ؟ » ثم يمضي في سرد حكاية تاريخية تبعث على الضجر ليدلل على طيبة وعظمة رجال الدولة الذين ورد ذكرهم في التاريخ . ومن نماذج أسلوبه في الرسائل رسالته التي كتبها إلى بعد الامتحان الشفوي في الرياضة الذي اعتبرت فيه « المجادل السابع »^(٢) .

(١) المعركة الشهيرة التي دارت فيها الدائرة على الألمان في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ -

١٩١٨ .

(٢) تقييم لمستوى الطلبة في الامتحانات تتبعه جامعة كامبردج .

تريتي لودج

كامبردج

١٣ من يونية ١٨٩٣

عزيزى برتراند رسل

لا أستطيع أن أعبر عن مدى سعادتنا بهذا النصر العظيم . فلقد مضى ٣٣ عاماً تماماً منذ أن سلمت والدك العزيز في مدرسة هارو جائزة المستوى الخامس في النثر اللاتيني . وهذا يشفع لى الآن في أن أهنيء ابنه وأمه نفسها على نجاحك الفائق في الرياضة الذى سيكون موضع تقدير الكلية .

وقد كنا نعرف كفاءتك في الرياضيات . لكننا كنا نعرف أيضاً أنك لم تتركس كل تفكيرك لما وأنتك وجهت جزءاً كبيراً منه إلى موضوعات أخرى ، ولو أن هذا كان قد أضعف قدرتك في الرياضيات ، لأسففت لهذا بالطبع . ولكننى كنت سأدرك أن هناك ما يعوض هذا .

وليس أمانى الآن إلا أن أهنتك . وليس أمامك الآن إلا أن ترقب في هدوء الامتحان الشفوى في علم الأخلاق وأن تنطلق إلى الحصول على درجة الزمالة دون أن يساورك شك في أنك قد خلفت وراءك فراغاً في الرياضيات .

ويسعدنى أن أكتب بعض السطور إلى ليدى رسل وليدى ستانلى . سيكون هذا يوماً يحمل إليهما السعادة .

المخلص

هـ . مونتاجيو بتلر

(عميد كلية تريتي)

وأذكر أنني دعيت يوماً إلى الإفطار في تريتي لودج ، ووافق هذا يوم عيد ميلاد شقيقة زوجته ، وبعد أن تمنى لها أن يعيد الله عليها هذا اليوم بالسعادة ، واصل كلامه قائلاً : لقد عشت حتى الآن ، يا عزيزتى ، مدة تماثل مدة حرب البيلوبونيزه تماماً . ولم تكن تدري كم لبثت هذه الحرب ، لكنها كانت تخشى

أن تكون قد لبثت مدة أطول مما ترجو . وقد شغفت زوجته بنظرية علاج المرض بالإيمان ، وهى النظرية التى أدت إلى إطالة عمره مدة عشرين عاماً أكثر مما توقع الجميع . وقد حدث هذا بسبب عدم تعاطفها مع علله . فعندما كان يمرض ، كانت تكتب إلى مجلس الكلية قائلة إن العميد ملازم الفراش ويرفض مغادرته . ولكن ينبغى على أن أقرر أن وكيل الكلية ، أولدس رايت ، وجوى بربور ، أقدم زميل بها ، عاشا نفس المدة تقريباً دون حاجة إلى نظرية العلاج بالإيمان . وما زلت أتذكر وأنا ما زلت بعد طالباً أنى كنت أراقب الثلاثة وهم يقفون عند البوابة الكبرى حاسرى الرؤوس فى استقبال الإمبراطورة فردريكا . كانوا يومئذ طاعنين فى السن ، وإن لم يظهر عليهم بعد مضى خمسة عشر عاماً أن السن قد تقدمت بهم . وكان أولدس رايت شخصية مهيبة ، يقف دائماً منتصب القامة كالسفود الذى تنظف به البندقية . ولم يكن يظهر خارج منزله دون قبعة عالية ، بل إنه ذات مرة عندما أوقف من نومه فى الثالثة صباحاً بسبب حريق شب فى الكلية ، كانت القبعة العالية فى مكانها على رأسه كما ينبغى لها أن تكون . وكان يتمسك بنطق اللاتينية بالطريقة الإنجليزية بينما كان العميد يتبع نطق القارة الأوروبية . وكان تأثير هذا غريباً عندما كانا يتبادلان قراءة آيات الإنجيل فى صلاة الشكر ، خصوصاً وأن الوكيل كان يتق مثل الضفادع فى قراءته ، بينما كان العميد يتلو الآيات بطريقة تهز المشاعر . وخلال فترة دراسى ، كنت أنظر إلى كل هؤلاء الرجال على أنهم مجرد شخصيات مضحكة ، ولكننى بدأت أرى فيهم قوى شريرة خطيرة ، عندما أصبحت زميلاً أحضر اجتماعات مجلس الكلية . وعندما اضطرت الكلية إلى فصل عميد حديث العهد ، وهو قس اغتصب ابنته الصغيرة وأصيب بالشلل نتيجة لإصابته بالزهري ، خرج العميد أثناء اجتماع الكلية عن موضوع حديثه لكى يقرر أن من لم يكن منا مواظباً على الحضور إلى الكنيسة الصغيرة كان يجهل روعة مواعظ هذا الرجل الجليل . وكان رئيس الفراشين أهم شخصية فى الكلية بعد هؤلاء الثلاثة ، وكان ذا قوام مهيب حتى إن الطلبة كانوا يحسبون أنه الابن الطبيعى لإدوارد السابع المقبل . وبعد أن

أصبحت زميلاً ، اكتشفت أن المجلس اجتمع في إحدى المناسبات مدة خمسة أيام متوالية في سرية قصوى . وبصعوبة بالغة اكتشفت طبيعة المسألة . كانوا مشغولين بإثبات حقيقة مؤلة وهي أن رئيس القراشين كانت له علاقات مشينة بخمس نساء من العاملات في عنابر النوم ، ورغم أنهم جميعاً بحكم القانون لم يكن قاصرات أو عذارى .

ولقد اقتنعت وأنا بعد طالب بعدم جدوى بقاء أعضاء هيئة التدريس في الحياة الجامعية . فلم أكن أجنى أية فائدة من المحاضرات . حتى إنني أقسمت ألا أحسب حساباً لفائدة المحاضرات عندما أصبح محاضراً في الوقت الملائم . ولقد حافظت على هذا القسم .

كنت مهتماً بالفلسفة فعلاً قبل أن ألتحق بكامبردج . ولكنني لم أكن قد قرأت فيها كثيراً باستثناء أعمال جون ستيوارت مل . وكنت شديد الرغبة في إثبات افتراض صحة الرياضيات . وكانت الحجج التي ساقها ستيوارت مل في كتابه المنطق عن هذا الموضوع تبدو لي غير كافية بتاتاً . وقد قرأت هذه الحجج وأنا في الثامنة عشرة . ولم يكن المدرسون الخاصون الذين علموني الرياضة قد أوضحوا لي على الإطلاق أى دليل يجعلني أفترض أن التفاضل والتكامل في الرياضة ليس إلا نسيجاً من الأباطيل . ولذلك كان هناك سؤالان يقضان مضجعي ، أحدهما فلسفي ، والآخر رياضي . أما السؤال الرياضي فكان قد وجد له حلاً في القارة الأوروبية فعلاً ورغم أن إنجلترا كانت على معرفة ضئيلة بأبحاث القارة الأوروبية . ولم أكتشف إلا بعد أن تركت كامبردج وبدأت أعيش في الخارج ما كان يجب عليّ أن أتعلمه خلال السنوات الثلاث التي قضيتها طالباً في الجامعة . أما الفلسفة فكان لها شأن آخر . وقد تعرفت في الريف على هارولد يواقيم ، الذي كان يقوم بتدريس الفلسفة في كلية ميرتون بجامعة أكسفورد . وكان صديق الفيلسوف ف . ه . برادلي^(١) . وكانت شقيقة يواقيم قد تزوجت من

(١) عاش الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس هيربرت برادلي بين ١٨٤٥ و ١٩٢٤ ، وتعلم في أكسفورد ودرس بها . بدأ متأثراً بمثالية هيغل ثم ثار عليه وكان من أكبر خصوم ينشام وستيوارت مل.

عمى رولو ، فكنت ألقاه من آن لآخر في مباريات التنس وأمثال هذه المناسبات . وتمكنت من أن أحصل منه على قائمة طويلة بالكتب الفلسفية التي ينبغي على أن أقرأها . وقد شرعت في قراءتها أثناء دراستي للرياضيات . وما إن وجدت الوقت الكافي حتى كرست نفسي لدراسة الفلسفة بحماسة شديدة . وخلال السنة الرابعة في الجامعة قرأت معظم الفلاسفة العظماء كما قرأت عدداً هائلاً من الكتب في فلسفة الرياضيات . وكان جيمس وورد يعطيني كتباً جديدة في هذا الموضوع ، وكنت أعيدها إليه قائلًا في كل مرة إنها كتب رديئة . وما زلت أذكر خيبة أمله ، ومحاولاته المضنية لكي يجد كتاباً يرضيني . ولكنني في النهاية ، بعد أن تخرجت وعينت زميلًا ، حصلت على كتيبين ، لم يكن قد قرأ أيهما أو لعله كان يظن أنهما بلا أية قيمة . وكان هذان الكتابان كتاب جورج كانتور^(١) «معرفة التعددية» وكتاب فريج «تحديد المعنى» . وقد زودني هذان الكتابان أخيراً بملخص ما كنت أريده ، ولكنني احتفظت بكتاب فريج عدة سنوات قبل أن أتمكن من فهم معناه . والواقع أنني لم أفهمه إلا بعد أن اكتشفت بنفسى معظم ما جاء به . وفي هذا الوقت كنت قد تخلصت من صلبى وحجلى اللذين أتيت بهما إلى كامبردج أول الأمر . وأذكر أنني ذهبت للمقابلة رالدى بشأن السكن قبل أن أذهب للإقامة بالجامعة ببضعة أشهر ، وبينما كنت في غرفة الانتظار

والمذهب النفى والمذاهب المادية بوجه عام ، وفي كتابه دراسات الأخلاق في ١٨٧٦ هاجم النفى ودعا إلى أن تحقيق الخير العام هو غاية الأخلاق مفترضاً وجود ذات كلية ترتفع على الذات الأنانية بين البشر . وفي أهم كتبه وهو الظاهر والحقيقة في ١٨٩٣ قال إن التجربة أو الاختيار معناه وحدة الإنسان التامة مع ما يدركه من أشياء في الكون . ولكن بما أن الحقيقة الشاملة أكبر من أن يدركها العقل المحدود فأحكامنا لا يمكن أن تخلو من الخطأ . وحل هذه الإشكال هو افتراض ناقص عن المطلق أى الحقيقة في ذاتها وهى الحقيقة التي لا تقوم على علاقة بين الإنسان والكون أى قائمة سواء وجد الإنسان أو لم يوجد . وهو يسمى هذه الحقيقة الروح المطلق ، ونظريته فيها رجعة إلى المثالية الألمانية وقد وصف برادلى بأنه أعظم الفلاسفة منذ كانط .

(١) عاش جورج كانتور بين ١٨٤٥ و ١٩١٨ . وكان من أبرز علماء الرياضيات الألمان ومن أهم نظرياته في الرياضة نظريته في الأعداد اللاعقلية ونظريته في حساب اللامتناهي أو اللامحدود . وقد تأثرت به الرياضيات والمنطق الرياضى في القرن العشرين .

رحت أتصفح الجرائد (وهى الصحيفة التى كان يصدرها الطلبة) . كان ذلك أثناء أسبوع أعياد مايو ، وقد صدمت عندما قرأت فى الصحيفة أن أفكار الناس تنصرف عن العمل فى هذا الأسبوع . ولكنى أصبحت فى السنة الرابعة مرحاً أميل إلى العبث . ولما كنت أقرأ عن وحدة الوجود ، فقد أعلنت لأصدقائى أننى إله ، فقاموا بوضع شموع عن يمينى وشمالى وراحوا يقيمون طقوس عبادة صورية . كانت الفلسفة بوجه عام تبدو لى متعة رائعة ، وكنت أستمتع بالتصورات الغريبة للعالم التى يقوم عظماء الفلاسفة بتزويد الخيال بها .

كانت أسعد أياى بكامبريدج مرتبطة بجماعة كان أعضاؤها يعرفونها باسم (الجمعية) ، ولكن الخارجين عنها كانوا يطلقون عليها ، حين يعلمون بأمرها ، اسم (الحواريين) . كانت جمعية للمناقشات ، وكانت تضم إليها كل سنة عضواً أو عضوين فى المتوسط ، وكانت تجتمع مساء كل سبت . وقد ظلت قائمة منذ عام ١٨٢٠ وضمت معظم الجامعيين النابيين فكرياً فى جامعة كامبريدج منذ ذلك التاريخ . وكان اختيار الأعضاء يتم فى سرية ، حتى لا يعرف المرشحون للاختيار شيئاً . وسرعان ما تعرفت بفضل وجود هذه الجمعية على من يستحقون التعرف إليهم . وكان الفيلسوف هوايتيد عضواً فى هذه الجمعية ، فطلب إلى الأعضاء الأصغر منه سنّاً أن يبحثوا أمر سانجر وأمرى نظراً لامتياز إجاباتنا فى امتحانات المنحة العلمية . ومع بعض الاستثناءات النادرة ، كان جميع الأعضاء أصدقاء شخصيين حميمين لى . وكان أحد أسس المناقشة ألا تكون هناك محرمات فى التعبير ، أو قيود فى التفكير ، وألا يعد أى شىء نابياً ، أو أن تقام حواجز تحول دون حرية التأمل المطلقة . وكنا نناقش كل الموضوعات ، فى شىء من عدم النضوج دون شك ، ولكن بتجرد واهتمام يصعب توفرهما فيما بعد . وكانت الاجتماعات تنهى حوالى الواحدة صباحاً ، وكنت أذرع بعدها أروقة نيفيل كورت جيئة وذهاباً لساعات عديدة مع واحد أو اثنين من الأعضاء . وكنا نأخذ أنفسنا بجدية ، لأننا نعد أنفسنا أمناء على فضيلة النزاهة الفكرية . ولا شك أننا حققنا بهذا الكثير ، أكثر مما يتحقق فى العالم الخارجى . وأنا أميل

إلى الاعتقاد بأن أفضل ما في كامبردج كان يتمثل في هذه التقاليد الفذة . وقد انتخبت عضواً في الجمعية في منتصف العام الثاني من دراستي بالجامعة . ولم أكن أعلم فعلاً بوجود هذه الجمعية ، برغم أنني كنت أعرف كل أعضائها معرفة وثيقة .

انتخبت عضواً بالجمعية في أوائل عام ١٨٩٢ . وخطابات التهنئة التي أوردتها فيما يلي تتطلب تفسيراً لبعض العبارات التي كانت الجمعية تتخذها أسلوباً تهكم به على الميتافيزيقا الألمانية . كان من المفروض أن الجمعية تمثل عالم الحقيقة ، وما عدا ذلك فهو مظهر خادع . وكان غير الأعضاء في الجمعية يسمون (بالظواهر) ولما كان الميتافيزيقيون ينادون بأن المكان والزمان مجرد وهم ، فقد كان من المفروض أن أعضاء الجمعية متحررون من عبودية المكان والزمان .

طرف / صاحب السعادة سير تشارلز إليوت

نائب محافظة البنغال ، الهند .

الأربعاء ٩ من مارس ١٨٩٢

عزيزي رسل

لقد علمت لتوى من بريد الصباح أنك قد انضمت إلينا — فأهلاً بك . إن هذا نبأ طيب حقاً . ولا ينبغي لي أن أدع البريد يرسل عصر اليوم دون أن أكتب إليك بضع كلمات معبراً عن مدى سعادتي ، وأسنى لعدم وجودي في كامبردج الآن لكي أصفحك مصافحة الأخ . وستكون لك بالطبع انطباعاتك الخاصة عن الجمعية ، ولكن من المؤكد أنها كانت تعني بالنسبة لي حياة جديدة حقاً ، واكتشافاً للحقيقة كامبردج الفعلية .

لقد حان الوقت للذهاب البريد ، وأخشى أنني لن أستطيع أن أكتب إليك الآن عن كل تجاربي ولسوف يبتك ثيودور بأحوالي . أسفت جداً عندما علمت أنك كنت متوكمًا . أرجو لك شفاء عاجلاً . لا تدع ويب (مدرس الرياضيات) يرهقك بالعمل .

أرجو قبول عذرى فى كتابة هذه السطور السريعة . اللعنة على هذين
المتالين السخيفين المكان والزمان ، اللذين بلغت بهما القمحة أن يدعى أنهما
يفرقان بيننا الآن . بينما نعلم نحن أن لا علاقة لهما بذلك الوجود الحقيقى الذى
كنت ، وما زلت ، وسأظل للأبد ، أرسف فى أغلاله .

أخوك المخلص المحب

كرومبتون (دكتوراه فى القانون)

ليس لدى وقت لكى أكتب إلى سانجر خطاباً بالمعنى الصحيح . فهل
تسمح بتوصيل الرسالة المقتضبة المرفقة طيه إليه ؟
أرجو أن تكتب إلى إذا وجدت الوقت اللازم لذلك .

شارع ديفون ، نيوبليموث

تاراناكى ، نيوزيلاندا

١٧ من مايو ١٩٠٢

عزيزى رسل

تهانئى للأبناء الممتعة التى نمت إلى علمى فى فبراير الماضى . والتى وصلتني
الآن تواء عن طريق الهند — وأنا أرسف فى أغلال الزمان والمكان التى لا يمكن
بحال أن تجد لها تفسيراً فى عرف الحواريين .

إن سعادتى بالغة . أرجو أن تكون قد أنبئت بنفاذ بصيرة الأخ هوايتهيد .
الذى اكتشف طبيعتك الحوارية وطبيعة سانجر من خلال المقالات التى تقدمتها
بها فى امتحان المنح العلمية ، وطلب منا أن نبحث عنكما ،

كم أود لو كنت أستطيع أن أعود لقضاء ليلة الأحد أو ما شابه ذلك فى
مناقشة معاً ثيودور حول المسيحية كدين يدعو للحب — وهو ما لا أجده فيها .
فأنا لا أستطيع أن أرى كيف يمكن أن تتعايش فكرة إله شخصى وفكرة الحب
الحقيقى تعايشاً حيويًا .

كيف حال الأجنة^(١) ؟ بلغنى أن تريفيليان الصغير (بوب) يبشر بخير ، وكذلك جرين الذى ينتمى إلى كلية كينج .
إن لى أعداداً لا تحصى من الخطابات لكى أرسلها بالبريد . أرجو أن أراك فى منتصف يناير القادم .

أخوك المخلص

(إمضاء) إليس ماكتاجارت

وقد تغيرت بعض الأمور فى الجمعية إلى حد بعيد بعد تخرجى بوقت قصير .

فقد حدد ليتون ستراتشى وكتر^(٢) اتجاه الجيل الجديد الذى تلا جيلى بعشر سنوات تقريباً . ومن الأمور المثيرة للدهشة ذلك التغير الهائل فى المناخ الفكرى الذى أحدثته تلك السنوات العشر . كنا لانزال فيكتوريين ، وكان هؤلاء إدوارديين . كنا نؤمن بالتقدم المنظم عن طريق السياسة وحرية المناقشة . ومن المحتمل أن أكثرنا ثقة بالنفس كانوا يأملون أن يصبحوا قادة للجماهير ، ولكن لم يكن بيننا واحد يتمنى أن يفصل عن الجماهير . أما

(١) الاسم الذى كنا نطلقه على الطلبة الذين ننوى انتخابهم .

(٢) عاش الاقتصادى الكبير اللورد مينارد كينز بين ١٨٨٣ و ١٩٤٦ ، وقد ولد فى كامبردج وكان تخصصه الأول فى الدراسات اليونانية واللاتينية ولكنه دخل خدمة الحكومة ودرس مشاكل الهند المالية ثم عين فى وزارة الخزانة البريطانية فى ١٩١٥ . وقد كان مندوب وزارة الخزانة فى مفاوضات الصلح التى انتهت بمعاهدة فرساي ، ولكنه استقال ليهاجم معاهدة فرساي بكتابه نتائج الصلح الاقتصادية فى ١٩١٩ الذى أوضح فيه عجز ألمانيا عن دفع التعويضات المفروضة عليها وتنبأ بالمواقب الوخيمة التى ستترتب على الاقتصاد العالمى من شروط فرساي . ويعتبر كينز أكبر ناقد للاقتصاد الإنجليزى الكلاسى بفضل كتاباته . ومن مؤلفاته الهامة النظرية العامة فى العمالة والفائدة والنقد فى ١٩٣٦ . وفى هذا الكتاب أوضح أن العمالة الكاملة فى بريطانيا لا تترتب بالضرورة على التصنيع ولكن تحقق بتنشيط السلع الإنتاجية وبتشجيع الاستهلاك بتقليل الادخار وعلى وفرة السيولة النقدية فى أيدي الأفراد بزيادة الأجور إلخ . وقد سلطت عليه الأنواء من جديد أثناء الحرب العالمية الثانية فعين محافظاً لبنك إنجلترا ومستشاراً حالياً للحكومة البريطانية . وقد أوصى لمعالجة التضخم بالادخار الإيجابى وإنشاء بنك دولى وعملة دولية لتحرير التجارة الدولية والاستثمار الدولى .

جيل كينز وليتون سترانشى فلم يكن يسعى إلى الإبقاء على أى صلة بأصحاب الفلسفة المادية . بل كانوا يهدفون إلى حياة انعزالية بين الظلال الناعمة والمشاعر الجميلة وكانوا يتصورون أن الخير يكمن فى الإعجاب العاطفى المتبادل بين أفراد مجموعة من الصفوة المختارة . ولقد نسبوا هذه النظرية دون ما وجه حق . إلى ج . ا . مور ، الذى كانوا يعترفون بأنهم من أتباعه . ولقد أشار كينز فى سيرته الذاتية (المعتقدات الأولى) إلى إعجابهم بنظرية مور . وكان مور يعطى وزناً للأخلاقيات ويتجنب فى نظريته فى الوحدات العضوية رأى القائل بأن الخير يتمثل فى مجموعة متتالية من اللحظات العاطفية المتفرقة . ولكن أولئك الذين اعتبروا أنفسهم تلاميذه أغفلوا هذا الوجه من تعليمه وهبطوا بدعوته إلى مستوى المناادة بالعاطفية الرخيصة الخائفة التى تليق بفتيات المدارس .

وقد هرب كينز من هذا الجوالخائق إلى العالم الكبير . أما سترانشى فلم يهرب منه قط . ومهما يكن من شىء فإن هرب كينز لم يكن تاماً . فقد راح يحبب العالم حاملاً معه أينما ذهب شعور الأسقف فى عزله . وكان الخلاص الحقيقى فى مكان آخر ، بين المؤمنين فى كامبردج . فعندما كان يوجه اهتمامه إلى السياسة والاقتصاد كان ينفصل عن عواطفه . وهذا هو السبب فى الخاصية الإنسانية ، المتألفة ، الصلبة فى معظم كتاباته . وكان هناك استثناء واحد عظيم هو « النتائج الاقتصادية للسلام » الذى سأتكلم عنه بإفاضة بعد قليل ٥

وقد عرفت كينز أول الأمر عن طريق والده . وليتون سترانشى عن طريق أمه . فعندما كنت شاباً ، كان والد كينز يقوم بتدريس المنطق الصورى ، منطق أرسطو العتيق فى كامبردج . ولا أعلم مدى تأثير التطورات الحديثة فى هذا الموضوع فى طريقة تعليمه للمنطق . وكان منشقاً على الكنيسة الإنجليزية ، غيوراً ، يضع الأخلاقيات (لا اللاهوت) فى المقام الأول ويلى الأخلاق فى الترتيب علم المنطق . ولقد استمرت روح الانشقاق هذه فى ابنه . ولكن خفف منها إدراكه أن الحقائق والبراهين قد تؤدى إلى نتائج تصدم الكثيرين بعض الشىء

وكان في شخصيته شيء من الغطرسة الفكرية جعله لا يجد غضاضة في تجنب البورجوازيين . ولكن هذا الشيء من الغطرسة لأثر له في كتاب كينز « النتائج الاقتصادية للسلام » . وقد أيقظ إيمانه العميق بأن معاهدة فرساي كانت تعني دمار العالم شخصية الإنسان الخلقى الجاد الكامن في نفسه حتى نسي بسبب هذا ما عهد فيه من حصافة .

ولم يكن لي به اتصال في عمله السياسي والاقتصادي ، ولكنني كنت مهتماً بكتابه « بحث في الاحتمال » ، وقد ناقشت معه بالتفصيل أجزاء عديدة من هذا الكتاب . وقد فرغ من هذا الكتاب في ١٩١٤ على وجه التقريب ، ولكنه اضطر إلى تنحيته لفترة من الوقت .

وكان دائماً يميل إلى إرهاق نفسه بالعمل ، والواقع أن الإرهاق هو الذي تسبب في موته ، وقد كتب لي مرة في عام ١٩٠٤ ، عندما كنت أعيش في كوخ منعزل في أرض بورشاسعة لم تشق بها طرقات ، يسألني إن كنت أستطيع أن أكفل له عطلة نهاية أسبوع هادئة . وأجبتة بالإيجاب ، وكلتي ثقة ، وحضر . وبعد خمس دقائق من وصوله وصل وكيل الجامعة ليعرض عليه كثيراً من المسائل الجامعية . وحضر آخرون ، لم أكن أتوقعهم ، إلى كل وجبة طعام ، بما في ذلك ستة أشخاص لتناول الإفطار معنا يوم الأحد . وأخشى أن كينز رحل أكثر إجهاداً مما جاء . وفي يوم ٢ من أغسطس عام ١٩١٤ التقيت به وهو يسرع الخطى عبر الفناء الكبير في كلية ترينتي . وسألته عن السبب في إسرعه فقال إنه كان يريد أن يستعير دراجة أخيه البخارية ليذهب بها إلى لندن . قلت له : « لماذا لا تذهب بالقطار ؟ » فأجابني : « لأنني في عجلة من أمري » . لم أكن أعلم ماهية عمله في لندن ، ولكن خلال بضعة أيام خفضت نسبة أرباح البنوك ، التي كان مشيعو الذعر قد رفعوها إلى عشرة في المائة ، إلى خمسة في المائة . وكان هذا من فعله .

وأنا لا أعرف من الاقتصاد ما يكفي لأن أكون رأياً متخصصاً في نظريات كينز ، ولكن يبدولي في حدود قدرتي على الحكم أنه بفضل لم تعان بريطانيا

في السنوات الأخيرة من البطالة على نطاق واسع . بل أستطيع أن أقول أكثر من هذا إن نظرياته لو وجدت من السلطات المالية في العالم كله من يتبناها لما حدثت الأزمة الاقتصادية^(١)؛ فما زال هناك الكثيرون في أمريكا ممن ينظرون إلى الكساد الاقتصادي على أنه من قضاء الله . وأظن أن كينز قد أثبت أن مسئولية هذه الأحداث لا تقع على عاتق العناية الإلهية .

ولقد رأيته لآخر مرة في مجلس اللوردات عندما عاد من مفاوضاته بأمریکا بشأن عقد قرض لبريطانيا وألقى خطاباً يدافع فيه عن هذا القرض أمام السادة اللوردات . وكان الكثيرون منهم متشككين من قبل في سلامة هذا القرض . ولكن عندما انتهى من خطابه لم يبق منهم متشكك واحد فيما عدا اللورد بيفربروك واثني من أبناء عموي كانا يحبان دائماً أن يكونا ضمن الأقلية . ولما كان قد وصل لتوه من رحلته عبر الأطلنطي ، فلا بد أن المجهود الذي بذله كان مهولاً . وقد ثبت أنه يفوق طاقة احتماله .

وكان كينز من أشد من عرفت ذكاء ، وصفاء في الذهن . وكلما جادلته كنت أشعر أنني أحمل حيائي على كفي ، ونادراً ما كنت أخرج من المناقشة دون أن أشعر بأنني أشبه الأبله . وكنت أميل أحياناً إلى الشعور بأن مثل هذا الذكاء الفائق يتعارض مع العمق ، ولكنني لا أعتقد أن هذا الشعور كان له ما يبرره .

ولقد تعرفت على ليتون ستراتشي^(٢) لأول مرة ، كما ذكرت قبلاً ، عن طريق أمه . كنا هي وأنا ، عضوين في لجنة تهدف إلى إعطاء النساء حق التصويت . ودعيتني بعد بضعة أشهر إلى العشاء . وكان زوجها ، السير ريتشارد

(١) الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت العالم في الثلاثينيات .

(٢) عاش ليتون ستراتشي بين ١٨٨٠ و ١٩٣٢ وتعلم في كامبريدج وأصاب شهرة واسعة ككاتب السير وتراجم العظماء ومن أهم مؤلفاته معالم الأدب الفرنسي في ١٩١٢ وأعلام العصر الفيكتوري في ١٩١٨ والمملكة فيكتورية في ١٩٢١ وكتب وشخصيات في ١٩٢٢ وإليزابيث واسيكس في ١٩٢٨ . وهو صاحب أسلوب شاعري رشيق وقدرة فائقة على رسم الشخصيات على المستوى الفردي ولكنه متم بالتحيز والنقص في القدرة على التحليل وفهم أثر العوامل الاجتماعية في تكوين سلوك العظماء وأفكارهم .

١٠٣

ستراتشى ، موظفاً متقاعداً من موظفى حكومة الهند ، وكان الراجا البريطانى أمراً مألوفاً يومئذ . وكان عشائى الأول مع العائلة تجربة أثارت قلقى بعض الشئ ، فقد كان عدد الأولاد والبنات فى الأسرة لا يحصى ، وبدا كل الأطفال لعينى الناقصى الخبرة متشابهين إلا فى النقطة السطحية وهى أن بعضهم كانوا ذكوراً والآخر كان إناثاً . ولم يكن كل أفراد العائلة قد اكتمل عقدهم عندما وصلت ، ولكنهم تواردوا الواحد بعد الآخر على فترات تقرب من عشرين دقيقة . (وكان أحدهم ليتون كما اكتشفت فيما بعد) وكان على أن أدير عيني فى الغرفة بحذر لأننا أكد إن كان القادم شخصاً جديداً أم مجرد واحد من السابقين قد غير مكانه . وقرب نهاية الأمسية بدأت أشك فى قوى العقلية ، ولكن الأصدقاء الطيبين أكلوا لى فيما بعد أن الأمور كانت فى الواقع كما بدت لى تماماً .

وكانت اللىدى ستراتشى امرأة ذات حيوية دافقة ، تدفعها رغبة قوية فى أن يتمكن بعض أولادها على الأقل من الارتفاع بمنزلتهم ، كان تذوقها للنثر مثيراً للإعجاب وكانت تقرأ مواظ ساوث لأطفالها بصوت عال ، لا من أجل المضمون (فقد كانت امرأة متحررة فى تفكيرها) ، ولكن لكى تنقل إليهم الإحساس بالإيقاع فى كتابة اللغة الإنجليزية . وكانت أم ليتون تتوسم فيه ذكاء مفراطاً مع أن حساسيته الشعرية كانت تحول بينه وبين الذهاب إلى مدرسة تقليدية . وقد نشأ فى جو من الانقطاع لمهنة الكتابة . وكانت كتاباته تبدو لى فى تلك الأيام مسلية جذلة . وقد سمعته يقرأ كتاب مشاهير عصر فيكتوريا قبل أن ينشر وقرأته مرة ثانية لنفسى فى السجن . وقد أثار ضحكى بصوت عال حتى إن الضابط جاء إلى زنزانى قائلاً إننى يجب أن أتذكر أن السجن مكان للعقاب .

وكان ليتون ستراتشى شاذ الأطوار منذ حدثته ، وكانت غريبة أطواره تزداد تدريجياً مع الأيام . وعندما أراد أن يطلق لحيته أشاع أنه أصيب بالحصبة لكى لا يراه أصدقاؤه حتى تبلغ لحيته طولاً محترماً . وكان شاذاً فى ملبسه .

كنت أعرف زوجة مزارع تقوم بتأجير بعض المساكن ، وقد أخبرتني أن ليتون كان قد جاءها يسألها إن كان من الممكن أن يتزل عندها . قالت لي « وفي أول الأمر ، ياسيدى ، كنت أظن أنه صعلوك ، ثم عاودت النظر إليه وعرفت أنه سيد مهذب ، وإن كان غريب الأطوار » . وكان يتكلم بصوت صائى مثل صوت فرخ الحمام ، يتعارض أحياناً مع الموضوع الذى يتكلم فيه بشكل يدعو إلى الضحك . وذات مرة كنت أتكلم معه فاعترض أولاً على شيء ثم اعترض على شيء آخر قائلاً : إنهما لا يمثلان ما ينبغى أن يهدف إليه الأدب . وأخيراً قلت : « فايكن ياليتون ، ولكن ما الذى ينبغى أن يهدف إليه الأدب ؟ » فأجاب « العاطفة الماتية » . ومع ذلك ، فقد كان يجب أن يبدو متعاضماً إزاء الأمور الإنسانية . وقد سمعت شخصاً يدلل على أن الشبان قادرون على التفكير فى الحياة . فاعترضه ليتون قائلاً « لا أستطيع أن أصدق أن الناس يفكرون فى الحياة . فليس بها ما يستحق التفكير » . ولعل هذا الموقف من الحياة هو الذى حال بينه وبين أن يكون رجلاً عظيماً .

وأسلوب ليتون ستراتشى مسرف فى البلاغة ، وكنت أراه فى لحظات تخابث من جانبى ، لا يختلف فى شيء عن أسلوب ماكولى . فهو لا يتم بالحقيقة التاريخية بل يضيف من الرتوش فى الصورة دائماً ما يجعل الأضواء والظلال أكثر وضوحاً ويجعل حماقات مشاهير الرجال والناس وأسرارهم أشد جلاء . وهذه اتهامات خطيرة أوجهها له ككاتب للسير . ولكنى أوجهها بمنتهى الجدية .

وقد أدركت امتياز مورل لأول مرة فى (الجمعية) . وإنى لأذكر قراءته لبحث استهله بقوله : « فى البدء كانت المادة ، وولدت المادة الشيطان ، وولد الشيطان الله » ، وانتهى البحث بموت الله أولاً ثم بموت الشيطان ، تاركاً المادة وحدها كما كانت منذ البداية . وفى الوقت الذى قرأ فيه بحثه ، كان لا يزال طالباً حديث الالتحاق بالجامعة ، وتلميذاً متحمساً للشاعر الفيلسوف لوكريس . وكانت عادتنا فى يوم الأحد أن نتناول طعام الإفطار فى ساعة متأخرة ،

ثم تقضى اليوم كله حتى وقت العشاء في جولة على الأقدام . وعرفت بهذه الطريقة كل شارع وكل رصيف على مدى عشرة أميال من كامبردج ، وأما كن كثيرة تقع على مسافات أبعد بكثير . وعموماً فقد كنت أشعر بالسعادة والهدوء النسبي أثناء وجودي بكامبردج ، وإن كنت في الليالي المقمرة أروح أقطع البلاد علواً في حالة من الجنون المؤقت . وكان السبب في هذا ، طبعاً ، الرغبة الجنسية ، بالرغم من أنني لم أكن أعرف هذا وقتئذ .

وبعد أيامي في الكلية تغيرت (الجمعية) من وجه واحد . فقد نشبت معركة طويلة بين جورج تريفيليان وليتون ستراتشي ، وفي عهده الأخير بالكلية ، شاع الشلوذ الجنسي بين الأعضاء ، أما في أيامي فلم يكن هذا أمراً معروفاً . كانت كامبردج هامة في حياتي ، لأنني أدين لها بما كنت من صداقات ، وما اكتسبت من خبرة بالمناقشة الفكرية ، ولكنها لم تكن هامة من ناحية التعليم الأكاديمي الفعلي . ولقد تكلمت فيما سبق عن تعليم الرياضيات وفساده ، كما أن كل ما تعلمته من فلسفة يبدو لي الآن خطأ . ولقد قضيت سنوات طويلة بعد تخرجي أحاول أن أتخلص بالتدريج من عادات التفكير التي اكتسبتها هناك ، وكانت العادة الوحيدة في التفكير التي اكتسبتها والتي كانت لها قيمة حقيقية هي الأمانة الفكرية . كانت هذه دون شك شائعة ، لابين أصدقاءي وحدهم ، وإنما بين أساتذتي أيضاً . فلست أذكر مثلاً واحداً للمدرس استاء عندما أوضح له تلميذ من تلاميذه أنه كان على خطأ ، على الرغم من كثرة ما ذكر من مناسبات تمكن الطلبة فيها من تصحيح أساتذتهم . فقد حدث ذات مرة أثناء محاضرة عن توازن السوائل أن قاطع أحد الطلبة المدرس قائلاً : « ألم تنس أن تذكر دور القوى المركزية الطاردة الواقعة على الغطاء ؟ » . وشق المدرس ثم قال : « لقد ظلت أشرح هذا المثال بهذه الطريقة عشرين سنة ، ولكنك على حق » . ولقد كانت صدمة لي أثناء الحرب أن أجد أنه ، حتى في كامبردج ، كانت للأمانة الفكرية حدود . وحتى ذلك الوقت كنت أشعر أينما أقمت أن كامبردج هي المكان الوحيد على سطح الأرض الذي أستطيع أن أعتبره بيتي .

الفصل الرابع

الخطوبة

في يوم أحد من صيف عام ١٨٨٩ ، وكنت حينذاك أسكن مع عمي روللو في منزله الواقع على منحدرات هايندهيد ، اصطحبني إلى نزهة طويلة على الأقدام ، وبينما كنا نسير على جانب من تل فرايداي ، قريباً من فريهرست ، قال : « قدم بعض السكان الجدد ليقيموا في هذا البيت ، وأرى أن نزورهم » . وكنت من الحجل بحيث لم أتحمس للفكرة بل توسلت إليه مهما حدث ألا نبقى لتناول العشاء . فوعدني بذلك ولكنه بقي . وقد سرني ذلك . وجدنا أن الأسرة هي أسرة بيرسال سميث الأمريكية ، تتكون من أب وأم متقدمين في السن وابنتهما ومعها زوجها ويدعى كوستللو ، وابنة أصغر تطلب العلم في كلية برين مور للبنات في أمريكا ، ولكنها كانت في هذه المناسبة تقضي عطلتها مع عائلتها . وكان هناك أيضاً ابنهما وهو طالب في كلية باليول بجامعة أكسفورد . وكان الأب والأم في وقت ما واعظين مشهورين ينتميان للطائفة الإنجيلية ، ولكن الأب فقد إيمانه نتيجة لفضيحة ، فقد رآه أحدهم وهو يقبل امرأة . أما الأم فقد تقدم بها العمر فلم تعد تحتمل مشقة حياة الوعاظ . وكان كوستللو ، زوج الابنة ، شخصاً ذكياً ينتمي إلى الحزب الراديكالي ، كما كان عضواً في مجلس مقاطعة لندن . كنا نتناول العشاء عندما دخل قادماً من لندن ، وجاء بآخر الأنباء عن إضراب خطير لعمال أحواض السفن كان حينئذ في أوجه ، وكان هذا الإضراب ذا أهمية كبيرة لأنه أوضح تغلغل نقابات العمال إلى مدى أعمق من أى موقف سابق . وأنصت فاغر الفم إلى حديثه وهو يقص ما فعله العمال . وأحسست أني هنا في عالم الواقع . أما الابن الذي يتلقى العلم في باليول ، فكان

يتحدث حديثاً منمقاً ، يصطنع فيه الحكمة . وبدأ كمن يعرف كل شيء في سر يوحى بالاذراء . غير أن الابنة التي قدمت من كلية برين مور هي التي أثارت اهتمامي بصفة خاصة . وكانت جميلة جداً . كما يتضح من الفقرة الواردة في « المجلة » الصادرة في جلاسجو ١٠ مايو ١٩٢١ :

« أذكر أني قابلت مسز برتراند رسل في حفل لغرض ديني أو ما أشبه (ترى هل كان حفلاً لمندوبي جماعة الامتناع عن تناول الخمر؟) في إدنبرة ، منذ حوالي عشرين عاماً . كانت حينذاك من أجمل النساء اللاتي يمكن أن يتصورهن المرء ، لها جلال الملكات ، بالرغم من أن عائلتها من الكويكرز . ولقد وصل إعجابنا بها نحن الحاضرين حدّاً جعلنا نتمتع جميعاً ، بأسلوب إدنبرة الرفيع ، أن نجعل منها بطلة المساء » .

كانت أكثر تحرراً من أية امرأة شابة عرفتها ، فقد سافرت من الجامعة وعبرت المحيط وحدها . وكانت ، كما اكتشفت ، صديقة حميمة للشاعر الأمريكي والت هويتان . وقد سألتني ما إذا كنت قد قرأت مؤلفاً بالألمانية عنوانه (Ekkhard) وتشاء الصدفة أن أكون قد انتهيت من قراءته في ذلك الصباح . وشعرت بأن هذه ضربة حظ . وكان من شأن عطفها أن جعلتني أتغلب على خجلي . وقد أحبيتها من أول نظرة . ولم أجتمع بأحد من أفراد العائلة مرة أخرى في ذلك الصيف ، ولكني درجت في الأعوام التالية ، وفي خلال الأشهر الثلاثة التي كنت أقضيها كل عام مع عمي رولو ، على أن أقطع المسافة إلى منزلهم كل أحد راجلاً . وهي مسافة تبلغ أربعة أميال ، فأصل في وقت الغداء وأظل هناك حتى موعد تناول العشاء . وكان من عادة القوم بعد العشاء أن يقيموا حفل سمر حول النار في الغابة ، ويجلسوا في دائرة يشدون ترنيمات يغنيها الزوج ، لم تكن حتى ذلك الوقت معروفة في إنجلترا . وكانت أمريكا تبدو لي ، كما كان الحال مع الشاعر الألماني جوته ، بلداً رومانسياً يتمتع أهله بالحرية ، ولقد وجدت منهم بعداً عن كثير من مظاهر التزمّت التي عانيت منها في بلدي . وأهم من كل هذا أني استمتعت بتحررهم من

« العرف الجارى » . وفى منزلهم قابلت العالم الاقتصادى والمفكر العمالى الكبير سدنى ويب . وكان حتى ذلك الوقت أعزب .

وقد عرفت سيدنى وزوجته بياتريس ويب عن كذب لعدة سنوات . بل شاركتهما الإقامة فى بعض الأوقات ، وأقرر أنهما أكمل زوجين رأيتهما . غير أنهما كانا ينفران تماماً من أى رأى رومانسى عن الحب أو الزواج . فالزواج فى رأيهما مجرد نظام اجتماعى قصد منه أن يضع الغريزة فى إطار مشروع . وفى خلال السنوات العشر الأولى من زواجهما ، كانت مسز ويب تقول بين حين وآخر : « الزواج ، كما يكرر سيدنى دائماً ، هو سلة الأوراق التى تلقى فيها الانفصالات » . وحدث فى حياتهما شىء من التغير فى السنوات التالية ، كانا فى العادة يدعوان زوجين لقضاء عطلة نهاية الأسبوع ؛ فيخرجون فى الآحاد وبعد الظهر فى نزهة سريعة ، يصطحب سيدنى السيدة بينما ترافق بياتريس الضيف . ويمر بعض الوقت ، ثم يعلق سيدنى قائلاً : « أعرف على وجه التحديد ما تقوله بياتريس فى هذه اللحظة . إنها تقول : الزواج ، كما يكرر سيدنى دائماً ، هو سلة الأوراق التى تلقى فيها الانفصالات » . أما هل قال سيدنى هذا الكلام فعلاً فأمر لم يتحقق منه أحد .

عرفت سيدنى ويب قبل أن يتزوج . ولكنه كان أقل شأناً بكثير من نصف ما أصبح عليه هو وبياتريس معاً . كان اشتراكهما فى كل شىء يتم فى صفاء حتى إنى كنت أتصور ، ولو أن فى هذا تبسيطاً معيياً ، أنها كانت تقدم الأفكار بينما يقوم بالتنفيذ . ولعله كان أكثر من عرفت اجتماعاً . حدث عندما كانا يكتبان مؤلفاً عن الحكم المحلى أن أرسلنا نشرات لجميع موظفى الحكم المحلى فى البلاد يسألان أسئلة ويوضحان أن من حق الموظف المرسل إليه أن يحصل على نسخة من الكتاب المزمع إصداره بسعر مخفض . وعندما أجرت لهما منزلى ، حار ساعى البريد ، وكان اشتراكياً متحمساً ، فيما إذا كان الشرف الذى يناله إذ يخدمهما أكبر من الضيق الذى كان يعانیه نتيجة لتوزيعه ألف إجابة يومياً لنشرتهما . وكان ويب يشغل منصباً غير مرموق ولكنه نجح فى

الوصول إلى منصب كبير نتيجة لجهده الخارق . كان أميل إلى الجلد ، لا يحب المزاح حول المقدسات بما فيها النظريات السياسية . قلت له يوماً : إن للديمقراطية ميزة واحدة على الأقل ، وهي أن عضو البرلمان لا يمكن أن يكون أكثر حماقة من أعضاء دائرته ، لأنه كلما ازداد حماقة سجل ناخبوه على أنفسهم حماقة أكبر بانتخابهم إياه . وتألم ويب لهذا بصورة واضحة وقال مسفهاً رأيي : « هذا أسلوب من الحديث لا يروقني » .

وكانت لمسز ويب اهتمامات أكثر من اهتمامات زوجها . فكانت تهتم بالأفراد ، وليس فقط حين يرجى منهم العون . وكانت متدينة إلى حد بعيد دون أن تنتمي إلى طائفة من الطوائف المعترف بها ، ولو أنها بوصفها اشتراكية كانت تفضل كنيسة إنجلترا لأنها كانت نظاماً تتبناه الدولة . كانت واحدة من تسع شقيقات ، بينما الأب عصامي يدعى بوتر ، جمع معظم ثروته من بناء أماكن لإقامة الجنود في القرم . كان من مريدي هربرت سبنسر ، وكانت مسز ويب أبرز من أنجبت نظريات هذا الفيلسوف في التربية . ويؤسفني أن أقرر أن أمي ، وكانت تقطن المنزل المجاور لها في الريف ، وصفها بأنها « من فراشات المجتمع » ، ومع هذا فمن المحتمل أنها كانت ستغير رأيها لو عرفت مسز ويب في مرحلة متأخرة من الحياة . وعندما بدأت مسز ويب بالاشتراكية قررت أن تقيس على مبادئ الفايين ، وبالأخص أبرز ثلاثة منهم : سيدني ويب ، وبرنارد شو ، وجراهام والاس . وكان في هذا شيء من « حكم باريس »^(١) مع عكس الجنسين ، وكان سيدني هو الذي برز باعتباره المقابل لأفروديت .

كان ويب يعتمد كلية على ما يتكسبه ، بينما لدى بياتريس إرث عن والدها . وكان لها ، على عكس زوجها ، عقلية الطبقة الحاكمة ، ونظراً لأنه

(١) « باريس » ابن الملك بريام ملك طروادة من هكيوبا وكانت تحلم بطفل ملتب الحمان ولذا ألقت به على جبل إيدا حيث نشأ راعياً وذات يوم جاءته الإلهات الثلاث هيرا وأفروديت وأثينا يحتكن إليه أيهن أجمل وقد حكم لأفروديت التي وعدته بالزواج من أجمل نساء العالم . وبمساعدها اختطف هيلانة زوجة منالاس الإغريقي وتسبب عن هذا حروب طروادة .

توافر لهما ما يكفيهما أن يعيشا دون عمل فقد قررا أن يكرسا حياتهما للبحث والدراسات الأرقى في ميدان الدعاية ، وقد نجحا هنا نجاحاً باهرراً ولعل مؤلفاتهما تتحدث بطلاقة عن جدهما واجتهادهما . أما كلية الاقتصاد التي أنشأها سيدنى فهي دليل على رجاحة فكره . وفي اعتقادي أنه ما كان يمكن لقدرات سيدنى أن تثمر إلى هذا الحد لو لم يعززها عامل الثقة بالذات لدى زوجته بياتريس . سألتها يوماً إن كانت قد أحست مرة بالحجل وهي صبية . فأجابت : « لا ، ولو حدث أن خالجنى مرة هذا الشعور وأنا أدخل غرفة تموج بالناس فإنى أقول لنفسى : أنت أفضل عضو في أفضل عائلة في أفضل طبقة في أفضل شعب في العالم ، ففيم الخوف ؟ » .

ولقد أحببت مسز ويب وأعجبت بها ، ولو أنى كنت أختلف وإياها حول أمور كثيرة هامة . أعجبت أولاً وقبل كل شيء بقدرتها البالغة على التصرف وأعجبت ثانياً بتزاهتها . فقد عاشت حياتها في خدمة القضايا العامة ولم يصرفها عن هذا السبيل أى مطمح شخصى ، ولو أنها لم تكن تخلو من الطدوح . وسرني منها أنها كانت صديقة رقيقة الحاشية تشيع الدفء بين من شعرت نخوهم بعاطفة شخصية . غير أنى اختلفت معها حول موضوع الدين : والاستعمار ، وعبادة الدولة . وكان الموضوع الأخير هو جوهر الاشتراكية الفابية ، ولقد أدى بالزوجين سيدنى وبياتريس ويب ، كما أدى بيرناردشو ، إلى ما اعتبرته تسامحاً أكثر مما ينبغى مع موسولبنى وهتلر ، كما أنه أدى بهما في النهاية إلى تمجيد سخيف للحكومة السوفيتية في كتابهما « الشيوعية السوفيتية حضارة جديدة » . ولكن ليس هناك من يخلو من التناقض ، حتى ولا سيدنى ويب وزوجته . قلت يوماً لشو: إن ويب يفتقر إلى المشاعر الإنسانية الطيبة ، فأجاب : « لا ، إنك جد مخطئ . فقد كنت وويب يوماً نستقل الترام في هولندا ، وجلسنا نأكل قطعاً من البسكويت . وإذا بمجرم مغلول اليدين يأتى به رجل الشرطة إلى عربة الترام . وتدافع جميع الركاب الآخرين بعيداً عنه في هلع ، أما ويب فتقدم من السجين وقدم له البسكويت » . وإنى لأذكر هذه القصة كلما

وجدتني أميل إلى أن أتحامل في نقد ويب أو شو .

وكان الزوجان يكرهان بعض الناس ، ومن هؤلاء الكاتب الاشتراكي ه . ج . ولز ، أولاً : لأنه أساء إلى الدستور الخلقى الفكتورى الصارم ، وثانياً : لأنه حاول أن يزيح سيدنى ويب من منصبه القيادى فى جماعة الفاييين ، كما كانا يكرهان رامزى مكنونالد رئيس حزب العمال البريطانى منذ عهد بعيد . ولعل أقل الملاحظات عداء من جانب أى من الزوجين كانت تلك التى قالتها مسز ويب عند تكوين حكومة العمال الأولى ، من أنه يصلح بديلاً ممتازاً لقائد الجماعة .

كان تاريخهما السياسى غريباً . تعاونوا أولاً مع المحافظين لأن مسز ويب كانت تترتاح لآثر بالفور لاستعداده أن يقدم أموالاً من مصادر عامة للمدارس التى تشرف عليها الكنيسة . وعندما سقطت حكومة المحافظين فى عام ١٩٠٦ قام الزوجان بمحاولات ضئيلة وغير مجدية للاشتراك مع الليبراليين . ثم خطر لهما أخيراً أنهما كاشتراكيين قد يشعرا براحة أكثر لو انضما لحزب العمال ، وبالفعل أخلصا لهذا الحزب فى السنوات التالية .

وقد ظلت مسز ويب سنوات عدة تتمسك بالصيام ، للدوافع عدة بعضها صحى والآخر دينى . لم تكن تتناول الإفطار ، كما كان عشاؤها بسيطاً ، أما الوجبة الأساسية فكانت الغداء . ولم تكن هذه الأخيرة تخلو إلا لماماً من المدعوين المرموقين ، بيد أنها كانت تصل من الجوع حدةً يجعلها ما إن تسمع الدعوة إلى تناول الطعام حتى تسبق جميع ضيوفها إلى حجرة المائدة . على أنها كانت تؤمن أن المسغبة تقربها من الروحانيات ، بل ذكرت لى يوماً أنها هيأت لها رؤى رائعة . وكان تعليقى على هذا « نعم ، إذا أكلت قليلاً صفاً ذهناً وإذا شربت كثيراً اختلطت عليك الأمور » . وأخشى أن تكون قد اعتبرت هذه الملاحظة نوعاً من المجون لا يغتفر . أما سيدنى فلم يكن يشاركها هذا الجانب المتدين من حياتها ، ولو أنه لم يكن معادياً له ، وكل ما هناك أنه لم يرتح له . أقمنا مرة فى نزل فى نورماندى ، فكان من عاداتها أن تقضى الصباح فى الطابق

العلوى حيث إنها لم تكن تحتل أن ترى النزلاء يتناولون الإفطار . ولكن سيدنى كان ينزل بين حين وآخر ليطلب الخبز والقهوة . فى المرة الأولى أرسلت مسز ويب الخادم تحمل الرسالة الآتية : « إننا لا نأكل الزبد فى وجبة إفطار سيدنى » وكان استعمالها للفظ « إننا » مما يتندر به أصدقاؤها .

ثم إن الزوجين لم يكونا يؤمنان أساساً بالديمقراطية . بل كانا يعتبرانها خدعة من جانب الساسة للتغريب بالجماهير وإشاعة الرعب بينهم . ولقد تبينت مفاهيم مسز ويب عن الحكم عندما ذكرت لى وصف والدها . وهو رجل أعمال ، لاجتماعات حملة الأسهم . فقد كان من رأيه أن الدور الحقيقى للمديرين هو إيقاف أصحاب الأسهم عند حدودهم . وقياساً على هذه العلاقة كان رأيها فى علاقة الحكومة بالناخبين .

كان لما قصه عليها والدها عن مهنته أثره فى تخليها عن شىء من الاحترام للعظماء . إذ بعد أن انتهى من بناء أماكن لإقامة الجنود الفرنسيين فى القرم فى فصل الشتاء ، وسافر إلى باريس ليتقاضى أجره ، كان قد أنفق كل رأس ماله تقريباً فى تشييد هذه المباني ، وأصبحت المكافأة المالية له أمراً حيويّاً . ولكن ، على الرغم من أن كل امرئ فى فرنسا اعترف بالدين ، فإن الإذن المصرفى لم يصله . وأخيراً قابل اللورد براسى وكان قد قدم بدوره فى مهمة مشابهة . وشرح مستر بوتر متاعبه فسخر منه اللورد وقال : « يا عزيزى . إنك لا تعرف كيف تحرك الخيوط . عليك أن تدفع خمسين جنيهاً للوزير وخمسة لكل من مرؤوسيه » . وفعل مستر بوتر هذا وتسلم الصك فى اليوم التالى .

لم يكن سيدنى يتردد فى استخدام حيلٍ ربما اعتبرها البعض تصرفات غير قويمه . ذكر لى ، على سبيل المثال أنه إذا رغب فى الحصول على موافقة إحدى اللجان بينما الأغلبية تمنع ، فإنه يصوغ القرار بحيث تذكر النقطة مثار الخلاف مرتين . وهو يبدأ جديلاً طويلاً حول النقطة المذكورة فى أول ظهورها ، وينتهى بأن يسلم لخصومه برقة ودماثة . وهو يخلص من هذا إلى

أنه في تسع حالات من عشر لا يلحظ أحد أن النقطة ذاتها قد أشير إليها مرة ثانية في نفس القرار .

وقد قام الزوجان بدور هام في إرساء الاشتراكية البريطانية على دعائم فكرية ولعله نفس الدور الذي قام به أتباع الفيلسوف بنثام ، في حقبة سابقة ، بالنسبة للراديكاليين . ولقد كان مثل أتباع بنثام على شيء من الجفاف والجمود ، والإيمان بأن سلة المهملات هي المكان الطبيعي للعواطف . وبالرغم من هذا فقد كان مريدو آل ويب والبنتاميين ممن تستبد بهم العاطفة لدرجة الحماس . ولقد استطاع بنثام وروبرت أوين ^(١) أن ينتجا حصيلة فكرية مترنة ، تماماً كما فعل سيدني وزوجته في علاقتهما بكير هاردي . إن من الإجحاف أن نطلب من كل امرئ كافة المقومات التي تضيف إلى قيمته الإنسانية ، بل يكفي أن تتوافر بعض هذه المقومات ، وهو أمر يتوافر لسيدني وزوجته . وما من شك في أنه لو غاب الزوجان عن حزب العمال البريطاني لكان هذا الحزب أكثر اندفاعاً ولكانت مبادئه أكثر غموضاً وإبهاماً . وقد قام بأداء الرسالة من بعدهما ابن أخيها سير ستافورد كريس ، وإنني لأشك في أن الديمقراطية البريطانية كانت تستطيع أن تحتل بنفس الطاقة ، المرحلة الشاقة التي تمر فيها الآن لو لم يقيض لها هذان الزوجان .

وعندما ذكرت بين عائلتي أنني قابلت سيدني ويب قالت جلتى إنها سمعته يحاضر يوماً في رتشموند ، وإنه « لم يكن . . . » وتساءلت في إصرار « لم يكن ماذا ؟ » وأخيراً قالت : « لم يكن مهذباً في تفكيره ولا رقيقاً في سلوكه » .

أما بين أفراد عائلة بيرسل سميث ، فلم ألق مثل هذا الاتجاه في التفكير . كنت بينهم سعيداً ، متبسّطاً في الكلام متحرراً من الحجل . كان لهم أسلوبهم في جعلي أنغلب على الانطواء وأشعر أنني جد ذكي . وقد قابلت عديداً من الشخصيات في منزلهم ، أذكر منهم على سبيل المثال وليام جيمس . وتفقهت

(١) أبو الفلسفة التعاونية .

على يدى لوجان بيرسل سميث فى ثقافة القرن التاسع عشر ، فلوير ، ولتر باتر ، وغيرهم . وفضلا عن هذا فقد لقنى قواعد الكتابة السليمة ، مثل « ضع فصلة بعد كل أربع كلمات » ، « لا تكتب فى بداية جملة » . وتعاذت أيضاً أن أصوغ جملة مليئة بالعبارات الاعراضية تمشياً مع أسلوب ولتر باتر . كما تعلمت أن أصدر الأحكام الصحيحة عن مانيه ومونييه ، وديجا ، وكان لهم فى ذلك الوقت نفس شهرة ما تيس ويكاسوفيا بعد .

كان لوجان بيرسل سميث يكبرنى بتسعة أعوام ، وقد ألقى على الكثير من النصائح الخلقية . كان فى مرحلة انتقال بين النظرة الأخلاقية لجماعة الكويكرز كما نشأت فى فيلاديفيا ، والنظرة البوهيمية التى تجدد جذورها فى الحى اللاتينى . أما عن آرائه السياسية فقد كان اشتراكياً وكان السبب فى تحوله إلى هذا الرأى جراهام والاس ، أحد مؤسسى الجمعية الفابية (ولو أنه تحول فى مرحلة تالية إلى الليبرالية) . ولقد حاول لوجان أن يطوع حب الكويكرز للإنسانية لأسس العقيدة الاشتراكية . أما عن أخلاقياته الجنسية فكان حتى ذلك الوقت زاهداً متقشفاً ، بل يمكن أن يوصف بأنه كان مانويياً^(١) ، ولو أنه من حيث الدين كان من اللا أدريين . كان يسعى إلى إقناع الشباب المتحرر فكرياً أن يتمسك بمستوى رفيع من الصرامة الشخصية وإنكار الذات . ولهذا الغرض أنشأ ما أسماه مازحاً « طبقة المتزمتين » ، وقد انضمت إليها وأطعت نظمها بضع سنوات^(٢) .

ازددت مع مرور الأعوام حباً لأليس ، الابنة غير المتزوجة . كانت أكثر اتزاناً من شقيقها لوجان ، وأكثر شعوراً بالمسئولية من شقيقها مسز

(١) Manichaeism المانوية فرقة دينية نشأت أولاً فى إيران ثم انتشرت فى الإمبراطورية الرومانية فى نهاية القرن الثالث وكانت تقول بوجود إله الخير وإله الشر كما كانت تجمع بين الديانة الإيرانية والديانة المسيحية فى القرن الثالث الميلادى .

(٢) أشرت إلى هذه النظم فى ملحق هذا المؤلف ، وأتبعها بنشرات من الخطابات التى تلقيتها من

ل . ب . س . أثناء وجودى فى كامبردج .

كوستللو. وبدأ لي أن عندها كل الحنان الذي كنت أفقده في ممبروك لودج ، وفي نفس الوقت تحررت من الصلف والتعجيز . وتساءلت ما إذا كانت ستظل دون زواج حتى أكبر ، فقد كانت تكبرني بخمسة أعوام . وبدأ لي هذا الخاطر بعيد الاحتمال ، ولكنني ازددت تصميماً على أنه ، لو تحقق هذا الاحتمال ، لطلبت أن أتزوجها . وأذكر يوماً أني صحبتها وشقيقها إلى ليفهيل لزيارة القاضي فون وليامز ، وكانت زوجته ترتدى قباء من عصر الملكة اليزابث وكان كل ما فيها يدعو للعجب . وفي الطريق استدرجاني إلى القول إنني أؤمن بالحب من النظرة الأولى ، وسخرا مني لآرائى المغرقة في العاطفية . وبرح بي الألم ، فلم يكن الوقت قد حان لأقول لماذا آمنت بهذا الرأي . أدركت أنها ليست من الطراز الذي تسميه جدتي « السيدة المهذبة الأصلية » ، ولكنني قدرت أنها تشبه شخصية اليزابث بينت في كتابات جين أوستن . وأظنني شعرت أيضاً أن في اتجاهها نحو الحياة سعة في الأفق محبة إلى النفس .

وفي عام ١٨٩٣ بلغت سن الرشد ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت علاقتي بأليس بيرسل سميث تصبح أكثر من إعجاب عن بعد . وفي الشهر التالي أصبحت واحداً من السبعة الأوائل في الرياضيات ، كما أصبحت مستقلاً من الناحية القانونية والمالية . وجاءت أليس إلى كامبردج مع إحدى بنات عمها ، وتهيأت لي أكثر من أى وقت مضى فرص أكثر للتحدث إليها . ثم قدمت مرة أخرى في عطلة الصيف مع نفس الفتاة ، ولكنني أقنعتها بالبقاء بعض الوقت بعد رحيل هذه الأخيرة ، وانطلقنا عبر النهر ، وتحدثنا في الطلاق وكانت هي أقرب إلى تقبله مني . كانت من الناحية النظرية تؤيد الحب غير الملتزم ، واعتبرت هذا من ناحيتها أمراً يدعو للإعجاب ، بالرغم من أن آرائى كانت في هذه الناحية أكثر صرامة . ومع ذلك فقد كان مما سبب لي شيئاً من الحيرة أن أكتشف أنها كانت في غاية الحجل لأن شقيقها هجرت زوجها من أجل بيرينسون ، الناقد الفن . بل إنها لم توافق على أن تتعرف ببيرينسون إلا بعد زواجنا . ولقد اهتمت كثيراً بزيارتها الثانية لكامبردج وبدأت أرسلها بانتظام . ولم أعد

أقضى عطلات الصيف في هازلير لأن جدتي وعمتي أجبانا لم تكونا على وفاق مع زوجة عمي روللو الثانية . بيد أنى توجهت لزيارة فرايداي زهل لمدة يومين في الثالث عشر من سبتمبر . كان الطقس دافئاً والشمس تصبغ الكون بلون الذهب . : سكن الهواء ، وفي الصباح الباكر كان الضباب يتسلل إلى الوديان . وأذكر أن لوجان سخر من شيللى لأنه كتب عن « الضباب الذهبي » . وسخرت بدورى من لوجان فقد كان الضباب ذهبياً فعلاً في ذلك الصباح ، ولكن قبل أن يستيقظ هو . أما أنا فقد استيقظت مبكراً ، إذ كنت قد اتفقت وأليس على أن نخرج في نزهة قبل الإفطار . جلسنا على تل وسط أشجار الزان . وهو مكان غاية في الجمال ، يبدو كما لو كان كاتدرائية قديمة على الطراز القوطى ، ومنه تتبين العين مناظر بعيدة من خلال الأشجار المنتشرة في جميع النواحي . كان الصباح طلقاً وندياً ، ودار بخلدى أنه ربما تهبأت السعادة في حياة الإنسان . بيد أن الخجل منعنى من تجاوز مرحلة تحسس طريق ونخن جالساً في الغابة . بل ولم أصل إلى قرار محدد بطلب يدها ، وهو الإجراء العادى في تلك الأيام ، إلا بعد أن انتهى الإفطار ، وحتى وأنا أفعل ذلك كنت في غاية التردد والذعر . ولم يكن هناك من ناحيتها قبول أو رفض . ولم يدر بخاطرى أن أقبلها ، أو حتى أمسك بيدها . ولكننا اتفقنا على أن نستمر في التلاقى والمراسلة ، وأن ندع للزمن أن يقرر هذا الجانب أو ذاك . حدث كل هذا ونحن في الخارج ، ولكن عند تناول الغداء وجدت خطاباً من اللىدى هنرى سميرست ، تدعوها فيه إلى معرض شيكاغو العالمى لتعظ ضد تناول المشروبات الكحولية ، وهى فضيلة كان المفروض أن أمريكا في تلك الأيام تفتقدها . كانت أليس قد ورثت عن والدتها إيماناً عميقاً بالامتناع تماماً عن الخمر ، وأسعدها كثيراً أن تأتيا هذه الدعوة . قرأتها بصوت عال وبرة النصر ، وقبلتها بحماس ، مما جعلنى أشعر بالضآلة ، إذ أن معنى هذا أن نفرق عدة أشهر ، وربما كان معناه أيضاً بدء حياة مشوقة بالنسبة لها .

وعندما عدت إلى المنزل وقصصت على أسرقى ما حدث ، كانت استجابتهم

تقليدية ومن زاوية محددة . قالوا إنها ليست سيدة بمعنى الكلمة ، وإن صناعتها خطف الأطفال ، لأنها واعظة ، وإنها مغامرة تنتمي إلى الطبقة الفقيرة ، ثم هي امرأة تنتهز افتقادی للخبرة والنصح لتوقعني في حبائلها ، وهي بعد هذا خالية من كافة المشاعر الرفيعة ، وإن فظاظتها ستكون مبعث خجل لي على الدوام . ولكني كنت قد ورثت ٢٠,٠٠٠ جنيه عن والدي ، ولم ألق بالاً لما قالته أسرق . وتوترت العلاقات بصورة واضحة ، وظلت على توترها حتى بعد زواجي .

كنت حينذاك أكتب مذكراتي وأحتفظ بها في مكان أمين ، بعيد عن متناول أي إنسان . وسجلت في هذه المذكرات أحاديثي مع جدتي عن أليس ومشاعري من ناحية هذه المناقشات ، ولم يمر على هذا وقت طويل حتى عثرت على مذكرات كتبها أبي ، بعضها بالاختزال (واضح أن الغرض هو الاحتفاظ بسريتها) . وقد عرفت أنه تقدم لخطوبة أمي في نفس السن التي تقدمت فيها لأليس ، وأن جدتي قالت له نفس العبارات التي قالها لي ، وأنه سجل نفس الانطباعات في مذكراته التي سجلتها في مذكراتي . وقد خامرني شعور مبهم وغريب بأنني لا أعيش حياتي بل حياة أبي مرة أخرى ، وبدأت أميل إلى الظن بأن هناك جانباً مرتبطاً بالحوار يتدخل في الوراثة ^(١) .

وبالرغم من أنني كنت غارقاً في الحب ، فلم أحس بأية رغبة في إيجاد علاقات ترتبط بالجسد . بل لقد أحسست أن حبي قد تلوث عندما حلمت ذات ليلة حلماً اتخذ فيه الحب صورة أقل شفافية . ولكن الطبيعة أخذت مجراها تدريجياً .

وجاءت المناسبة التالية في الأهمية في الرابع من يناير ١٨٩٤ ، عندما

(١) كتبت خطاباً لأليس في الثاني من سبتمبر ١٨٩٤ أقول فيه : « بالأس كانت عمي جورجى (اللىدى جورجيانا بيل ابنة أخى جدتي) غاية في الرقة ، ولو أنها كانت كثيرة التساؤل والاستطلاع (مثلها في ذلك مثل معظم النساء) ، وقالت إنه حتى في الماضي كانت جدتي تتباهى الظنون والهواجس لدى أى إشارة للزواج ، فتبدو كالحمومة .

توجهت من رتشموند لأقضى يوماً مع أليس في منزل والديها في ٤٤ شارع جروفنر . وهبت في ذلك اليوم عاصفة ثلجية وغطى الثلج لندن كلها إلى ارتفاع ست بوصات ، واضطرت أن أخوض في الثلج ابتداء من فوكسهول . وقد خلق الثلج شعوراً غريباً بالعزلة ، بحيث جعل لندن تبدو في سكوتها كتمة تل لا يسكنه أحد . وكانت هذه هي المناسبة الأولى التي قبلت فيها أليس . أما خبرتي الأولى في هذا السبيل فكانت مع الخادمة التي أشرت إليها في فصل سابق ، ولم أكن أتصور حينذاك مدى النشوة التي يمكن أن أستشعرها إذ قبلت المرأة التي أحبها . وبالرغم من أنها استمرت تقول إنها لم تقرر ما إذا كانت توافق على الزواج مني أم لا فقد قضينا اليوم كله في التقييل باستثناء وجبات الطعام . ولم نتبادل كلمة واحدة تقريباً من الصباح إلى المساء ، فيما عدا فترة قرأت فيها بصوت مرتفع قصيدة « إبيكديون »^(١) . ووصلت إلى منزلي في ساعة متأخرة بعد أن سرت ميلا ونصف الميل من المخطلة خلال عاصفة ثلجية . وصلت منهكاً ولكن منتشياً .

وتذبذبت مشاعرها خلال الفصل التالي لي في كامبردج . بدت في بعض الأحيان جد مشوقة إلى الزواج مني بينما تشبثت في أحيان أخرى بحريتها الشخصية ، وكان على أن أبذل في عملي جهداً كبيراً في هذه الفترة فقد كنت أتقدم إلى الامتحان النهائي في العلوم الأخلاقية في عام واحد ، بيد أني وجدت أن الحب ، سواء أكان موفقاً أم غير موفق ، لا يؤثر بأي حال في تركيزي الفكري . وحلت عطلة عيد القيامة ، وذهبت أولاً مع خالتي مود إلى روما حيث أقمت مع خالي، المونسنيور . ومن هناك رحلت إلى باريس حيث أضافني لوجان ، بينما كانت أمه وأليس تسكنان على مقربة منا . كان هذا هو أول عهدي بحياة طلبة الفن الأمريكيين في باريس ، وبدت لي هذه الحياة غاية في الحرية والإمتاع . وأذكر حفلاً راقصاً ظهرت فيه أليس بثوب من تصميم روجر فراي ، كما أذكر بضع محاولات غير ناجحة لتهيئتي لتقبل الثقافة عن

(١) Epipsychidion إبيكديون قصيدة للشاعر الروماني شيللي يمجّد فيها سلوة الحب .

طريق اصطحابى لرؤية اللوحات التأثيرية فى لوكسمبرج. وأذكر بالإضافة إلى هذا نزهة ليلية فوق نهر السين بالقرب من فونتنبلو ، وكانت أليس تجلس إلى جانبي ، بينما ملأ لوجان الليل بذكائه الذى لا ينضب . وعندما عدت إلى كامبردج أنبى جيمس وارد على إضاعى للعطلة الأخيرة فى القارة بينما كان ينبغى أن أقضيها فى التحصيل . بيد أنى لم أهتم ، وحصلت على المركز الأول بتقدير ممتاز .

وافقت أليس على خطبتنا بصورة قاطعة ، وكان هذا حوالى المرحلة التى انتهت فيها من دراستى للرياضيات . وهنا أحس أفراد أسرتى ، وكانوا دائماً يعترضون ، أنه لا بد من عمل شىء حاسم . لم تكن لديهم سلطة التحكم فى تصرفاتى ، كما أن تجربتهم لشخصيتها لم يكن له بطبيعة الحال أى أثر . ومع هذا فقد عثروا على سلاح كاد يأتهم بالنصر . أخذ طبيب العائلة العجوز وهو اسكتلندى جاد ذو سالفين كأنهما من صوف الأغنام ، يذكرلى كل ما كان يراودنى من أفكار بصورة غامضة عن تاريخ عائلتى وما كنت أشفق من حدوثه . ذكر لى كيف كان عمى وليم محبوباً ، وكيف اضطرت العائلة لفسخ خطوبة عمى أجانا نظراً لا عتلال ذهنها ، وكيف كان أبى يعانى من الصرع . (وأنا الآن أشك فى صحة هذه التشخيصات بعد كل ما سمعته من أساطين الطب بعدئذ) . فكل من ظن نفسه عالماً كان يميل إلى تجسيم دور الوراثة بشكل خرافى ولم يكن بالطبع معروفاً وقتئذ كم من الاضطرابات العقلية تنتج عن البيئة الفاسدة والتعاليم الأخلاقية الخاطئة . وبدأت أشعر أنه قد قضى على أن أواجه مصيراً قاتماً . قرأت مسرحية « الأشباح » لإيسن ، « وإرث عائلة كورت » لبيورنسون ، وكلاهما يدور حول توارث الجنون والأمراض . وكان لأليس بالإضافة إلى هذا عم غريب الأطوار إلى حد ما . وقد أقعنتى أسرتى بأن أحتكم إلى رأى أفضل الأطباء فى مدى احتمال إصابة أطفالنا بالجنون .

وكان الرأى الطبى الأمثل هو الذى أوعز به طبيب العائلة ، بناء على إيعاز

من العائلة نفسها ، أنه تبعاً لقوانين الوراثة ينبغي ألا ننجب أطفالا . وبعد أن تلقينا هذا الحكم أخذنا نقطع أنا وأليس رتشموند جرير جيئة وذهاباً ونحن نتدارسه . وكان من رأيي فسخ الخطوبة فقد صدقت ما قاله الأطباء وكنت مشوقاً للأطفال . أما أليس فقالت إنها لا ترغب كثيراً في الأطفال ، وإنها تفضل أن نتزوج بشرط أن نتجنب تكوين أسرة . ووافقتها على رأيها بعد نقاش دام نصف ساعة ، وأعلننا عزمنا على الزواج على ألا ننجب أطفالا . كان تحديد النسل في تلك الأيام يثير نفس الرعب الذي يشعر به الكاثوليك في الوقت الحالي . واشتد بأسرتي وطبييها الغيظ ، وأكد لي هذا الطبيب بكل جدية أنه يعلم ، على ضوء خبرته الطبية ، أن استعمال المستحضرات المانعة للحمل من شأنها أن تصيب المرء بأضرار صحية بالغة . وفهمت من إيماءات أفراد أسرتي أن استعمال هذه المستحضرات هو الذي أدى بوالدي إلى الإصابة بالصرع . ونشأ عن كل هذا جو ثقيل من التهديدات والدموع والأنين والرعب الخائف الذي كاد يستحيل معه التنفس . وكانت نتيجة اكتشافي أن أبي كان مريضاً بالصرع ، وأن عمي كانت تصاب بنوبات هستيرية ، وأن عمي كان مخبولا ، أن أصبت بالذعر ، فقد كان كل امرئ في ذلك الوقت يؤمن إيماناً خرافياً بتوارث الاضطرابات العقلية . وخامرني إحساس مماثل ، وإن كنت لم أفهمه على وجه التحديد . وفي الواحد والعشرين من يوليو ١٨٩٣ (عرفت بعد هذا أنه يوم مولد أليس) حلمت أنني اكتشفت أن أمي لم تمت ، وفي ضوء هذا الاكتشاف شعرت أن من واجبي ألا أتزوج . وبعد أن أحطت بجميع الحقائق وجدت من الصعب جداً أن أخلص من الخوف ، كما يبدو من التأملات الآتية التي لم أطلع عليها أحداً ، ولا حتى أليس ، حتى مر وقت طويل :

٢٠-٢١ من يوليو (١٨٩٤) . منتصف الليل . مر عام على الليلة التي حلمت فيها بأليس ، وهي أيضاً نفس الليلة التي تقابل مولدها . مصادفة غريبة ، لو ربطناها بالحقيقة التالية وهي أن معظم ما جاء في الحلم قد تحقق ، لترك

انطباعاً عميقاً في خيالي . كنت دائماً أومن بالخرافات ، وزادت السعادة من إيماني بها . إنه مما يدعو للخوف أن تكون كل عواطف الإنسان مركزة في شخص واحد . لم أعد أرى أية أهمية لشيء إلا بمدى ارتباطه بها ، حتى مستقبلي وجهودي من أجل التسك بالفضيلة ، وعقليتي (بالمستوى الذي هي عليه) ، وكل ما أملك أو أتمنى ، لم أعد أعتبره إلا هدايا أقوطها لها ، ووسيلة لإقناعها بمدى حبي لها . إلى سعيد ، بل هي السعادة العلوية . وأهم من هذا أني ما زلت أستطيع أن أقرر والله الحمد أنه لا مجال للشهوة في عاطفتي . بيد أنه في اللحظة التي أصل فيها إلى قمة السعادة ، عندما تبلغ البهجة أقصاها ، يبدو أنها تتجاوز أبعادها وتتحلل فجأة إلى أطيايف ومخاوف خشية أن أفقد كل شيء . من الغريب أن أجسم ما يقوم على أساس ضئيل ومتهاوى إلى هذا الحد - حلمي ليلة عيد مولدها ، واكتشافي بعد ذلك أن عائلتي قد خدعتني فعلاً كما حدث في ذلك الحلم ، تحذيراتهم الصارمة والمتكررة ، واكتشاف الفواجع الحالكة الظلام ، العديعة الأمل ، واحدة بعد الأخرى ، التي منها تكون نسيج حياة معظم أفراد عائلتي ، وأهم من كل هذا ، الحزن المستمر الذي يحتم ويحوم كالقدر فوق ب ل (١) ، والذي ينفذ إلى أعماق أعماقي ، مهما حاولت إبعاده كلما توجهت إلى هناك ، مما يقضى على كل بهجة ، حتى في حب أليس لى . ومن شأن كل هذه العوامل ، بالإضافة ، إلى الخوف من عامل الوراثة ، أن ترهق عقلي وتجعلني أحس كما لو أن اللعنة تسيطر على الأسرة وأنى أحارب ضدها دون جدوى لعل أهرب إلى الحرية التي تبدو حقاً طبيعياً للآخرين . وأسوأ من كل هذا أن ذلك الخوف يحرف في طريقه أليس بصورة حتمية . أشعر أن الظلام قد أصبح جزءاً من طبيعتي ، وأن قدراً قاسياً اضطرنى بدلا من أن أصل بنفسى إلى الضوء ، أن أجراها معي إلى الهوة التي خرجت منها جزئياً . ولست أدري ما إذا كان القدر سيتخذ صورة ضربة مفاجئة أو عذاباً مقبلاً ، فيمتص طاقاتنا ويحطم حبنا ، ولكن يطغى على خوف من شبح

(١) بيمبروك لودج .

العائلة ، فأتصوره يمسك بي يديين كالكلابتين ولكنهما غير منظورتين ، بغية الانتقام من محاولتي الهروب من تقاليد مليئة بالحزن . إن كل هذه المشاعر بالطبع حماقة ، مبعثها التخمّة ، والسهر ، ومع هذا فهي حقيقة . ثم هي تهاجمني بقوة جبارة لدى أقل تراجع من ناحيتي . وأراني مضطراً أن أتجنب لفترة ما رؤية أفراد أسرتي أو زيارة بمبروك لودج ، مهما سبب لهم هذا من ألم ، وإلا فإن هناك خوفاً فعلياً على سلامة عقلي . إن بمبروك لودج يبدو لي كقبو تطوف به الأشباح لأناس التاثت عقولهم . أما هنا فكل شيء مشرق وطبيعي ، وبالأنحص أليس ، وطالما استطعت أن أنسى بمبروك لودج ، والإرث البغيض الذي نالني منه ، أجدني متحرراً من الهواجس ، ولا أشعر إلا بالمتعة الكاملة التي يخلقها الحب المتبادل ، وهي متعة تصل في رحابتها وقديسيها حدّاً يجعلني أعجب كيف يمكن أن يوجد مثل هذا الشعور في عالم يسيء إليه الناس . كم أود أن أطمئن إلى أن هذا الحب سوف يجلب لها السعادة في النهاية ، وأنه لن يضيف إلى حصيلتها ، وهو ما سبق أن تعلمته للأسف ، بما يمكن أن تكون عليه الحياة من بشاعة ، وما يمكن أن تحتويه من تعاسة .

لم تتوقف المخاوف التي تولدت في نفسي في ذلك الوقت عن إيلاي بطريفة لا شعورية . وقد أصبحت منذ ذلك الحين ، وليس قبل ذلك ، معرضاً لأحلام مزعجة أراني فيها قتيلا ، كما أجد قاتلي في العادة شخصاً مخبئاً ، وهنا أصرخ بصوت حاد . وذات مرة ، قبل أن أستيقظ ، كدت أخنق زوجتي ، ظانناً أنني أدافع عن نفسي ضد هجوم قاتلي .

ولقد دفعني هذه المخاوف ، لمدة سنوات ، إلى أن أتجنب الانفعالات العنيفة ، وأن أعيش بقدر إمكاني حياة يسودها الفكر ولا تؤخذ مأخذ الجدل وقد هيا لي الزواج السعيد الاستقرار العقلي تدريجياً ، وعندما مرت بي في مناسبات تالية أعاصير عاطفية ، وجدت أن في استطاعتي أن أظل سليم الفكر . وكان من شأن هذا أن يبعد الخوف الشعوري من الخجل وإن كان الخوف اللاشعوري لم يزل قائماً .

وانتهى كل تردد أحسست به بشأن ما ينبغي أن تفعل عندما استشرنا ،
 أليس وأنا ، طيباً آخر أكد لنا في وضوح قاطع أنه استعمل بنفسه المستحضرات
 الواقية من الحمل سنوات ، وأنه ليس هناك أدنى خوف من حدوث آثار ضارة
 فن الحماقة ألا نتزوج . وهكذا حزمنا أمرنا ، بالرغم من الصدمة التي هزت
 مشاعر الأسرة . والواقع أنه بعد مرور عامين من زواجنا أدركنا أن الكلام
 الذي كانت تقوله لنا الهيئات الطبية كان هراء في هراء ، وقررنا على
 ضوء هذا أن نجرب أطفالاً إذا أمكن . ولكن ظهر بعد هذا أن أليس عاقر ،
 وهكذا ثبت أن كل ما أثر من ضجيج لم يكن له أى داع .

وذهبت بعد هذه الأزمة لأقيم مع عائلة أليس في فرايدايه هل ، وهناك
 بدأت أستقر وأكتب رسالة لأتقدم بها إلى درجة زميل في الجامعة ، وكان
 موضوعي : « الهندسة غير الإقليدية » . وتلقيت رسالات من أسرتي كل يوم تقريباً
 وكلها تتقصى « الحياة التي نعيشها » ، بيد أنه وضح لي أنهم سوف يقودوني إلى
 الجنون لو استجبت لهم ، وأنني في نفس الوقت أستمند دفعة عقلية من وجودي
 إلى جانب أليس . وهكذا ازداد تقاربنا .

ولم يكن هذا هو نهاية ما فعلته أسرتي . ففي شهر أغسطس أقنعوا اللورد
 دافرين ، سفيرنا في باريس في ذلك الوقت ، بأن يعرض على منصب ملحق
 فخري . ولم تكن لدى رغبة في شغل هذا المنصب ، ولكن جدتي قالت إنها
 لن تعيش طويلاً وإلى مدين لها بأن أتبين ما إذا كان الافتراق عن أليس
 سيقلل من حبي لها . وددت أن أجنب نفسي الشعور بالندم عندما تحين وفاتها ،
 ولذا وافقت على الرحيل إلى باريس وقضاء مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر ، على
 أساس أنه إذا لم تتأثر بهذا مشاعري كان على أسرتي أن تتوقف بصفة إيجابية
 عن معارضة زواجي . بيد أن عملي في الميدان الدبلوماسي كان قصير الأمد ،
 ليس فيه ما يدعو للفخر . كرهت العمل ، والناس ، وجو الاستخفاف ،
 والافتراق عن أليس . وجاء أخى ليزورني ، وبالرغم من أني لم أكن أعرف
 هذا عندئذ ، فقد كان مجيئه بدعوة من أسرتي لكي يكون رأياً عن الموقف ،

ولقد انحاز إلى بكل جوارحه . وعندما انتهت الأشهر الثلاثة ، وكان ذلك في السابع عشر من شهر نوفمبر ، نفضت عنى غبار باريس وعدت إلى أليس . بيد أنه كان على أولاً أن أطلب صفحها . فقد دبت في نفسها الغيرة من شقيقتها وكنت أراها كثيراً في الجزء الأخير من إقامتي في باريس . ولا بد أن أقول إن استرضاء أليس لم يستغرق سوى عشر دقائق .

ولعل الشيء القيم الوحيد الذي كسبته من وجودي في باريس كان هو صداقة جوناثان سترجز ، وقد شعرت إزاءه بعاطفة قوية . وبعد مرور سنوات عديدة من وفاته ذهبت لزيارة هنري جيمس^(١) في منزله في راي ، وكان يستخدم حينذاك متحفاً . وهناك طالعتني فجأة لوحة لسترجز معلقة على الحائط ، أخذت بها للدرجة أني لا أذكر شيئاً آخر في ذلك المكان . كان سترجز كسيحاً ، مرهف الحس ، ذا قدرة أدبية عظيمة ، كما كان ينتمي إلى ما يستحق أن يسمى الأرستقراطية الأمريكية (كان ابن أخ ج. س . مورجان) . كان لماحاً سريع البديهة ، صحبته يوماً إلى الحديقة المخصصة لمن يحملون درجة زميل في كلية ترينتي ، وكان تعليقه : « أوه ، نعم ، هنا قالت جورج اليوت^(٢) ل ف . و . ه ما يبرز إنه ليس هناك إله ، ومع هذا يجب أن نتبع طريق الخير . وأصر ما يبرز على أن هناك إلهاً ، ومع هذا فلا حاجة بنا إلى اتباع طريق الخير » . ولقد تعددت مقابلاتي له أثناء وجودي في باريس وتوثقت بيننا أواصر صداقة لم تنته إلا بوفاته .

(١) هنري جيمس ١٨٤٣ - ١٩١٦ قصاص أمريكي مشهور كان يحب إنجلترا وأقام فيها وأصبح مواطناً بها .

(٢) الروائية الإنجليزية ماري إيفانز وقد كانت تسمى نفسها جورج اليوت .

خطابات

١٥ شارع دى سومرار

باريس

٢٥ من أكتوبر (١٨٩١)

عزيزى برنى

انتويت أن أكتب إليك من قبل ، لأعبرك عن مدى سرورى لزيارة كامبردج ، ولكنى قضيت فترة أليمة حاولت فيها أن أستقر فى هذا المكان . ويرجع كل هذا إلى الأوامر الجديدة المتبعة ، إذ أن من العسير جداً أن أحصل على مسكن بالأجر الذى حددته لنفسى . وإنى على درجة من الكبرياء تأبى لى أن أعترف بهذه السرعة بأن الإيجار يثقل كاهلى . ومن ثم فقد وجدت مستقراً أخيراً فى الحى اللاتينى ، وفى الطابق السابع . وقد وجدت أن الكبرياء المعنوية التى تملأ صدرى تتجاوز كل تعويض عن التعب الذى لقيته . إن من دواعى السرور هنا أن يشعر المرء أنه أفضل من جيرانه . قابلت صديقة لى بالأمس ، وهى تقيم فى رفاهية على الجانب المقابل من النهر . وقد أسبغ على هذا شعوراً بالرفعة . أخشى لو كتبت إلى أستاذى المشرف أن يرسل إلى فى الحال قميصاً من الشعر . هل حاولت أن تتمسك بالنظم ؟ إننى فى حديثى لأناأل أحداً بسوء فليس هناك من أوجه إليه مثل هذا الحديث ، ولو أنى لا أحسن الظن بصاحبة البيت الذى استأجرته . ولقد أحسست منذ أيام بضآلة شأنى لقدوى إلى هذا المكان ، لدرجة أنى لم أستطع أن آكل إلا فطيرة صغيرة وأقرأ مجلة هزلية اسمها تيت بيتس .

بدأت فى كتابة رواية ، ولك أن تتأكد أنها ليست ذات صبغة دينية ، ولن يقدر لها أن ترفض من جانب الناشرين إلا بعد مرور عام أو عامين .

كانت رحلتى إلى هنا بعد أن تركتك غاية فى الإمتاع . جلسنا فى الباخرة

صفوفاً يحملق كل منا في الآخرين ، على الطريقة الإنجليزية اللطيفة .
 كان هناك زوجان في مقتبل العمر يتميزان عن الآخرين ، ويشكلان تحذيراً
 ودرساً للشباب ، كان هوشاباً زائع النظرات ، حليقاً ، وكانت هي ضئيلة الجسم
 كما كان معهما وليدهما الصغير . « حط » الزوج زوجته في مقعد ذى ذراعين
 وأخذ يسير بالصغير جيئةً وذهاباً . وأمضى وقتاً طويلاً ينظر إلى الأفق الممتد
 على صفحة الماء كأنما ليتقصى الإجابة على سؤال طرحه عليه . ولكن السقم
 المقبض الذى كانت عليه الزوجة والطفل سرعان ما أنها تأملاته . أى تحذير هذا
 للشباب ؟ كان يمكن أن أكون فى مكانه . . .

آمل أن تكون قد اشتركت فى المناظرة لتثبت أن الطبقات الرفيعة غير متعلمة
 — إن هذه التعميمات الواسعة فى غاية الإثارة — ما أكثر ما يمكن أن يقوله
 المرء فى هذا الصدد .

آمل أن تنضم إلى طائفتنا ، فإذا فعلت اتخذنى بمثابة المرشد لك . سوف
 أعد لك عقوبات مجيبة ، وبهذه الطريقة سأكون على ثقة من أنك ستكتب إلى
 إذ لابد أن هناك قواعد سوف تخالفها أو صدعاً فى كيائك الخلقى .
 سلامى إلى سلدون عاموس إذا قابلته .

المخلص

لوجان بيرسل سميث

١٥ شارع دى سومرار

باريس

نوفمبر ١٨٩١

عزيرى برنى

أرفق بكتابى هذا أحكام الطائفة — أعنى الخطوط العريضة — على أنه ينبغي أن نعقد اجتماعاً للطائفة قريباً لتتفق على هذه القواعد بصفة نهائية. أما عن القاعدة الأولى فيحسن أن تحدد مبلغاً من المال تنصرف في حدوده . يبدو من القائمة التى أرسلتها إلى أنك تعيش على البيض وأصناف البقالة أنصحك أن تتناول عشاءك بين حين وآخر . كما ينبغي أن يكون هناك مكان للتسلية في حياة الإنسان في الجامعة ، على ألا يحتسب هذا ضمن نفقات الطعام والإقامة . أما عن القاعدة الرابعة فرأى أن من الأنسب أن يقتصد المرء في الجامعة في الجهد المنصرف في الأعمال ذات الصبغة الاجتماعية .

إن ما ذكرته عن تحول الإنسان عن مبدأ إنكار الذات مفهوم ، وهو في نفس الوقت مؤلم إلى حد كبير — لقد هز مشاعرى كثيراً — إذ قد ينتهى الحال بالمرء أن تتكون لديه عادة التخلي عن المبدأ ، وهنا يفقد الأمر أهميته . وسوف أكتب لرئيس الجماعة عن هذا الموضوع .

لك أن تعتبر نفسك بطبيعة الحال عضواً ، وعليك أن تتقدم باعترافك إلى ، وسأكتب لك عدداً من النصائح الغريبة . كما يتحتم أيضاً أن تضم أعضاء آخرين . ولنا أن نتوقع أن ننجح في ضم نصف طلبة تربيتى .

إنى أعيش في سكون كحيوان القوقع ، ويسعدنى أن أتححر زمناً ما من جميع الالتزامات الاجتماعية ، وأتكشف المنطقة المحيطة . وما أكثر الأشياء التى تستحق أن يراها المرء هنا .

المخلص

لوجان بيرسل سميث

وفيما يلي قواعد جماعة المتزمتين كما صاغها لوجان بيرسل سميث :

(١) حِكَم :

- ١ - لا تدع أحداً يعرف أنك متزمت .
- ٢ - انكر ذاتك بطرق غير ظاهرة ولا تتحدث عن أمورك الاقتصادية .
- ٣ - تجنب توجيه كل أنواع النقد غير المجدي والملاحظات المؤلة للآخرين^(١)
- ٤ - حافظ دائماً على العادات التي تحترمها الجماعة التي تعيش بينها - احتفظ بنظافة سترتك واحرص أن تكون أربطة حذائك معقودة .
- ٥ - تجنب صحبة الأغنياء وموائد المرفهين - اقصد كل من لا يعتبر ما يمتلكه وديعة ائتمن عليها .
- ٦ - لا تكن مادياً ، لا تدع فرصة سماع الموسيقى الرفيعة ، أو مشاهدة اللوحات أو التمثيليات الجيدة تفوتك .
- ٧ - دع الآخرين يستفيدون دائماً وبقدر الاستطاعة من مهارتك في مثل هذه الأمور .
- ٨ - ابذل كل جهدك لنشر قواعد الجماعة .

(ب) أحكام خاصة :

- ١ - لا تسمح لنفقات طعامك وإقامتك بأن تتجاوز جنيهين في الأسبوع .
- ٢ - احتفظ بكشف دقيق للمبالغ التي تنفقها على الملابس وأسباب المتعة .
- ٣ - إذا كان دخلك يتجاوز ما تنفقه على متطلبات الحياة الضرورية ، ف تبرع بعشره على الأقل للجمعيات الخيرية .
- ٤ - خصص أمسية واحدة كل أسبوع ، أو ما يعادل هذا الوقت ، في الخدمة الاجتماعية للطبقة العاملة ، أو في زيارة المرضى .

(١) كان لوجان أسوأ من عرفت من الناس وأكثرهم حياً لإثارة الفضائح .

٥ - خصص زمناً معيناً كل يوم لمواجهة ضميرك .

٦ - امتنع تماماً عن جميع المشروبات المسكرة فيما عدا تلك التي تستخدم كدواء .

٧ - مارس شيئاً من إنكار الذات كل يوم ، وأسوق من هذا على سبيل المثال . الوقوف عند نداء الاسم ، عدم تناول الكعك مع الشاي أو الزبد في الإفطار ، أو القهوة بعد العشاء .

٨ - تمسك بحزم بالقوانين الصحية التي تحكم اختيار ألوان الطعام ، والرياضة ، التي يحددها الطبيب ، أو التي يرى المنطق السليم أن من الأنسب اتباعها .

٩ - اقرأ بعض القصائد المعروفة أو في كتاب في الروحيات كل يوم ، مدة نصف ساعة على الأقل .

١٠ - كرس نصف ساعة مرة كل يومين أو ساعة ونصف الساعة أسبوعياً ، لاستعادة المعارف التي سبق تحصيلها - وبالأخص المؤلفات العلمية أو الكتابات الكلاسيكية المأثورة .

١١ - حافظ على مواعيدك بدقة ومواظبة ، ولا ترتبط أو تعد بشيء ليس هناك احتمال أن تنفذه .

إن من حق رئيس المتزمتين^(١) أو مساعد الرئيس أن يعفى العضو إعفاء مؤقتاً أو دائماً من هذه القواعد ، إذا رأى هذا ضرورياً وتحال كل المخالفات للقواعد والأحكام إلى رئيس الجماعة ، أو مساعده ، الذي يتكفل بتوقيع عقوبة ما إذا رأى أن في هذا ما يفيد .

(١) لا أعرف من هو رئيس المتزمتين ، ولا حتى ما إذا كان له وجود خارج غفيلة لوجان .

العقوبات المقترحة :

- القيام بزيارة يؤدي فيها المرء واجباً معيناً .
- كتابة خطاب كجزء من واجب يؤديه المرء .
- حفظ بعض القصائد أو القطع النثرية .
- ترجمة مادة باللغة الإنجليزية إلى أية لغة أخرى .
- تنسيق المرء لحجرته .
- توسيع رقعة الحفاوة بحيث تتناول الثقلاء .
- (يمكن أن يحصل الأعضاء على قمصان من الشعر عند طلبها من رئيس الجماعة) .

١٥ شارع دى سومرار

باريس

٣ من ديسمبر ١٨٩١

عزيزى برقى

أعتقد أنك تصلح لأن تكون مترماً بارزاً ، كما أن لديك من الأخطاء ما يجعلك لطيفاً . بيد أنى ذهلت إذ علمت أنك دفعت اثني عشر شلناً وستة بنسات لتشتري عصاً . إني أشتم من هذا رائحة الخطيئة ، وأعتقد أن شلنين وستة بنسات هي الحد الأقصى . وإذا كانت أخلاقيات كامبردج لا ترقى كثيراً عن تلك التي تدين بها أكسفورد ، فإني أعتقد أن العصا التي دفعت ثمناً لها اثني عشر شلناً وستة بنسات لن تبقى في حوزتك طويلاً :

لأعرف شيئاً عن التبغ وقصبات التدخين . ومن ثم فإني لا أستطيع أن أتبع خطاك في تلك الميادين التي يتطلب الأمر فيها رفاهة . ولا بد أن أسأل شخصاً ممن يدخنون الغليون عن هذه المسألة . وأرى أن من الأنسب أن توقع على نفسك أقصى العقوبات المذكورة في القائمة ، فإذا لم تقلع عن الخطيئة أخذتك بعقوبة أقصى .

لقد وجدت التزمت ، مثله في ذلك مثل كافة أنواع الامتياز ، أصعب بكثير مما تصورت . وبهذه المناسبة دعني أقول لك إنه إذا ظن امرؤ أنه قرأ الفترة المحددة وهي نصف ساعة في اليوم فلاحتمال الأكبر هو أنه لم يقرأ سوى ربع ساعة . إن طبيعة الإنسان ، أو على الأخص طبيعتي ، تميل دائماً إلى التفاؤل في الإشارة إلى ماتقوم به .

لا ، إن القاعدة الخاصة بالساعة ونصف الساعة في الأسبوع لا داعي لأن تنطبق عليك — بيد أنه ينبغي أن تستمع إلى الحفلات الموسيقية ، إلا إذا ضاق وقتك عن ذلك . أما عن الجمعيات الخيرية فهناك عدد منها يفوق الحصر يؤدي عمله بطريقة سليمة ، ولكن لم لا توفر ما لديك من مال لأغراض صندوق الجماعة ؟ وبذا يمكن أن نقرر أوجه التصرف في هذا المال في اجتماعنا التالي . إن اجتماعنا كلنا سيكون مصدر إثارة ، وفيه سنقارن خدماتنا . بيد أنني أخشى أن يؤدي هذا الاجتماع إلى تأملات ذات طابع تشاؤمي .

لقد خيب رئيس الجماعة آمالي ، ولو لم يكن ديدني أن أتجنب الحديث بالسوء عن الآخرين لقلت : إنني أخشى أن يكون هو نفسه قد نقض القواعد ، وهو أمر يعتبر جد نحيف . إنني أعيش هنا وحدي ، وأستشعر كل اكتفاء ورضا . إن القادم إلى هذا المكان يرث ثروة ضخمة من التقاليد والحضارة — إنجازات ثلاثة أو أربعة قرون من أعمال الذكاء وممارسة التدوق — هذا هو ماتحب في باريس . استبدت بي الحيرة في أول الأمر ، وسرت في جسدي رجفة كمن يقف على شفا هاوية ، وشعرت بالحنين إلى إنجلترا ، بيد أنني أصبحت الآن أحب باريس حباً كاملاً .

اكتب إلى "ثانية عندما يزداد رصيدك من الخطايا ، وحدثني عما إذا كان الخوف من العقاب يؤثر عليك ويدفعك إلى أن تنحاز إلى جانب الفضيلة . إن هذا هو ما يحدث في حالة الجبناء أمثالي .

المخلص

لوجان بيرسل سميت

١٥ شارع دى سومرار

باريس

١١ من يناير ١٨٩٢

عزيزى برنى

انتهيت الآن فقط من قراءة خطابك مرة ثانية لأرى ما إذا كانت هناك وسيلة أتدفع بها لتوقيع عقوبة عليك ، فقد التزت قديمى اليوم ، وأجندنى سريع الغضب . ولكنى لست واحداً ممن يتسقطون الخطيئة عند الأثرياء — مادام اللباس الموشى ينسدل على أجسادهم فيناسبها . ولكن مهلاً — أأنت واثق من أنك ذكرت لى ما قرأته حتى يتسنى لك ، كما تقول ، أن تبعد عنى الريبة — ألم تكن لديك الرغبة فى الخروج قليلاً على . الحكمة رقم « ١ ؟ » فإذا وصلت بعد امتحان عسير لذاتك إلى أن الرغبة كانت موجودة كان من الأنسب أن تنتهى من دراسة « أنشودة للريح الغربية » وهى القصيدة التى درست جانباً منها فى الصيف الماضى .

إلى هنا أكتب إليك بصفى الرسمية كمرشد . أما كصديق فقد أذهلنى وأقلقنى أنك تقرر بهدوء أنك تنغمس فى « جميع الرذائل التى لا تحرمها القواعد » وغنى عن البيان أن هذه الرذائل عديدة ، تبدأ بلعب البكاراه وتنتهى عند قضم الأظافر ، وأجندنى أتردد فى أن أصدق أنك سقطت ضحية لها جميعاً . وأعتقد أن ما عنيت به هو أنك تقرأ الكثير من كتابات براوننج (١) .

أعيش هنا فى هدوء ورضا عميقين . وأخصص جزءاً من اليوم لإثراء اللغة الإنجليزية بالقواعد والأخلاقيات ، والجزء الباقى للتأمل فى عقل الإنسان كما يجد تعبيراً فى الفن والأدب . إنى أتمرق شوقاً بطبيعة الحال إلى اللحظة — ولا أشك أنها قادمة — التى أسمع فيها اسمى تردده ألسنة الشهرة وأبواقها ، وأراه مكتوباً فى جميع الصحف كتابة خاطئة . ولكنى أكتفى فى الوقت الحاضر بأن أمثل

(١) الشاعر الإنجليزي الشهير روبرت براوننج الذى عاش فى عصر الملكة فكتوريا .

١٣٣

دور الشاعر في بيوت السيدات الأمريكيات الساذجات .
أما كروائي أو قصاص حسب ما تقوله صحيفة «ستار» فإنني أستهدف
استظهار ذاتي في قصصى ، وهنا تمتزج الحقيقة فنياً بالأخلاقيات . كما أود
أن أوضح بعض أحداث الحرب الدائمة بين الجنسين . ترى ماذا تقول « القبور
المبيضة » في أمريكا ؟

حسناً ، إن من الأمور المحببة أن أطنب هكذا في شخصيتى الرفيعة .
أغلب الظن أنك « تقف على العتبة » ، كما يقول المرء ، حينما يريد أن يكتب
بأسلوب رفيع ، عتبة فصل دراسى جديد ، ومن هنا فإنني أستعيد شخصيتى
كمُرشد أخلاقى وأضيف نكهة لهذا الخطاب باستخدام عبارة أخاذة ولكنها عميقة
الدلالة . كم أود لو عثرت بمجلة بهذا الوصف ، تجمع بين الصدق والحدة ،
ولكن ذهنى لا يسعنى ، فالحقيقة دائماً شائعة ، ولعل هذا هو السبب الذى
من أجله نستملح النقائص أكثر من الحقائق .

المخلص

لوجان بيرسل سميث

١٤ شارع دى لاجراندى شومبير

باريس

١٩ من مارس ١٨٩٢

عزيزى برنى

أرى أنه ينبغي أن يسمح بعضوية الطائفة لمن يشرب باعتدال إذا كان سلوكه
مرضياً في غير هذا الميدان . إن الخيرين في هذا العالم قلة . ولكن لتوَجَّل المناقشة
في هذه النقاط حتى نتقابل . إننا ننوى قضاء جزء من أسبوع عيد القيامة في هاسلمير
كما أعتقد وأمل أن تتحرر من مشاغلِكَ بضعة أيام لتزورنا في هذه الآونة .
ولكننى سأكتب إليك ثانية عندما أصل إلى إنجلترا . سوف تتبين من عنوان
الخطاب أنى غيرت سكنى مرة أخرى ، ولقد انتهى بي المطاف أخيراً إلى مسكن

صغير أثنته بنفسى . إني الآن فى بوهيميا ، وهى بلد جذاب إلى أقصى حد ، يسكنه الحراس الفرنسيون ، وطلبة الآداب من الأمريكيين والإنجليز ، وشباب من الجنسين يعيشون فى رشاقة وبساطة ، ويتجنبون التألق فى الملبس . إن الجنبيين اللذين أنفقهما فى الأسبوع يعتبران قمة التبذير ، وأنت هنا فى مأمن من أن تتأذى عينك بمراى القمصان النظيفة والحلل الجديدة . من العسير أن تتصور مدى سحر هذا المكان ، إن كل فرد هنا فى مستقبل العمر ، رقيق الحال ذكى للاح ، جاد فى عمله .

عندما قدمت إلى هنا أولاً ، عرفت بعض « البارزين » فى هذا المجتمع وهم يسكنون فى الجانب الآخر من النهر ، ودرجت على أن أزورهم وأتناول معهم الشاى، ونتحدث فى أمور عادية ، بيد أن حياتهم الآن أصبحت تبدو خاوية ، وعقولهم مجذبة عاطلة عن الإدراك، لدرجة أنى لا أستطيع أن أقرب منهم دون أن يتأبى الصداق الناشئ من الملل . كم يصبح المرء ثقيلاً وعاطلاً عن الذكاء لو استكان لهذه الصفات .

المخلص

ل. ب . سميث

فرايدايز هل

هاسلمير

٢٤ من نوفمبر ١٨٩٢

ترى هل تسير الأمور كما تروم فى كامبردج يا برنى ؟ وددت لو استطعت أن أزورك ، لولا أنك ستدهش لمظهري ، فقد حلقت شعر رأسى حتى غدت صلعاء كالبيضة ، وارتديت من الملابس خرقاً بالية ، واعتكفت فى عزلة فرنهرست ، حيث أعيش الآن ، فى كوستللو كوتدج ^(١) . تلقيت رسالة من

(١) كان هذا بيتاً ريفياً صغيراً ، على مقربة من فرايدايز هل ، سكنته عائلة مسز كوستللو وهى شقيقة لوجان (أصبح اسمها مسز بيرنسون) .

ستيفنس يطلب منى أن أرسل مقالا « لكامبردج أوبرفر » ^(١) ، وأظننى وقعت تحت إغراء الشيطان فقد وعدته أن أفعل . ولذا فقد سارعت بكتابة مقال عن هنرى جيمس ، وبعد أن بعثت به فى الليلة الماضية راودنى الشعور فجأة بمدى حماسة ورداءة ما كتبت . حسناً ، آمل ألا يوافق الرجل الطيب على طبعه .

هناك مادة دسمة فى جريدة الأوبرفر التى تلقيتها ، بل لقد أدهشنى هذا إلى حد كبير ، ومن المؤكد أنه يجب تشجيعها . غير أنى لا أتفق مع حماسها لما يتنافى مع الفضيلة — واستخفافها بما يسميه ملتون « الاعتقاد الرشيد الجاد فى العذرية » . إن من الخطورة بالنسبة للإنجليز أن يحاولوا التشبه بالفرنسيين ، إذ لن يتأتى لهم أن يلتقطوا السمة المميزة . إذا زل الفرنسى كان هذا « فى لحظة سهو » ، كما يقولون — نتيجة لشروذ الذهن ، إذا صح القول — بينما الإنجليز أكثر جدية وإدراكاً لما يفعل . كلا ، من الواجب أن تنمو الحضارة وتتطور أساساً بنفس الأنماط وقوالب الشعور التى هيأها أولئك الذين أسسوها وغلّوها . لقد تأثرت بكل هذا عندما زرت « نادى الفن الإنجليزى الحديث » . إن هناك قطعاً بعضها جميل ، ولكنها فى مجموعها كانت تحمل نفس العلاقة بالفن الحقيقى — الفن الفرنسى — التى نتصور وجودها بين المؤتمر الكنسى والحركات الاجتماعية الفعلية

ونفس هذا يمكن أن يقال عن المادة التى يكتبها سيكرت وزملاؤه إذ تبين أن إنجيل الرذيلة ، لو بشر به بنفس الحماس الذى نراه فى قاعة كاتدرائية اكستر ، لأدى هذا إلى ضباية الصورة .

سوف أظل فى إنجلترا مدة أطول . متى تبدأ عطلتك ، وأين تنوى أن تقضيها .

المخلص

لوجان ب. سميث

(١) كانت هذه مجلة للخاصة من المثقفين ، يقوم بتحريرها الطلبة ، يشرف عليها أساساً أوزوالد سيكرت (شقيق الرسام) وكان صديقاً حميماً لى .

١٣٦

١٤ شارع دى لا جراند شومير

باريس

١٤ من فبراير ١٨٩٣

عزيزى برنى

يؤسفنى أن شيئاً عاقى ومسجريف عن القدوم إلى رتشموند ، ولكنى لم أقض فى لندن سوى فترة قصيرة . وأمل أن أكون هناك فى عيد القيامة ، إذا عدت إلى الوطن . رجيت بى باريس كما لو كنت أنتمى إليها تماماً ، وها أنا أعيش فى سحر هذا المكان الممتع ، الخفيف . ذلك لأنه فعلاً مخيف من نواح عدة ، على الأقل ذلك الجانب من باريس الذى أعيش فيه . أو لعل باريس كلها مدينة شريرة ، أو أن سكان هذا الحى يعيشون هنا دون التقيد بالتقاليد والعادات ، أو لعلهم لا يلجأون إلى إخفاء الحقيقة وراء أقنعة ، أو ربما كان السبب أيضاً — وهو ما أميل إلى تصديقه — هو أن فى حياة الفنانين دائماً عناصر المأساة ، أو على الأقل لاتنقصها هذه العناصر . كل هذا يؤصل لدى الإحساس بتعاسة الحياة هنا وبرقتها أيضاً . تصور أنى اكتشفت فى نفس هذا الصباح أن صبية أعرفها هنا قد جنّت . جاءت لترانى وطلبت منى أن أساعدها فى كتابة رسالة تهاجم فيها الإباحية الفرنسية ، وها أنا فى انتظار الطبيب الذى استدعيته لرى ما إذا كان من الضروري أن تنقل إلى مكان مخصص لأمثالها .

أما عن « التمسك بالأخلاقيات » فهناك عديد من الأمثلة عن مظاهر السلوك العكسى ، تتمثل فى النساء والرجال . قابلت مرة واحداً ممن يطلقون عليهم لفظ « جماعة ديفيز الصغار » فى مرسى « ستد » ، وشعرت بأسى عميق إذ رأيت هناك أيضاً شاباً إنجليزياً رقيقاً قدم ليعيش فى باريس ، ومع ذلك فى تصويرى أنه يستطيع أن يتكفل بأمر نفسه .

يبد أنه لا يخلق بى أن أسىء إلى باريس كثيراً ، فبعد كل ما ذكرت ،

١٣٧

وربما لكل ما ذكرت ، أعتقد أن باريس ممتعة بدرجة لاتضارع . هناك دائماً احتمالات مثيرة للكسب أو الخسارة ، وكل امرئ يجازف علّه يكسب .

المخلص

ل . بيرسل سميث

٤٤ جروفتر رود

وستمنستر

٢٩ من أكتوبر ١٨٩٣

عزيزى برقى

أظنك ترقب العام فى كامبردج وهو يصطبغ باللون الأصفر ، ولعلك أيضاً تستمتع بالعواطف المناسبة لهذا الفصل من العام . ما زلت فى لندن على غير هواى ، ولست أتبين احتمالا للرحيل فى الوقت الحالى . حاولت أن أحب لندن ، حيث إن مظاهر سحرها الرخيص لم يتضح للعيان بعد . وما من شك أن لندن تملك هذا السحر ، ولكنى قررت أنه إذا تهيأ لى أن أجول فى لندن فسيكون الدافع لى الكراهية وليس الحب ، والكراهية بالنسبة للأغراض الأدبية دافع عظيم . إن كل الواقعية الفرنسية تجد جذورها فى كراهية الحياة كما هى ، هذا التشاؤم كما يبدو من عبارة هارولد يواقيم الوقعة ، وفى نفس الوقت الصحيحة ، يجب أن يبنى على شىء من التفاؤل . إن عبارة « لا ظل بدون ضوء » ، إلى جانب الحلم المشرق عما يمكن أن تكون عليه لندن ، وما عليه باريس فعلا إلى حد ما : كل هذا يجعل لندن الحالية تبدو وضيفة ومظلمة .

وبعد فإنى أجول قليلا وسط مجتمع الأدباء ، ولست أعنى بهذا ألمع أفراد هذا المجتمع ، وإنما ما يقابل مجتمع بوهيميا فى لندن ، من القصاصين والشعراء والصحفيين الذين يحتلون المرتبة الثانية ، وهو مجتمع لا يثير حماس المرء . كلا ، إن مجتمع بوهيميا اللندنى ، والذي يضم الروائيين والشعراء والصحفيين ، تنقصه نفس تلك السمة التى كان يمكن أن تصلح من شأن

بوهيميا الفعلية ، وهى التغلب على الدوافع الشخصية . إن بوهيميا مكان مقبض يسعى لتكديس المال ، وهو يدرك أيضاً عاداته ، ويصمم ألا يرى فى الحياة شيئاً سوى عادات الناس . إن هؤلاء الشبان الضئال القامة الشاحبي الوجه يجلسون فى المطاعم ويحاولون أن يبينوا أن العالم كله يضارعهم خسة وقتامة ، والحق أنهم ينجحون فعلاً ولومؤقتاً فى جعل العالم يبدو حقيراً .

هل تجتذبكم دراستك للفلسفة ؟ لا تتجه بكل مشاعرك إلى هيجل فتفقد نفسك فى أحلام عاطرة . إن العالم لن يسير قدماً إلا إذا تحددت بصيرة البعض على الأقل ضمن نطاق الإيمان بما أثبت وجوده فحسب ، ووضح الفارق بين ما نعرفه وما لا نعرفه .

المخلص

‘وجان بيرسل سميث

كوينز هوتل

بارنزلى

١٦ من نوفمبر ١٨٩٣

عزيزى برنى

أجزل الشكر لك للمبلغ الذى أرسلته. والذى يدل على الكرم ^(١). إن الحاجة للمال هنا ماسة جداً ، ولكن بفضل التبرعات قد توافر ما يكفى لأن يقيم أود القوم هنا بصورة من الصور. إنهم قوم مدهشون حقاً ، ومن الصعب أن يتصور المرء أنهم عرضة للاستسلام مهما حدث . ويبدو لى أن من المؤكد أن الرؤساء هم الذين أوعزوا بهذا الإضراب بغية تحطيم الاتحاد . وما من شك فى أن للاتحاد فى معظم الأحيان مساوئ ، وأتصور أيضاً أن لأصحاب العمل شكاواهم المعقولة ، ولكن أرباحهم طائلة، وليس هناك من يظن أنهم عاجزون عن دفع أجور العمال التى تقيم الأود . وقد استثمرت مبالغ كبيرة من المال

(١) لمساعدة عمال المناجم المضربين .

١٣٩

في السنة الماضية في مناجم الفحم هنا ، وبدأ العمل في عدد من المناجم الجديدة مما يوحى بأن العمل مريح . وبعد فإن مما يرفع روح المرء المعنوية أن يرى هؤلاء الناس ، وكيف يأترفون ويتأسكون ، رجالاً ونساء ، بالرغم من ظروف الحرمان الشديد التي يمرون بها .

الخلاص

لوجان بيرسل سميث

٤٤ جروفنر رود

جسر وستمنستر

ج . غ . لندن

نوفمبر ١٨٩٣

عزيزى برقى

لقد نسيت أن تظهر هذا الإذن المصرفى — اكتب اسمك على ظهر السند وأرسله إلى ج . ت . دريك ٤١ شفيلد رود . لا بد أن تمر أسابيع قبل أن يحصل الكثير من أهل بارنزلى على عمل ، وسيؤدى هذا المبلغ لهم خدمة جليلة . إن عشرة شلنات توفر غذاء لثلاثين وأربعين طفلاً . إنى جد سعيد إذ زرت بارنزلى ، ولو أنها زيارة مليئة بالأنين والزفرات ، ولكن مما يعين المرء أن يرى مثل هذه الروح الديمقراطية الحقة . وددت لو تهيأ لك أن ترى ما رأيت في اجتماع للفحامين جاء واحد من أعضاء البرلمان بشيء من الشجاعة ، وهو شاب من المحافظين مهتدم أنيق الملبس ، وحاول بمنطقه الركيك أن يثبت للفحامين أنهم على خطأ . ولقد عاملوه باحتقار لا ينطوى على شر ، وعندما قال لهم : إن أجورهم كافية جداً كان جوابهم : يابنى جرب أن تعيش بها بنفسك ، لن تكفى « لنشية » ملابسك ، إن معدتك ممتلئة يافى ، إلى غير ذلك من التعليقات الساخرة . وصرخت امرأة قائلة « لانتخفيض » ، وهلل الجميع . ثم تحدث أحد العمال بكثير من الرجاحة والاستخفاف ، ووجد عضو البرلمان الشاب نفسه في موقف

١٤٠

غاية في الحرج ، يحسده المكتنز ، ولباسه الأنيق ، ووجنتيه الورديتين . كان الصراع بينه وبين الرجال الذين يعظمهم بالقناعة مثيراً ، بيد أنه اضطر أن يتسم ويتظرف ، وهو أمر لا يتهماً إلا للمحافظين ، ويتظاهر بأن الأمر ممتع لأقصى حد .

المخلص

ل. بيرسل سميث

٤٤ جروفنرود

جسر وستمنستر

ج. غ. لندن

٢ من ديسمبر ١٨٩٣

عزيزي برقي

إني أقدر الموقف على حقيقته بالطبع ، ونظراً لحب شقيقتي لأعتقد أن مشاعرك كما تحسها مظهر من مظاهر الحمق . وإذا ظلت على هذا النسق من التفكير بنضع سنوات ، فإني لا أعرف شخصاً أفضله عنك زوجاً لأليس ، كما إني لا أعتقد أن هناك من يسعد أختي أكثر منك . بيد أني أعتقد مخلصاً أن من الخطأ أن تعتقد الخطوبة بهذه السرعة ، ولو أني في نفس الوقت أثق أن هذا ليس مقصديك . إن المرء لا يعرف كيف تتطور الأمور ، وعلى أي حال فإن الأعوام القليلة التي تعقب بلوغ الإنسان الواحدة والعشرين من العمر يجب أن تخصص للتعليم والبحث عن عمل . أما الزواج ، أوحى الخطوبة الرسمية ، فتتدخل في كل هذا بصورة معطلة . أجل ، إني أثق فيك يا برقي كل الثقة ، ولو أن ملكة الثقة لا تجد لدى تربة مهياة ، وإنما سأومن بقرارك إيماناً أعمق عندما أرى أنك مازلت ، بعد سنوات من العمل الجاد والخبرة بالحياة ، نفس الشخص الذي كنته . كن جديراً بكسب أو سمتك يا عزيزي ، دعنا نرى أنك إنسان خير ومفكر ، وهو ما نؤمن به فعلاً . إن كل أصدقائك

١٤١

يتحدثون بمنتهى الثقة عن قدراتك واحتمالات المستقبل بالنسبة إليك ، وكل ما فى الأمر هو أن تظل حراً وأن تكون تواقاً لعملك . إن الحب ينبغى أن يكون الخادم ، وليس المسيطر ، على الحياة .

صديقك المخلص

ل. ب. س.

كتبته هذه الخطابات لأليس خلال افتراقنا مدة ثلاثة أشهر .

مبروك لودج

ريتشموند سرى

٣١ من يوليو ١٨٩٤

حبيبتي أليس

ليس هناك ، كما هو متوقع ، شىء معين أقوله ، إذ لم يحدث شىء حتى الآن . لا يمكن أن أصف الحياة بأنها بغیضة . عندما وصلت وجدت جدتي تجلس فى مكانها فى حجرة الاستقبال ، وكانت شاحبة الوجه حزينة ، ومع ذلك فقد طمأننى أن وجدتها معافاة . كان لقاءنا غاية فى الدفء والتعاطف ، ولو أنه كان صامتاً . لم نتحدث إلا فى موضوعات عادية ، وواضح أنها تدرك أن الحديث فى أى موضوع مثير يضر بصحتها . إن الطبيب لا يسمح لها بأن تتلقى من المراسلات إلا ما ترى عمتى أنه يرضيها (ولو أنها هى لاتعرف هذا) ومع ذلك فقد قرأت خطابى هذا الصباح ويبدو أنها سرت له . لقد كان لك وللجوالذى يسود فرايدايز هل أثر غالب فى تهدئة خاطرى بحيث أجد الحياة هنا أكثر احتمالاً مما كانت عليه فى المرة السابقة ، بالرغم من مرض جدتي ، بل وربما كان هذا الأخير عاملاً مساعداً أيضاً بصورة من الصور ، حيث إنه يضئ على كل شىء شعوراً بالعطف ويقربه من الحياة الطبيعية .

مازالت عمتى تستجوبنى عن كل الخطط التى أعدها ، بيد أن تعليقاتها وإن كانت بالغة التأثير إلا أنها كانت تتسم بالهدوء . حدثها عن أمريكا ، وبدا

أنها تعجب إذ كيف نذهب ونحن لم نتزوج بعد . وقلت : « حسناً ، لقد رأينا أن هذا أنسب من أن نتزوج قبل السفر » . وهنا أيضاً لم تعلق على حديثي ، وكل ما قالته هو : « لن أقول شيئاً بلحديتنا عن هذا في الوقت الحاضر » . وأظنها مستضطر للسفر للاستشفاء في سبتمبر ، ومن ثم فهي تجتذني لأتقدم بعرض فكرة البقاء هنا مع جدتي ، ولكنني قلت : إنه يجدر بي أن أكون في فرايداي زهل وقلت أيضاً : إن من المحتمل في الشهور القادمة أن آتي إلى هنا بين حين وآخر ، ولو أن إقامتي الأسبوعية ستكون في فرايداي زهل . وارىد وجهها ولكنها لا ذت بالصمت . ولعلها أدركت عدم جدوى النصيح أو النقد . وتحدثت عن رغبة جدتي في أن تراك ، ولكنني قلت إن من الأفضل أن يتم هذا في وجودي .

جدتي تشعر بوعكة في هذا المساء لسوء الحظ ، وعليها أن تتناول عقاقير منومة وأخرى للهضم ، ويخشى من اعتمادها عليها كلية ومن منعها عنها أيضاً . إنها تثير الشفقة وهي مريضة ، ولكن ما دمت قد عودت نفسي على هذا الوضع القاسي لم يعد الأمر يهمني كثيراً . كانت تشغل نفسها بنظم الشعر عن الملك آرثر عليها تبعد ذهنها عن التفكير في هذا الموضوع المحوري ، كما كانت تقرأ كثيراً ، وبنفس الأمل ، ولكن يبدو أنها لم تنجح في ذلك نجاحاً ملحوظاً .

ولكن الحقيقة هي أن الحياة هنا ليست سيئة بالصورة التي كان يمكن أن تكون عليها ، ولذا لا حاجة بك للقلق علىّ أو لتصور أني سأعود لنفس الحالة المزاجية التي كنت فيها منذ أسبوعين . على أني لا أود ، بقدر استطاعتي ، أن أحدد متى أعود . ليلة سعيدة يا أعز الناس إلىّ . كان يمكن أن أكون سعيداً حقاً لولا أني أحس بالملل إلى حد أعجز عن التعبير عنه بالكلمات .

المخلص إلى الأبد

برني

رامزبرى مانر

ولشبر

٣٠ من أغسطس ١٨٩٤

حببتى

تستبد بي الحيرة إزاء هذا العرض الذى تلقينته للعمل فى باريس . لو كان هناك مجال للثقة فى أنه لن يتجاوز عيد الميلاد ، وأنه لن يربطنى بنفس العمل فى المستقبل ، لشعرت بميل لقبوله . إن من شأنه أن يساعد على انقضاء فترة فراقنا بصورة ممتعة جداً (من المؤكد أن من الممتع جداً أن أكون فى سفارتنا فى باريس) ، فضلاً عن أنه سيهيئ لى من ضروب المعرفة أقصى ما يمكن أن أصل إليه فى هذه الفترة ، بالإضافة إلى أنه سيعيننى على فهم أبعاد أعمق فى الميدان الدبلوماسى . وما من شك أنه سيسهل خبرة قيمة لو أمكن إبقاؤه فى حالة عزلة عن تيار حياتى . ولست أدري ما إذا كان من شأنه بالضرورة أن يؤجل تلاقينا وزواجنا . هذا ما أخشاه ، وما يجعلنى أتردد فى قبول الوظيفة . يضاف إلى هذا أنى أخشى العالم وإغراءه ، وهما أمران سيئان بالنسبة لى ، لا سيما عند ما أستمتع بهما ، ولشد ما أخشى بمجرد أن أضطلع بهذا العمل أن أجده من العسير أن أتركه . وبجانب ذلك فقد يعنى عدداً من الارتباطات الأرستقراطية ، مما قد يعرقل نشاطنا المقبل . لا أعتقد أن من شأن أى ارتباط بالوطن أن يقنعنى بالعدول عن الخطة التى ننتويها وهى السفر للخارج مدة عام ، فأنى على ثقة من أنه لن يكون فقط أمتع وسيلة لقضاء العام الأول من زواجنا ، ولكن سيكون له أيضاً قيمة تعليمية كبرى . وددت لو أعطيتى جدتى تفصيلات أكثر . إن كل ما يتضح من خطابها هو أنه مما يسبب لها راحة كبرى أن أقبل هذا المنصب . أظننى سأسبب للورد دافرين حرجاً لو رفضته ، ولو أن هذا الموقف يمكن تلافيه . كم أود أن نتقابل لنناقش هذا الموضوع ، كما يسرنى أن أمتشبر لوجان .

الساعة الثانية مساء :

كلما تعمقت في التفكير في هذا العرض بدا لي أنه الخطوة الأولى في حياة عملية أود أن أتجنبها ، ولكنني لن أطمئن إلى هذا التفكير حتى أسمع تفاصيل أكثر . وإذا رفضت كان من الطبيعي أن تنتهي كل صلة لي نهائياً بأعمال الخارجية وغيرها . لن يعرض أحد على عملاً بعد ذلك لما بدا من تعنتي وتقلبي في هذه السن المبكرة . وقد تكون هذه ميزة أو العكس ، حسبما ترين . إن ذهني يدور في دوامة ، والجو حار للدرجة تجعل التفكير مستحيلاً .

بمبروك لودج

رثشوند ، سري

أول سبتمبر ، التاسعة مساء ، ١٨٩٤

حبيبتي أليس

الآن وقد عدت إلى الوطن فإن في الوقت متسعاً لكتابة رسالة طويلة ، وأشعر في هذه اللحظة كما لو كان في استطاعتي أن أكتب وأكتب إلى الأبد . لقد غدت بحكم جو هذا المكان زائحاً بالعواطف مليئاً بالأفكار . كما أنه يذكرني بوضوح بأحداث سبتمبر الماضي للدرجة أنه يبدو أني لم أزال بعد كل هذا العمل الذي قمت به في باريس . غادرت المنزل نهائياً وجلست إلى جانب النافورة وفكرت في الأيام الطويلة التي اعتدت أن أقضيها هناك وحيداً أتأمل . . تحذوني الرغبة ، ولا أجرؤ على التمتي ، وأحاول أن أشتف أدق الإشارات في خطاباتك القصيرة الجافة التي اعتدت أن تكتبها لي . كما جعلت أفكر في الأيام العديدة التي كانت تمر قبل أن تردى على خطاب لي . كم استبدتني الشقاء ، وأضر بي التلهف ، ومع هذا فقد كنت أزخر بحياة جديدة وقوة لم أعرفها من قبل ، بحيث كانت تستبدني الدهشة إذ أجدني لا أرغب في الموت ، كما كان الحال طوال السنوات الخمسة التي مضت ، وكما تخيلت أن يستمر إلى النهاية . كم عتدت الساعات حتى يحىء دنروزل لزيارتنا ، فأتحرر من البقاء

مع جلدتي . إنى إذ أعود إلى هنا وحيداً مرة أخرى أحس كما لو أن السنة الوسيطة كانت حلمًا ، وكما لو أنك ما زلت بعيدة كالسما ، لا تكترثين ، كإحساس السماء أيضاً بالنسبة لساكنى الأرض الضائعين فى الصراع . ولكن هناك تعباً غريباً يستولى على ، كذلك الذى يصاحب الحلم الخفيف ، يشكل تياراً يسرى فى ثنايا أفكارى ويجعل المشاعر الحاملة تختلف فى وقعها عن تلك التى خالجتنى فى سبتمبر الماضى ، وهو تعب ينسحب على كل عناصر الصراع والقلق والألم التى جاشت بها السنة الفائتة ، وكل الضغوط والمنافسات المضنية والمشاجرات التى كانت ثمنًا لكسبى إياك . بيد أنى لست شقيًا ، حاشا ، وإنما يبدو لى فى هذه اللحظة أنى عشت حياتى ، وأنها كانت حياة حافلة . لقد وصلت إلى الذروة ، إلى القمة ، والآن يبدو أنه لا حاجة بالمرء أن يهتم بها . لا يمكن أن يكون هناك شىء أفضل يجنبه القدر ، ومن ثم لن يصحب الموت أى مرارة .

أغلب الظن أنك ستعتبرين هذه المشاعر دليلًا على مرض نفسى ، ولكنى لا أراها بهذه الصورة . راودتنى نفس الحالة المزاجية الحاملة نتيجة لقراءة ولتر باتر (١) . كان أثره عميقًا ، بل بدا لى أنه لا يقل جمالا عن أى مادة قرأتها من قبل (فيما عدا القليل هنا وهناك ، حيث كان لافتقاره لعنصر الدعابة أثره فى استخدام إيقاعات متنافرة ، كتلك الأصوات التى تصدر عن قط عليل) . ولقد تأثرت على الأخص بوصفه لأشجار الحور ، وبقصيدة أخرى لا أستطيع أن أجدها ثانية . إن شعره لم يستر عندى أية ذكريات محددة فى الطفولة ، نظرًا لأنى منذ سن الذكريات المحددة لم أعش فى عالم من الانطباعات الحسية ، كذلك الذى يرسمه فلوريان (٢) ، وإنما استعيد بصورة مبهمة على طريقة أنشودة ورد زويرث (٣) ، إحساسى بتلك الفترة الزمنية المبكرة جدًا قبل أن يميت

(١) قصصى وناقد إنجليزى عاش فى القرن التاسع عشر كان يؤمن بالجماليات والفن لوجه الفن .

(٢) فلوريان كاتب فرنسى عاش من ١٧٥٥ إلى ١٧٩٤ واشتهر بقصصه الخرافية .

(٣) إشارة إلى قصيدة ورد زويرث التى يبين فيها كيف أن أحاسيس الطفولة الفنية تتلاشى بالمرور

العقل للإنسان .

الفكر الحس . فى بصيرتى صورة غامضة غائمة عن المنبسطات الدافئة من الأرض الحمراء حيث أرسلت الشمس الغاربة أشعتها قبل أن تغيب ، وعن حفيف أشجار الحور النامية فى مواجهة البيت وأنا آوى إلى فراشى على ضوء النهار فى أيام الصيف ، بينما ظل البيت يزحف رويداً فوقها ، كما يراودنى إحساس غامض بطقس دافئ مشمس على الدوام ، حيث كان من عادة القوم أن يصحبونى لنزهة فى عربة ، فألحظ الظلال المخططة تتدافع على جانباها ، قبل أن يخطر لى أن سبها أوراق الأشجار المتشابكة من فوقنا . (وبمجرد أن اكتشفت ذلك ، قتل الشوق العلمى الانطباع ، وبدأت أتأمل فى السبب الذى من أجاء بدت يقع الضوء دائماً دائرية الشكل ، وهكذا) . ولكننى منذ وقت مبكر فعلا فقدت القدرة على الاهتمام بالانطباعات فى ذاتها ، بل جعلت دائماً أستنبط الجانب المجرد منها ، وأسعى للوصول إلى الجوانب العلمية والفكرية التى تكمن خلفها ، بحيث ما كان يمكن أن يخطر لى ، كما خطر لفلوريان ، أن ألبأ إلى فلسفة تهتمضمها . لقد وجدت هذه التأملات بكاملها طريقها إلى سلة المهملات الموجودة فى العقل . (وهذا هو السبب الذى من أجله وضعنى الكتاب فى حالة حلم ، إذ نقلنى إلى طفولتى المبكرة ، حيث لم يكن هناك شىء حقيقى) . ولم أبدأ فى الإحساس بحاجتى إلى مثل هذه الفلسفة حتى وصلت إلى سن البلوغ . وهنا عادت الانطباعات الحسية والانفعالية إلى تأكيد وجودها بصورة أقوى من قبل ، بل لم تصل إلى هذا الوضوح منذ هذه المرحلة حتى الآن ، بحيث شعرت عندئذ أنى أعود مرة أخرى إلى أيام كنت فيها حدثاً ، وعندئذ بدأت أتعبد فى الجمال ، كما كان يمكن أن يفعل فلوريان ، واستبدت بى رغبة فى أن أجد صلة بين الحق والجمال ، رغبة قوية لدرجة أن الجمال سبب لى ألماً مبرحاً (ولو أنه كان مصحوباً بنشوة حسية راجفة ذات قوة جارفة) كان مبعثها الإحساس المستمر بتلك الحاجة غير المشبعة للانسجام بينه وبين الحقيقة . قرأت « ألا ستور »^(١) بعد أن عشت جزءاً من الوقت فى هذه الحالة ، وهنا وجدت

(١) (قصيدة لثيلى) الشاعر الرومانسى الإنجليزى المشهور .

نفس الحالة المزاجية التي مررت بها ، موصوفة بغاية الوضوح . ولم تنته المعاناة من هذا الصراع إلا تدريجياً ، كلما قل اهتمامي بالجمال شيئاً فشيئاً ، وكلما خرجت من مرحلة التفكير المرضى (ففي حالي كان لا بد أن يتخذ مثل هذا الانفعال العنيف بالجمال طابعاً غير عادي) ، وكلما أصبحت أكثر تجريداً واهتماماً بالحياة الفكرية مرة أخرى . ومن الطبيعي أن اهتمامي بالحياة الواقعية في الفترة التي وقعت فيها تحت تأثير فيتز جرالده^(١) جعلتني ألتحرر من هذه العاطفية المغرقة ، ومنذ ذلك الحين لم أعان من هذه الخواطر إلا لماماً ، ولعلني لو آمنت ببرادلي ، كما أفعل في معظم الأوقات ، لانتفت هذه المعاناة تماماً .

٢ من سبتمبر صباح الأحد

أبرقت إليك من ريدنج في صباح أمس الباكر لأقول : « لن أحضر نظراً لأن ١٧ من نوفمبر لم يتغير » . ولكنني أعتقد أنك كنت قد رحلت فعلاً من تشنشتستر قبل أن تصلك البرقية . تقولين إنك ستحضرين إلى باريس إذا لم أتمكن من السفر لإنجلترا ، ولكنني فهمت من جدتي أن في استطاعتي أن أرفض الاستمرار في هذا العمل إذا أردت . هلا أرسلت قبعتي في صندوق ، حيث إني في حاجة إليها ؟ وأرجوك أن تكتبي في أول فرصة باكر صباحاً وإلا فربما أكون قد رحلت قبل هذا . وربما أرحل بعد استلام خطاب من اللورد كبرلي غير أنه لن يكون بوسعي أن أذهب لرؤية ادith وبريزون ، حيث إنهما لا بد أن يكونا في بريتانى حتى نوفمبر . هل أرسل كتاب بيتر إلى ما ريشن أو ترى أرسله مباشرة إلى كاري توماس ؟ إن كل هذه التفاصيل متعبة . ويؤسفني أنني لم أتذكر كل الأشياء التي أريدها كي ترسل كلها في رسالة واحدة ، غير أن ذاكرتي تعمل بهذه الطريقة التي لا يمكن تجنبها .

أحب ربة الشعر التي تلهم المأساة . ياله من شيء طريف . ثم إنه إلى

(١) فتز جرالده ١٨٠٩ - ١٨٨٣ شاعر إنجليزي ترجم رباعيات الخيام إلى الإنجليزية .

جانب ذلك يناسب تماماً حالتى الراهنة . بالأمس كانت عمى جورجى عطوفة جداً ، وإن أغرقت فى حب الاستطلاع (شأن كل النساء) وقالت إنه فى الماضى كان ينتاب جدتى ، عند أبسط فكرة عن الزواج ، نوع من الحمى ، وتصبح شديدة القلق لذلك .

إلى بلد سعيد بمشروع باريس ، ولسوف أبذل قصارى جهدى حتى لا أكره زملائى كثيراً . وعلى كل حال ينبغي على أن أكتب خطابات مسلية من هناك . اعطنى [نقداً أدبيّاً لأوصافى ، حتى أجعلها واضحة بقدر الإمكان . من الحزن أن تكونى قد أصبحت تضيقين بمحدث صديقك ، ولكنه من الصعب على الإنسان أن يلقى بنفسه فى شئون الآخرين التافهة بينما تكون شئونه هو من الأهمية بحيث تشغل كل تفكيره . وأنا لست آسفاً على أنك قد فهمت لماذا اعترضت على رحيلك المزمع إلى أمريكا أكثر من اعتراضى على انفصالنا ونحن فى لندن . ولقد حسبت حينئذ أن ذلك من الغباء بمكان ، وإنه لكذلك . ولكنه أمر طبيعى .

آمل أن يكون هذا الخطاب من الطول بحيث يرضيك . ولقد كانت متعة كبيرة لى أن أكتبه ، وسوف أتوقع خطاباً طويلاً جداً مقابل هذا . وإذا تلقيت خطاباً من اديث توماس ، أرجو أن ترسله لى . وسأبرق لك حالما أعرف موعد ذهابى إلى باريس .

وداعاً يا حبيبى . لقد كان من الأفضل ألا نلتقى ثانية فتتألم للفراق الحقيقى .

المخلص لك

برنى

بمبروك لودج

ريتشموند ، سرى

٣ من سبتمبر ١٨٩٤ . العاشرة صباحاً

عزيزتى أليس

وصلتنى رسائلك الثلاثة فى التوزيع الأول هذا الصباح ، وأحد هذه الخطابات محمول من رامزبرى . وهو رائع بصفة خاصة . وإنى أعيد الوثائق التى احتواها ، والتى بعثت كثيراً من السرور لى نفسى .

لقد قرقرارى على أن أقبل عرض باريس (نتيجة لثقتك لى على أن أفعل ذلك) . وأتخيل أن تأكيد اللورد كبرى له إن هو إلا من قبيل الرسميات . وأنا فقط أنتظر هنا خطاباً آخر من لورد دافرين ، وبعد ذلك سوف أرحل فى الحال . ولكنى أشعر ببعض الأسى لأنك تستهينين بأخطاء الأرستقراطية وبعيوبها . وأخشى أنك لن تفهمى لماذا أخافها ، وأن هذه المخاوف ليست مجرد أوهام . وقد تختلطين أنت ولوجان بالأرستقراطيين إلى حد (قبل خطبتك على أى حال) دون أن يتهياً لكما أن تتبيننا العوائق التى يضعونها فى طريق شخص من طبقتهما يرغب فى « الهروب » . والجميع يحب الأمريكيين لأنهم فى غالب الأمر ، أجناس غريبة ، وهم لا يفعلون ما يفعله الآخرون ، ولا يقلعون عما يقلع عنه الآخرون ، ويتوقع الناس مشاهد مسلية منهم ، ولذلك يقبلون منهم أى شىء . بالرغم من أن أقلية ضئيلة جداً تجد تعويضاً لذلك فى اغتيالهم . ولهذا لا تشهدين الأرستقراطيين على حقيقتهم إلا إذا كانوا مع من هم على شاكلتهم جامدين ، تقليديين ، يفزعهم أقل خروج على التقاليد العائلية التى تجمع بينهم . ثم إن غالبيتهم ، إلى جانب ذلك ، أقاربى وأصدقاء جدتى . وسوف يتبع هذا العرض عروض أخرى فى إنجلترا ، مالم أنصرف كالأحمق فى باريس. وسوف يؤلم أى رفض جدتى (التى لا يمكن التعويل على وفاتها) إيلاماً شديداً ، كما يؤلم الآخرين ويضايقهم . ولكنهم أيضاً أقاربى ، فهم

يشعرون جميعهم أن لهم الحق في إسداء النصيح لي . وحينما أحاول أن أعمل في هدوء ودون إزعاج ، وبشكل يبدو أميناً لي ، وإن كان من شأنه ألا يعجب لي أقل شهرة أو نجاح حتى أبلغ الخمسين من عمري على الأقل ، فسوف يزعمونني طالبين مني أن أبحث عن النجاح السريع . ولربما كان ذلك في متناول يدي ، بسبب صداقاتي الكثيرة ، وبسبب الإخلاص الذي ، للأسف ، يكتونه لي ، ولسوف يحيلون حياتي جحيماً بإصرارهم . وبالرغم من أنه خاطر مرعب (ولا بد لي أن أعترف بذلك) فأنا لا أثق كل الثقة في أنك سوف تكونين لي سنداً . أحب أن أجرب الأشياء بنفسى ، غير أنه إذا كان في استطاعتي أن أفيد من مواهبى ، فلا بد لي من أن أعرض عن الكثير من التجارب الممكنة ، وأفضل باب مكتبي على ، وأعيش حياة هادئة حيث أرى فقط هؤلاء الذين يوافقون على مثل هذه الحياة (ما أمكن) وإلى لأعرف نفسى جيداً للدرجة أنى أثق (برغم أن هذا اعتراف بالضعف) أنه إذا كنت تصرين على أن أكون ذا تجارب كثيرة ، وأن أرى مجتمعاً مختلف المشارب ، وأن أعرف العالم وأن تكون لي على الأرجح ، خبرات عن عالم مختلف دنيوى ، فلن تحتل أعصابى المجهود وسوف يكون على إما أن أترك العمل الذى يرضى ضميرى أو أكون قد أنهكت وهدت قواى، وأنا مازلت في الثلاثين من عمري . وأنا ، بالاختصار ، أعرف حاجاتى أكثر مما تعرفين . ومن المهم جداً بالنسبة لي أن تساعدني على التمسك بها . ثم إن التجربة التى تأتى عرضاً هى تجربة ذات نفع قليل بالنسبة للتخصص ، وهو ما أتمنى أن مارسه ، والأخلاق الحميدة عديمة الجدوى تماماً . عندك نوع من الشفقة غير المنطقية (ولا أسميها ضعفاً) تمنعك من فهم ضرورة تطبيق قانون عام على حالة خاصة ، إذا كان لأى شخص أن يستمد بعض اللذة من كسر هذا القانون . ولذلك فبينما تريدان لي أن أحيى حياة الطالب الهادئة ، فإنك لقادرة على دفعي لأن أقبل العروض التى تقدم لي، وأن أشارك في الشئون العملية التى هى في حقيقة الأمر عواقب في طريقى . ثم إن كليتنا معرض لخطر الانتشاء بالنجاح الرخيص ، الذى هو أكبر لعنة

على الأرض ، أما إذا ضيعت هذه السنين التي يجب أن تنفق كلية تقريباً في العمل النظري وفي طلب المعرفة عن طريق التفكير (بما أن هذا غير ممكن إلا إذا كان الإنسان صغيراً في السن) فإن ضميري سيظل يؤنبني طوال حياتي . ودعيني أقل للمرة الأخيرة : إن الله جل شأنه قد خلقني إنساناً نظرياً وليس عملياً . ولذلك فإن معرفة العالم قليلة النفع لي . وربما كانت ساعة واحدة أفضيها في قراءة إحصائيات فاجتر أكثر فائدة من ثلاثة أشهر أفضيها في اتصال عرضي بالمجتمع . كوني ثابتة وحازمة أرجوك في قبول وجهة نظري هذه عن نفسي . وإلا (فإذا كان على أن أحاربك وأحارب أقاربي ، والعالم) فلن يكون بوسعي أن أحقق ما آمل أن يكون في وسعي أن أفعله . لك أن تقرني ما شئت من هذا الخطاب على لوجان ، وتبينني ما إذا كان يتفق معي أم لا . إن حاجات الإنسان النظري تختلف كلية عن حاجاتك ، حتى إنه ل يبدو من المستحيل بالنسبة لك أن تعرفي أن الأشياء التي هي على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لك قد تكون عديمة الأهمية تماماً بالنسبة لي . أما في حالة بياتريس ويب ، فإن الأمر يختلف تماماً ، فلقد تزوجت رجلاً كان كل أقاربها المرموقين يكرهونه . أما أنت فلا يسعك بطبيعتك الودودة إلا أن تنال الخطوة عندهم جميعاً . ثم إنني أتحيلها كإنسانة لايهمها بقدر ما يهمني أنا أن تخرج على إرادة هؤلاء الذين يحبونها . وعلاوة على ذلك فقد أضاعت كل سنواتها المبكرة لدرجة أنها لا يمكنها أن تكون إنساناً ^(١) ممتازاً ، أو أكثر من ظل لزوجها — عذراً لأسلوب هذا الخطاب — والحقيقة أنني كنت لوقت طويل ، أخشى أن تحطمي مستقبلي برغبتك في أن أكون عملياً أكثر مما ينبغي ، ولقد وصل خوفي الآن إلى قمته ...

(١) يا له من رأى خاطيء .

بمبروك لودج

ريتشمونڊ ، سري

٣ من سبتمبر ١٨٩٤

عزيزتى أليس

إن الرغبة فى المواعدة بين الحق والجمال لم تأتى فى صباى المبكر بل حينما كنت فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة . ولقد كنت غريب الأطوار لأنى كنت دائماً وحيداً ، وحينما كنت أقضى وقتاً فى صحبة الأولاد الآخرين ، كنت سرعان ما أصبح مثلهم . وأعتقد أنى حينما كنت جد صغير كنت أكثر ميلاً للتفكير مما أصبحت فيما بعد . وأذكر جيداً بقعة معينة فى الطريق المفروش بالحصى خارج حجرة الطعام هنا ، حيث أخبرنى أحد أعمامى ذات عصر جميل فى وقت تناول الشاى بأننى لن أتمتع بأوقات عصر جميلة كهذه فى المستقبل . ولعله لم يكن جاداً تماماً . مضى يشرح لى أن متعة الإنسان تقل عمقاً وصفاء كلما تقدم فى السن . ولقد كنت وقتها فى الخامسة من عمرى فقط ، ولكنى تأثرت جداً بقوله هذا لكونه معبراً عن نظرة متشائمة للحياة . وأذكر أنى جادلته فى ذلك لدرجة البكاء لأننى شعرت أنه ربما يعرف أكثر منى ولا بد أن يكون مصيباً . وعلى كل فأنا أعرف الآن أنه بكل تأكيد لم يكن على حق ، ولم يبعث عزاء فى النفس . وأقبلت على متعنى حينئذ ، كما أفعل الآن ، بنوع من الحب الخالص ، كأنما هى شىء له وجود ذاتى . ولم يعرف عمى الأثر الذى تركته كلماته العابرة فى نفسى . . .

مبروك لودج

ريثشموند ، سرى

صباح الأحد ، التاسع من سبتمبر ١٨٩٤

عزيزتى أليس

. . . إنه لشيء غريب ، ولكنى حقاً أسعد حالا مما كنت أثناء الشهر الذى قضيته فى « فرايدايهال » ، وأعتقد أنك وأنا معاً كنا نحاول أن نقضى على حبي بلحدي ، وأن هذه المحاولة باءت بالفشل . فلقد عذبنى ضميرى ، حتى إننى كنت أحلم بها كل ليلة .

وكنت دائماً ، وفى أسعد اللحظات ، أشعر بأن هناك شيئاً يثقل ضميرى من ناحيتها . أما الآن إذا حانت منيتها فسأكون مستريح البال ، وإلا فإننى كنت أقضى حياتى ، كلها على ما أعتقد ، أعانى حالات الندم ، الندم على القسوة تجاه شخص لا يستطيع الإنسان أن يستغفره عما بدر منه فى الماضى بعد أن أخذه الموت بعيداً . إن حبي لها حقيقى جداً للدرجة لا يمكن معها أن أتجاهله دون أن أنجو من قصاص .

* * *

فيكتوريا . التاسعة صباحاً

العاشر من سبتمبر

عزيزتى أليس

لقد استطعت أن أسافر اليوم ، برغم كل شيء . استلمت خطابيك ساعة الإفطار . ولسوف يكونان زادى أثناء الرحلة . وأشعر بعناء السفر للدرجة . لا أستطيع معها أن أكون عاطفياً أو أقول شيئاً على الإطلاق . وأنا سعيد جداً لرحيلى بالطبع . غير أن عزيمتى هبطت بعض الشيء نتيجة لزيارتى لعائلة دى استورنل بالأمس . كان كل الموجودين من الفرنسيين باستثناء السفير الإسباني ، والسفيرة الإيطالية ، ولم أقم تحت تأثير سحرهم أو أعجب بسلوكهم .

ما عدا الإسبان ، فلقد كانوا مهذبين بشكل فظيع يوحى بقلق مما لا يحتمله الذوق الإنجليزي . فلم ترتفع الكلفة ويختف الشعور بالخرج اللذان هما عماد التربية الكريمة كما تراها العقلية الإنجليزية . ومن سوء حظى أنه على أن أرى ثلاثة منهم مرة ثانية في باريس فن الصعب على المرء أن يحتمل مجاملاتهم التي لاتنتهى ، وأن يكون على استعداد دائماً لأن يرد بالمثل .

السفارة البريطانية

باريس

الجمعة ١٢ من أكتوبر ، ١٨٩٤

عزيزتى أليس

أمضيت أمسية رائعة مع الأنسة بيلوك^(١) ليلة أمس - من الساعة حتى الثانية عشرة . وأعتقد أنها شعرت أيضاً بنفس المتعة ، لأنها بقيت حتى هذه الساعة المتأخرة . وأعتقد أنها كانت حقاً لطيفة جداً ، غير أنها بالنسبة لى كانت محاطة بالهالة التي حول « فرايدايز هل » وكنت أجدها لطيفة جذابة وحتى لو كانت شيطاناً مجسداً أو كان بها أى عيب من العيوب . وقد تقابلنا فى الساعة السابعة فى مكتبة نيل ، بشارع ريفولى - ثم تمشينا بعض الوقت فى حدائق التويلرى وغيرها من الأماكن ، ثم تناولنا العشاء فى مكان غريب هادئ فى الباليه رويال . ثم تجولنا وقتاً طويلاً ، ودخنا كل منا عدداً كبيراً من السجائر . وأخيراً تركتها عند منتصف الليل أمام باب فندقها ، آملاً فى لقاء آخر اليوم أو غداً . ولقد تحدثنا عنك وعن العائلة كلها ، عن الفرنسيين والإنجليز ، عن جرانت آلن ، وعن ستيد ومسر عاموس ، عن السفارة وجوها المقبض ، عن مختلف الشعراء الفرنسيين الذين وقعوا فى غرامها والذين وقعت فى غرامهم ، عن أسلوبها فى حياتها مع أقاربها من الفرنسيين المحافظين ، وعن أخلاقياتهم (التي يتعذر على فهمها ولذلك تشوقنى) - وعن ليلى هنرى

(١) مسز لويندس بعد ذلك . كانت شقيقة هيلارى بيلوك .

وبولن (التي اتفقنا أعلى كراهيتها) وعن مس ويلارد — وعن الرذيلة بوجه عام ، وعن الفارق بين الرذيلة الباريسية والرذيلة اللندنية على وجه الخصوص ، وعن تجاربها في الأساليب التي يستخدمها الآخرون في الحديث معها — وعن أشياء أخرى كثيرة . ولقد وجدت حديثها شيقاً جداً ، وأعتقد أنها تمتعت بصحبتى أيضاً — وإن كانت متعنى أكبر لأنها كانت أول شخص وديع قابلته منذ كنت في فيثوى ^(١) ، وأول شخص أكلمه عنك . إن عواطفها الفرنسية لتبدو شاذة حقاً — ومن الصعب أن تتفق هذه العواطف مع حبها لستيد — لأن انبئاءها ، لدولتين لم يهيئ لها التكامل الذي كان يجب أن يكون لديها . ولكنى ، بكل تأكيد تمتعت بأمسيتى — أكثر مما تمتعت بأي شيء آخر منذ تركت « فرايد ايز هل » — واستطعت لأول مرة أن أعجب بنهر السين في الليل (وهو رائع جداً) دون أن أذوب صباية .

الاثنين ١٥ من أكتوبر ، ١٨٩٤
الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً .

حبيبتي .

لا تقولى إنك تفكرين في ، من خطاباتي ، وكأنى « عقل مطلق » فهذا قول بارد جداً ، وجاف ، ولا حياة فيه . فالخطابات سيئة ، ولكن يجب أن تعبر كل التعبير عن الواقع . إن خمسة أسابيع تنتهى الليلة تبدو لى أنا أيضاً وقتاً طويلاً — والسبب هو أن أخى معى . ولسوف يسعدنى أن يذهب . فأنا أكرهه ، ولى نوع من الخوف منه ، فهو يسيطر على حينما يكون معى لأنى أخشى تعليقاته إذا عرفنى على حقيقتى . إنك لم تجعلى أقل ، بل أكثر ، حساسية . لأنى وجدت أنه لازماً على أنا أجسد من نفسى الحقيقية بحيث يراها العالم كله ، مما

(١) لقد أمضيت عطلة نهاية الأسبوع مع شقيقات ثلاث يدعى كينسلا ، وكن صديقات أسرة بيرسل سميث . وهناك قابلت كوندور الرسام . وكانت الملاحظة الوحيدة التي قالها لى « ألا يكون من الشاذ حقاً ، أن يصل الإنسان من الفقر جداً يضطر معه لأن يقدم لضيوفه صابون حلقة بدلا من الكريمة مع الشاى ؟ وهناك أيضاً تعرفت بچونثان سترجس الذى كان مغرمًا بإحدى الشقيقات .

يعطى كل واحد الفرصة كي يهاجمي . وإني أخشى اللحظة التي يكشف فيها رجال السفارة ذلك . حتى الفرح الذي يأتي نتيجة لابتعادى عن كل الذين يضايقوننى يكفى في حد ذاته لأن يكون نبعاً فياضاً من الفرح

* * *

السفارة البريطانية ، باريس
الأربعاء ١٧ من أكتوبر ١٨٩٤
الساعة العاشرة صباحاً .

عزيزتى أليس

إني لا أريد أن أزعج أحداً — غير أن أخى ، أقر بالأمس ، « تلقائياً »
وبينما كنا نتناول العشاء في مطعم « لايبروز » أنه يمكنه أن يتخيل أنه يخشاني ،
بالرغم من أنه لا يخشى أى إنسان آخر ، لأنى لا أترك نفسى على سجيته أبداً ،
وأنه يجدنى من الداخل ، بارداً . من المؤسف أن أكون هكذا مع شخص
مثل مس بيلوك . وهو يعتبر نفسه متعاطفاً مع الشاعر هويتان لدرجة يتقن
معها التعقل ، غير أن الذى يتعاطف مع كل إنسان كالذى لا يتعاطف
مع أى إنسان بالمرة أو كمن لا يتعاطف مع من لا يتعاطف معهم أحد . إن
أخى لن يرغب في الهجاء إلى ألمانيا — ولا أعتقد أنه يجيك — وهذه نعمة .
ويظن أن لك قسوة الأمريكيين ، ويعنى بذلك أنك لانتخضعين كلية للزوج
وأنتك لست شهوانية . ويقول أيضاً إن الأمريكيات يجب أن فقط ابتداء من الحصر
فصاعداً . وأنا ، كما تتصورين ، لا أفتح قلبى له . ويبدو لي أنه من المؤلم لك
أن أعطيك صهراً ثانياً لا تحببته اسمه فرانك

السفارة البريطانية

٢٠ من أكتوبر ١٨٩٤

الساعة الثالثة بعد الظهر

عزيزتى أليس

أظن أن الفائدة الحقيقية لما بيننا من فراق هو أن أريح ضميرى أو أن أعجل بزواجنا . إنك لا تظنين أن راحة ضميرى سوف تستمر ، ولكنى أظن أنها سوف تستمر إذا لم أر جلدتى كثيراً . وأنا لا أشعر الآن بأن على التزامات يجب أن أؤديها ، وإنما أشعر ببعض الضيق حينما أفكر فيها وفى عمى أجبائى . وإنه لمن الأنسب أن أستمر فى شعورى هذا . ولهذا فإن لفراقنا هذا فائدة مؤكدة . لأننا ما كنا لنشعر بسعادة معاً لولا معرفتنا بأننا قد فعلنا شيئاً هاماً لجلدى . . . وأنا أرفق مع هذا خطابى سانجر . ولقد أرسلت له رداً أقول فيه إننى ربما أكتب بحثين والخطاب الثانى أكثر تشجيعاً من الخطاب الأول . كما قلت إننى أرى أن تكون الهندسة اختياري الأول ، والاقتصاد هو اختياري الثانى .

إنى أقضى معظم وقى فى قراءة مل ، كما أننى بدأت فى كتابة مقال عن البديهيات من أجل نادى العلوم الأخلاقية فى كامبردج ، والذي يعمل تروتر ، الأسكتلندى النشط الذى أحترقه ، سكرتيراً له . وسوف يسعدنى جداً أن أذهب إلى كامبردج وأقرأ بحثاً ، وأتمتع مرة ثانية بالمجتمع . فأنا أحب المجتمع حباً حقيقياً ، ولا يعلو على هذا الحب إلا حبى لك . فهو متعة لاتعدها متعة . وسوف أقرأ عليهم بحثاً فى السيطرة على العواطف أقول فيه إنه لا يمكننا ذلك ، وكلما كانت العواطف قوية ، كان من الواجب أن نخفف من ضبطها ، حتى لو أمكننا أن نسيطر عليها بسهولة — قد يبدو هذا الكلام متناقضاً ولكنه ليس كذلك . إنى أجد ملاذاً لى فى النشاط الذهنى الذى كان دائماً كالهواء ، وكالآفيون ، بالنسبة لى .

وداعاً يا حبيبتي ، يا موضع فرحتى . سوف أكتب لك خطاباً آخر غداً .

قلبك وروحك

برنى

السفارة البريطانية

باريس

٢٢ من أكتوبر ١٨٩٤ ، التاسعة مساء

حبيبتى أليس

لا أظنك ترضين أن تعتمدى على كل شيء . لأنك سوف تجدى أننى سوف أضجر إذا وافقتنى دائماً ، ولسوف أحتاج من وقت إلى آخر لجلد ينعش عقلى . فإنى أشعر بلذة حقيقية ومؤكدة إذا ما أشار أى إنسان إلى مغالطة فى آرائى ، لأنه لا تهمنى آرائى ، بقدر ما تهمنى ألا تكون فيها مغالطة . ولكنك لابد وأن تفكرى لنفسك بدلا من مجرد أخذ شذرات من أشخاص مختلفين — وهذا ما يجعل أفكارك غير مترابطة ، لأنك تأخذين آراء مختلفة من أناس مختلفين ظناً منك أن الموضوعين مختلفان . ولكن ليس هناك فى الحقيقة موضوعان مستقلان . فالناس الذين يشايعون رواداً مختلفين لهم خليط غريب من الأفكار . ولوجان وأنت ومريكن تشركون فى هذه الرذيلة . وإن كان لوجان أقلكم ومريكن أكثركم حظاً منها .

ولقد قال لى لوجان ذات مرة: إن لك ذوقاً أحسن من ذوق مريكن فى اللوحات . ومع ذلك فنادرًا ما تتكلمين وإنما تتركين مجال الحديث عن هذه الموضوعات لها وحدها . وهذا مثل من الأمثلة التى تدل على أنك تبددين عقلك ليس بدافع التواضع ، ولكن نتيجة للكسل والكبرياء ، نفس الكبرياء التى جعلتك لا تعبرين طوال هذا الوقت عن آرائك الحقيقية . وما تقوله مريكن عن اشتقاق الأفكار من مكان ما ، ينطبق عليها ، ولكنه لا ينطبق على الجميع . فمثلاً ، فى بحثى عن الفراغ ، الذى أقوم الآن بإعداده ، يوجد جزء بأكمله عن الاستدلال الدقيق ، لم أره فى أى كتاب ، وربما كان — بقدر ما أعرف — جديداً . وهذا يشبه آداب السلوك التى تقول بأنه على الإنسان ألا يتحدث إلا إذا بادره أحد بالحديث — فإذا سار كل إنسان على هذا المنوال ،

نضرب العالم من الأفكار ؛ وإذن فلا بد للأفكار أن تصدر عن شخص ما ، بصورة مبتكرة . وحتى إذا ما أخذ المرء أفكاره عن الآخرين ، فإنها تتخذ طابعاً مختلفاً ، إذا ما عارضها وتصارع معها وكافح لكي يفهم العملية التي ترد بها . عما تكون عليه إذا ما قبلها المرء لمجرد أن صاحبها لإنسان لا بأس به . ولقد حاربت على الدوام المثالية في الميتافيزيقا والأخلاقيات — وهذا هو السبب في أنني أرغمت على أن أفهمها بدقة قبل الموافقة عليها ، وفي أنني حين كتبها أعجب « وارد » إعجاباً شديداً بوضوحها . ولكن بما أنني بدأت في الزهو القبيح بنفسى ، فإني أرى أنه قد حان الوقت كي أنهى هذه الموعظة .

السفارة البريطانية ، باريس

الأربعاء ، ٣١ من أكتوبر عام ١٨٩٤

التاسعة والنصف مساء

حبيتى أليس

لا مانع لدى في ذكر التفاصيل غير الهامة لما أقوم به من أشياء — مثل المكان الذى أتناول فيه الطعام ، وماذا آكل .. إلخ — إذ أنه حين لا تكون لدى خبرة كبيرة في المسائل العملية الهامة ، فإني أدافع عن نفسى بقول إننى لست بالشخص الكفء . وسوف أخضعك لإرادتى وبكل قوتى ، إذا ما حاولت أن تملى شيئاً على . غير أن إيفلين نوردوف محقة إذ تقول : إنه ليس من طبيعتك الإملاء . وما دمت طالب علم ، أو صاحب نظريات من أى نوع ، فلن تكون على واجبات إزاء العالم الخارجى . وأذكر أنني قلت لك عند شاطئ التيمس في تشلسى في نوفمبر الماضى ، ما يردده لوجان دائماً إن ذلك النوع من الأشخاص عليه أن يعيش حياة تتسم بالأنانية بالنسبة للأشياء الصغيرة لأن ذلك يزيد من كفاءة الإنسان . وأن العمل لأكثر أهمية من أى خير يؤديه المرء راعماً . وحاجاتى ، لحسن الحظ ، بسيطة فكل ما أطلبه هو — الشاى والهدوء . وقد تمتعت كثيراً بغدائى مع آل دافرين . ولقد كنت وحدى مع اللورد

والليدى دافرين ، ولقد كان لطيفاً وجذاباً للغاية ، برغم أنه بدا عليه أنه نسي كل شيء عن خطوبتي ، على الأقل لم يتحدث أحد عنها . وهو في الحقيقة إنسان لطيف — دمث الأخلاق واسع المعرفة . ولقد كان كريماً للغاية ، وقال إنه سعيد جداً لأنه استطاع أن يرضى جلدني بتقديم ذلك المنصب لي . وسألني إذا كان العمل شاقاً ، وأجبتته بأنه لم يكن هكذا في المدة الأخيرة ، فابتسم قائلاً إن عمل السفير أقل دائماً من عمل الوزير . وأخبرتهما عن تحمس فيبس لمسرحية سارة الجديدة . فابتسما مرة ثانية وقالا إنهما لا يحسنان الظن كثيراً بذوق فيبس . ويبدو أنهما يشاركان في الاحتقار العام للمسرحية . ولقد عاملني بعطف كبير للدرجة أنني أحببته ، بالرغم من أن هذه المعاملة الحسنة كانت من أجل جلدني وجلدني وليست من أجلي . ولم أكن خجولاً بالمرة ، فكانت أفعالي وأقوالى لا ثقة تماماً . ولسوف يسعدك أن تعرفي أن الليدى دافرين كانت ترتدى فستاناً في منتهى الأناقة من الحرير الرمادي . أما اللورد دافرين فقد كان قد أتى لتوه من نزهة على دراجته . وهو يركب حتى باب السفارة ، ثم يدخل الدراجة بنفسه . ولقد كان هذا يصدم الفرنسيين ، ولكنه أصبح الآن — بفضل لقب اللورد كما أعتقد — شائعاً بين المتألقين في فرنسا ، أكثر مما هو في إنجلترا . وحيثما كان في ترسبرج سبب فضيحة ، لأنه ذات ليلة ، ومن باب التسلية ، مثل دور الخنزير فوئب ونخر واستنكر الجميع هذا السلوك من سفير . وهو يعامل زوجته بحب مؤدب رسمي غريب ، لا زيف فيه على ما أعتقد ، إلا أن عادة الأدب الرسمي قد أصبحت أسلوب سلوكه الوحيد . ومن الغريب على الأذن ، أن تسمع عبارة « يا حبيبتي » وغيرها تقال بنفس النغمة التي ينطق بها عبارات « جلالتك » ، و « سعادتك » . لقد كان يوماً رائعاً ، وقد قمت بجولة كبيرة في الغابة مع رودس ، وهذه أيضاً كانت ممتعة جداً . كانت ألوان الخريف أجمل ما تكون ، ولا أتصور أن الطقس يمكن أن يكون أحسن مما كان . ولقد أعجب جداً ، في طريق العودة ، بقوة أعصابي في القيادة في الطرق المزدحمة . وأعتقد أن ذلك نوع من الترضية ، ولكني

أعرف أنني أسوق بمهارة كبيرة في الطرقات المزدحمة . ولقد فزت باحترامه تماماً ، لأنه من ذلك النوع الذى يعجب بهدوء الأعصاب في كل الظروف . كان هو يترنح خلقي . إنه شاب بسيط ، لطيف وبرىء ، ويعتقد أن الجميع أذكاء . وأنا وهارفورد نسخر منه أحياناً ، ولكننا نحبه ، واعتقد أنه يجبنا .

لم يكن في نيتي أن أبدأ صفحة ثانية ، ولكنى لا أريد أن أنام الآن ، بالرغم من أن الساعة ١٠,٣٠ ، ولا أستطيع أن أقوم بأى شيء سوى الكتابة لك - كم هو رائع أن أركب مع دودسن ، لأنه يحسنى لدرجة الجنون حينما يراى أسوق دون أن تمسك يداى بموجه الدراجة^(١) .

كامبردج (٢)

٣ من نوفمبر . الواحدة والنصف

حبيبتي أليس

لقد كنت سعيداً للغاية طوال فترة الصباح . ففند أن تركت « كنزكروس » كنت أشعر كأننا قد افترقنا لتونا ، وكأننى في طريق عودتى في ذلك القطار ، كما اعتدت أن أفعل في الشتاء الماضى . إنه مما يملأ النفس بهجة أن أرى أصدقائى مرة ثانية - لم أكن أعرف قبلا كم أنا مغرم بهم ، وكم هم أكثر لطفاً (ودكاء) من الشبان العاديين . ولقد عدت لتوى من زيارة لوارد ، وهو يقول إنه لا يوجد شيء فلسفى أقوم به في الاقتصاد ، وإنه من الأفضل لى أن أقوم بعمل رياضى ذى صبغة رياضية بحتة ، وحيثئذ فقط ينبغى على أن أبدأ التخصص في الحال . ولقد نصحتنى أن أدرس الزمن والحركة أيضاً في بحثى الآخر ، وأن أناقش قوانين نيوتن الثلاثة ، وهو شيء مشوق . الجو الآن رائع ، وشجر الغاب الأصفر في منتهى الجمال ، والناس كلهم خيرون ولطاف المعشر ، والمكان هنا كالجنة

(١) ينجلى الادعاء والاعتباط بالنفس اللذان يتضحان في هذا الخطاب ، وغيره من الخطابات التى كتبت في نفس الوقت . ولا أدري كيف احتملتها أليس .

(٢) ذهبت إلى كامبردج في عطلة نهاية الأسبوع ، ولكنى لم أزل أليس لأن الشهور الثلاثة لم تكن قد انقضت بعد .

تماماً بعد جحيم باريس . كان بينى وبين سانجر حديث طويل ، وضحكت كثيراً لتوقد ذهنه .

سوف أكتب مرة ثانية غداً من منزل ليول^(١) خطاباً أطول من هذا أخبرك فيه بكل ما حدث . سوف أعرض على وارد بحثي عن الفضاء وأنا متشوق جداً لمعرفة رأيه . ولأنى أعيش بلا حب ، فإن مديحه هو أكثر ما يدخل البهجة على قلبي في العالم . ولم أحصل منه على أى مديح اليوم ، ولكنى تمتعت بمقابلته ، فهو إنسان لطيف جداً . والآن يجب أن أبحث عن أحد يتناول الغداء معي . والحمد لله إنه لم يتبق إلا أقل من أسبوعين ، إلى اللقاء يا حبيبتي .

حبيبك المخلص جداً
برنى

في القطار . كامبردج
الأحد ، ٤ من نوفمبر ١٨٩٤
الخامسة والربع مساء .
عزيزتي أليس

من المؤسف جداً أن خطاباتي كلها قد وصلتك في نفس الوقت ، وأنى أرسلتها بعنوان فرايديز هل . وآمل ألا يتكرر ذلك . يسرنى أنك سعيدة وأن وقتك مزدحم بالعمل — ولو تصورتك غير سعيدة ، لكان مما لا يمكن احتماله ألا أراك الليلة — ولأنه لمن دواعي سروري أن أشعر أنك بجواري . عظيم أن يعود المرء إلى كامبردج . ولقد فرح مور وسانجر ومارش برؤيتي مرة ثانية . إنى أحبهم أكثر مما كنت أعتقد قبلاً . وقد كان هناك اجتماع كبير ليلة أمس ، وقد حضر « ماك تي^(٢) » ، وديكنسون ومور ، مما جعلني أشعر بأهميتي . وسوف يسعدك أن تسمعي أن كثيرين منهم ظنوا أن بحثي يغلب عليه الطابع النظري ،

(١) ليول فتز باتريك — مسز فيليمور بعد ذلك .

(٢) ماك تي اختصار لاسم ماكتاجارت .

بالرغم من أننى وراك تى أقنعناهم فيما بيننا ، وفى الوقت المناسب ، أنه ليس هناك شىء محدد يمكن أن يقال عن السلوك العمل . ولقد تركت لهم بحى لأن مارش وسانجر يريدان أن يقرأه ثانية . ولقد تكلم ماك تى أولاً ، وكان لطيفاً جداً كما تمنيت . ولقد قلت فى بحى لى أننى ربما أقبل أى شىء يقوله ، وهكذا فعلت . لقد ترك جانباً مسألة الخلود من أجل ، وهكذا حل مشكلتى ، فى نهاية الأمر ، دون الرجوع إلى هذه المسألة . ولا أستطيع أن أضمن ما قاله فى خطاب وإنما يمكننى القول بأننى سوف أذكره فى حديث لنا يوماً ما . ولقد تناولنا غداء شهياً عند مارش قبل الاجتماع . أسعدنى وجودى بينهم ثانية ، حتى لى لم أتكلم كثيراً . وبالرغم من أن مور كان يميل إلى الصمت فقد كان كعهدى به دائماً رائعاً — لى أكاد أعبد كماله لو كان إلهاً . ولم يحدث أن شعرت بهذا الإعجاب الشديد بأى إنسان . وأنا أقول الحقيقة دائماً لمارش ، ولهذا فقد أخبرته بأننا مفترقان لمدة ثلاثة أشهر كى ترضى جلتى . ولم يسأل الآخرون أى أسئلة محرجة . ولقد سر معظمهم ببحتى ، وبأننى استعملت عبارتى « جيد » و « أقل جودة » بدلا من « صواب » و « خطأ » . ولقد سروا بالبداية أيضاً كثيراً . ولقد ظلمت أتحدث مع مارش حتى الثانية ، ثم نمت حتى العاشرة والنصف ، وتناولت طعام الإفطار مع سانجر . والغداء مع مارش ، وتجاذبت مع عاموس أطراف الحديث ، وبعد ذلك ذهبت لرؤية سكنى الذى أثنته بطريقة جعلته يبدو أكثر إشراقاً ، بالرغم من أنه ليس كما أتمنى تماماً .

ويعتقد سانجر أن رأى الجرىء ، فى بحى عن الفضاء ، له وزنه وآمل أن يكون هذا هو رأى وارد أيضاً . ولقد أخبرنى عاموس أن وارد قال لى مؤهل جداً للزمالة للدرجة أنه لا يهتم أى موضوع أكتب عنه — غير أنه ينبغي ألا يؤخذ هذا الكلام على علاته — لأنه ملون بالاحترام الذى يكنه عاموس لى ولقد حاولوا إقناعى بأن أفعل ما أحسن القيام به بدلا من الانطلاق إلى علم الاقتصاد ، هذا بالرغم من أنهم جميعاً يحترمون هذا العلم كثيراً ، ويسرهم أن أستقر فى نهاية الأمر على دراسته . وأنا أكن الكثير من الاحترام لأحكامهم

لأنهم أمناء ، ولأنهم يعرفوننى . وسوف أقوم بعمل بحثين فى العام القادم ، وبحث عن الفضاء فقط أو عن الفضاء والحركة ، كما يقترح وارد . ولكنى بطبيعة الحال ، سوف أبدأ فى علم الاقتصاد فوراً . ويقوم سانجر بدراسة فى الإحصاء . كما أنه شرح الصعاب الجسيمة فى النظرية ، وهى تهتم الجانب العملى أيضاً ، لأن موضوع تحقيق القيمة كله ، وغيره من موضوعات ، ترتبط وهذه الصعاب . أى لم أكن أعلم ، من قبل ، بوجودها . ولقد أعطيتى فكرة التغلب على الصعاب بهجة ذهنية كبيرة . إن مسراتى الذهنية فى نمو سريع جداً خلال هذه السنوات الأخيرة . وإنى مقتنع ، منذ أن قرأت برادلى ، أن كل المعرفة مفيدة ، ولذلك فلا داعى هناك للقلق بخصوص الفائدة العملية السريعة — بالرغم من أن القلق سوف يوجد ، بطبيعة الحال ، متى بدأت فى دراسة الاقتصاد . وإنى لسعيد إذ أعرف أن العاطفة تنمو ، لأنه بدونها لا يستطيع أحد أن يقوم بتفكير صائب فى الموضوعات المجردة — إذ لا يستطيع الإنسان أن يفكر جيداً — بدافع من مجرد الشعور بالواجب . غير أنى أحتاج فقط إلى بعض النجاح من وقت إلى آخر كمصدر للطاقة . ولقد أدت زيارتى لكامبردج إلى أن أكون كثير الرضى عن نفسى ، وإنى لأشعر بسعادة كبيرة حين أذكر أنه لم يبق على لقائنا إلا أسبوعان ، وإن مريكين سوف تجعلهما يمضيان بسرعة . لقد ضحككت أكثر مما ضحككت فى حياتى منذ أن تركت فرايدايهز هل ، وتكلمت كلاماً حسناً وجعلت الآخرين يضحكون كثيراً أيضاً

كلية ترينتى كامبردج

٩ من ديسمبر ١٨٩٤ ، الثانية صباحاً

عزيرتى أليس

سوف أكتب خطاباً موجزاً الليلة ، برغم أن الوقت متأخر ، قابلى سانجر فى المحطة وأخذنى لتناول الشاي مع مارش ، حيث قابلت كرومبتون الذى كان

لطيفاً كعادته ، وفي حالة معنوية عالية ، لم أره فيها من قبل ، فهو مسرور بدراسة القانون ، وسعيد باستقراره في الحياة . ولقد قام مور بقراءة عن الشهوة وذكر . مثلك الأعلى السابق الذي كنت قد أخبرته عنه . ولم يقدم في بحثه حججاً وجيهة ، وإن كانت بعض أجزائه ممتازة مما جعلني مغرمًا به . وكان من الممكن أن أوافق على كل كلمة فيه . منذ عام — أما الآن ، فقد تكلمت بصراحة تامة وقلت إنه ليس من الضروري أن تكون هناك شهوة في الجماع مادام الحب الروحي هو المسيطر ، غير أنه من الممكن أن يكون الجماع تعبيراً عن اتحاد اثنين ، وهو ذروة الحب الروحي . واتفق الجميع معي ، ماعدا ماك تي ، الذي حضر بعد أن انتهت المناقشة . ولقد كان كرومبتون رائعاً ، كما فاز على مور فوزاً ساحقاً ، برغم أن مور لم يعترف بذلك . غداً سوف أقابل كل أساتذة الجامعة . ولقد كنت أناقش عاموس ، الذي استشاط غضباً للدفاع عن ما وراء القضاة . وهو لن يحضر حفل الزفاف (وليس ذلك نتيجة لاختلافنا) .

حبيلك المخلص

برني

لقد كنت في ذلك الوقت على علاقة وثيقة بإدى مارش (الذي أصبح السير إدوارد مارش) ، ولذلك أخبرته عن أليس وجعلته يذهب ليراها . ولقد وجدها مشتركة في حرب صليبية لتحث الفتيات على الثورة ضد آبائهن . وهناك إشارة لذلك في خطاب مارش التالي :

كولد آش ، نيو برى

٢٥ من مارس ، عام ١٨٩٤

عزيزي رسل

أريد أن أشكرك على مناسبتين سعيدتين جداً في الأسبوع الماضي . ذهبت يوم الأحد ووجدت في الغرفة فتاتين أمريكيتين ، ذهبت إحدهما لتكتب

خطاباً لأسرتها ، وقدمت الثانية لتدرس الاقتصاد السياسى . ثم تحدثنا حديثاً ممتعاً ، لمدة ساعة أو ساعتين ، وكان الحديث عنك وعن أشياء أخرى ، وأعتقد أننا سوف نصبح صديقين حميمين . وأنا سعيد جداً من أجلك أكثر من قبل .

ولقد أرادت إحداهما أن تثير شقيقتي ضد والديها ، وكذلك طلبت منى أن أدعوها للغناء يوم الأربعاء الماضى ، وهو شىء جميل منها ، ويبدو أنها وشقيقتي قد أصبحتا صديقتين حميمتين . وكانت شقيقتي فى غاية الحماس بعد أن انتهت المقابلة ، ولا أعرف إذا كانت ستثور أم لا . والمستر شميث شخص عزيز حقاً ، وأظن أنه بدا لى متهمكاً جداً ، ولو أنى لست متأكداً من ذلك . ومما قاله لىنى أنكلم تماماً مثل جويت ، وهو شىء لا أصدقه . وما أغرب اللغة التى يتحدثون بها وما أكثر أخطائها النحوية . لا داعى لأن أخبرك بما تعرفه فعلاً . ولست أقصد الإشارة إلى استعمالهم النحوى ، ولذا فربما كان من الواجب أن أتوقف هنا . غير أن الخطاب سوف يكون مقتضباً ، ولذلك فسوف أتحدث عن شئونى الخاصة . وأهم شىء هو أنى أقابل روبرت بريد جز كثيراً هذه الأيام ، وهو شخص ساحر ، ذو شعر أسود غزير وفى حديثه غمغمة جذابة . ولقد ذكرنى بفيرول ، بصورة عجيبة ، بالرغم من أنه أضخم حجماً ، وبوجهه ورم مضحك ، مثل فيرنس . ولقد ذهبت معه فى جولة يوم الجمعة ، وكان حديثه شيقاً ، بالرغم من أنه ليس كحديث كولريدج وهازلت . وقد أصيب بعد الغداء بصداغ ، أو بشىء من هذا القبيل وبدأ أكبر سنناً (فى التاسعة والأربعين من عمره) وتحدث كثيراً عن مسرحياته وهذا من حقه تماماً ، خاصة وأن الحديث كان شيقاً بالنسبة لى ، ولكن الغريب هو أنه كان يمتدح مسرحياته هذه بصراحة . وقد قال : « أعتقد أنى أعطيت الشعر المرسل المرونة الممكنة فى « نزوات البلاط » — ألا تعتقد ذلك ؟ — و « مآدبة باخوس » مسلية من أولها إلى آخرها . ولا بد أن تعرض على المسرح ، وإذا ما عرضت فإنها سوف تبقى هناك مدة طويلة » .

ليس هذا غروراً ، فهو منزّه عن الغرور .

١٦٧

ولقد سمعت أنه قام بتدريب الجوقة بنجاح عظيم . أعتقد أنك تمضي وقتاً سعيداً في روما . ولن تبالي بالرد إلا بعد عودتك . وقد ظننت أنك تريد أن تعرف ما أزمع القيام به يوم الأحد .

ما زلت أريد الكتابة ، لولا أنني غير متأكد من أن وزن الخطاب لن يتطلب أكثر من طابع بريد فئة بنسين ونصف . أرجو تبليغ تحياتي إلى مس ستانلي .

صديقك المخلص

إدوارد مارش

هيدلبرج

نوتيهايمر لاندزتراس ٥٢٠

١٥ من سبتمبر .

عزيزي رسل

كنت على وشك أن أنام وأنا أقرأ قواعد النحو ، حينما تساءلت ، لسوء الحظ ، إذا كان عكس كلمة الدلدول الجليدي غراء السمك أو الترسب الجليدي . ولقد أيقظتني تماماً صدمة تذكرى بأنني كنت أفكر في الاستلاكييت والاستلاجمييت (المترسبات الثلجية) . ولكنني لن أقوم بقراءة في النحو بعد ذلك . ولذلك ، فأليك الرد على خطابك الغريب الذي صدمني تماماً .

كنت أعتقد أن باريس هي البديل الجيد لدردن : حيث إن الفراق كان من الممكن أن يحدث في أي المكانين — أليس كذلك ؟ ويؤسفني جداً أنني لن أستطيع رؤيتك ، رغم أن ذلك ، من بعض النواحي ، شيء لا بأس به ، وذلك لأنني لست وقوراً أو لائقاً بالمرة . ويكفي أن يكون سانجر قد رآك . ولن أسرد أخبار « شقاوتي » ، حيث إنني مللت ذلك ، بل قررت أن أكتب لكل أصدقائي وأن أرى من منهم سيصدم أولاً مبتدئاً بباران ، وج ترفي ، وكونييير . ولدهشتي الشديدة أَرْضَى كل منهم نفسه واحداً بعد الآخر ،

بنصحى بأن أحذر البدانة . وكان مور هو أول من بهت لهذا .

أسير قديماً في دراسة اللغة الألمانية ، برغم أنني لم أصل بعد إلى المرحلة التي أجدها وسيلة معقولة للتعبير عن أفكارى . وأعتقد أن أول اثنين تكلمتا هذه اللغة لابد وأن يكونا قد ماتا بعد برج بابل ، تاركين خلفهما طفلاً متحذلقاً ، كان قد تعلم كل الكلمات التي تتكون من مقطع واحد ، وكان عليه أن يكون الكلمات الطويلة من هذه المقاطع — وإلا فكيف تفسر كلمات مثل — Sicht — Ab — Handschuh — Augen ؟ إني لم أقابل في حياتي لغة كهذه — قارن جفاف عبارة sich kleiden بعبوبة التعبير الفرنسى scemettre . إن اللغة الإنجليزية خصبة لأنها تحتوى على الكثير من الكلمات اللاتينية — التي أخفيت حرفيتها — فمثلاً كلمة independence تشبه تماماً كلمة Unabhängigkeit ومع ذلك فإن الأخيرة تبدو فظة للغاية . ويمكننى الآن أن أقرأ بسهولة ، وأن أجده طريقة ما للتعبير عما أعنيه ، ولكنى لا أستطيع أن أفهم الناس حينما يتكلمون بالسرعة العادية . ولسوء الحظ كانت المسرحيات التي عرضت في مانهام سيئة بشكل لا يشجع على رؤيتها . ولكنى رأيت من الأوبرات منذ مجيئى إلى هنا أكثر مما رأيت في حياتى كلها ، بالرغم من أن هذا لا يعنى الكثير . وما رأيت هنا من عروض ليس مرضياً تماماً ، حيث إن منظر الممثلين قبيح . وقد رأيت « فيديليو » بالأمس . قامت بدور البطلة سيدة حسبته في أول الأمر كورنى جرين — وتعرف طبعاً أنها متنكرة في زى خادم . إن النساء البدينات لهن هم مقيم ، فيما أن يرتدين صدراتهن كلها من نفس القماش ، وفي هذه الحالة يظهرن كأنهن على وشك الانفجار ، وإما أن يرتدين فاصلاً من قماش آخر ، وفي هذه الحالة يظهرن كأنهن قد انفجرن فعلاً . وفيديليو مثلاً ترتدى صديرياً بنى اللون ، مفتوحاً من الأمام ويظهر من تحته شيء أبيض ، وحلية بيضاء في الأكمام ، تعطى نفس الأثر . لقد رأيت الكثير من المناظر منذ جئت إلى هنا (وأى شيء في ألمانيا يمكن أن يلفت النظر) . لقد سببت فضيحة منذ أيام ، وذلك حينما استغرقت في النوم أثناء جولة في عربة تجرها الجياد ببطء حول فرانكفورت ولا أظن أن

الفرنسيين أنفسهم يجدون المنظر مضحكاً كما أجده أنا . غير أن معظمهم صغار السن . (كان يجب أن أخبرك أنى أعيش فى « بنسيون » كبير ملئ بالفرنسيين الذين يتكلمون الألمانية ، وبالألمان الذين يعلمونهم ، وأنا الإنجليزى الوحيد) . كما أن معظمهم لطاف جداً . ولقد قامت صداقة وثيقة بينى وبين ألمانى جذاب جداً ولكنه ليس رسولياً ، وبينى وبين فرنسى رسولى جداً . ولا أعتقد أننى قابلت فرنسياً بدون جاذبية خاصة به ، بصرف النظر عن قدراته .

والآن جاء دور الغداء Mittagessen ، وبعد ذلك يمكننى القول بأننى أجد نفسى غير قادر على أن أستمر فى هذه العملية المرهقة (بهذه المناسبة ؛ السيدة المدرسة تقول إننى أفوق الإنجليز فى هذا المجال — وهى بمعنى آخر تشير إلى عادتى فى أكل كل ما يوضع أمامى « حسب القاعدة » المتبعة مع الأطفال) . وبعد ، لقد قرأت كل ما كتبت . وأخشى أنه يبدو « نزقاً » leichtsinnig . ولكن لا تنس أن اليوم يوم رائع ، وأننى قد قضيت الجانب الأكبر من الصباح فى الحديقة أقول لنفسى : « انظر ما أروع وأبهج أن يجلس أشخاص من جنسيات مختلفة معاً » — وذلك فى فترة راحة خلال الدرس الألمانى ، الذى كان كالعادة مضحكاً ، فالمدرس الذى يتكلم الإنجليزية بطريقة سيئة جداً ، يضرب أمثالا خاطئة ، وكان على أن أترجم جملاً مضحكة مثل :

Rid Joursel of your whimps — Do you remember my ?— He posted off all his wretches i.e. He boasted of all his riches.

أرسل لى بطاقة بريدية من وقت إلى آخر ، حينما لا تكون مشغولاً بأعمال أخرى . لسوف أمكث هنا حتى نهاية الشهر . أتمنى أن أعود بطريق باريس ، غير أن هناك عقبات فى سبيل ذلك : أولاً : (لن يكون معى تقود) وثانياً : ليس عندى أية ملابس يمكننى أن أظهر بها على مدى ميل من السفارة — أو أسير بها مع إنسان أعرفه — وختاماً أتمنى أن تسير كل أمورك على مايرام .

المخلص

ا. ه. م.

هيد لبرج

(١٨٩٤)

عزيزى رسل ،

لدى نصف ساعة فقط قبل موعد العشاء Abendessen وفى مخيلتى الآن سبعة أشخاص غيرك ، لابد أن أكتب لهم - ومع ذلك فيبدو أنك « تشعر بتقصير » أكثر منهم ، كما تقول مسز جميدج . يؤسفنى أنك لا تتمتع بوقتك فى باريس . وكنت أحسب أن مجرد وجودك هناك يكفى - غير أن ماتقوله عن خطابات أسرتك محزن جداً - وكذا فكرة أن يسرى المرء عن نفسه بترنيمة غير جيدة فى الوقت الذى يمكن أن يسرى عنها بقراءة مؤلفات والرسل وكارينتر . وعلى كل فليس العاشر من ديسمبر بعيداً جداً .

لا أستطيع أن أفهم ضيقك بالفرنسيين - أهو مجرد كونهم غير طاهرين ؟ هذا شيء يدعو إلى الاشتزاز - إن كل الذين يعيشون منهم هنا ، مثلاً ، يمارسون الجنس بانتظام من سن السادسة عشرة ، ويتحدثون عنه بأسلوب قد يثير فى إنجلترا اشتزازى . غير أن هذا يرجع إلى نظرة كل من الشعيين للتربية الجنسية . يمكن للمرء أن يعترض على الأفراد لمجرد أنهم يسلكون تبعاً للأسلوب الذى نشأوا عليه .

المخلص

ادوارد مارش

هيدلبرج
أكتوبر (١٨٩٤)

عزيزى رسل

أرسل لى باران الخطاب المرفق لك اليوم ، وأنا أرفقه بأثنى المعلومات التى وجدتہا فى « زايدون هيرالد » — وحيثما يتتبع المرء التشابه فى كل تفاصيله ، فإنه يشعر بالمتعة وبالأخص إزاء اللباقة التى خفف بها الله من وقع وجوده فى مركز سام لا يضارع . « كما هو الحال مع العشاق » ، قول مؤثر — مثال ذلك أيضاً الأسلوب المحتشم الذى يصور الإنسان وهو « يتعجب لما يمكن للإله أن يراه فينا » إن الأمر كله إن هو إلا مقال إنشائي .

كل الفرنسيين الذين قابلتهم هنا تقريباً أصغر سنّاً من أن تكون لهم تلك البهيمية المقيمة ، ولا شك أن بعضهم سوف يصل إلى هذه البهيمية فى حين ينتزه الآخرون عنها . لقد ذهب صديقى ، الفرنسى المفضل ، مثلاً ، إلى ماخور مجرد تفقد المكان ، ولقد اشمأز لدرجة أنه لم يشأ أن يضاجع ، كما يقولون ... سوف أكتب لك خطاباً حاداً جداً ، فى يوم ما ، وذلك صوتاً لسمعتى ، ولكنى سوف أستمّر فى مجونى إن أردت ، حتى يحين وقت كتابة هذه الرسالة .

أما مغامرتى العظيمة الأخيرة ، فهى مقابلة أوسكار براوننج عرضاً فى الحطة — وكان فى طريقه إلى « الفييل » كى يشتري شمعانيا ألمانية . كان قد أتى إلى هنا لىبتناع السيجار الألمانى . ولقد أتيت به كى يقضى ليلة فى « البنسيون » ولقد أعجب به الجميع ، وكان رائعاً . وكان أول شيء ، تقريباً ، قاله لى هو أن « دوقى » يورك ، وتيك تى سوف تزورانه فى كامبردج ، فى الفصل الدراسى القادم — مما سوف يكون موضوعاً لأحاديث الناس . ولم تكن هذه غلطته لأنهما فى حقيقة الأمر قدمتا من تلقاء نفسيهما .

ما هى أخبار أخيك ؟

الخص

إدوارد مارش

٤٠ شارع دوفر

١١ من مايو ١٨٩٤

عزیزی برتراند

عدت منذ ثلاثة أسابيع ، غير أنى كنت منهمكاً فى إنجاز بعض الأعمال المتخلفة ، وأكتب لك الآن لأنى سمعت شائعة تقول إنك سوف تطلب يد الآنسة بيرسل سميث . وأرجو ألا يكون هذا صحيحاً . لأنك إذا كنت تعتقد أنك أصغر سنّاً من أن تدخل البرلمان قبل أن تبلغ التاسعة والعشرين فأنى أرى أنه من المؤسف جداً أن ترتبط ، وتقدم على هذه الخطوة الهامة وأنت فى سن ٢١ أو ٢٢ ، لا أذكر أيهما - إن هذا سوف يعوقك عن أن تنجز أشياء كثيرة ، كما أنك لم تعرف بعد شيئاً عن عالم « النساء الصغيرات » كما تقول اللىدى رسل . ولذا سوف أشعر بأسى كبير إذا كنت ارتبطت وأنت مازالت فى هذه السن المبكرة ، غير أن هذا كله قد يكون مجرد شائعات لانصيب لها من الصحة . وتأكد أننى لن أعمل على نشرها . ولكنى لم أستطع أن أمنع نفسى من الكتابة إليك كى أخبرك أنه من المؤسف أن تخطب ، وأنت مازلت بعد صغيراً ، فتاة أكبر منك سنّاً . لا ترد على خطابى إلا إذا كنت تريد ذلك غير أنى آمل أن يكون هذا الذى سمعته مجرد شائعات ربما كان سببها اصطحابك للفتاة إلى « البطة البرية » (١) .

المخلص

نود ستانلى

(١) مسرحية إيسن الشهيرة .

١٧٣

كلاند ييوى

مقاطعة داوون

٥ من سبتمبر ، ١٨٩٤

عزيزى برنى

لا بد أن تكون الليدى رسل قد أخبرتك أن كل الأمور قد رتبنا لذهابك إلى باريس ، وأنا واثق أنك سوف تحبها ، فالجو رائع في هذا الوقت من العام . وبالرغم من أنك سوف تقوم هناك ببعض الأعمال ، فإني آمل ألا تمنعك كثرتها من انتهاز فرصة وجودك هناك كى ترى كل ما يجب رؤيته في باريس ، لأن الخريف أنسب وقت لذلك .

وأعتقد ، إذا كان في الإمكان ترتيب ذلك ، أننا نريدك ، من وجهة النظر الرسمية ، أن تمتكث ثلاثة أشهر على الأقل ، بالرغم من أننى آمل أن نستطيع أن نغريك بالإقامة فترة أطول ، كى تحتك بالمجتمع الباريسى الذى سوف يسرك كثيراً .

ولقد كتبت لكل المسئولين في باريس كى أخبرهم بموعد وصولك ، وأطلب منهم أن يبدلوا كل ما في وسعهم كى يجعلوك تشعر بالراحة .
المخلص جداً
دافرين وآفا

فندق برانس دى جال

باريس

١١ من سبتمبر ، ١٨٩٤

عزيزى اللورد دافرين

لقد انتظرت حتى أستقر ، قبل أن أجزل لك الشكر ، على خطايك الكريمين لى ، وإني لسعيد جداً باهتمامك بأمرى . ولقد استقبلنى الجميع

بحفاوة بالغة حين وصلت باريس مساء أمس ، وقضيت صباح اليوم في السفارة وأنا واثق من أنني سوف أحب العمل . وأن الحياة سوف تكون ، بوجه عام ، سارة جداً .

ولإني ، بكل تأكيد ، سوف أبقى الأشهر الثلاثة التي تحدثتم عنها كشيء مرغوب فيه من الناحية الرسمية . وفي الظروف العادية كان يسعدني جداً أن أبقى أطول وقت ممكن ، غير أنني سوف أتزوج ، وكنت آمل أن يتم الزواج في ديسمبر . ولذلك فإنني عظيم الثقة في أنك سوف تقدر أنني لا بد وأن أكون غير ملتزم بعمل رسمي في ذلك الوقت — إذا لم يسبب لكم هذا إزعاجاً . وآمل ألا تظن أن رغبتى هذه تدل على أنني غير شاكر لمعروفكم — وما كان ليثنيني شيء عن قضاء أطول فترة ممكنة ، إلا أمر في مثل هذه الأهمية . وأنا شاكر جداً لكم إعطائي هذه الوظيفة — ولكني لما كنت لا أنوي أن أعمل بالسلك الدبلوماسي فلا داعي هناك لتأجيل زواجي ، الذي أنتظره بفارغ صبر .

المخلص والمعترف بالجميل

برتراند رسل

والخطابات التالية علاقة بمشروع ، شغل تفكيرى لفترة قصيرة، وهو أن أترك الفلسفة الرياضية جانباً ، وأتجه إلى الاقتصاد . وهذه الخطابات أيضاً علاقة بشئون « الجمعية » . فلقد كانت عادة العضو ، أن يقرأ ، بطريقة دورية ، بحثاً قصيراً ، يختاره الآخرون في يوم السبت السابق ، من بين الموضوعات المقترحة . وكانت القاعدة ، أن يقول كل عضو شيئاً في المناقشة التي تتلو قراءة البحث .

كلية ترينى
كامبردج
١٨ من أكتوبر ، ١٨٩٤
عزيزى رسل

ظننت ، حينما قرأت خطابك للمرة الأولى ، أنك جنتت . وأخذت الخطاب إلى مارش ، ولكنه لم ينظر إلى الموضوع نظرتى الجادة إليه . ولسوف آخذ رأى وارد مباشرة ، بطبيعة الحال ، وأنا لا أعرف إلى أى حد يمكنك أن تبرز فى هذا المجال . ولكنى متأكد أن كتب الاقتصاد التى لا بد لك أن تقرأها لن تكون صعبة بالنسبة لك . بيد أنى أتوقع أنك لابد أن تدرس أيضاً علم النفس وعلم الأخلاق ، إلى جانب السياسة والقانون . وأشك فى أنك سوف تجد تشويقاً فى محاولتك معرفة إذا كانت لكلمة « النفعية » أى معنى وماذا تعنى عبارة « احتياج الإنسان للطباق » . وأمامك بكل تأكيد ، فرصة ممتازة لإسداء خدمة للعالم بكتابتك عن « الفضاء » ، ولكنى أشك فى إمكانك زيادة سعادة الإنسان زيادة سريعة ، بانشغالك بأسس الاقتصاد . فهو ، من ناحية ، لا يجد ثقة أو احتراماً من الناس ، وذلك نتيجة لانتشار الديمقراطية ؛ ومن ناحية أخرى فإن الأقلية التى ترى مثلى أنه علم ، أو ينبغى أن يكون علماً ، لايهمها فى كثير أو قليل إذا كان يعنى أى شىء ، أو لايغنى شيئاً بالمرة . وأتوقع أن يصاب ماكتاجارت بنوبة إذا أخبرته بما تقول . تروتر يسعده أن تحضر بحثاً كى تقرأه (إذا كان ذلك ممكناً) فى نادى العلوم الأخلاقية . وقد اخترنا موضوعاتنا يوم السبت الماضى ، ولسوف يقرأ مارش يوم السبت القادم بحثاً أظن أنه عن « لماذا نحب الطبيعة » وأرجوك أن تجرب أحدنا وبسرعة ، عن يوم حضورك . لسوف يسعدنا مجيئك . ونحن نفكر فى أمر جورج ترينى^(١) ، ولكننا لم نقرر بعد . سمعت أن إدوارد كارينتر قد نشر بحثاً آخر عن « الزواج »

(١) جورج ترينى اختصار لاسم جورج ترينيليان .

ولسوف أرسل لك نسخة بمجرد حصولي على واحدة .
 ألدريك نسخة من كتاب أردمان عن « بديهيات الهندسة » ؟ أو هل تعرف
 أحداً هنا لديه هذا الكتاب ؟ أريد أن أقرأه ، ولا أجده في مكتبة الجامعة .
 هل تقرأ الصحف الإنجليزية ؟ لقد أثارت بعض السيدات الدنيا بخصوص
 العاهرات اللاتي يتسكنن في « الامباير » وربما يغلق . وكنت أود أن يكون
 احتجاجهن بخصوص اللاتي يتسكنن في الطرقات .
 لا أجد ما أقول عن « الاقتصاد » ، كما أنني أجد « القانون » مملاً ،
 ولذلك فلولا أنني سوف أذهب بعد غد لأستمع إلى السعفونية التاسعة ، لكنت
 الآن مكتئب النفس .

المخلص

تشارلز برسي سانجر

كلية ترينتي

كامبردج

١٩ من أكتوبر ، ١٨٩٤

عزيزي رسل

ذهبت لمقابلة وارد وسألته عنك . فقال لي على الفور إنه من الأفضل لك
 أن تختار الاقتصاد ، إذا كنت تظن أنك تفضله . وأن المهم هو أن تعمل في
 مجال يروق لك ، وأنه بالرغم من أنك لا بد وأن تنتهي من بحثك في أغسطس
 القادم ، إلا أنك تعمل بسرعة فائقة ، ولذلك سوف يكون لديك فسحة من
 الوقت . كما قال أيضاً إنه لن يكون هناك أدنى اعتراض على تقديمك البحثين
 أو أكثر ، وأنه إذا كتبت مقالا عن الفضاء في مجلة « العقل » أو في غيرها
 فإنه يمكنك أن تضمن ذلك في بحثك عن الاقتصاد . غير أن بحثين متوسطي
 القيمة ، لا يرتقيان إلى مستوى بحث واحد ممتاز ، كما هو متوقع . كما قال
 إنه لن ينصحك بخصوص الاقتصاد ، وأقترح أن تقوم بالكتابة للإرسال . هل

١٧٧

قرأت كتاب كينس^(١) عن مجال علم الاقتصاد ومنهجه ؟ أظن أنه يهمك .
ولقد قال لي فرانك إن ماکتاجارت يتملكه الفرع .

صديقك

تشارلز برسى سانجر

كلية تربیتی ، كامبردج

٢٣ من أكتوبر ، ١٨٩٤

عزيزی رسل

يسعدنی أنك فی طريقك إلینا . ومن الهراء أن تقول إنك لا تريد أن
تكتب بحثاً .

لقد كان خطابك الأول إلى سانجر خطاباً هداماً . وكان له علينا (مع
تواضعه) نفس الأثر الذى كان لاجتماع مجلس الوزراء فی الشهر الماضی
على أوربا فلقد أسرع سانجر إلى هنا ليقول إنك جننت . ولما وجد أنى لم
أكون رأی بعد ، عرض رأیه هو . ولما لم يجد موقفى مرضیاً له تماماً ، أفسد على
ماکتاجارت شهیته ، بأن سرد علیه هذه الأخبار المخیفة ، فی حین أنه كان
فی طریقته إلى مائدة الطعام . وهو منذ ذلك الوقت هادئ النفس إلى حد ما ،
بفضل وارد . وأنا لا أدرى شیئاً عن الصواب والخطأ فی المسألة ، غیر أنه
لا یسعی إلا أن أبلأ إلى الجانب الحسن من طبیعتك راجیاً أن تقدر الساعة
التي أنت فیها ، وأن تقدر الوقت الطویل الذى مازال أمامك حتى شهر يوليو ،
وأن تقدر كل شیء قبل أن تقوم بأى عمل طائش .

ولقد سعدت كثيراً بتسلم خطابك (فی اليوم السابق لرحیلی من هیدلبرج)
وبعرفتی أنك أسعد حالاً فی باريس . ولا أدرى بالضبط عدد المرات التي
شرعت فیها بالرد منذ أن تسلمت هذا الخطاب . ویبدو أنى أعمل يجد هذا
الفصل الدراسی ، حیث إننى لا أقوم بأى شیء آخر أثناء النهار سوى لعب

(١) كینس المشار إليه هو أبو اللورد كینس ، الاقتصادی المعروف .

الورق مرة واحدة ، وقراءة ثلاثين صفحة من زولا ، وبالطبع تناول الوجبات وإن كانت هذه الأخيرة معتدلة ، ومختلفة كل الاختلاف عن وجبات هيدلبرج .
وليس في الحياة هنا الكثير مما يغرى الإنسان . ولا أعرف إلا عدداً قليلاً من الناس . ثم إن الرغبة في زيارة الجدد رغبة يسهل مقاومتها . وفي الحقيقة ، لقد تقدمت في السن ، وثقلت حركتي ، حتى الروماتزم تمكن مني ، وأصبحت محترماً .
إن بعض أجزاء هذا الخطاب مكتوبة بأسلوب ماري بنت ، الذي أصبح أسلوبى الجديد . إن الفكرة التي تقول إن الحياة ليس بها الكثير مما يسرى عن الإنسان ، برغم أنها فكرة ليست جديدة تماماً ، إلا أنها ، كما يبدو لي ، تعبير جميل .

رأيت مس بيرسل تيميث يوم السبت الماضي في حفلة رينختر الموسيقية . وتناقشنا في المتعة النسبية لدراسة علوم الفضاء والاقتصاد . وكانت في صحة جيدة ، ترتدى معطفاً جميلاً أخضر اللون محلى بالفراء . ولقد قال سانجر إنه سوف يخبرك بما كان يحدث في الجمعية . ولقد كان السبت الماضي يوماً فاشلاً تقريباً ، حيث إنني اكتشفت يوم الجمعية أن البحث الذي كنت قد أعددتَه هراء ، هذا إلى جانب أن الحفلة الموسيقية كانت قد نالت منا ، أنا وسانجر ، بحيث لم تبق في عقولنا فكرة واحدة . وفي كل مرة كان يوجه لي فيها سؤال ، كنت لا أجده جواباً . ونحن نفكر في تربي^(١) الصغير ، غير أن مور الذي يعرفه أحسن مما يعرفه أى إنسان . تخامره الشكوك . وإن الأمل يحدوني في أن تنجب كلية كتنجز من هو على شاكلته - فهو بلا جدال أذكى أفراد أسرته وأكثرهم سحراً .
لقد قمت اليوم بعمل كثير . ولذلك فمن الأفضل لي أن أتوقف ، خاصة وأننى سوف أراك في القريب العاجل ، والحديث أحسن من الكتابة (وخاصة كتابتي التي تبدو مضحكة على هذه الصفحة) .

أخوك
م.ا
ادوارد مارش

(١) جورج تريفيليان ، عميد كلية ترينتي ، صاحب الاستحقاق ، إلخ .

كلية ترينتي

٢٢ من أكتوبر ، ١٨٩٤

عزيزى رسل

يسعدنى أنه سوف يمكنك المجيء . سأقوم بإعداد سكنى . وإنه ليسعدنا كثيراً أن تقرأ علينا بحثاً حيث إننا قد أصبحنا الآن أربعة فقط .

يخيل لى أن «ماجى تليفير أو كليوباترا» موضوع شيق . ولذلك يحسن بك أن تعده ؛ ولا داعى لأن ترسل موضوعات نختار واحداً من بينها . فى الأسبوع الماضى قرأ مارش علينا بحثاً ممتازاً عن «هل نحب الطبيعة ؟» غير أن المناقشة لم تكن . لحسن الحظ . كما ينبغي . إذ أننى ومارش كنا فى منتهى الغباء (حيث إننا كنا قد استمعنا بعد الظهر إلى سيمفونية كورالية) ولم يكن معنا إلا مور وديكنسون . ومناقشة ديكنسون كانت متوسطة ، وكذا مناقشة مور غير أننى لم أفهم ما قال . لا أعرف إذا كنت قد أكدت بشكل كاف ، فى الخطاب الذى أخبرتك فيه بما قاله وارد ، إن أهم نقطة قالها هو أنه يجب عليك أن تختار العمل الذى تحبه (وليس ما تعتقد أنه من الواجب عليك أن تقوم به) وكان من رأيه الذى أصر عليه أنه إذا ضايقتك علم ما بعد الهندسة أى Metagometry فمن الأحسن أن تقوم بشيء آخر . إننا منقسمون فى الرأى بخصوص جورج ترينتي - وهذا معناه أن مارش ودجود فى صفه . وأنا على العموم محايد ، ويعتقد مور أن معظم نقاشنا لا يهمه . الجمعية الروحية (النفسية) استطاعت أن تحضر وسيطاً وهو يقوم بأشياء لا يستطيعون تفسيرها . وماير بطبيعة الحال ، يشعر بالنصر . أما سدجويك فهو يضطر للاعتراف بأنه كان مقتنعاً لوقت قصير ، ولكنه الآن غير مقتنع .

أخوك

تشارلز برسى سانجر

كلية تربيتي ، كامبردج
الأربعاء (١٨٩٤)

عزيزي رسل

سوف أرسل البحث غدًا . إن الجزء الأخير يبدو محيرًا للشخص غير المثقف ، ولكنني سعيد بأنني قرأته مرة ثانية .

لقد عدت لتوى من حفل موسيقى وكنت أجلس بجانب سيدة عجوز تشبه تمامًا فخذ الحروف في قصة « أليس في بلاد العجائب » إذ كانت ملاحظتها هي نفس الملامح ، وكانت تضع على رأسها شريطاً من الورق الوردى ، اتضح بعد تفحصه أنه ريشة ملونة . ولا أظن أنها قد رأت الصورة الواردة في تلك القصة .

كان البحث الذي قرأه ماك في يوم الأحد شيقاً . ولقد لاحظت ما كنزى بعد ذلك أن نظرية هيجل عن العقاب شيء مختلف ، واستمر ماك في بكل بساطة في ابتسامه ولا أعرف من منهما كان مصيباً ، ولكنني لم أر ماك في صامتاً مثلما رأيته هذه المرة . وكان من المضحك جداً أن ترى تروتر يتبعه إلى الغرفة ، يقلده في تواضع . وكان يبدو عليه أنه « مطبق الجفون في قطن أبيض » (هل تذكر شخصية الصديقة في « الناقد » ؟)^(١) .

حدثت لي نادرة مضحكة مع الخادم في الليلة التي رحلت فيها . كنت في حجرة نومي ، فسمعت صوتاً خافتاً يناديني فقلت : « ماذا ؟ » فقالت : في صوتها الباكي : « أليس هذا محزوناً ياسيدي » . فقلت : « ماذا ؟ » (وقد ظننت أن مسز أيلتون رزقت بتوأمين أخيراً) — « بخصوص منضدتك ياسيدي » . — « ماذا حدث ؟ » « ألم يدهشك أن تجد جناح المنضدة مازال مطويّاً ياسيدي ؟ » « طبعاً ! ولماذا هو هكذا ؟ » — « ألم يخبرك السيد ياسيدي ؟ » « أى سيد ؟ ماذا حدث ؟ » .

(١) شخصية في مسرحية شريدان المهمة « الناقد » .

والحكاية أنها كانت قد كسرت جزءاً من الخشب ، في اللحظة التي أحضر فيها تومي بوث غليوناً لي . أليس من الغريب أنها لم تستطع أن تخبرني مباشرة . إني أأمل حينما تموت زوجتي ، أو يحدث أى شيء من هذا القبيل ، أن يكون هناك من يمكن أن يجعل آلامى مضحكة بمثل ذلك الحزن المبالغ فيه . فأنا لا أهتم أبداً بما يحدث في غرفتي . ولا يمكننى مقاومة عطف مسز روبر . لقد ظهر كتاب أوزوالد سيكرت أخيراً ، وأرسل لي نسخة هذا الصباح . والكتاب مهدي لي ، مما يجعلني فخوراً جداً – وقراءته أسهل من قراءة المخطوط . وأعتقد أنه رائع .

سوف نعقد اجتماعاً كبيراً آخر يوم السبت القادم . وسوف يأتي مايور ، وتريفي وثيولسماع محاضرة مور . وأستطيع أن أقول إنني سوف أكتب لك عنها . أظن أن هذا هو كل ما عندي من أخبار في الوقت الحاضر ، كما أن الساعة قاربت الثانية عشرة .

نعمت مساء

ا.هـ. (مارش)

كلية ترينتي ، كامبردج

٢١ من نوفمبر ١٨٩٤

عزيزي رسل

لقد عدت لتوى من حفل موسيقى غريب – ليس لأن له وصفاً خاصاً ، ولكن لأن العازفة الأولى – وهي من ذلك الصنف النحيل من النساء الذي نراه بين العازفات ، والذي يشبه أصحاب الحرف (ولك أن تقول إنها تشبه القروء فهي قردة حقاً) – صدنتني عن تتبع الموسيقى إذ حاولت أن أعرف [كما أعرف البشر ، وإن لم تنجح تماماً . وبالرغم من أن عزفها كان جيداً مما يتفق ونتيجة لتطور قريب إلا أن ذلك منعني من أن أستمع بالموسيقى]. وكانت الشخصية التالية هي شخصية المغنية – وهي في منتصف

العمر ، ويبدو أنها كاريكاتير لما كانت عليه سابقاً . ولقد اعترفت بأمر من الأمور التي لا تسمع إلا في صالة عزف ، بشأن سلوكها حينما كانت في حالة سكر ذات يوم . فقد أخذت أحد الرجال بين ذراعيها — أتذكر ليلة أن ثملنا وتعانقت أذرعنا ؟ وقد قالت كونيير إنها إذا كانت ثملة فهي الآن في ملابس السهرة — وكانت انحناءتها الكبيرة في النهاية تستحق التطلع .

متى كتبت لك آخر مرة ؟ أسمعت عن بحث مور عن الصداقة ؟ ليس هناك ما يستحق الذكر بالنسبة لهذا البحث حيث إنه عبارة عن ذكر لكل مواصفات مثله الأعلى لا أكثر ولا أقل ، دون أى تطبيق عملي . وبالطبع سخر الحاضرون كالعادة بموضوع الجماع ، حينما جاء ذكره . ويخيل للإنسان من الطريقة التي يتحدث بها الناس عن الجماع أنه شيء أشبه بقانون الحكم الذاتي ، الذي يجد اهتماماً ، وفي نفس الوقت يظنه الجميع شيئاً يبعث على الملل . ولقد كانت المناقشة ممتعة . حضر تريفي ، ومايور وثيو . ولقد أعطى مايورثيو الفرصة لأن يقول إنه لم يتوقع له أن يصل إلى قمة الشهرة وهو بعد في منتصف العمر . وقد « افترق » مايور عن الجماعة . وكان مود من بين الحاضرين وقد تكلم هو وثيو كلاماً حسناً^(١) .

ولقد قرأ ماك تي بحثاً قديماً يوم السبت الماضي بعنوان « لماذا تنوى أوراق الورد » يبحث عن أصول الشر . ولم يكن البحث مرضياً تماماً ، فن ناحية ، غير ماك في موقفه منذ أن كتبه . ومن ناحية أخرى كان مما يبعث على الضيق أنه لم يكن هناك أحد سواه على دراية بالجدل — وكان شعورى هو شعور إنسان في محاضرة من محاضرات الخدمة العامة . وسوف يقرأ سانجر بحثاً عن ماهية التعليم يوم السبت القادم . وسوف يكون كرومبتون حاضراً .

(١) ملحوظة : كان مايور وثيودور دافيز معاصرين لبعضهما . ولقد كان مايور أحسن باحث في الدراسات الكلاسيكية هذا العام ، وتلاه ثيودور . و « افترق » معناها تختلف عن حضور اجتماعات الجمعية ، وهو شيء يحدث عادة في العام الخامس أو السادس للعضو . ولقد أصبحت مس شتاول دارة ممتازة للأدب الكلاسيكي .

١٨٣

اليوم جاءت الليدى ترينى لزيارتنا . وإني أحبها كثيراً لمرحها وحيويتها . قابلت شخصية جذابة يوم الأحد . الآتية شتاول ، وقد تفضل ديكسون بدعوتي لمقابلتها . وأعتقد أنها تمتاز بالسمو حقاً — ولها شعور مرهف بالنسبة للجمال فى الفن . وأمل أن أراها ثانية . وكانت أخت مايور من بين المدعوين أيضاً وكانت عادية نسبياً ومستهرة . ومن الطريف أننى أرى فيرول كثيراً هذه الأيام (وأنا أذهب إليه لنكتب سويّاً) وقد سألته منذ أيام عن شيء فى شيللى كان علينا أن نترجمه — فقال : « أنا واثق أننى لا أستطيع أن أخبرك يا عزيزى الصغير ، فأنت تدفع ، وتأخذ ما يحلو لك » . ومثل هذا الشيء يسرنى . إن اليوم يقترب بسرعة الآن ، ألبس كذلك ؟ يالها من فكرة رائعة . لا تنس أن تخبرنى عن جدتك^(١) حينما تكسب لى .

المخلص

ادوارد م (مارش)

أشكرك على الصورة . إنها جيدة على العموم برغم أنك تبدو متعجرفاً .

بمبروك لودج

ريتشموند ، سرى

١٦ من سبتمبر ١٨٩٤

عزيزى برنى

لا أستطيع أن أقول إن خطابك الثانى قد أصابنى بنجبة أمل كبيرة ؛ لأن قولك . فى خطابك الأول : إنك « تنوى » أن تقوم بكذا وكذا قضى على الأمل فى أن تبحث عن حل آخر . وأنا بطبيعة الحال أشعر بأسى كبير كما ستشعر أنت وعمتك ؛ وخطاب عمك يدل على أنها لا تظن أبداً أنك ترمع أن ترحل عن الوطن هذا الشتاء ، غير أن هذا لا يهم^(٢) . ولا بد أن تفعل ما تراه الأفضل ، ويجب على أن أتذكر قول الشاعر :

(١) كان موتها متوقعاً فى ذلك الشتاء .

(٢) إشارة إلى أنه من المحتمل أن تموت خلال فصل الشتاء .

وإذا ما أدبرت أحلامك واحداً بعد الآخر
فلا تكن إلا رابط الجأش

حقاً إن أحلامي في الآونة الأخيرة كانت تمضي غنى في تتابع سريع - ولكني حين أذكر سعادة « دنروزيل » ، والكمال الإنساني الذي لأجائنا ، وحين أفكر في طيبة قلب أولادى وأولادهم ، وفي أصدقائى المخلصين . أشعر أن الحياة مازالت جميلة ، وهو شيء لا يسعنى إلا أن أشكر إلهى عليه . فى آخر أيامى . وبالنسبة لك يا صغيرى العزيز ، فليس لى إلا أن أتشبث بالأمل ، برغم أن العثور على الطريق المؤدى إلى الأمل ليس بالشىء الهين . هل قمت بزيارة الأشخاص الذين أخذت لهم خطابات توصية من البارونة ؟ لقد استفسرت عنك بالأمس . لقد رحل آل واربرتون وعادت لوتى ، عزيزتى الرائعة لوتى . وأنت تعرف ماذا يعنى وجودنا ، هى وأنا ، معاً . يسرنى أنك تترتاح لمستر دودسون وأعتقد أن مستر هاردينج شخصية محبوبة ، وإلا لما دعاه اللورد « دافرين » « صديقاً عزيزاً » لم أتخيل أن يكون اللورد ترنس لطيفاً للغاية - ويبدو لى أن أبناء اللورد دافرين مخيبون للآمال . ولا يمكن للمرء بطبيعة الحال أن يتوقع أن يكون لكل الناس الذين تجمعه بهم الظروف نفس اهتماماته ، غير أنه يجيد صنعاً لو شاركهم اهتماماتهم . وإلى لآمل أنه بمرور الوقت وبمعرفتك لعدد أكثر من الناس تصبح باريس أكثر إمتاعاً لك ، ففيها الكثير مما يدخل البهجة على النفس . وسوف يسرك أن تسمع الكثير عن عمك . اليوم هو يوم الأحد - وهو مقبلة لأنى لا أتسلم فيه خطابات . روللو يقترح أن يحضر هنا فى العشرين من هذا الشهر ، بعد أن ترحل لوتى^(١) . وسوف يحضر معه آرثر وليزا - فيبقيان عشرة أيام - وهذا بالنسبة لى فرح أنتظره بصبر نافذ . وداعاً يا صغيرى العزيز ، وليباركك الله .

الحبة

جدتك

(١) شقيقها ، اليدى تشارلوت بورتل .

١٨٥

خطاباتي هذه لك وحده - وتذكر أنني أريد أن أكون واثقة تماماً من أنك سوف تستفيد من تجربتك الألمانية ، الخاصة بدراستك .

بمبروك لودج

ريتشموند ، سري

٩ من أكتوبر ١٨٩٤

صغيري العزيز برني

يسعدني أن العمل الذي تقوم به في السفارة يتزايد . ولقد تنبأت بذلك ، نسبة للتوتر - وأظن أن هذه هي الكلمة الدبلوماسية - بين إنجلترا وفرنسا ، وأعتقد أنه عمل أكثر تشويقاً من غيره . إلى أمل وأرجو أن يتحسن سلوك الدولتين وفي هذه الحالة سوف يصبح من الممكن المحافظة على السلام والنية الحسنة . ويخيل لي أن حكومتى البلدين يهتمهما ذلك وأنا سعيدة جداً لعودة مستر أوستن لي - وهو رجل يستحق أن يتعرف به الإنسان .

في هذا الوقت - تبعاً لما يقوله آل دستودنل - يعود عدد كبير من أصدقاءهم إلى باريس . وإلى في شوق لأن أسمع عن علاقتك بأهل العلم ، والسياسة ، والموسيقى ، وغيرهم من الشخصيات الجذابة الذين حملت لهم خطابات توصية . يا طفلي العزيز ، لا يجب أن تمنى للوقت أن يمر بسرعة أكثر من السرعة التي يمر بها . فلم يتبق لنا منه إلا القليل لكي نقوم بما يجب علينا أن نقوم به . وأنا أفهم بالطبع ، كما يفهم أي إنسان ، أنك تأسف حتى على هذا الفراق القصير - ولكنك قد لا تعلم أنك لو كنت قد بقيت في إنجلترا تعيش نفس الحياة التي كنت تحياها ، لفقدت تقدير الكثيرين الذين يتمنون لك الخير بأسمى معانيه ، والذين يهتمون بنا ويعرفون أفكارنا ومشاعرنا - إنك في الحقيقة قاسيت كثيراً ، وقد قاست هي أيضاً . ولقد شعرت أن قيامك بعمل في الخارج هو الفرصة الوحيدة التي تمنع زيادة اللوم . إنك إذا تزوجتها قبل أن تكون قد تعلمت أن تعرف إنساناً آخر ، فأنا أتمنى من كل قلبي ألا

يكون لذلك أى تأثير سيئ . ولقد كتبت لى مرة ياطفىلى العزيز ، أنك كنت تعلم
بى باستمرار أثناء الليل وتفكر فى أثناء النهار ، وكنت تتساءل عن الوسيلة التى
تجعلنى أكثر سعادة بك . ولقد فكرت فى بعض الأحيان أن أدون على الورق
ما جعلنى أنا وعمك وعمتك غير سعداء — بالترتيب الزمنى للأحداث — لكى
أساعدك ، حتى الآن ، على أن تزيد من سعادتنا . فهل أفعل ذلك ؟ ليس
هناك شىء أتمناه من كل قلبى أكثر من أن تكون عندى الأسباب التى
تجعلنى أحب الفتاة التى تتزوجها إذا امتد بى العمر ورأيتك متزوجاً . أنا
فى صحة لا بأس بها — إذ لا يبدو تقدم هناك — ولهذا تجدى ما أزال قادرة على
أن أفعل الكثير كالمعتاد ، اللهم إلا التنفس فى الفراش — مما يسبب لى بعض
الضيق ، ولكن ليس هناك ما يسمى ألاماً .

إذا كتبت لعمتك فلا تقل عنى إلا أنى فى صحة جيدة .

الحبة

جدتك

بمبروك لودج

ريشموند ، سرى

٢٣ من أكتوبر ١٨٩٤

عزيزى برنى

أسعدنا خطابك الذى أرسلته إلى تات (١) وإن كنا قد شعرنا بالأسى
لأن أحداً لم يهتم ببطاقتك . لا بد وأن تكون النزهة فى غابات بولونيا على الدراجة
ممتعة جداً . وأعتقد أنك تذهب بمصاحبة الآخرين . لم نخبرنا أن اللورد دافرين
قد وصل . ولا بد أن يكون قد فعل كما تقوله الصحف . من المؤسف حقاً أنك لم
تتمتع بزيارة فرانك ، وأظن أنه ذهب إليك بدافع من طبيعته الخيرة حينما
قلت له إنك تشعر بالوحدة ، ولكننا نفهم قصيدك تماماً . إنى أشعر الآن بتحسّن

(١) العمة أجاتا .

وَأَمَلُ أَنْ يَسْتَمِرَّ التَّحَسُّنُ - مِنْ أَجْلِ أَجَائِثِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ . إِذْ أَنَّهَا
لَيْسَتْ عَلَى مَا يَرَامُ ، وَتَضْطَرُّ إِلَى الْبَقَاءِ فِي فِرَاشِهَا حَتَّى سَاعَةِ مُتَأَخِّرَةِ . وَقَدْ تَرَكْتُنَا
الْعَزِيزَةَ إِيْزَابِلَ (مَسْزُورَ بَرْتُون) بِالْأَمْسِ ؛ وَتَرَكْتُ زِيَارَتَهَا الْمُمْتَعَةَ فِي نَفْسِنَا
أَثَرًا كَبِيرًا بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّي كُنْتُ مَرِيضَةً مُعْظَمَ الْوَقْتِ . وَهِيَ عَطُوفَةٌ جَدًّا .
دَارَتْ بَيْنَنَا مُحَادَثَاتٌ كَثِيرَةٌ جَادَةٌ نَاقَشْنَا فِيهَا مَوْضُوعَاتٍ ذَاتَ أَهْمِيَّةٍ . إِنَّكَ لَمْ تَرُدْ
مُطْلَقًا عَلَى خَطَابِي قَبْلَ الْآخِرِ ، وَكُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّهُ سَوْفَ يَعْجِبُكَ . وَابْنِي لَنْ
أُثِيرَ الْمَوْضُوعَ الْخَاصَّ بِكَ وَبِالْآنَسَةِ ب . س . - فَالْكِتَابَةُ فِيهِ غَيْرُ سَارَةٍ -
إِلَّا لَأَقُولَ : إِنْ رَفَضَهَا مُقَابِلَتِي يَجْعَلُ كُلَّ شَيْءٍ صَعْبًا بِالنِّسْبَةِ لِي فَهَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ
الْأُولَى . خِلَالِ حَيَاتِي الطَّوِيلَةِ ، الَّتِي يَحْدُثُ لِي فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ .
وَلَا أَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا فِي مَصْلَحَتِهَا ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّي ، مِنْ أَجْلِ خَاطِرِهَا ، آخِذٌ
الْأَمْرَ بِمَا فِي اسْتِطَاعَتِي مِنْ هَدْوٍ : لَقَدْ كَانَتْ فِي مَنَهِى الطَّيْبَةِ . وَشُكْرَتِي
عِنْدَمَا قُلْتُ لَهَا عِدَّةَ مَرَّاتٍ ، بِسَبَبِ اهْتِمَامِي بِهَا ، عَنْ الْخَطَأِ الَّذِي أَظَنَّهُ بِدَرَمِهَا .
كَمَا كَانَتْ دَائِمًا لَطِيفَةً فِي زِيَارَاتِهَا الْمُخْتَلِفَةِ لِي بَعْدَ ذَلِكَ ، وَكُنْتُ أَشْعُرُ بِسَعَادَةٍ
مُتَزَايِدَةٍ ، وَأَمَلُ أَنْ نَجِدَهَا أَهْلًا لِلْحُبِّ الَّذِي كُنَّا عَلَى اسْتِعْدَادٍ كَبِيرٍ لِأَنَّ نَهْبَهُ
لَهَا ؛ ثُمَّ حَدَثَ التَّغْيِيرُ الْمَفَاجِئُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ ، وَلَا يَسَعْنِي إِلَّا أَنْ
أَحْزَنَ حِينَ أَعْرِفُ أَنَّ الْفَتَاةَ الَّتِي تَحِبُّهَا تَرْفُضُ أَنْ تَرَانِي ، وَلِذَلِكَ لَنْ يُمْكِنَنِي
أَنْ أَزْدَادَ مَعْرِفَةَ بِهَا ، حَتَّى لَوْ عَشْتُ أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ مُقْدَرٌ لِي . وَمَعَ ذَلِكَ فَلَنْ يَطُولَ
أَلَمِي هُنَا عَلَى الْأَرْضِ ، وَأَنَا الْآنَ أَحَاوِلُ أَلَّا أَفَكِّرَ فِي هَذَا كُلِّهِ . وَهِيَ مِنْ
الْوَاجِبِ عَلَيَّ ، حَيْثُ إِنَّهُ يَبْدُو أَنَّ لِلْمَتَاعِبِ الْعَقْلِيَّةِ بِالذَّاتِ تَأْثِيرًا سَيِّئًا عَلَى هَذَا
النَّوعِ مِنَ الْمَرَضِ الَّذِي أَلَمَ بِي . بَارَكَكَ اللَّهُ يَا وَلَدِي وَإِنِّي أَدْعُو لَكَ مِنْ قَلْبِي .

الحبة دائماً

جدتك

بمبروك لودج

ريتشموند ، سرى

٣٠ من أكتوبر ١٨٩٤

عزيزى برنى

حالة جدتك تزداد سوءاً مرة ثانية — ليالٍ سيئة ، وألم ، وضعف . وهى تلازم الفراش اليوم — كما كانت بالأمس . بطبيعة الحال لا يمكنها أن ترى خطاباتك ، وإن كنت قد أخبرتها بها . ولقد رأت من مدة طويلة خطاب أليس الذى أرسلته لها ، وأظنك تذكر أنها قالت فى خطابها لأليس إنها تمت ذات مرة أن تعبر عن شعورها بالنسبة لما قررت أنت أن تفعله — ولكنها صرفت النظر عن ذلك . أعتقد أنك سوف تمر بنا فى طريقك إلى كامبردج؟ أخبرنى بذلك فى الحال . وأنا متأكدة أن جدتك ممنوعة بأمر الطبيب من أن تتكلم فى موضوعات تثير ألمها ، ولن أتكلم أنا أيضاً . بطبيعة الحال . ولقد قالت كل مألديها من مشاعر ، وما كان من واجبها أن تقوله لاهتمامها بك وبأليس . عزيزى برنى ، لا أستطيع أن أستمع فى الكتابة ، لأنى أشعر باكتئاب شديد وأنا أراها تقاسى . وما يسبب لى ألماً لا يطاق ، أنك تظن أننى كنت قاسية ، وأنه لا عطف عندى . فإذا حدث أن كان لكلماتى هذا الأثر فيجب أن تذكر ، كما سوف تعلم ذات يوم ، أنه لم يكن فى قلبى إلا الحب ، وأنه لم يمنعنى من الصمت المطلق إلا الحب ، لأن التكلم كان بالنسبة لى أكثر إيلاماً مما تفهم الآن .

الحبة

عنك

بمبروك لودج

ريتشموندي ؟ سرى

١٩ من نوفمبر ١٨٩٤

عزيزتى أليس

لقد ذكرنا روللو أن الرابع عشر من ديسمبر كان يوم وفاة الأمير ألبرت ،
والأميرة أليس ، وتبعاً لموقفنا من الملكة ، فإننا نشعر جميعاً بأننا لانحب أن يكون
الزفاف في ذلك اليوم . وأنا واثقة من أن هذا التنويه لن يضايقك . ما رأيك
في الخامس عشر من ديسمبر ؟ إننا لم نفهم جيداً سبب الاعتراض على هذا
اليوم . أرجو أن تكوني أنت و برتى قد تمتعتما بزيارتكما لشارع دوفر .
المخلصه

أجاثا رسل

بمبروك لودج

ريتشموندي ، سرى

١٠ من ديسمبر ، ١٨٩٤

ولدى العزيز

حيث إن صوتي يخونني كلما حاولت أن أتكلم عما سوف يحدث ، برغم أنه ،
بالنسبة لك ، حدث مليء بالسعادة ، فمن الطبيعى أن أكتب لك كلمات وداع
قليلة . وعلى وجه الخصوص في ذكرى يوم من أسعد وأحب أيام السنة^(١) —
وهو الآن يوم حزين بقدر ما هو مقدس بالنسبة لى . لأن الذكريات التى
يأتيني بها عن العزيز ، الرقيق ، النبيل ، جوفى الحب ، الذى لم تمتحنه الأيام ،
تجعلنى بطبيعة الحال أتجه بأفكارى إليك أنت الذى كنا دائماً نشعر أنه مازال
لدينا أثر منه في شخصك — وذكرياتى عنه هى ذكريات من الفرح الذى
لا يمكن التعبير عنه ، والمختلط بالأسى والعذاب الذى لا يمكن احتماله ، وحتى

(١) عيد ميلاد والد رسل .

الآن وبعد أن مضى إلى حيث لا يوجد أسمى .

فحينما طلب منى هو ووالدتك ، وهما في أوج الصبا والصحة ، أن أعنى بك كولدى ، إذا ما وافاهما الأجل ، لم يكن ليخطر ببالي أن الأيام سوف تلزمنى بالوفاء بالوعد الذى قطعته لهما . غير أن اليوم حان بعد قليل . وأصبح بيتك خاوياً . وجئت إلينا فى بيتنا المظلم عوضاً عنه وكنت بريئاً غير واع بشئ . ولقد كنت لنا نحن الثلاثة كفلة كبدنا . وارتبطت حياتك بحياتنا . بل إن مصلحتك هى التى شكلت ونظمت حياتنا . وصرت . وأنت تنمو قلباً وعقلاً ، رفيقنا كما أنت ولدنا . وإنى لأذكر ، بامتنان عميق ، كيف أنك كنت طوال فترة طفولتك وصباك ، تضحى برغباتك ، عن طيب خاطر . أمام رغبات الآخرين ، ولم تكن لتحاول أبداً أن تختلق الأعذار إذا أخطأت ، وكنت تتلقى اللوم أو التأنيب بنفس الامتنان الذى كنت تتلقى به الشناء . لقد وثقنا فيك ، وكنت أهلاً لهذه الثقة ، وعمت السعادة والحنان .

وجاءت الرجولة ، وجلبت معها من الأسباب الجديدة ما جعلنا نمتدحك لحياتك الجامعية النبيلة الكريمة . غير أن الرجولة تجلب أيضاً الفراق والتغيير . وأنت تتركنا الآن لحياة جديدة وبيت جديد . ولروابط وعواطف جديدة . غير أن سعادتك وصالحك ما يزالان هما سعادتنا وصالحنا ، ولسوف يبقى إلحنا إلهك . وإنى لأدعوبأن تأخذ معك ما كان حسناً فقط ، وأن يغفر الله لك ما كان سيئاً ، فى ما ضحك الذى لن يعود . وأدعوبأن يوحى لك سبحانه وتعالى بالأفكار المقدسة ، والمقاصد النبيلة . وأرجو أن تذكر أن القلوب الأثيرة عنده هى فقط القلوب المتواضعة التى يملأها الحب . وأرجو أن يكون هكذا قلبك دائماً ، وقلب تلك التى سوف ترافقك فى رحلة الحياة .

بارككما الله ، ووهبكما النور ، حتى تجدوا وتسلكا الطريق الذى يؤدى إلى دار النعيم .

ودمت يا ولدى العزيز
المحبة جداً
جدتك

١٩١

أما الخطاب التالى ، فقد كان آخر عهد لى بإدوارد فيتز جيرالد . ولقد
اشتهر كمتسلق جبال فى نيوزيلاند ، والأنديز ، بعد أن جعل ذلك مهرية من
اليأس الذى لازمه إثر وفاة زوجته بعد شهر قليلة من الزواج . ولقد هرب
بعد ذلك مع سيدة متزوجة ولم يبدل أى محاولة للاتصال بأصدقائه القدامى .

كولوبو ، سيلان

١٨ من نوفمبر ، ١٨٩٤

عزى زى رسل

أرسل لى كلمة من وقت إلى آخر ، كى نخبرنى عن أحوالك . وعن موعد
زواجك .

توقفت هنا ، لفترة قصيرة كى أرى المكان . ولقد زرت منذ أيام آنوراد
هابورا وفوكارايا نكولام (لا تحاول أن تنطق بهذا الاسم ، لى أجده أرواً من
الثعابين) حيث تمتعت بصيد الحيوانات . ولقد كانت البلدة ، بالرغم من ذلك
غارقة بالماء ، ومليئة بالحصى ، ولكنى لم أشعر بذلك بالرغم من أننى نمت فى
العراء لىالى كثيرة ، وفى الضباب ، وابتلت ملابسى تماماً . وأنا هنا أئشد
النشور ، ولن أعود إلى إنجلترا قبل ثلاث سنوات على الأقل . وفى نيتى أن
أزور اليابان ، وأن أمتلجأ الجبال فى أمريكا الجنوبية قبل أن أعود .

أرسل لى كلمة حينما تجد فى نفسك الرغبة فى الكتابة ، حتى أكون على
علم بمتقلاتك . ولسوف أكتب لك من حين إلى آخر ، حينما أشعر بالرغبة
فى الكتابة ، وهو كما سوف تقول ، شىء نادر . أظنك رأيت سكن أوستن
الجديد فى طريق هوتشا ؟

سوف أنهى الآن هذا الخطاب

المخلص دائماً

ادوارد ا. فيتزجيرالد

الفصل الخامس

الزواج الأول

تزوجت من أليس في ١٣ من ديسمبر ١٨٩٤ وكان أهلها من الكويكرز (مذهب المرتعشين وهو أحد المذاهب البروتستانتية يلغى القساوسة تماماً ويميز لأي رجل تحمل عليه الروح أن يقوم بالوعظ. وهم يحرمون الحرب وأى نوع من أنواع العنف كما يحرمون الخمر والتدخين وكثيراً ما يبكون أثناء الصلاة). وقد أقام أهلها أكثر من مائتي سنة في فيلادلفيا. وكانت أليس يومئذ لا تزال عضواً عاملاً في «جماعة الكويكرز»^(١) ولذا فقد تم زواجنا في اجتماع الكويكرز في سانت مارتنز لين بلندن. وبخيل إلى أنى أذكر أن واحداً من الكويكرز الحاضرين قد ألهمته الروح القدس أن يلقي موعظة عن معجزة قانا الجليل (وهي المعجزة التي حول فيها المسيح عليه السلام الماء إلى خمر)، مما آذى أليس في شعورها لأنها كانت من أنصار منع المسكرات. وفي أثناء خطوبتنا كنا نتجادل كثيراً حول المسيحية ولكنى لم أنجح في تغيير معتقداتها إلا بعد شهر من زواجنا. وكانت هناك موضوعات أخرى تغير رأيها فيها بعد الزواج. فقد نشأت، شأن كل الأمريكيات في ذلك الزمان، على اعتبار الجنس مسألة بهيمية يجب أن تتركها جميع النساء، وأن شهوة الرجال هي العقبة الرئيسية في سبيل السعادة الزوجية. ولذلك كانت ترى أن المعاشرة يجب ألا تتم إلا إذا كانت بقصد إنجاب الأطفال، ولما كنا قد اتفقنا على ألا ننجب أطفالاً فقد اضطرت لتغيير رأيها في هذا الصدد، ولكنها مع ذلك كانت ترى ألا نتعاشر إلا نادراً ولم أعارضها، إذ لم أر حاجة لذلك.

(١) تسمى أيضاً (جمعية الأصفياء).

لا هي ولا أنا كانت له أية خبرة سابقة عن العلاقة الجنسية بين الزوجين .
 ووجدنا شأن أمثالنا فيما يبدو ، شيئاً من الصعوبة في بداية الأمر . لقد سمعت
 الكثيرين يقولون إن هذه الصعوبة كانت سبباً في تعكير صفو شهر العسل ،
 ولكن هذا لم يحدث في حالتنا . بل بدت لنا المصاعب التي قابلناها في هذا
 الصدد مثيرة للضحكة وسرعان ما تغلبنا عليها . ولكني أذكر ، مع ذلك ، يوماً
 بعد الأسابيع الثلاثة الأولى من زواجنا ، كنت فيه منهكاً بعد العملية الجنسية ،
 فجعلني هذا أكره زوجتي وأتعجب لم رغبت في الزواج منها . وهذه الحالة
 النفسية لم تدم إلا بمقدار المسافة ما بين أمستردام وبرلين . وعدت بعدها إلى
 حالي الأولى فلم أتعرض لمثلها ولم تتكرر معي بعد ذلك .

كان قد استقر رأينا في أثناء السنين الأولى من حياتنا الزوجية على أن نعمل
 على زيارة بلاد أجنبية عديدة ، ولذلك قضينا الأشهر الثلاثة الأولى من عام
 ١٨٩٥ في برلين حيث ذهبت إلى الجامعة ودرست علم الاقتصاد أساساً وعكفت
 هناك على إتمام الرسالة العلمية التي تؤهلني للحصول على زمالة بكلية تريتني
 بجامعة كامبردج . وكنا نذهب لسماع الموسيقى ثلاث مرات في الأسبوع وبدأنا
 نتعرف على الديمقراطيين الاشتراكيين في ألمانيا الذين كانوا يعتبرون يومئذ
 من المنحليين أخلاقياً . وكانت الليدي أرمنترود ، التي زوجة السفير من أبناء
 عمومتى ولذا دعيت أنا وزوجتي للعشاء في السفارة ، وكان كل رجال السفارة
 يعاملوننا بأدب ومودة وبخاصة الملحقون الذين وعدوا جميعاً بزيارتنا ولكنهم لم
 يبروا بوعدهم . وظللنا لا نرتاب في شيء لمدة طويلة ، ولكننا تنهنا في النهاية
 إلى أن السبب في سلوكهم هذا هو أن أليس ذكرت للسفير أننا ذهبنا لأحد
 اجتماعات الاشتراكيين ، وكان تنهنا بعد خطاب من الليدي أرمنترود لجلستي
 لأحي . وعلى الرغم من أن جدتي كانت متحيزة ضد أليس إلا أنها في هذه المسألة
 أخذت جانبها تماماً إذ كانت القضية قضية عامة وفي جميع القضايا السياسية
 العامة كانت جدتي وعمتي أجاثا من أولئك الذين يعتمد عليهم في الانتصار
 للجانب الليبرالي المتحرر .

بدأت تطلعاني الفكرية تتضح في ذهني . فقد آليت على نفسي ألا ألتحق بمهنة معينة وأن أكرس نفسي للكتابة . أذكر أنني ذات يوم صحو بارد في بواكير الربيع ، تمشيت وحدي في التيرجارتن (حديقة الحيوان) وأخذت أضع مشروعات للمستقبل وقررت أن أكتب سلسلة من الكتب عن فلسفة العلوم ابتداء من الرياضة البحتة إلى الفسيولوجيا أو علم وظائف الأعضاء ، وسلسلة أخرى من الكتب عن القضايا الاجتماعية . وكنت أمل أن تلتقي السلسلتان معاً في مركب جديد ، علمي وعلمي في نفس الوقت . وكانت أفكار هيجل هي التي أوحى لي حد بعيد بهذا المشروع . وقد انقادت لها بالفعل إلى حد ما في السنوات التالية . وهذا ما كان متوقفاً فإن تلك اللحظة كانت هي اللحظة الهامة التي شكلت تفكيري فيما يتعلق بأهدافي في الحياة .

وعندما حل الربيع ذهبنا إلى فيسولي حيث استضافتنا أخت أليس وكانت تسكن في فيلا صغيرة بينما كان يسكن بيرنسون^(١) في فيلا صغيرة مجاورة ، ثم تركناها وتابعنا السفر على الساحل الأدرياتي مارين بيسارو وأربينو ورافينا ورميني وأنكوانا وأماكن أخرى كثيرة . وتعتبر ذكرى تلك الأيام من أسعد ما مر بي في حياتي . ويكفي أن تتمثل ذكرى إيطاليا والربيع والحب الأول في ذهن أي إنسان مهما كانت همومه لكي يستشعر السعادة . وكان من عادتي أنا وأليس أن نستحم في البحر عريانين ثم نستلقي على الرمال حتى نجف أجسامنا ولكن هذا النوع من الرياضة كان مخفوفاً بالمخاطر ، فإن رجل الشرطة إن عاجلاً أو آجلاً لابد أن يحضر ليتأكد من أنه ليس هناك من يستخرج الملح من البحر . فقد كان في ذلك مخالفة لقانون ينص على ضرورة دفع ضريبة على الملح المستخرج . ولكن لحسن حظنا أفلتنا من قبضة الشرطة .

وفي ذلك الوقت كان يتعين عليّ أن أفكر تفكيراً جدياً في الرسالة الجامعية التي تؤهلني للامالة ، وكان يجب أن أنتهي منها في أغسطس ، ولذلك أقمت أنا وزوجتي في فريهرست وعكفت عليها وكانت أول تجربة لي في عمل جدي فيه ابتكار . وكانت أيامي إذ ذاك تتراوح بين اليأس أحياناً والأمل أحياناً أخرى

(١) بيرنسون ناقد في معاصر .

ولكن ما أن انتهت الرسالة حتى أصبحت أعتقد اعتقاداً جازماً أنني نجحت في حل جميع القضايا الفلسفية المتعلقة بأصول علم الهندسة . ولم يكن يخطر لي ببال إذ ذاك أن فترات الأمل واليأس التي تصاحب العمل الابتكاري متساوية في كونها تخدع الإنسان ، وأن ما يبدو من العمل سيئاً في أيام اليأس ليس بهذا السوء ، ولا ما يبدو من العمل جيداً في أيام الأمل بهذه الجودة . وقد قرأت رسالتي العلمية هوايتهد وجيمس وارد فقد كانت الرسالة لها صلة بالرياضة من ناحية وبالفلسفة من ناحية أخرى . وقبل أن تعلن النتيجة رسمياً أخذ هوايتهد ينتقدها بشدة ، وكان على حق . وانتهيت أنا إلى أن الرسالة لا قيمة لها وأنه لا داعي للانتظار لإعلان النتيجة . ومع ذلك رأيت من واجبات اللياقة والأدب أن أذهب لزيارة جيمس وارد الذي قال لي عكس ما أرى تماماً وامتدح الرسالة ورفعها إلى عنان السماء . وفي اليوم التالي علمت أنهم انتخبوني زميلاً في الجامعة وأخبرني هوايتهد بابتسامته منه أن هذه هي آخر مرة يجد فيها إنسان ما مثالب خطيرة في عمل من أعماله .

إن فترة زواجي الأول تمثل فترة من السعادة الغامرة والعمل المثمر في حياتي . فبعد أن تخلصت من المشاكل العاطفية انصرفت جهودي كلها إلى العمل العقلي . وفي أثناء السنة الأولى من زواجي قرأت قراءة مستفيضة في الرياضيات والفلسفة على السواء وحققت قدراً كبيراً من الأصالة والابتكار . ووضعت الأساس لعملي في المستقبل . كما أنني شاهدت بلاداً أجنبية . وفي فراغي قرأت قراءات جديدة وخاصة في علم التاريخ . وقد اعتدنا أنا وزوجتي أن نتناوب القراءة . وبهذه الطريقة قطعنا شوطاً كبيراً في قراءة كتب التاريخ المعتمدة التي كانت تشمل أسفاراً عديدة . وأظن أن آخر كتاب قرأناه على هذا النحو كان كتاب تاريخ مدينة روما لمؤلفه جريجور فيوس . لقد كانت تلك الفترة أخصب فترات حياتي والفضل في ذلك يرجع إلى زوجتي الأولى التي أشعر نحوها بالامتنان . وكانت زوجتي في بداية الأمر عازفة عن فكرة المعيشة في هدوء في الريف ولكنني كنت مصمماً على ذلك لصالح العمل الذي كنت أقوم به . وقد أمدتني هي كما أمدني العمل بقدر من السعادة لم أكن بعده في حاجة إلى المزيد ،

على أن الذى حدث فى واقع الأمر أن إقامتنا الفعلية فى الريف لم تمتد إلا لنصف سنة فقط بصورة منتظمة . وحتى فى خلال تلك المدة كانت كثيراً ما تخرج لإلقاء الخطب دفاعاً عن قضية إعطاء المرأة حق التصويت أو لدعوة الناس للكف بتأتاً عن شرب المسكرات . وقد تخلت أنا عن شرب المسكرات لكى أرضيها ثم ثبت على ذلك بحكم العادة حتى بعد أن زال الدافع الأصلي الذى حركنى فى البداية لاتخاذ هذا الموقف ولم أعد للشراب إلا بعد أن امتنع الملك عن الشراب فى الحرب العالمية الأولى ، وكان غرضه تسهيل عملية قتل الألمان ، ومن ثم كان يبدو كما لو كانت هناك صلة بين الدعوة لسلام والمشروبات الروحية.

فى خريف عام ١٨٩٥ وبعد اختياري زميلاً فى الجامعة ذهبت أنا وزوجتى إلى برلين مرة أخرى لكى نقوم بدراسة الديمقراطية الاشتراكية الألمانية . وفى تلك الزيارة كانت كل اتصالاتنا تقريباً بالاشتراكيين فتعرفنا إلى بيبيل و الأخ الأكبر للينخت الكبير . أما لينخت الصغير الذى قتل بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة فقد كان فى ذلك الوقت مجرد صبي . ولا بد أننا قابلناه عندما كنا نتعشى فى منزل والده ولو أنى لا أذكر عنه شيئاً محدداً . وقد كان الديمقراطيون الاشتراكيون فى تلك الأيام ثورين من النوع المتهب ، وكنت أصغر سنّاً من أن أفكر فى حالهم عندما تتول إليهم السلطة . على كل حال لقد ألقيت عليهم ، فى بداية عام ١٨٩٦ ، سلسلة من المحاضرات فى كلية الاقتصاد بجامعة لندن ، وكانت فى ذلك الوقت فى شارع جون بادلى . وكنت فيما أذكر أول محاضر يقابلونه . وهناك تعرفت على و . ا . س . هيونز الذى أثر فى تأثيراً بالغاً منذ ذلك الوقت حتى عام ١٩٠١ . وكان ينتمى لعائلة كاثوليكية فأحل الإمبراطورية البريطانية محل الكنيسة فى التوقير والتبجيل ٥

وكنت فى تلك الأيام أيضاً أشد حساسية مما صرت إليه فيما بعد . وعندما كنت أحاضر فى كلية الاقتصاد ، كنت أسكن أنا وزوجتى فى شقة رقم ٩٠ بأشلى جاردنز ، ولكنى لم أكن أستطيع العمل فى الشقة لأن صوت المصعد الكهر بائى كان يزعجنى ولذلك كنت أمشى كل يوم إلى منزل والديها فى جروفنر رود

حيث كنت أفضى الوقت في قراءة نجورج كانتور ونقل خلاصة كلامه في كراسة . وكنت أعتقد في ذلك الوقت ، ولست على صواب في هذا ، أن حججه كلها واهية ، ولكني مع ذلك أتيت عليها بكل تفاصيلها الدقيقة . ونفغني هذا فيما بعد عندما اكتشفت أن حججى وليست حججه هي التي كانت واهية .

وعندما أقبل الربيع استأجرنا كوخاً صغيراً من أكواخ العمال في فرنهرست اسمه « دى ميلهناجر » أضفنا إليه نحن غرفة استقبال حجمها لا بأس به وغرفتي نوم . وفي ذلك الكوخ قضيت كثيراً من أسعد أوقات حياتي ووقفت على معارف كثيرة كانت تهمني ، ونال عملي الابتكاري من ثناء الثقات المختصين أكثر مما كنت أتوقع . وعندما كنت أحضر للدرجتي العلمية الأولى في الجامعة لم أكن أعتقد أن قدراتي من الكفاءة بالدرجة التي اتضحت بها فيما بعد . وأذكر أنني كنت أتساءل هل يقدر لعملي أن يصل في الجودة إلى عمل ماكتاجارت ، فقد كان هذا يبدو لي مثلاً أعلى لا يمكن الوصول إليه تقريباً . وفي أثناء السنين الأولى من زواجي الأول ، أصبح هوايتي بالتدريج صديقاً لي بعد أن كان مدرساً لي . ففي عام ١٨٩٠ ، وأنا في السنة الأولى بجامعة كامبردج حضرت محاضراته في علم الإحصاء . وكان يطلب من تلاميذه أن يذاكروا القانون رقم ٣٥ في الكتاب المقرر ثم استدار نحوي وقال : « لا حاجة بك إلى استذكاره لأنك تعرفه بالفعل » وكنت قد كتبت رقمه في ورقة الإجابة في امتحان مسابقة الدخول قبل ذلك بعشرة أشهر . واستحوذ على مودتي بتذكره لتلك الواقعة .

وكان هوايتي لا ينظر إليه في إنجلترا إلا على أنه عالم في الرياضيات ولكن أمريكا هي التي اكتشفت فيه الجانب الفلسفي . وقد اختلفت معه في الفلسفة حتى أصبح التعاون بيننا مستحيلاً وبعد أن رحل إلى أمريكا لم أعد بالطبع أراه . وأخذنا نتباعد في الرأي تباعداً كبيراً أثناء الحرب العالمية الأولى عندما أعلن عدم رضاه عن موقفى لتسكى بدعوة السلام . وكان في خلافه معي حول هذا الموضوع أكثر تسامحاً مني . وإن مسئوليتي لتتجاوز مسئوليتي في أن هذه الخلافات التي نشبت بيننا قد أدت إلى توهين عرى الصداقة التي توثقت بيننا وقتئذ .

وفى الشهور الأخيرة من الحرب قتل ابنه الأصغر ولم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة فكان ذلك مثاراً لحزنه الشديد بحيث لم يتمكن إلا بشق النفس وبعد كثير من الصبر والتحمل من استئناف عمله . وقد كان لحرقة الأسى الذى استشعره بسبب فقدته لابنه أكبر الأثر فى اتجاهه إلى الفلسفة وبحته اللدائب عن مهرب من الاعتقاد بأن عالمنا ليس إلا عالماً ميكانيكياً صرفاً . وكانت فلسفته عسيرة على الفهم جداً كما كان فيها الكثير مما لم أتوصل إلى فهمه قط . وكان يميل دائماً إلى فلسفة كانط ^(١) ولم أكن أحسن الظن بكانط . وعندما بدأ فى تكوين فلسفته كان واقعاً تحت تأثير الفيلسوف الفرنسى برجسون ^(٢) إلى درجة كبيرة كما كان مأخوذاً بالوحدة التى تجمع كثيراً من الظواهر فى العالم والتى بسببها وبسببها فقط ، يمكن أن يكون للاستقراء العلمى معنى . وكان مزاجى الخاص يشدنى فى اتجاه معارض لاتجاهه . وأخشى أن أقول إن العقل وحده لا يمكن أن يدلنا أينما أقرب إلى الصواب . فأولئك الذين يفضلون مذهبه يقولون إنه يجلب لعامة الناس راحة البال فى حين أنى أنغصص على الفلاسفة حياتهم ، وقد يرد المتشيع لى بأن مذهب هوايتهد هو الذى يروق للفلاسفة فى حين أن مذهبي يروق لعامة الناس ، ومهما يكن من أمر ، فقد اتخذ هوايتهد سبيلاً مغايراً لسبيلي وإن كان الود قد بقى متصلاً بيننا إلى النهاية .

كان هوايتهد رجلاً متشعب الاهتمامات بشكل غير عادى وكانت معرفته الوثيقة بالتاريخ تثير إعجابى ودهشتى . وقد اكتشفت ذات مرة بمحض الصدفة أنه كان يقرأ فى فراشه كتاب باولو سارتى « تاريخ مجمع ترنت » وهو كتاب جاد جداً ويجرى على غير المألوف . ومهما يكن الموضوع التاريخى الذى تثار حوله المناقشة فقد كان دائماً يدلى بحقيقة عنه تثير بعض جوانبه ، كالربط مثلاً بين آراء برك السياسية ومصالحه فى مدينة لندن أو العلاقة بين

(١) الفيلسوف الألمانى الكبير الذى قال إن جوهر الأشياء لا يمكن للإنسان معرفته وإن الإنسان يعرف قوانين العلم بالعقل النظرى ويعرف الخير أو كل ما لا يخضع للإثبات بالعقل العملى .

(٢) الفيلسوف الفرنسى صاحب نظرية الدافع الحيوى فى الكون .

هرطقة مذهب هوس (القائمة على عبادة الشيطان في العصور الوسطى) وبين مناجم الفضة في بوهيميا . وكان على جانب كبير من الفكاهة الحلوة كما كان في غاية الرقة واللفظ . وعندما كنت معه طالباً في الجامعة ، كان يكنى بالملك لطبيعة وضعه ، وإن كان الذين عرفوه فيما بعد يرون في هذا مجافاة لما يحق له من التبجيل والتوقير . ولكن هذه الكنية كانت تناسبه في ذلك الوقت . وقد كان أهله من مقاطعة كنت ومن رجال الدين منذ نزول القديس أوغسطينوس بأرض إنجلترا . وكان يحكى لى بشيء من التفكه كيف أن جدى لأبى قد ذعر لانتشار الديانة الكاثوليكية في إنجلترا فحث أخت هوايتهد على ألا تتخلى قط عن كنيسة إنجلترا . والذي كان يدعو للتفكه أن احتمال تحولها عن كنيسة إنجلترا كان في نظره بعيداً جداً . إن آراء هوايتهد اللاهوتية لم تكن شديدة التزم ولكن شيئاً من هيئة القس كان يظهر في الطريقة التي يعبر بها عن مشاعره وفي كتاباته الفلسفية المتأخرة . كما كان رجلاً شديد التواضع ، وكان أعظم ما يفخر به أنه هو المستول عن الصفات المعيبة فيه ولم يكن يضبره أن يسرد حكايات عن نفسه تسمى إليه . أذكر أنه كانت هناك سيدتان في كامبردج تبين أنهما أختان ، وكانت تصرفاتهما تدل على أنهما قادمتان من كراوفورد ، كما كانت آراؤهما في الحقيقة تقدمية بل كانت جريئة ، ولذلك كانا في طبيعة كل حركة ترى للإصلاح . وقد درج هوايتهد على أن يقص على سامعيه في شيء من الأسى كيف أنه حين رآهما للمرة الأولى خدع بمظهرهما الخارجى فشاقه أن يصدمهما قليلاً . ولكنه عندما تقدم لهما برأى فيه شيء خفيف من الجرأة كان ردهما : « أوه يامستر هوايتهد كم سررنا أننا سمعنا منك أنت بالذات هذا الكلام » وكانا يقصدان أنهما كانا يعتبرانه من أساطين الرجعية .

كانت قدرة هوايتهد على التركيز في العمل قدرة خارقة تماماً . ففي يوم من أيام الصيف الحارة ، عندما كنت مقيماً معه في قرية جراتشستر المجاورة لكامبردج ، جاء صديقنا كرومبتون ديفز فاصطحبته ليسلم على مضيفه . وكان هوايتهد جالساً يكتب شيئاً في الرياضيات ووقف أنا وديفز أمامه على

مسافة لا تزيد على ياردة وشاهدناه وهو يملأ الصفحات صفحة وراء صفحة بالرموز الرياضية . ولكنه لم يحس بوجودنا قط ، وبعد برهة انصرفنا وقد تولانا شعور بالرهبة البالغة .

وقد درج الذين يعرفون هوايتهم معرفة وثيقة على أن يلحظوا فيه أشياء لم تكن تبدونهم كانت علاقاتهم به سطحية عارضة نسبياً ، على أنه لم يكن في الحقيقة من النوع الذي لا يهتز ولا يتأثر ، ولم يكن على التحقيق ذلك الوحش الآدمي المجرد عن إنسانيته الذي يطلق عليه اسم « رجل الفكر الخالص » فقد كان تعلقه بزوجه وأولاده تعلقاً قوياً فيه حرارة . وكان دائماً على وعى عميق بأهمية الدين ، بل كان في شبابه الباكر على وشك التحول إلى الديانة الكاثوليكية الرومانية تحت تأثير الكاردينال نيومان . وقد أعطته فلسفته الأخيرة شيئاً مما كان يريده من الدين ، وكان كغيره ممن يلتزمون بنظام صارم في حياتهم معرضاً لنوبات من الحزن التي تؤرقه في وحدته ، فكان إذا خلا إلى نفسه يهمس بعبارات مهيبة إلى شخصه جزاء على نواحي القصور التي كان يستنكرها . وكانت السنن الأولى من زواجه تظللها سحابة من القلق لافتقاره إلى المال . وعلى الرغم من أنه كان يضيق بحاله إلا أن ذلك لم يشغله عن عمله الذي كان يراه هاماً وإن لم يحجر عليه مغنماً .

وكانت لديه قدرات عملية لم تجد مجالاً للظهور في الوقت الذي كانت علاقتنا على أحسن ما تكون كما كانت لديه قدرة على الإدراك السليم تدعو للعجب ؛ فقد مكنته من أن يشق طريقه بسهولة وهو في اللجان إلى درجة أدهشت أولئك الذين كانوا يرونه رجلاً يعيش في المطلقات ولا علاقة له بهذه الدنيا . وكان في وسعه أن يكون إدارياً قديراً لولا عيب واحد فيه هو عجزه التام عن كتابة ردود على الخطابات التي تصله ، كتبت إليه مرة أسأله عن مسألة في الرياضيات كنت في أشد الحاجة إلى حل لها في مقالة أعارض بها الفيلسوف الرياضي الفرنسي بوانكاريه . ولم يرد فكتبت إليه مرة أخرى ولم يرد أيضاً ، فاضطرت لإرسال برقية فلما ظل على صمته أرسلت برقية

٢٠١

أخرى لكى يرسل برقية فيها الرد على نفقتى ، وفى النهاية اضطرت للسفر إلى برودستيرز لكى أحصل على ضالتي المنشودة . وسرعان ما عرف أصدقاؤه تلك الخاصية فيه ، وفى المناسبات النادرة التى كان أحدهم يتلقى فيها خطاباً منه كانوا يجتمعون عنده ليهنئوه . وكان هوايتهم يبرر تصرفه بأنه لو ردّ على كل الخطابات التى تصله فلن يجد وقتاً للعمل الأصيل وأعتقد أن هذا التبرير من جانبه واف .

وكان هوايتهم معلماً من طراز نادر . فكان يهتم اهتماماً شخصياً بمن يعلمهم ويعرف نقط القوة والضعف فيهم ويستخرج منهم خير ما عندهم فلم يكن أبداً يضغط عليهم أو يهزأ منهم أو يتعالى عليهم أو يرتكب أى تقصية تحلو لغيره من المعلمين وأعتقد أنه كان يولد فى نفوس الشبان المتفوقين الذين كان يتصل بهم حباً حقيقياً باقى الأثر .

وكثيراً ما كان هوايتهم وزوجته يقيمان معنا فى الريف كما كنا نقيم معهما فى كامبردج . وفى مرة أقمنا مع العميد مونتاجيو بتلر ونمنا على فراش الملكة آن ، ولكن هذه التجربة لم تتكرر لحسن الحظ .

كانت محاضراتى عن الاشتراكية الألمانية قد نشرت فى عام ١٨٩٦ وكان أول كتاب لى ولكنى لم أهتم به كثيراً لأنى كنت قد صممت على أن أكرس نفسى للفلسفة الرياضية . وعاودت كتابة الرسالة التى تقدمت بها للجامعة ودفعت بها إلى مطبعة جامعة كامبردج فقبلتها للنشر ونشرتها بالفعل فى عام ١٨٩٧ تحت عنوان (مقالة فى أسس الهندسة) وأصبحت فيما بعد أرى تأثير كانط فى ذلك الكتاب فوق ما كان يجب أن يكون ، ولكن كان من حسن الحظ بالنسبة لسمعتى أن أول كتاب لى فى الفلسفة لم يؤلب على رأى العام فى ذلك الوقت . فقد جرت العادة فى الدوائر العلمية إذ ذاك على أن يصموا معارضى كانط جميعاً بأنهم لم يفهموه وكان من المزايا أن أوافقهم ولو مرة واحدة لأتخلص من هذه الوصمة . ولقى كتابى ثناء عاطراً ، أكثر بكثير مما يستحقه . ومنذ ذلك الوقت درج الأكاديميون الذين استعرضوا كتبى على أن يقولوا إن كل كتاب صدر لى إنما يمثل هبوطاً عن سابقه .

وفي خريف عام ١٨٩٦ ذهبت أنا وأليس إلى أمريكا لقضاء ثلاثة أشهر وخاصة لأتعرّف على أقاربها وكان أول ما فعلناه أن زرنا بيت الشاعر الكبير والت هوبمان^(١) بولاية نيويورك. ومن هناك ذهبنا إلى مدينة صناعية صغيرة اسمها ملفيل حيث كان يقيم أحد أبناء عمومتها واسمه بوند توماس. وكان مديراً لأحد مصانع الزجاج التي تملكها العائلة. وزوجته وهي إيديث من أعز صديقات أليس. وتعداد السكان في مدينة كامون ١٠.٠٠٢ نسمة ولذلك شاع أن الاثنين الزائدين عن العشرة آلاف هما بوند وزوجته. وكان إنساناً بسيطاً أما زوجته فكانت لها أطماع أدبية وكانت تكتب مسرحيات رديئة على نمط الكاتب الفرنسي سكريب. وكانت تتصور أنها لو خرجت من ملفيل واتصلت بالشخصيات الأدبية الكبيرة في أوروبا فإنها ستصبح معروفة في الوسط الأدبي ويعترف لها بالموهبة. وكان زوجها شديد التعلق بها، ولكن كان يطيب لها أن تغازل من الرجال من تعتقد أنهم من طينة أحسن. وكانت المنطقة المحيطة بمنزلها في تلك الأيام أرض غابات خالية من الزرع. فكانت تستقل معى عربة تجرها الخيول وتقطع في مسافات طويلة على ممرات من الطين. كما كانت تحمل معها دائماً مسدساً وتقول: (من يدرى؟ لعلّي أحتاج إليه).^(٢) وقد دفعتنى الحوادث فيما بعد إلى الاعتقاد بأنها كانت تقرأ هيدا جابلر (مسرحية إيسن). وبعد دروسيتين جاءت إيديث وزوجها للإقامة معنا في قصرنا بالبندقية. وقد قلدهما لعدد من الكتاب واتضح أن العمل الذي أنجزته في خلال السنوات العشر التي قضتها في عزلتها بملفيل لم يكن يساوي شيئاً. وعادت إلى أمريكا بعد أن فترت هماتها وتفاعست تماماً وكان آخر ما سمعناه عنها أنها وضعت خطابات زوجها الغرامية على صدرها وأطلقت الرصاص فاخترق الخطابات إلى القلب. وقد تزوج بعدها بامرأة أخرى قيل إنها تشبهها تماماً.

(١) مؤسس مدرسة الشعر المشهور في الأدب الإنجليزي وهي المدرسة التي تعرف بمدرسة الشعر الحر.

٢٠٣

ذهبنا بعد ذلك إلى كلية برين مور للبنات لنقيم عند مديرة الجامعة وهي أخت بوند واسمها كاري . وكانت سيدة يعاملها جميع أفراد العائلة بما يشبه الرهبة ولها طاقة هائلة على العمل وإيمان بالثقافة كانت تطبقه بكفاءة رجال الأعمال كما كانت تكن بلجنس الرجال احتقاراً عميقاً . وكان أول لقاءى معها فى فرايدايز هل . وكان لوجان قد قال لى قبل مجيئها : « استعد لاستقبال كاري » . وفى هذا تعبير كاف عن نوع معاملة العائلة لها . ومع ذلك فلم أستطع أبداً أن آخذها مأخذ الجدل لأنها كانت سهلة الاستشارة وكان رأيها . الذى يدعو إلى الإعجاب حقاً . أن الشخص الذى يكتب فى موضوع أكاديمي يجب أن يفرغ أولاً من قراءة المراجع المكتوبة عنه . ولذلك توجهت إليها وأخبرتها بلهجة جادة تماماً أن كل التقدم الذى حدث فى علم الهندسة غير الإقليدية . لم يكن بسبب الإحاطة بكل ما كتب قبل ذلك فى هذا العلم . بل ربما كان سبب التقدم هو الجهل التام بما كتب . وقد دعاها ذلك أن تنظر إلى فيما بعد على أنى شخص يجب الهزل وليس له من هم إلا المعايضة . على أن عدة أحداث مختلفة جعلتنى أثبت رأيي فيها . فعندما كانت معنا فى باريس مثلاً أخذناها لزيارة الإيچلون . واكتشفت من ملاحظاتها أنها لم تكن تعرف أنه حدثت فى فرنسا ثورة عام ١٨٣٠ فأعطيتها إلمامة قصيرة عن تاريخ فرنسا وطلبت إلى أن أشرح لها الكتاب الذى أراه . ومع ذلك كله فقد كانت فى برين مور أشبه بالإله زيوس وكان الجميع يرتعدون فرقاً أمامها . وكانت تقيم مع صديقة لها هي مس جوين ؛ كانت على التقيض منها تماماً . إذ كانت هذه ضعيفة الإرادة رقيقة المعشر تميل إلى الكسل وكان لها ولع حقيقى بالأدب وإن كانت نظرتها إليه ضيقة . وكانت هي وكاري صديقتين منذ الشباب الباكر وذهبنا معاً إلى ألمانيا للحصول على الدكتوراه ولكن لم تحصل عليها إلا كاري . وقد أقمت أنا وزوجتى معهما فى ذلك الحين ولكن تخلخلت عرى الصداقة بيننا بعض الوقت . وكان من عادة مس جوين أن تذهب لأهلها ثلاثة أيام فى كل أسبوعين . وفى اللحظة التى ترحل فيها هذه المرة من كل أسبوعين كانت تحل محلها أخرى

اسمها مس جاريت ثم ترحل في نفس اللحظة التي تصل فيها مس جوين . وفي تلك الأثناء وقعت مس جوين في غرام شاب نابه جداً اسمه هودر ، كان يقوم بالتدريس بالكلية . وأثار هذا غضب كاري ، وكنا في كل ليلة ونحن لننتوجه للفراش نسمغها وهي تؤنب مس جوين لساعات طويلة في الغرفة المجاورة . وكان هودر هذا متزوجاً وله طفل وكان يقال إن له علاقات غرامية مع بنات الجامعة . وعلى الرغم من كل هذه المعوقات فإن مس جوين استطاعت في النهاية أن تتزوج من هودر وأصرت على أن يتولى عقد القران خمس من كنيسة أقرب ما تكون للكاثوليكية حتى يعتبر زواج هودر السابق من زوجته القانونية لاغياً بحكم الدين . وكان هودر قد أشاع أنه طلق زوجته السابقة ، ولكن ما لجأت إليه مس جوين من إجراءات دينية أوحى بأنه لم يكن هناك طلاق ، لأن الزواج السابق غير معترف به . وقد مات هودر بعد الزواج مباشرة ، قضت عليه حياة العريضة التي كان يعيشها . وكان يتمتع بعقلية لامعة ، وإذا ما ابتعد عن النساء كان يمكنه أن يتحدث بشكل لذيذ مشوق جداً .

وعندما كنت في برين مور ألقى محاضرات عن الهندسة غير الإقليدية ، وألقيت أليس عدة خطب في ضرورة رعاية الأمهات بينما كانت في أحاديثها الخاصة للنساء تحبذ العلاقات الجنسية غير المقيدة بالزواج . وأثار هذا فضيحة وطردها تقريباً من الجامعة ، فغادرنا إلى بالتيمور حيث ألقى محاضرات في نفس الموضوع في جامعة جونز هويكنز . وقد أقمنا هناك عند عمها الدكتور توماس والد كاري . وعائلة توماس عائلة غريبة الشأن . كان هناك ابن في جامعة جونز هويكنز ممتاز في جراحة المخ ، وكانت هناك بنت اسمها هلين في برين مور مصابة لسوء الحظ بصمم ، وكانت لطيفة عطوفاً كما كان شعرها أحمر جميلاً جداً . وقد كنت مغرماً بها لعدة سنوات انتهت في ١٩٠٠ . وقد سألتها مرة أو مرتين أن تقبلني ولكنها رفضت وفي النهاية تزوجت من سيمون فلسكنر مدير معهد روكفلر للطب الوقائي . وقد اتصل الود بيني وبينها إلا أنني لم أكن أقابلها إلا نادراً في السنين الأخيرة من حياتها . وكانت لها أخت ظلت متمسكة

بمذهب الكويكرز إلى النهاية . وكانت تشير إلى من لا يدينون بدينها باعتبارهم « أهل الدنيا » . وكان الكويكرز يستخدمون في لغتهم ضمير المخاطب للدلالة على المفرد فيقولون « أنت » ولا يقولون « أنتم » كما جرت العادة في الإنجليزية ، وكذلك كنت أنا وأليس في حديثنا . وبعض معتقدات الكويكرز كانت تبدو غريبة لأولئك الذين لم يعتادوها . أذكر أن أم زوجتي كانت توضح لي أنها نشأت على الاعتقاد بأن « الصلاة الربانية » كما يسميها المسيحيون (أبانا الذى فى السموات) شىء يدعو للعجب . وكانت هذه الملاحظة تثير ارتباكى وضيقى فى أول الأمر ، ولكنها أوضحت لى فيما بعد أن كل ما يفعله غير الكويكرز يدعو أيضاً للسخرية ، ومن ذلك استخدام الحمل الشائعة الاستعمال التى أصبحت بمثابة الكليشيات ، فى نظرها يجب أن تكون الصلاة من وحى الروح القدس . وكذا ما دامت (الصلاة الربانية) قد أصبحت جامدة كالكليشيات ، فهى إذن تدعو للسخرية . وفى مناسبة أخرى قالت للجالسين إلى مائدة العشاء معها إنها ربيت على ألا تحترم الوصايا العشر ، وإن هذه الوصايا تدعو للسخرية أيضاً . ولا أدري إن كان هناك كويكرز باقون على قيد الحياة يؤمنون بضرورة استلهاهم الوحي من الروح القدس ، بحيث لا يكون احترامهم للوصايا العشر . والمحقق أننى لم أقابل أحداً من هؤلاء فى السنوات الأخيرة . ويجب ألا يتبادر إلى الذهن ، طبعاً ، أن الناس الذين يتخذون هذا الموقف ويعتمدون على الروح القدس مباشرة فى صلاتهم وأفكارهم وسلوكهم ، يكسرون الوصايا العشر فى واقع حياتهم . وهناك معتقدات شبيهة بهذه عند غير الكويكرز ، أدت إلى نتائج تشير التساؤل أكثر مما حدث مع الكويكرز .

أذكر أن أم زوجتي كتبت فى فصل من مذكراتها عن أصحاب الأطوار الغربية الذين عرفتهم فى حياتهم شيئاً تحت هذا العنوان (التوحيد الإلهى هذا ليس إلا تعبيراً آخر عن الجماع) .

كان الانطباع الذى تركه فى نفسى اتصالى بعائلات الكويكرز العريقة فى فيلادلفيا أنهم جماعة صغيرة من الأرستقراطيين العجزة . فكان الواحد منهم

لا يبلغ التسعين إلا وقد كَوّن ثروة كبيرة يتفاخر بها ، دون أن ينفق شيئاً منها بسبب البخل ، بينما يجلس أبناؤهم وهم في الستين أو السبعين من عمرهم ينتظرون موتهم بفروغ الصبر . وأولئك الذين يتحلون بالاتزان النسبي بينهم كانوا في غاية الغباء . كانت لأليس في فيلادلفيا عمة ثرية عانس جداً وغبية جداً في وقت واحد . وكانت تميل إلى " بالفعل ، ولكنها كانت ترتاب في أنني لا أومن بأن دم المسيح - دمه بالمعنى الحرفي للكلمة - هو الذي جلب الخلاص . ولا أدري من أين جاءت شكوكها عني فإن حديثي معها لم يتسرب إليه شيء من هذا القليل على الإطلاق . وقد تعشنا معها في يوم الشكران . فكانت على أشد ما تكون العجائز من شراهة في الأكل ، وقدمت وليمة تحتاج لعدة من حديد . وعندما أوشكنا أن نرفع إلى فنا أول لقمة نظرت إلينا وقالت : « فلتوقف برهة ولنفكر في الفقراء » ولعلها فيما يبدو قد اتخذت من هذه الجملة فاتحاً للشبهة . وكان لها ابنا أخت يسكنان إلى جوارها ويخفان لزيارتها كل مساء ، وكانا يعتقدان أن الاثنين الآخرين اللذين في أوروبا لا يجوز أن يحصلوا على نفس نصيبهما في الميراث عند وفاتها . ولكنها مع ذلك كانت تتفاخر بهذين الغائبين في أوروبا وأولتهما احتراماً أكثر من هذين الاثنين اللذين كانت تستلهما متى شاءت . وهكذا لم يفقد الغائبان شيئاً بسبب غيابهما .

وكانت أمريكا في تلك الأيام بلداً يتميز ببراعة غريبة . فقد كان هناك كثيرون يسألونني أن أشرح لهم بالتفصيل حكاية أوسكار وايلد^(١) . وقد نزلنا في مدينة بوسطن في بنسبون تملكه سيدتان عجوزان من الكويكرز فصرخت إحداهما في وجهي مرة ونحن نتناول الطعام على المائدة « إن أوسكار وايلد تعرض في الأيام الأخيرة لحملة أمام الرأي العام . فماذا فعل ؟ » فأجبتها : « إنه في السجن » ولحسن الحظ لم تسألني مرة أخرى عما فعل . وكنت أنظر إلى أمريكا في ذلك الوقت باستعلاء البريطانى القابع في جزيرته وهو ناعم البال . ورغما عن هذا فإن

(١) أوسكار وايلد ١٨٥٤ - ١٩٠٠ كاتب مسرحي وأديب أيرلندي أثارت كتاباته ضجة في الأوساط الاجتماعية .

اتصالي برجال العلم الأمريكيين في الجامعات ، وخاصة علماء الرياضة ، جعلني أقر بتفوق ألمانيا على إنجلترا في كل المسائل الأكاديمية تقريباً . وهكذا وجدتني رغباً عنى وبفضل أسفاري أتخلي تدريجياً عن الاعتقاد بأن كل ما يستحق المعرفة موجود في كامبردج . ولقد أفادتني أسفاري أيما إفادة في هذا الصدد .

لا أذكر عن عام ١٨٩٧ إلا ماندر ، ومنه أننى نشرت في تلك السنة كتابي « أسس الهندسة » وأذكر السرور البالغ الذي شعرت به عندما وصلني خطاب من لويس كوتورات يثنى فيه على الكتاب . ولم أكن قد قابلته ، وإن كنت قد استعرضت كتابه « اللامتناهي في الرياضيات » وكنت أتمنى أن أتلقى خطابات من غرباء يثنون فيها على كتابي ، ولكن كانت هذه هي المرة الأولى بالنسبة لي . ولقد ذكر لويس في خطابه أنه تابع قراءته لكتابي وهو مسلح بquamوس ، لأنه لا يعرف الإنجليزية . وبعد ذلك بقليل ذهبت إلى « كان » لزيارته إذ كان يعمل في ذلك الوقت أستاذاً هناك . ولقد غمرته الدهشة إذ رأيته صغير السن ، ولكن الصداقة التي ربطت بيننا استمرت حتى قتل في حادث عربة نقل أثناء التعبئة العامة للحرب العالمية الأولى ١٩١٤ . وفي آخر سني حياته انقطعت الصلة بيننا لأنه كان منهمكاً في التفكير في مسألة إيجاد لغة عالمية كان ينادى بها تسمى « إيدو » وهي غير الاسبرانتو ، وذكر لي في حديثه أنه لا يعرف في تاريخ الجنس البشري أكثر انحلالاً من أنصار الاسبرانتو . ولقد أسف لأن كلمة إيدو ليس لها ما لكلمة اسبرانتو من رنين وجرس . وأذكر أني اقترحت عليه كلمة « ادبوت » أى مغفل ، ولكنه لم يستسجها تماماً . وأذكر كذلك أننى كنت أتغذى معه في باريس في يوليو ١٩٠٠ وكان الجو حاراً مقبضاً . لدرجة أن السيدة هوايهد التي كانت تعاني من ضعف القلب ، أغمى عليها . وبينما هو خارج من الغرفة إذ ذهب لإحضار نوشادر ، ففتح أحد الحضور النافذة . وعند عودته أقفل النافذة بشدة وهو يقول « فلندخل الهواء ، ولكن لنمنع التيار » . وأذكر كذلك زيارته لي في الفندق الذي كنت أقيم فيه بباريس عام ١٩٠٥ حيث استمع إلى حديثه

مستر ديفيز وابنته مارجريت (والد وأخت كرومبتون وثيودور) ولقد تحدث لويس لمدة نصف ساعة دون توقف ، ثم أبدى الملاحظة التالية « إن الحكماء هم الذين يمكنهم السكوت عن الكلام » . عندئذ اندفع المستر ديفيز برغم أنه كان يبلغ الثمانين من عمره ، اندفع مهراً ولا خارج الغرفة ولم أسمع إلا صوت ضحكة وهو يخنق بعيداً عنا . ولقد ظل كوتورات لفترة ما من أشد المناصرين لآرائى فى المنطق الرياضى ، ولكنه لم يكن دائماً حصيفاً فقد وجدت نفسى أثناء معركتى مع الفيلسوف الرياضى الفرنسى بوانكاريه ، أتحمّل عبء الدفاع عنه وعن نفسى فى الوقت ذاته . وكان أعظم أعماله يتصل بما كتبه بشأن الفيلسوف الألماني ليبنتز عن المنطق . وكان ليبنتز حريصاً على رأى الناس فيه ولذلك لم ينشر إلا مؤلفاته التى لم تبلغ درجة الامتياز . أما أفضل مؤلفاته فكان يحتفظ بمخطوطها . لذا اختار الناشر ما اعتبروه فى نظرهم أفضل أعماله ، ولم يتنبهوا لهذا المخطوط الذى كان لكوتورات الفضل فى اكتشافه . ولقد سررت بالطبع لأنه أمدنى بوثائق ساعدتني على تفسير آراء ليبنتز واستعنت بها فى كتابى عنه ، هذا الكتاب الذى ما كان ليصل إلى مستوى مرض لولا كتاب كوتورات . فى أول مرة قابلت فيها كوتورات ذكر لى أنه لا يمارس رياضة ما وبعد ذلك بقليل سألته إذا كان يركب الدراجات ، فرد قائلاً : « كلا ، لأننى لست رياضياً » . ولقد تراسلت معه لسنتين عدة ، وكتبت له أثناء حرب البوير خطابات تتسم بالروح الاستعمارية ، أشعر الآن بالندم الشديد على كتابتها .

وفى عام ١٨٩٨ بدأت أنا وأليس نعتاد على قضاء بعض الوقت من كل عام فى كامبردج . ولقد داومنا على هذا حتى عام ١٩٠٢ . وكنت فى ذلك الوقت أحاول التخلص من المثالية الألمانية التى انغمست فيها بتأثير ماك تاجرث وستاون فساعدنى مورالدى كنت أراه كثيراً فى ذلك الوقت على ماعدت العزم عليه . وكان أمراً مثيراً للغاية ، بعد أن ظننت أن العالم الملموس عالم غير حقيقى أن أؤمن من جديد بأن هناك فى الواقع أشياء ملموسة حقيقية ، كالمناضد والكراسى .

لكن الجانب المنطقي في هذا الموضوع هو أهم شيء أثار اهتمامي . وسرني التفكير في أن العلاقات أمر حقيقي . وأوليت اهتمامي لاكتشاف الأثر الكبير الذي يحدثه في علم الميتافيزيقا ذلك الاعتقاد بأن كل القضايا المنطقية من نوع المسند والمسند إليه . ودفعني الصدفة إلى قراءة مؤلفات ليبنتز لأنه كان على أن أحاضر عنه ، إذ أن مستر ماكتاجارت كان يريد السفر إلى نيوزيلندة . ولهذا طلبت الكلية مني أن أنوب عنه في إعطاء سلسلة من المحاضرات عن ليبنتز . وفي دراستي وتناولي بالنقد لأعمال ليبنتز وجدت الفرصة لأشرح الآراء الحديثة في علم المنطق التي أرشدني إليها مور ، أكثر من غيره . لقد أمضينا الخريف لعامين متتاليين في البندقية التي أكاد أعرف كل مكان فيها . ومنذ بداية زواجي الأول حتى نشوب الحرب العالمية الأولى لم يمض عام لم أذهب فيه إلى إيطاليا ، أحياناً سيراً على الأقدام ، أو راكباً دراجة ، أو على ظهر سفينة صغيرة تقف على كل ميناء في المسافة بين البندقية وجنوة . وكنت أعشق المدن الصغيرة النائية ، ومناظر جبال الابنين . وبعد نشوب الحرب لم أذهب إلى إيطاليا حتى سنة ١٩٤٩ . ففي عام ١٩٢٢ عازمت على الذهاب لحضور مؤتمر ما ، لكن موسوليني الذي لم يكن قد استولى بعد على السلطة ، أبلغ منظمي المؤتمر بأنه يجب ألا يصيبنني أحد بأذى ، ولكن يجب اغتيال أي إيطالي يبادلني الحديث . وبالطبع لم أشأ أن أترك ورائي دما مسفوكاً ، لهذا آثرت الابتعاد عن البلد الذي أحبه والذي شوه موسوليني وجهه .

كان صيف ١٨٩٩ آخر عهدي بسالي فيرثشيلد حتى تقابلنا عصر يوم من أيام ١٩٤٠ بعد أن ولي الشباب . وأخذنا نتساءل عن الصفات التي كانت تجذب أحداً نحو الآخر . وكانت سالي تنتمي إلى عائلة أرستقراطية من بوسطون أحنى عليها الدهر بعض الشيء . وتعرفت عليها أول مرة عام ١٨٩٦ عندما كنا نقيم في بوسطون . وعلى الرغم من أن وجهها لم يكن جذاباً ، إلا أن حركاتها كانت رشيقة لدرجة لم أعدها من قبل ، ولذا وقع في غرامها الكثيرون . وكثيراً ما كانت تقول لي إنه من السهل على المرء أن يعرف متى يتقدم الرجل الإنجليزي سرق الذاتية

لخطبة فتاة ما ، لأنه يبدأ بالقول : « إن صاحبك قليل الحيلة ، لكنك ستستريحين إليه » . وتمت مقابلتنا التالية في رشمور البيت الريفي لعمى الجنرال بت رفرز ، حيث كانت تقيم هي ووالدها . وباستثناء الجنرال كان معظم أفراد العائلة بهم مس من الجنون . فمسز بت التي كانت تنتمي إلى عائلة ستانلي ، صارت بخيلة لدرجة أنه إذا ترك الضيوف بعض لحم الخنزير والبيض فإنها تعيده إلى الأطباق . أما أكبر الأبناء فكان حارساً غاية في الأناقة والاستقامة . كان هذا يحضر إلى مائدة الإفطار متأخراً ويدق الجرس في طلب الطعام . عندئذ تصبح عمى في الخادم حتى لا يحضر طعاماً آخر لأن الطعام المتبقى في أطباق الضيوف يكتفى وزيادة . على أي حال ، ينتهي الأمر دائماً بأن يطيع الخادم أمر الحارس ولا يلقي بالا لعويلها . ثم هناك ابن آخر يعمل رساماً ، وهو مجنون سيئ الخلق ، وإن كان شخصاً يميل إلى المرح . أما الابن الثالث فهو شخص طيب ، برغم أنه قليل الحيلة . وكان من حسن حظه أن تزوج خياطة تدعى السبيت فيلبس ، أنقذته من الفاقة . أما جورج فأكثر أفراد العائلة طرافة . وبالرغم من أنه من أوائل مخترعي الضوء الكهربائي إلا أنه ألقى بكل هذا عرض الحائط سعياً وراء غيبيات البوذية ، وتجول في بلاد التبت لزيارة كبار البوذيين الذين يحملون لقب مهاتما وعند عودته وجد أن أديسون وسوان يصنعان مصابيح كهربية ، فاعتبر هذا اعتداء على براءة اختراعه ، ودخل معها في سلسلة من القضايا خسرها جميعاً وانتهت به إلى الإفلاس ، وإلى تدعيم إيمانه بالعميدة البوذية التي تتطلب من الإنسان السيطرة على شهواته . وكثيراً ما كانت جدتي من أمي تلاعبه الورق وتقول له عندما يأتي دوره في اللعب : « إني مسرورة إذ أتى دورك في اللعب ، لأن هذا يبعد عنك مسوح القدااسة » . وكان جورج يجمع ما بين القدااسة والحياة الاجتماعية بنسب متساوية تقريباً . فكان يحب سالي فيرتشيلد ولهذا دعاها وأمها إلى رشمور . ولم يكن هناك طعام كاف كالمعتاد ، لدرجة أنه في إحدى المناسبات حدثت مشادة بينه وبين سالي على أكل آخر طبق « بودينج » مصنوع من الأرز ، انتهت بانتصاره عليها . وفي يوم رحيل سالي ، كانت تود

أن تستقل قطاراً معيناً ، ولكن مسرّبت رفرز ألحت عليها أن تسافر في القطار التالي لكي تزور أثراً من الآثار القديمة في طريقها إلى المحطة . ولقد لجأت إلى جورج طالبة منه العون في هذا الموقف ووعده بذلك أول الأمر ، لكن عندما حان وقت الجدل تخلى عنها وبدلاً من إقناع والدته بالعدول عن إلحاحها ، أخذ يعظها عن الدنيا الغرور . ولقد أدى هذا إلى رفضها خطوبته (ولقد أبطل زواجه التالي لعجزه الجنسي)^(١) . وفي صيف ١٨٩٩ قامت سالي بزيارة طويلة لفرانكايزر هل ، وأصبحت أنا مغرماً بها . إنني لا أعتقد أنني وقعت في حبها إذ لم يصل بي الأمر حتى إلى تقبيل يدها ، ولكن بمرور السنين أدركت مدى الأثر العميق الذي تركته في نفسي ، وأتذكر جولاتنا ، كما لو كانت قد حدثت بالأمس ، في أمسيات الصيف وقت السحر وقد فرضت علينا تقاليد العصر كتم شعورنا وعدم التعبير عنه .

وفي خريف ١٨٩٩ نشبت حرب البوير ، وكنت وقتذاك استعمارياً ليبرالياً ولم أكن أول الأمر من مناصري البوير . ولقد شعرت بقلق شديد من جراء هزائم القوات البريطانية ، ولهذا استولت على كل تفكيري أخبار الحروب . وكنا في ذلك الوقت نعيش في بيلهانجر وكنت أسير أربعة أميال عصر كل يوم حتى أصل إلى المحطة لأحصل على الصحيفة المسائية . ولم تتعرض أليس لنفس المشاعر التي كنت أحس بها ، نظراً لأنها أمريكية ، ولذا كانت تغضب من شدة اهتمامي بهذا الموضوع . وفترة اهتمامي عندما بدأت الهزائم تتوالى على البوير وأصبحت في أوائل عام ١٩٠١ من المدافعين عنهم .

وفي عام ١٩٠٠ نشر كتابي « فلسفة ليننتز » . وفي يوليو ذهبت إلى باريس حيث بدأ فصل جديد من حياتي .

(١) قد تزوج اليلدي إيديث دوجلاس أخت لورد ألفريد .

خطابات

ممبروك لودج

رتشموند ، سرى

٣٠ من مايو ، ١٨٩٥

عزيزى برقى

أرجو أن تكون أيام كامبردج ذات فائدة لك وإن كنت لا أدري تماماً كيف . لقد سألتك قبل ذلك - ولكنى نسيت ردك - ماهو موضوع رسالتك ؟ وكيف تفكر فى إنجاز بنجاح ؟ إننى أتذكر جيداً الأخبار التى بلغتني عن أول نجاح لك ، قبل ذهابك إلى كامبردج - عندما اندفعت إلى الطابق العلوى لتخبرني وتخبر عمك - يا عزيزى برقى - ثم أخيراً دموع السعادة التى طفرت من عيني فى تلك اللحظات التى يجلب فيها الشباب السعادة للعجائز الذين جف عود حياتهم . إننى كنت دائماً أشعر أن مثل هذه الأشياء لن تضفى على لحظة سعادة واحدة لولم تكن محبباً ، وطيباً ومخلصاً .

لقد وقع بين يدي كتاب وجدت فيه شيئاً مماثلاً ، وتصادفني على الدوام . أثناء قراءتي شتى الكتب ، فقرات يبدو وكأن من كتبها تعمد التعبير عن بعض خبراتي فى الحياة . أعتقد أن هذا أمر طبيعي عندما يطول بالإنسان العمر . وبالمناسبة لم تكتب ردّاً لخطاب عمك الذى أرسلته فى عيد ميلادك - إنها شخصياً لم تحدثني عن ذلك - وإن كانت قد ذكرت لى أن خطابها كان موجزاً جداً . على أية حال لقد بذلت جهداً كبيراً فى كتابته نظراً لمرضها . حقيقة الأمر أنك تحتل لحظة من وقتك لكتابة خطابات لنا - وعلى الرغم من شعوري بالسعادة عندما أتذكر بين الحين والحين الخطابات الطويلة التى كتبها لنا فى الأيام الماضية ، إلا أنها لا تغني عن خطاباتك فى الوقت الحاضر مهما كانت موجزة . على أية حال طالما أنه ليست لديك الرغبة فى كتابة

٢١٣

خطابات طويلة . وهى على أحسن الفروض أمرشاق فامض فى كتابة خطاباتك القصيرة - إننى لا أنسى أنك مشغول للغاية ، وإن كان أكثر الناس انشغالا هم الذين يجدون بطريقة ما ، وقتاً لكل شىء - ألا تظن ذلك ؟ (يالها من محاولة هزيلة لتنقية الجو) . أما عن مقابلتك للتحديث معك ، فإننى أدركت عند رحيلك أنك لا تنوى ذلك فى الوقت القريب - كم وددت يا عزيزى أن أتحدث إليك عن أشياء كثيرة - عن الكويكرز ومعتقداتهم ونظمهم الغربية التى نسمع عنها أخباراً متضاربة ، وعن عدة أمور أخرى . لكن كل ذلك لابد من إرجائه لوقت قريب . ما أجمل السماء والأرض . وكم تكون سعادتك عندما تعود إلى بيتك - بلغ تحيى وشكرى لأليس .

جدتك المحبة

أرجو أن تكون قد عثرت على بيان بالمفردات والمصطلحات التى كتبته بالقلم الرصاص على ورق منفصل داخل الكتاب . أعتقد أنها تساعدك على الاستمتاع بقراءة الكتاب . كم أتمنى أن تقرأه سويّاً .

بمبروك لودج

ريتشموند ، سرى

١٨٩٦

عزيزى برنى

تذكر أنك قد رزيت أمور إجازتك ؛ أرجو أن تخبرنى عما إذا كنت تنوى زيارة بمبروك لودج . إننى سعيدة لأن أخبرك أن جرتروود^(١) وأولادها سيكونون معنا من ١ إلى ١٦ من سبتمبر . أما عمك رولوف فقد سافر إلى اسكتلندا وأما كن أخرى . لذلك ، لن يكنى الوقت . إننى أعتقد أن « الفلسفة الأكثر عمقا » و « الرياضيات اللامتناهية » كتابان مثيران للغاية . إنه لما يؤسف له ، يا عزيزى برنى أنك لم تذكر لى شيئاً عن موت مس روكر . رغم علمك بمقدار حبنا لها ،

(١) زوجة رولو (عم رسل) الثانية .

كذلك لم تذكر كلمة واحدة عن لادى تينسون برغم سكنها القريب منك — إن سير هنرى تيلور يعتبرها امرأة ممتازة للغاية . وإننى عاجزة عن أن أوفى هؤلاء الخمسة حقهم من الثناء . لقد أرسلت فى طلب كتاب « جرين » لأليس — إنه تاريخ ممتع وإن كنت أفضل شيئاً آخر هدية لها .

جدتلك المحبة

لقد وصلت عماتك رسالة من هالام المسكين .

بمبروك لودج

ريتشموند ، سري

١١ من أغسطس ١٨٩٦

عزيزتى أليس

لقد راقتنا صورة برقى — لأنها رائعة ببسمةا الطبيعية غير المتكلفة. أما عن صورتك فلم أتمحز القبول ، وأرجو ألا تروق برقى — فلم تعجبنا الجلسة ، ولا الوجه المعتم ، ولا دثار العنق البارز — ربما كان هذا أمراً تشكر عليه أجانا . برغم أنه لا ذنب لها فيما حدث ، ولا ذنب لى أنا كذلك. ما هو تاريخ عيد ميلادك؟ لقد نسيت ولا أذكر سوى أنى وعدت بأن أقدم لك كتاباً ، سأحاول بالفعل اختياره ، وسأسألك عما إذا كان لديك أم لا . ولكنى لن أقدم لك كتاب « جرين » بل كتاباً ثقافياً أقل جفافاً — ألدريك رسائل هنريت رينان ؟ لقد قرأتها أجانا وأعجبت بجمالها بالطبع . يافتاتى العزيزة ! لن أجعل من صحفى أو اعتلاها سبباً للاعتراض على سفرك إلى أمريكا . لقد شعرت أن هذا أمر تقررينه بنفسك . « أذهب أولاً أذهب » . تلك هى مسألتك وحده . وأرجو أن يكون هذا لخير برقى . إنه من المؤسف أن آخر مجموعة الكتاب البارزين ، أعنى هولز ولوويل ، قد رحلا . لكن بلا شك هناك أناس آخرون جدير برقى أن يتعرف عليهم . سواء أكانوا كتاباً أم لا . حقاً لقد كنت أتمنى أن يندمج وسط مجموعة مختلفة متنوعة من الرجال والنساء ، أكثر مما كان عليه

الحال . لكن هذه من أكبر أمانى الناس فى بلده . لقد جاء فى الأسبوع
الماضى هارولد وفيتا (ابن عم هارولد رسل وزوجته) — هل أخبرتك بهذا؟
إن فيتا غاية فى اللطف والظرف غير المتكلف . شكراً على رسالتك اللطيفة . لقد
أسفت للبرد الذى ألم بك . هل هناك أى شكوى من البيت الرقيق ؟ إنه لوقت
فضيع لا يناسب السفر والعودة بالبحر . هل هواء البحر يساعدك على الهضم .
جدتلك المحبة إلى الأبد

مبروك لودج

ريتشموند ، سري

١٧ من مايو ، ١٨٩٦

عزيزى برنى

سأذكرك كثيراً فى الغد وأذكر أعياد الميلاد السعيدة الماضية عندما كانت
بيننا (١) تقدم لنا النصيح وتلهمنا بعمل كل خير ، وعندما كنت لا تزال طفلاً
تملاً البيت علينا بهجة وأملًا فى المستقبل الذى ينتظرنا . عزيزى برنى هل اطرده
تقدمك منذ تلك الأيام ؟ لعل مباحج الحياة التى تنعم بها الآن ساعدتك على
ألا تقل من محبتك وعونك وتقديرك لؤلؤ الناس الذين قد يقاسون من شدة
الأسى والمرضى ، والعذاب والوحشة . كلنا ، نحن الذين ندرك قيمة حب
جدتلك وصلواتها ودعواتها ، نحن الذين نشعر بالذكرى المباركة للمثل المدهش
الذى قدمته لنا — كلنا نشعر بشيء من اليأس أحياناً ، إذ نبتعد كثيراً
كثيراً عن مثلها الأعلى وعن مستوى الحياة الذى ارتضته لنفسها — لكن علينا
أن نناضل ونسعى إلى مزيد من روحها . لا يمكنك أن تتصور مدى جمال
كل شيء هنا فى هذه الآونة ، وعلى الرغم من الحنين المضى لها ، إلا أننى
أحب أن أتأمل كل شيء وأتذكر كم كانت تحب هذا المكان بجماله .

(١) توفيت جدتى منذ فترة قريبة .

إن عمك روللو مريض للغاية منذ فترة طويلة . وكنت قلقة عليه جداً
عندما كان يرهق نفسه أكثر من اللازم . الآن أمره الطبيب بالراحة التامة .
ربما تكون قد زرت دنروزل ، لقد كنت منهمكة جداً في البيت لدرجة
أننى شعرت بالإرهاق الزائد عدة مرات . وقد أنقذتنى جوينى (جويندولين
فيلرز) من الانهيار ، وذلك بعملها الدائب ومعاونتها لى بكل الطرق — لقد كان
مؤلاً للغاية أن ترى الصور الجميلة قد اختفت والبيت مجرد شيئاً فشيئاً من محتوياته .
سأشعر بالراحة عندما ينتهى كل شيء . لقد سررت جداً إذ أخذ عمك روللو
عديداً من الصور القيمة . إنها من حقه على أى حال . وقد شعرت بالامتنان كذلك
لهيراند (دوق بدفورد) لأنه أهلى صورة جنك إلى المتحف القومى لصور
الشخصيات . آسفة إذ ليس عندى هدية أقدمها لك فى هذه الآونة ، إذ أن
هذا كان أمراً مستحيلاً لانشغالى فى هذا الموضوع الذى لا نهاية له .

بلغ أليس عظيم اشتياقى . باركك الله ، يا عزيزى برنى^(١) .
عمتك المحبة

المطرائية

برين مور ، بنسلفانيا

١٣ من نوفمبر ١٨٩٦

عزيزى ولاس

لقد كنت عازماً على الكتابة إليك منذ انتخابات الرئاسة ، من أجل نموذج
بطاقة انتخاب سأرسلها لك بريد المطبوعات . لقد علمت أن هذه الوثيقة
أكثر تعقيداً من مثيلاتها فى أى بلد آخر . إنها عمل ممتاز بالتأكيد . يبدو لى
أنها تحوى بطريقة شاملة نظرية القرن الثامن عشر عن الإيمان بحكم الشعب
الذكى الحر ، وما اعتاده القرن التاسع عشر من إيمان بحكم الصفوة البارزة
من رجال السياسة . لك أن تتصور استخدام عبارة مثل : « تذكرة شاملة لكل

(١) تمت كتابة هذا الخطاب بعد وفاة جدته مباشرة .

مرشحي الحزب « في بطاقة انتخاب ، وتتصور العقلية الجبارة لرجل لا يسير على هذا النهج في إعطاء صوته . إنني لم أرقط وثيقة تزخر بالنظريات السياسية أو تزيد عنها في إيضاح أقصر طريق يبدأ بالميتافيزيقا السيئة وينتهي إلى الفساد السياسي . كان كل الاهتمام يتركز في فيلادلفيا على انتخاب مأمور الشرطة . وكان كروا 'مهورى المستقل يعارض حكم الصفوة ، ومن الغريب أنه نجح في الانتخاب وإن كانت الأغلبية التي حصل عليها ضئيلة للغاية .

إنى مرسل لك أيضاً بعض الحيل الخفية التي يلجأ إليها كبار الساسة للحصول على أصوات ناخبين وهميين . وسرى أن الاستمارات المرفقة تمكن أى إنسان من أن يلدل بصوته دون أن يكون اسمه مقيداً في السجلات . ولقد ذهبت إلى مركز من مراكز الانتخاب في فيلادلفيا ورأيت خارج المركز أحد أتباع النائب السياسى الكبير واسمه فلاجان - رأيت يعطى الجهلة من الناس إرشادات في طريقة الإدلاء بأصواتهم ، ثم يراقبهم وهم يضعون علامات في أوراق الانتخاب ، ويشهد ، إذادعا الأمر ، بأحقيتهم في الانتخاب . ودخل مرشح جمهورى وآخر ديمقراطى ليتأكدا من أن كل شىء على ما يرام . وافترضت أن كلا منهما سيعمل ضد الآخر ، لكنهما في الحقيقة توصلا إلى اتفاق بينهما بأن يساندا أصدقاء الطرفين من كبار رجال السياسة والحكم ، حتى ولو أدى هذا إلى التسليم بوجود أصوات مزورة للجانب المعارض . إن الأمريكان يبدوون غاية في القدورية والتشاؤم لدرجة لا تمكنهم من مواجهة هؤلاء الناس . ولقد ذهلت عندما رأيت رجلاً يعمل مراقباً رسمياً من قبل جماعة تحريم الخمر ، إذ على الرغم من مراقبته واكتشافه لبعض المخالفات إلا أنه أظهر عدم اكتراث عندما سألت عن سبب عدم تدخله وإثارته للموضوع علناً . الحقيقة أن الأمريكان كسالى لدرجة لا توصف في كل شىء لا يمس مصالحهم الشخصية ، ويغطون كسلهم هذا بروح التشاؤم الذى لا أمل معه في إصلاح الأمور . وعندما واجهتهم متسائلاً عما إذا كان أحدهم يذكر حركة إصلاح واحدة لم يقدر لها النجاح وقفوا واجمين ، اللهم إلا واحداً منهم أشار إلى السلك القنصلى -

وهذه صيحة لإصلاح لا تثير الحماسة بالطبع . ولقد ذكر لي أحدهم صراحة ممن يتباهون بالتمسك بأهداب الفضيلة أنه تبين أن أى عمل من الأعمال يمكن أن يدر عليه مالا لا يستطيع الحصول عليه إذا وقف نفسه على محاربة الفساد ويبدو أنه لم يدر بخلد هذا الرجل أن هذا عذر أقبح من الذنب . على أى حال ، يبدو أن كل شىء كان يسير فى طريق الإصلاح بمعدل سريع للغاية ، وإن كان هذا القول يثير غضب المتزمتين الكسالى الذين يتصفون بالنفاق . إنهم يتباهون بأن ولايتهم أكثر الولايات فساداً . وحينما يخلون إلى أنفسهم يتكلمون فى تيه عن أن حالة ولايتهم ميئوس منها . يبدو أن سقوط آل التجلد وهزيمة تامانى أثارت غضبهم وإن كانوا يقولون إن النتيجة كان من الممكن أن تنتهى إلى غير ما وصلت إليه ، ويأملون كثيراً فى الانتخابات القادمة . على وجه العموم إنهم ينالون ما يستحقون من جزاء . إن الكويكرز والمتطهرين ^(١) على قدر معرفتى بهم ، هم أكبر كذابين ومنافقين رأيهم فى حياتى وهم عادة يفتخرون إلى الحمية تماماً . هاك قصة من فيلادلفيا : (وانا ميكير) رجل ذونفوذ ، ثرى ومتدين لدرجة كبيرة ، تحتل ضريبة الحماية البحرية مكاناً عزيزاً فى نفسه . وفى انتخابات ١٨٨٨ عندما كان موقف ولاية نيويورك حاسماً أرسلت برقية إلى لجنة الحزب الجمهورى فى فلادلفيا تنفيد بأن انتصارهم فى الانتخابات يتطلب ٨٠ ألف دولار . دفع وانا ميكير المبلغ على الفور وكسب الجمهوريون ولاية نيويورك بأغلبية ٥٠٠ صوت ، وعين وانا ميكير مديراً عاماً للبريد . وهاك قصة من نيويورك: فى عام ١٨٨٤ أعطى (جاى جولد) مبلغاً ضخماً للجمهوريين ، وعندما علم الديمقراطيون بهذا نظموا مظاهرات سارت فى اليوم التالى لمدة ساعات أمام بيت جاى وهى تصبح « الدم ، الدم . دم جاى جولد » عندئذ استولى على جاى جولد خوف شديد ، وأرسل تلغرافيا المبلغ المطلوب للديمقراطيين . وانتصر كليفلاند . على أى حال يعتبر

(١) Puritans البيوريتانيون من أتباع الكنيسة الإنجليزىة أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر كانوا يسمون إلى تبسيط العبادات والتمسك بالصامم بالأوامر والنواهي الدينية .

الأمريكان كأفراد ظرفاء ، لكنهم لا يكونون مجتمعاً من الناس الصرخاء سواء أكان هذا راجعاً إلى افتقارهم للشجاعة أم إلى اللامركزية التي تسيطر على حياتهم. إن كلا منهم يشكوب بدوره من أن الناس جميعاً سوف يقاطعونه إذا ما عبر عن آرائه بصراحة . أعتقد أن هذا يعزى إلى حد كبير إلى عدم وجود عاصمة للبلاد . وثمة سبب مماثل يعمل روح الجبن والتظاهر بالدين التي نلمسها في الجامعات . فالأستاذ (إلى) طرد من جامعة جون هوبكنز لأنه مسيحي اشتراكي . هناك إمكانيات على كل حال ، وكل شخص يظهر شغفاً بالتعليم أكثر مما نراه في إنجلترا ، كما أن مستوى الذكاء مرتفع ، ويصرح كثير من المفكرين - وإن كانت هذه الظاهرة بدت فقط في السنين الأخيرة ، منذ (برايس) على ما يبدو - يصرحون بأن نظام حكمهم بعيد عن الكمال . أعتقد أنك ستقضى وقتاً طيباً هنا ، كما فعلنا . ومن المرجح أننا سنبحر في الثلاثين من ديسمبر . وأرجو ملحقاً أن تصل قبل هذا التاريخ . إذ أنني أتمنى أن أراك وأقدمك إلى عدد من الناس الظرفاء في نيويورك . إذا لم تكن ذكرت في خطابك شيئاً عن موعد وصولك ، أرجو أن تسارع بالكتابة - إن هذه الكلية مكان جميل ، يفوق إلى حد كبير جرتون ونيوهام ، ومن الغريب أن أستاذ الاقتصاد السياسي الذي كان يؤمن بحرية تداول العملة الفضية مع تثبيت سعرها بالنسبة للعملة الذهبية ، استطاع أن يقنع طلبته بأرائه على الرغم من أن كثيراً منهم من عائلات ثرية في نيويورك . إن من قابلتهم يتصفون بالذكاء وسعة الأفق بالنسبة لأرائهم حول المسائل الاشتراكية .

المخلص

برتراند رسل

كان موريس شيلدون عاموس (الذي حصل على لقب سير بعد ذلك) حلقة اتصال الوحيدة بين كامبردج وفرايداي هـل . وكان والده الذي توفي في الثمانينيات مشرعاً قانونياً من طراز ممتاز ، ساهم بأكثر قسط في كتابة الدستور المصري الذي فرضه الإنجليز بعد احتلالهم لمصر عام ١٨٨١ . وبعد أن توفي

والده كرس والدته حياتها للأعمال الصالحات ، وخاصة ما يتصل منها بالطهر والعفة . ويشاع أنها قالت : « منذ وفاة زوجي العزيز وأنا أكرس حياتي لمحاربة الدعارة ». وقيل أيضاً إن زوجها الذي كان كثيف الشعر أصبح أصلع كالبيضة بعد مضي ستة أسابيع على زواجه منها . ولكن لا يمكنني إثبات صحة هاتين الروايتين . وأصبحت مسر عاموس ، بحكم عملها ، صديقة لمستر بيرسل سميث . وعلى هذا عندما زارني لوجان في كامبردج أخذني لزيارة مه ريس الذي كان طالباً حديث الالتحاق بالجامعة يدرس علم الأخلاق وكان شاباً طويلاً جذاباً ، متحمساً ، بطيء الحركة . كثيراً ما كان يقول : « إن العالم مكان غريب ، كلما تجولت فيه اصطدمت بشيء ما » .

وعندما أصبح محامياً ذهب إلى مصر حيث كانت ذكرى والده ماثلة في الأذهان وهناك انتعشت أحواله المالية وعمل قاضياً لمدة طويلة اعتزل بعدها ورشح نفسه عن دائرة كامبردج على مبادئ حزب الأحرار . ولم أعرف شخصاً غيره يقرأ الرياضيات للمتعة والتسلية ، كما يقرأ غيره القصص البوليسية .

وكانت له أخت تدعى (بونته) كانت صديقة لأليس ولي . وقاست بونته كثيراً من تعصب والدتها الديني ولقد أصبحت فيما بعد طبيبة . وقبل أن تدخل امتحانها النهائي اعتادت والدتها أن توقفها في المساء وتصلي من أجلها ، ولهذا كان علينا أن نرسل لها نقوداً لتمكنها من أن تعيش بعيداً عن البيت . ولقد رافقتني أنا وأليس في السفر إلى أمريكا عام ١٨٩٦ . وذهبت بونته إلى مصر أيضاً حيث عملت فترة من الوقت طبيبة في الحجر الصحي في السويس وكان من ضمن واجباتها صيد الفئران من سفن أعلن قباطنتها أنها خالية من مثل هذه الحيوانات . وأخيراً تزوجت ضابطاً في الجيش كان رئيساً لقوة البوليس في مصر ، ولقد نجا هذا بأعجوبة من أحداث مثيرة للغاية ، كغرق في البحر ، وتمرد ، وألوان أخرى من الأخطار . ولكن عندما أبدت له ملاحظة قائلاً : « يبدو أن حياتك حافلة بالمخاطر » أجابني بقوله : « أه ، كلا ، بالطبع لم يفتني شأى الصباح قط ، على مائدة الإفطار » . وقد رفض كل من بونته وأخيها أن يستمرا في صداقتهما

٢٢١

لى بعد أن أصبحت منبوذاً من المجتمع الراقى . ولقد رجع موريس عن موقفه
أسفياً ، فى حين ظلت بونته مصرّة على موقفها .

طرف مس فريجل

القاهرة

٦ من نوفمبر ، ١٨٩٨

عريزى برنى

إنه لمن دواعى السرور أن أسمع منك وأن أتذكر وجود أفاضل الناس
أمثالك . أعلمت أن (برونيات) قد حصل على وظيفة بمرتب ١٢٠٠ جنيه
فى العام ؟ إنه لطيف برغم همجيته وهو يظن على ما يبدو أنه ليس هناك
موضوع يستحوذ على أذهان كبار العقول حقاً سوى الرياضيات . وكان يسخر
من الاقتصاد السياسى فى شخص سانجر ، ومن الميتافيزيقا فى شخص ماكتاجارت ،
وأسفة إذ أنك لم تسلم منه ، إذ قال لى إن فورسايت لا يؤمن بنظرياتك . وتساءلت
عن قدرة ومؤهلات فورسايت هذا للنقد ، فقال إنه قدير على الحكم على أى
قضية منطقية . ولم أجد بدءاً من القول إن شرح قضية ميتافيزيقية لإنسان
لا يعرف عنها شيئاً قط قد يستغرق ستة أشهر أو عام . يبدو أن هذا الحيوان
يعتقد أن كلية ترينتى قد سلمت زمام الأمور لرجال مغفلين يمنحون وظائف
محاضرين فى الجامعة لخريجين فى الاقتصاد والسياسة والميتافيزيقا لدوافع فاسدة .
على أية حال ، علينا أن نتذكر أن اللعنة مصير مقدر لبعض الناس ، وأنه
بدلاً من أن يكلف الواحد منا نفسه مشقة إصلاحهم ، فإن من الأسر له
أن يقضى وقته فى التشديق برابطة الخريجين ولوائحها الغامضة . هذا إذا كان
يمتحن ترشيح نفسه عضواً فيها . وأعترف أحياناً أنني أؤنب نفسى إذ أصبحت
إباحياً شقيماً . لا أدري ماذا يعنى (مور) مثلاً بقوله إن العالم يتكون من معان
كلية فحسب .

أود أن أناقش معك أمورك وأمورى . ويبدو أنني على أى حال وبمرور

الزمن أبتعد كثيراً عن الحالة التي يكون فيها الإنسان أهدافاً محددة ذات شأن ، وأسوأ ما في الأمر هو أن يشعر الإنسان بالزهو — كما يفعل بين الحين والحين — وألا يجد مجالاً للتدرب والتجربة .

لن أكون فكرة حققة عن هذا المكان إلا عندما تأتي أنت وأليس وبونته وتقدموا لي رأياً موضوعياً عنا . وفي الوقت نفسه أعتقد أنني أتعلم أشياء كثيرة ونافعة . ويشغلني عمل في الوزارة صباحاً . رتبت الأمر بحيث أقضي فترة بعد الظهر في مكتب محام كبير ، بلجيكي الجنسية ، أعتقد أنني سأتعلم منه الكثير . ثم يأتي الليل البارد نوعاً ما ، الليل البهيج ولدي كثير من العمل يشغل وقتي حتى أعود إلى البيت في الصيف حيث أجد عملاً كثيراً ينتظرني كذلك .

إن فكرة كتابك تبدو مدهشة وربما أقدر على فهم مضمونه عندما ينشر ، وقد يتعذر عليّ ذلك . من يدري ؟ وأعتقد أن في الإمكان هنا أن أشتغل بالرياضيات مرة أخرى ، لأن الرياضيات بدون شك — ياليتني ذكرت هذا أمام برونيت — أقل فروع المعرفة إرهاقاً في متابعتها . إن الأعداد تتلحق بك في آفاق عالية ، ثم تجرفك كتيار الخليج الدافئ . ومن الناحية الأخرى فإن هذه الدراسة عمل تلقائي ، أعني دراسة مادة دون أن يكون هناك هدف محدد من دراستها .

إنني سعيد لمعرفتي بأنك وطني متطرف ، وإن كنت أعتقد أنه من الخير أن ننال نصراً دبلوماسياً دون الحاجة إلى حرب ، إذا كان هذا في الإمكان . على أن أبانا آدم كان يريد الحزب دائماً وهذا هو الذي فعلناه فيما يبدو حتى الآن وبطريقة تدل على النصر الأكيد . إن حادثة فاشودة تعطينا مركزاً جديداً في مصر . هي لنا الآن بحق الفتح بعد أن عرضنا على الفرنسيين أن يدخلوا معنا ورفضوا .

أحب جداً أن أكون منشغلاً بعمل مثل عملك ، بحيث أكتب إليك عنه وإنني لأعجب إذا كان هناك شيء اسمه الشلل العقلي أو أن هذا المرض سيظهر يوماً ما .

صديقك المحب

م. ش. عاموس

القاهرة

٥ من مايو ١٨٩٩

عزيزى برنى

حصلت لتوى على إجازة ثلاثة أشهر ونصف شهر ابتداء من ٩ يونية
وسأصل إلى أرض الوطن فى العاشر من يونية وأنا متشوق لرؤيتك أنت وأليس
وسأضطر للأسف إلى الذهاب إلى باريس أثناء شهر يولية للامتحان ، ولكنى
أظن أنى سأبقى فى إنجلترا مدة كافية بحيث تدفع أصدقائى للنفور منى . فأرجو
أن تعطينى فرصة عادلة لكى أنفرك منى .

أعجبني خطابك الغنائى اللهجة عن مور ، ولقد جعلته موضوعاً لأكثر من
حديث مع الفرنسيين وغيرهم من المتبريرين ؛ فهو يصور الحالة الموجودة فعلا
فيما يتعلق بروح المثقفين فى إنجلترا ، فأنا أقول لهم إن نشاطنا الاستعماري والتجاري
ليس إلا انعكاساً باهتاً جداً للشعلة المتوهجة التى تفتح الدوائر الأدبية والفلسفية ،
بل إن الطابع الحقيقى للوقت الحالى فى إنجلترا هو طابع عصر عظيم يتميز
بنظام سياسى كامل يشرف عليه حزب الأحرار وتتصدده أرسقراطية محترمة
وليست محسودة وينضوى تحته ملايين من طبقة العمال الميسورى الحال الذين
يتنافسون مع طبقة المثقفين والأغنياء فى تهمسهم للإمبراطورية ولأنهم للعرش
واحترامهم للتعليم . نفس الجو الكريم المنعش الذى بعث الحياة فى التجارة
كانت له آثار ضخمة غير مسبوقه فى الحياة العقلية للأمة . وهذا يرى خاصة فى
الجامعات الكبرى التى ليست فقط مركزاً لتخريج رجال الدولة فى المستقبل
وسراة البلاد الذين لا مثيل لحبهم للتحرر واللباقة ، ولكنها أصبحت فى الجليل
الأخير مساوية بل إنها تسمو على مراكز العلم فى أوروبا وأمريكا باعتبارها مراكز
للبحث العلمى الصافى المجرد . آه لو رأيت الفرنسيين الذين يستمعون إلى وهم
ينكمشون . إنهم يستطيعون أن يتحملوا استعراض طائراتنا ويتحملوا معركة
فاشودة لأنهم ليسوا على ثقة أين هى على الخريطة . ولكن عندما يصل الأمر
إلى الفلسفة الأفلاطونية والتجديد فى مسائلها فإنهم يشدون شعورهم .

هذا عبث منى لا يغتفر ولكن سيسرنى جداً أن أراك أنت وأليس مرة
أخرى وأن نتحدث فى جميع أنواع المسائل وفى جميع أنواع الحالات النفسية .
هل قرأت كتاب باريه المسمى (من لا جذور لهم) ؟

المحب

م. شلدون عاموس

الفصل السادس

(١١)

أصول الرياضيات

PRINCIPIA MATHEMATICA

في يوليو سنة ١٩٠٠ انعقد مؤتمر دولي للفلسفة في باريس بمناسبة المعرض الذي أقيم في تلك السنة ، وقررنا ، الفيلسوف هوايتهد وأنا ، أن نذهب إلى المؤتمر ، وقبلت دعوة لقراءة بحث فيه . أحدث وصولنا إلى باريس دويًا بسبب لقائنا مع عالم الرياضيات الفذ بوريل . وكانت كاري توماس قد طلبت من أليس أن تحضر معها من لندن اثنتي عشرة حقيبة فارغة كانت قد نسيها وراءها في إنجلترا . كما كان بوريل قد طلب من هوايتهد وعائلته أن يحضرا ابنة أخيه التي كانت تشتغل مدرسة في إنجلترا . فلما نزلنا في محطة (جاردى نور) كان هناك حشد هائل في انتظارنا وكان معنا تذكرة (عفش) واحدة لنا جميعاً . ووجدنا تذكرة عفش ابنة أخى بوريل كما وجدنا تذكرتنا بسهولة نسبياً . ولكن حقائب كاري الفارغة لم تظهر منها إلا إحدى عشرة حقيبة فقط . وبينما نحن في انتظار الحقيبة الثانية عشرة ، فقد بوريل صبره وانتزع تذكرة العفش من يدي وذهب في صحبة ابنة أخيه التي كانت معها حقيبتها . وهكذا تركنا عاجزين عن المطالبة بحقائب كاري ومتاعنا الشخصي . وتناوبت أنا وهوايتهد نقل المتاع قطعة واحدة في المرة الواحدة ، نحملها وكأنها مدفع نشق به طريقنا بين موظفي المحطة الذين تجمعوا في شكل حلقة . وقد بلغت بهم الدهشة إلى الحد الذي نجمحت معه المناورة التي لجأنا إليها .

كان المؤتمر نقطة تحول في حياتي الثقافية ، لأنني قابلت هناك بيانو Peano

(١) ترجم عنوان هذا الكتاب تحت اسم مبادئ الرياضيات ولكن لعل الترجمة الحالية توحى

أكثر برصانة الاسم اللاتيني .

عالم الرياضيات الكبير ، وكنت أعرفه بالاسم من قبل ، وقرأت له بعض أعماله ولكنى لم أهتم بالإحاطة بها. فلما حضرت إلى المؤتمر وتبعت مناقشاته لاحظت أنها أكثر ميلاً للدقة من مناقشات أى إنسان آخر ، وأنه إذا دخل فى مناقشة مع الغير كانت حجته هى الأقوى . وبانقضاء اليوم تبين لى أن هذا لا بد أن يكون راجعاً إلى منطق الرياضى ، ولذلك استطعت أن أحصل منه على نسخة من كل مؤلفاته . و١١ أن انتهى المؤتمر حتى ذهبت إلى فرنهرست وعزلت نفسى هناك حتى أعكف على دراسة كل كلمة كتبها هو وتلاميذه ، وظهر لى أن كتاباته تقدم أداة للتحليل المنطقى كنت أبحث عنها منذ سنين . وبدراسة أعمال بيانو وصلت إلى أسلوب قوى جديد فى عملى وهو ما كنت دائماً أبحث عنه . وقبل أن ينتهى شهر أغسطس كنت قد أصبحت على دراية تامة بكتابات مدرسة بيانو ، وأنفقت سبتمبر فى تطبيق أساليبه على منطق العلاقات . ويبدو لى الآن بعد هذه السنين الطويلة أن كل يوم من أيام ذلك الشهر كان دافئاً مشمساً . وكان الفيلسوف هوايتهد وعائلته معنا فى فرنهرست فشرحت له أفكارى الجديدة وكان النقاش ينتهى كل ليلة بمعضلة ، وفى الصباح كنت أجد الحل لها بعد أن أتوصل إليه أثناء النوم . وكنت أشعر فى ذلك الوقت بنشوة ذهنية وكانت إحساساتى تشبه إحساسات شخص فرغ من تسلق جبل قد لفه الغمام ، وعندما وصل إلى القمة انجباب الغمام فجأة وأصبحت الرؤيا ممكنة على مدى البصر فى كل اتجاه لمسافة أربعين ميلاً . لقد كنت أحاول منذ سنين أن أحلل الأفكار الأساسية فى علم الرياضيات ، مثل المرتبة والأرقام غير العشرية . وفجأة فى ظرف أسابيع قليلة ، اكتشفت ما كان يبدو لى إجابات نهائية للمسائل المعلقة التى كانت تحيرنى لسنين طويلة . وفى أثناء اكتشافى لهذه الإجابات ، كنت أقدم أسلوباً جديداً أمكن بواسطته أن تتحول مناطق كانت متروكة فيما سبق لأوهام الفلاسفة إلى صيغ مضبوطة لها صفة الدقة . وكان شهر سبتمبر عام ١٩٠٠ يمثل فى حياتى الفكرية أعلى نقطة وصلت إليها وكنت أقول لنفسى إذ ذاك : لقد استطعت الآن أخيراً أن أنجز شيئاً يستحق الإنجاز ،

وكان يخامرني شعور غامر بضرورة المحافظة على نفسي حتى لا أتعرض لحوادث في الشارع قبل أن أفزع من كتابة نظريتي . وأرسلت بحثاً لمجلة بيانو يتضمن آرائى الجديدة . وفي بداية أكتوبر جلست إلى مكتبي لأكتب «أصول الرياضيات» الذى حاولت كتابته من قبل عدة مرات دون نجاح ، والأجزاء رقم ٣ و ٤ و ٥ و ٦ من الكتاب فى طبعته المنشورة كتبت فى أشهر الحريف ، أما الأجزاء رقم ١ و ٢ و ٧ فكننت قد كتبتها فى ذلك الوقت ولكنى أعدت كتابتها فيما بعد ؛ لذلك لم يتم الكتاب فى صورته النهائية إلا فى مايو عام ١٩٠٢ .

وفى كل يوم من أيام أكتوبر ونوفبر وديسمبر كنت أكتب عشر صفحات وانتهيت من كتابة المخطوط كله فى اليوم الأخير من القرن التاسع عشر ، وكتبت خطاباً لهيلين توماس من ٢٠٠,٠٠٠ كلمة فى نفس اليوم أزهو فيه بإنجازاتي . والغريب أن نهاية القرن شهدت أيضاً نهاية ذلك الشعور بالزهو ، فندت تلك اللحظة بدأت تتابنى نوبات فكرية وعاطفية كانت تهبط بي إلى أعماق هاوية لليأس عرفتها فى حياتى .

وفى أثناء الفصل الدراسى الثانى من عام ١٩٠١ أقمت أنا وهوايتهد وزوجته فى بيت الأستاذ ميتلاند فى كلية داوننج بكامبردج ، وكان قد ذهب إلى ماديرا بأسبانيا لأسباب صحية ، وأخطرتنا المشرفة على شؤون منزل الأستاذ ميتلاند أن عوده قد جف جدهاً من أكل الخبز المقدد ، ولكنى لا أعتقد أن هذا هو التشخيص الطبي لمرضه . كانت زوجة هوايتهد فى ذلك الوقت مصابة بمرض أصبحت بسببه أكثر ملازمة للفراش وكانت تقاسى من آلام حادة نتيجة لإصاباتها فى القلب . وتولانا أنا وهوايتهد شعور بالقلق عليها ، فلم يكن مجرد زوج بار بزوجته ، بل كان شديد الاعتماد عليها ، وأخذت أشك فى استطاعته بعد موتها أن يقوم بعمل علمى له قيمته . وفى يوم من الأيام قدم إلى كلية نيونهام بكامبردج (وهى كلية بنات) جلبرت مرى أستاذ الدراسات اليونانية بجامعة أكسفورد ، لكى يقرأ جزءاً من ترجمته لمسرحية يوريبليس العظيمة « هيبولاييس » ، ولم تكن قد صدرت بعد . وذهبت أنا وأليس لنسمعه وقد

حركنى جمال الشعر من أعماق الأعماق^(١) ، وعندما عدنا إلى المنزل وجدنا زوجة هوايتهد فى نوبة قاسية من نوبات الألم ، وكان يبدو أنها قد قطعت صلتها بكل إنسان وبكل شىء ، كأنما أقام العذاب جدراناً تفصل بينها وبين كل ما عداها . وهنا استبد بى فجأة ذلك الشعور الرهيب بالوحشة الذى يغمر الروح الإنسانية . فنذ زواجى سارت حياتى العاطفية مسيرة هادئة سطحية ونسيت كل القضايا العميقة واكتفيت باصطناع الذكاء فى المعايضة . وفجأة انهارت الأرض تحت قدمى وجدت نفسى فى منطقة مختلفة تماماً . وفى غضون خمس دقائق خطرت لى التأملات الآتية ، إن وحشة الروح الإنسانية لا تحتمل . ولا شىء يستطيع النفاذ إليها إلا الحدة البالغة التى يتسم بها الحب الذى يبشر به رجال الدين ، وكل مالا يصدر عن هذا الدافع ضار ولا خير فيه على أحسن الفروض . وبناء عليه فإن الحرب شر ، وتربية المدارس الإنجليزية الخاصة تربية فظيعة ، واستخدام العنف يجب أن يكون موضع تنديد واستنكار ، وأخيراً فى العلاقات الإنسانية يجب أن ينفذ المرء إلى مكمن الوحشة فى قلب كل إنسان ويتحدث إليه . وكان أصغر أولاد هوايتهد فى الغرفة وعمره ثلاث سنوات ، ولم أكن قد التفت إلى وجوده من قبل ولا هو التفت لى . كان يجب أن يحال بينه وبين أمه وهى فى نعمة الألم الذى كان يعتصرها . وتناولت يده لأمضى به بعيداً فتبعنى طائعاً مستسلماً وقد زايه الشعور بالغربة . ومنذ ذلك اليوم حتى موته فى حرب ١٩١٨ كنا صديقين حميمين .

وفى نهاية هذه الدقائق الخمس ، أصبحت إنساناً مختلفاً تماماً . وتملكنى لبرهة شىء من نورانية الصوفية وشعرت كأننى أقف على أدق خلجات كل إنسان أقابله فى الشارع . وعلى الرغم من أن كل هذا كان بلا شك نوعاً من الخداع النفسى إلا أنى وجدت نفسى فى الحقيقة أقرب إلى كل أصدقائى مما كنت ، قبلاً ، بل لقد ازداد اقترابى حتى من مجرد معارفى . ولما كنت من المتشيعين للإمبراطورية حتى ذلك الوقت ، فإننى تبدلت فجأة أثناء هذه

(١) انظر خطابى إلى جلبرت مرى ورده صفحات ٢٤٣ - ٢٤٥ وأيضاً الخطابات المتعلقة بالباكلى ص ٢٥٠ .

الدقائق الخمس وأصبحت موالياً للبورير ومن أنصار السلام . كنت طوال تلك السنين لا أهتم إلا بالدقة والتحليل فإذا بى أجد نفسى ممثلاً بمشاعر أشبه بمشاعر الصوفية فيما يتعلق بموضوع الجمال . وأصبح لى ولع غريب بالأطفال ، وتولدت عندى رغبة عميقة كرغبة بوذا فى العثور على فلسفة تجعل الحياة الإنسانية محتملة ، وتملكتنى نشوة غريبة مثيرة فيها الألم الممض وفيها أيضاً شعور عارم بلذة النصر لأنى أسيطر على الألم وأجعله ، كما كنت أعتقد إذ ذاك، سبيل إلى الحكمة . ولقد وهن فى ذلك الشعور الصوفى العميق الذى كنت أظننى أحسه ، وعادت إلى مرة أخرى عادة التحليل ، ولكن شيئاً مما خيل إلى أننى كنت أراه فى تلك اللحظة بقى معى دائماً ، وهو السبب فى موافى دفاعاً عن السلام أثناء الحرب العالمية الأولى وهو السبب أيضاً فى اهتمامى بالأطفال وعدم احتفالى بالكوارث الصغيرة ، وفى وجود نبرة عاطفية فى كل علاقائى الإنسانية .

فى نهاية الفصل الدراسى الثانى ذهبت أنا وأليس إلى فرنهرست حيث بدأت أعمل لكى أفرغ من كتابة القياس المنطقى للرياضيات الذى أصبح فيما بعد (أصول الرياضيات) وكنت أظننى على وشك الفراغ منه ، ولكن فى شهر مايو حدثت لى نكسة فكرية فى عنف النكسة العاطفية التى انتابتنى فى فبراير . فقد توصل كانتور إلى برهان بأنه ليس هناك حد أقصى للعدد . وكنت أرى أن مجموع الأشياء الموجودة فى العالم يجب أن يكون هو الحد الأقصى للعدد ولذلك حققت برهانه وفحصته بشيء من الدقة وحاولت أن أطبقه على أصناف الأشياء جميعاً وهذا جعلنى أختبر تلك الأصناف التى ليست أفراداً بنفسها وأتساءل عما إذا كان أى صنف من تلك الأصناف يعتبر فرداً من نوعه أم لا . ووجدت أن أى جواب من هذين الجوابين يقتضى وجود عكسه . واعتقدت فى أول الأمر أنه يجب أن تغلب على هذا التناقض بسهولة شديدة ، ولعل هناك خطأ بسيطاً فى التدليل . غير أنه تبين لى بالتدريج أن هذا ليس صحيحاً . وكان بورالى فورنى قد اكتشف تناقضاً مماثلاً وتبين بعد التحليل المنطقى أن هناك شبهاً بالتناقض اليونانى القديم حول إيمينيديس الكرىتى

الذى قال إن كل أهل كريت كذابون . إن تناقضاً مشابهاً أساساً لتناقض إبيمنيديس يمكن أن يوجد إذا أعطينا شخصاً قطعة من الورق مكتوباً عليها : « إن الكلام المكتوب على الوجه الآخر غير صحيح » حتى إذا قلبها بعد ذلك وجد على الوجه الآخر ما يلي « إن الكلام المكتوب على الوجه الآخر من هذه الورقة غير صحيح » . وكان يبدو أنه لا يليق برجل في كامل وعيه أن يضيع وقته في مثل هذه التفاهات ، ولكن ما ذا كان في وسعي أن أفعل ؟ كان هناك خطأ ما مادامت مثل هذه التناقضات لا مفر منها في المقدمات العادية . وسواء أكانت المسألة تافهة أم لا ، فقد كان يواجهني تحد من نوع ما . وفي خلال النصف الأخير من سنة ١٩٠١ اعتقدت أن الحل سهل ، ولكن في نهاية تلك الفترة وصلت إلى أن المسألة فعلا عويصة ، ولذلك عزمت على أن أنتهى من كتاب (أصول الرياضيات) تاركاً الحل معلقاً . وفي الخريف عدت أنا وأليس إلى كامبردج فقد دعيت للتدريس بها لمدة فصلين دراسيين عن المنطق الرياضى . وأصبحت المحاضرات هى الهيكل الأساسى لكتاب (أصول الرياضيات) ولكن لم تكن هناك إشارة إلى الطريقة التى يمكن بها معالجة التناقضات .

وعند انتهائى تقريباً من إعطاء تلك المحاضرات ، وكنا نقيم مع هويتهد وعائلته في ميل هاوس في جراتشستر بالقرب من كامبردج ، تعرضت لضربة من ضربات القدر أعنف من كل الضربات السابقة . ففي عصر يوم من الأيام كنت أركب دراجتى وفجأة ، وبينما كنت أقطع طريقاً زراعياً ، تبينت أننى لم أعد أحب زوجتى أليس .! ولم أكن حتى تلك اللحظة أحس أن حبى لها قد أصابه شئ من الفتور أو أنه تضاعل ، وكانت المشكلة التى واجهتنى بعد ذلك الاكتشاف مشكلة عويصة جداً . فقد كنا نعيش منذ زواجنا في أوثق صورة من صور الارتباط . كنا نشترك في سرير واحد ولم تكن لأى منا غرفة خاصة يخلع فيها ملابسه وكنا نتبادل الحديث في كل ما يخطر لنا . وكانت هى تكبرنى بخمس سنوات وكنت قد تعودت أن أنظر إليها ؛ على أنها أكثر منى حصافة من الناحية العملية وأكثر تبصراً بأمور الدنيا .، ولذلك تركت لها التصرف

في كثير من مسائل الحياة اليومية . وكنت أعلم أنها مازالت على إخلاصها لي ولم تكن لدى رغبة في أن أعاملها معاملة غير كريمة ، ولكنني اعتقدت إذ ذاك : (وقد علمتني التجربة فيما بعد أن هذا الاعتقاد ربما كان في غير محله) أن الإنسان يجب عليه فيما يتصل بالعلاقات الشخصية الحميمية أن يفضي بحقيقة ما يشعر به ، وعلى أية حال لم أكن أستطيع أن أظاھر لمدة طويلة بطريقة مقنعة أنني أحبها ، في حين أنني لم أكن أحبها بالفعل . وأصبحت لا أشعر بأى ميل جنسى نحوها ، وكان هذا حجب عثرة أمامي كلما أردت إخفاء حقيقة مشاعري نحو أليس . وفي تلك الحنة ظهرت على أعراض التزمت الذي ورثته عن أبي وأخذت أبرر مسلكي باعتراضات مبنية على أسس أخلاقية . لم أقل لأليس مباشرة طبعاً إنني أصبحت لا أحبها ولكنها أدركت أن الأمور لم تكن على مايرام . وذهبت أليس إلى مكان للاستجمام لمدة شهور ، فلما عادت أبلغتها أنني لم أعد أحب أن أشاركها غرفة واحدة واعترفت لها في النهاية أن حبي لها قد مات . وبررت موقفي هذا أمام نفسي وأمامها باعتراضات أخلاقية .

ومع أن شعوري بالرضا عن نفسي إذ ذاك يبدو لي الآن شيئاً يدعو للتقزز فإن اعتراضاتي كانت قائمة على أساس قوى ، فقد كانت أليس تحاول أن تدعى العصمة من الآثام وهو مالا ينطبق على أى إنسان ، وهذا دفعها إلى أن تتصنع ما ليس فيها ، وكانت ، مثل أخيها لوجان ، تحب الشر ، كما كانت تحب أن توقع العداوة بين الناس . وكانت تلجأ بشكل غريزي إلى أساليب ملتوية . كانت تكيل المديح للناس حتى يعجبوا بدمائنها وكرم أخلاقها ، ولكنها كانت في قرارة نفسها تنتقد الممدوح بحيث يكون خيراً له لو أنها ذمته . وكثيراً ما كان يدفعها حب الشر إلى التخلي عن الصدق ، قالت مرة لزوجة هوايتهد إنني لا أطيق الأطفال وإن أطفال هوايتهد يجب أن يبتعدوا عن طريقي ما أمكن وأخبرتني في نفس الوقت أن زوجة هوايتهد أم سيئة لأنها لا ترى أطفالها إلا قليلاً . وعندما كنت أركب دراجتي تمثلت لي مثل هذه الخواطر وأصبحت لا أرى في أليس تلك القديسة التي كنت أتصورها في وقت من الأوقات . وتضخمت

الهاجس التي كانت تراودني في غمرة نفورى منها ، فأنستنى المزايا العقيمة التي كانت تتحلى بها في واقع الأمر .

وكان التغيير الذى طرأ على مشاعرى نحو أليس راجعاً بقدر ما إلى أنى اكتشفت في أخلاقها ولو بصورة ضعيفة ، أشياء كنت أكرهها في أمها وأخيها . كانت أليس تكن لأمها إعجاباً لا حد له فكانت تراها مزيجاً من القديسة وحكيم الزمان . وكانت هذه النظرة مألوفة بالنسبة للكثيرين ومنهم مثلاً الفيلسوف وليم جيمس الذى كان يقدس أم أليس . أما أنا ، فعلى العكس من ذلك ، وصلت تدريجياً إلى اعتبار حماتى من أسوأ من عرفت من النساء ، فإن معاملتها لزوجها الذى كانت تحتقره ، كانت مهينة إلى أبعد حد . إذ لم تكن تخاطبه أو تتحدث عنه إلا بلهجة تكشف عن احتقارها له . صحيح أنه كان عجوزاً غيبياً بما لا يدع مجالاً للإنكار ، ولكنه لم يكن يستحق منها أو من أى إنسان في قلبه ذرة من الرحمة كل هذه الزرابة . وكان يتخذ له خلية يعتقد في غياب أن زوجته لا تعلم عنها شيئاً . فكان يمزق خطابات تلك المرأة ويلقى بقطع الورق إلى سلة المهملات ، ولكن زوجته كانت تجمع تلك القطع وتقرأ الخطابات على ابنتها أليس وولدها لوجان ، فكانوا جميعاً يستغرقون في الضحك . وعندما مات الرجل العجوز باعت أسنانه الصناعية ورفضت أن تنفذ وصيته لها وهو على فراش الموت بأن تمنح البستانى خمسة جنيهات (وقد جمعنا المبلغ دون حاجة إلى تبرعها) . وكانت هذه هى المرة الوحيدة التي انتقدتها فيها لوجان ، حتى إن الدموع بللت عينيهِ لفرط ما شاهده من قسوة أمه . ولكنه عاد من جديد إلى احترامها على عادته . ففي خطاب لها كتبته عندما كان ولدها لوجان في الشهر الثالث والنصف من عمره ، قالت : « دخلت أنا ولوجان في أول معركة لأعلمه النظام وقد انتصر هو في المعركة دون أن يعلم ، فيما أعتقد . فقد ضربته بالكهرباج حتى أصبح لونه أسود وأزرق وحتى أصبحت بالفعل عاجزة عن الاستمرار في ضربه ، ولكنه لم يتراجع قيد شعرة ، وأرجو مع ذلك أن يكون هذا درساً له » (١) . وقد كان . فلم تعد بحاجة إلى ضربه مرة أخرى حتى

(١) من كتاب لوجان بيرسال سميث المسى (متنرد على الدين) ص ٨ .

٢٣٣

يستحيل لونه إلى أسود وأزرق . وكانت تنشئ أولادها على الاعتقاد بأن الرجال وحوش وأنهم بلهاء في حين أن النساء ملائكة يكرهن العلاقات الجنسية . ولذلك أصيب لوجان ، كما هو متوقع ، بالشذوذ الجنسي . وكانت تؤمن بجنس الإناث إلى الحد الذي جعل من الصعب عليها أن تحترم مشيئة الخالق وهو ذكر لا أنثى ، فكانت كلما مرت بحانة تقول : « هذا تدبيرك يارب ولو كان الخالق أنثى ، لما كانت هناك خمور » .

وجدت تأييد أليس لأمها شيئاً لا يمكن احتمالها ، ففي مرة عرضت للإيجار فرايدايز هل ، وورد كتاب من بعضهم يسأل عما إذا كانت الشروط الصحية في المنزل قد نفذت تحت رقابة مفتش صحة معتمد . فجمعنا جميعاً حول مائدة الشاي وقالت لنا إن هذه الشروط الصحية لم تعتمد ولكنها ستقول إنها معتمدة . وسارعت أنا إلى الإحتجاج ، أما لوجان وأليس فقد سارعا إلى إسكاتي كما لو كنت طفلاً شقيماً قاطع أستاذه الذي يعلمه . وكنت أحاول أحياناً أن أتحدث إلى أليس عن أمها ولكن محاولاتي كانت بلا جدوى . وفي النهاية امتد نفوري من هذه المرأة العجوز إلى كل من حولها من المعجبين بها بما فيهم زوجتي أليس .

وأتعس أيام حياتي هي التي قضيتها في جرانشستر ، إذ كانت غرفة نومي تطل على الطاحونة ، وكان صوت الطاحونة التي تدور بقوة دفع المياه في النهر يختلط اختلاطاً تاماً بالصوت البائس في أعماقي . فلم تكن تغمض لي عين ليالي طويلة كنت فيها أستمع أولاً إلى العندليب ثم إلى مجموعة الطيور التي تظهر في الفجر ثم أشهد مطلع الشمس وأحاول جاهداً أن أستمع العزاء من جمال الطبيعة في الخارج . وقاسيت بشكل حاد ذلك الشعور بالوحشة الذي أدركت في العام الماضي أنه مصير كل إنسان ، وكنت أسير وحدي في الحقول المحيطة بجرانشستر وأشعر بشكل غامض أن أشجار الصفصاف وهي تهتز بفعل الرياح تحمل لي رسالة من أرض السلام . وقرأت كتب الدين مثل كتاب (تيلر) المسمى « بالموت المقدس » وذلك على أمل أن يكون هناك شيء مستقل عن المعتقدات

الدينية يجعل الذى يؤمن بشيء يشعر بالسعادة فى إيمانه . وحاولت أن أجد ملجأ فى حياة التأمل ، وبدأت فعلاً فى كتابة كتابى (عبادة الرجل الحر) . ولكن الشيء الوحيد فى الكتاب الذى عزانى بعض الشيء هو إيقاع النثر وجرس العبارات .

وطول الوقت الذى كنت فيه منهمكاً فى كتابة (أصول الرياضيات) كانت علاقائى بهوايتى صعبة ومعقدة ؛ كان هوايتى يظهر للعالم الخارجى على أنه رجل هادئ ومعقول وحصيف ، ولكن ما أن يتعرف عليه المرء جيداً حتى يتكشف أن ظاهره غير باطنه . فقد كان يقاسى ، شأن الكثيرين ممن يتحلون بميزة ضبط النفس ، من نزعات أقرب ما تكون إلى الجنون . وقبل أن يلتقى بزوجته كان يفكر فى الانضمام للكنيسة الكاثوليكية ، ولم يحوله عن ذلك فى اللحظة الأخيرة إلا وقوعه فى غرامها . وكان يطارده الخوف من العوز المالى ، ولكنه لم يستطع دفع هذا الخوف بطريقة سليمة بل كان ينفق ببذخ لكى يقنع نفسه أن فى وسعه أن يكون مسرفاً . وكثيراً ما كان يثير زعز زوجته وخدمه حين يتمم بكلام يزجر به نفسه بشكل لا يرحم . وكان يلزم الصمت أحياناً لعدة أيام لا ينبس فيها بكلمة لأحد فى البيت . وكانت زوجته فى حالة خوف دائم من أن يفقد رشده . وأعتقد ، مؤخراً ، أنها كانت تبالغ فى تصوير ذلك الخطر . فقد كانت تميل إلى المغالاة والتحويل فى تصوير الأخطار المحدقة . ولكن الخطر الذى تخشاه كان ماثلاً بالفعل ، وإن لم يكن بالدرجة التى تصورتها . وقد كانت تتحدث عنه معى بمنتهى الصراحة وكنت أجد نفسى متنفقاً معها فى ضرورة الحفاظ على قواه العقلية حتى لا يتسرب إليه الجنون . ومهما يكن من شيء فإن عمله لم يتأثر قط بحالته العقلية بل كان يحس الإنسان أنه يبذل مجهوداً فى ضبط نفسه فوق احتمال البشر . حتى لقد كان انهياره ممكناً فى أية لحظة . وكانت زوجته تكشف دائماً أنه مدين للكثيرين من تجار كامبردج ولم تكن تستطيع أن تخبره أن مالىها من المال لا يكفى للسداد ، وذلك حتى لا تدفعه إلى حافة الجنون . وكنت أتابع مصادر ديونه فى سرية وأقوم بالسداد نيابة عنه ، فقد كان من أعسر الأمور على النفس خداع هوايتى الذى كان

لا شك سيحس بالمهانة لو عرف حقيقة الأحوال . ولكن كانت هناك عائلته وهذه يتعين الإنفاق عليها ، وكان على "كذلك أن أكتب « أصول الرياضيات » ولم يكن من سبيل للوفاء بهذا أو ذاك معاً ، ولكنني دفعت كل ما استطعت أن أحصل عليه من مالى بل اضطررت للاستدانة . وآمل أن تكون الغاية التي كنت أنشدتها مبرراً كافياً للوسيلة التي اتبعتها . وحتى هذه اللحظة (عام ١٩٥٢) لم أكشف أحداً قط في هذا الشأن .

وفي أثناء ذلك كانت أليس أكثر منى تعاسة ، وكانت تعاسها أكبر مصدر لتعاسي . كنا في الماضي نقضى وقتاً كبيراً مع عائلتها ولكنني أخبرتها أنني لم أعد أستطيع احتمال أمها وأنه يتعين علينا لذلك مغادرة فرنسا . وأمضينا الصيف بالقرب من برودواي في مقاطعة ورستشر . وجعلني الألم ميالاً للعاطفة فكنت أنشئ عبارات مثل : « إن قلوبنا تبني أضرحة ندفن فيها ما تبقى من رماد آمالنا التي ماتت » . بل إنني تنازلت وقرأت (ميتزلنك) ^(١) . وقبل ذلك الوقت وفي جرانشستر ، وفي قمة تعاسي ومحنتي انتهيت من كتابي « أصول الرياضيات » . وكان اليوم الذي فرغت فيه من كتابة المخطوط موافقاً ليوم ٢٣ من مايو . وفي برودواي بمقاطعة ورستشر ، عكفت على تنقيحه بحيث أصبح في صورته النهائية كتاب « أصول الرياضيات » المعروف . وفي ذلك الوقت كنت قد ضمنت تعاون هوايتهد معي ، ولكن موقفي غير الواقعي وغير المخلص ثم موقفي العاطفي الذي سمحت لنفسى بالتورط فيه ، أثر على عملي العلمي ، وأذكر أنني أرسلت لهوايتهد مسودة الجزء الأول من الكتاب ، فكان جوابه « لقد ضحيت بكل شيء ، حتى موضوع الكتاب ، لأجعل مسودات الطبع تبدو قصيرة ومحكمة » . وهذا النقص في الكتاب راجع إلى قصور في حالتي النفسية إذ ذاك .

وعندما حل الحريف أقمنا لمدة ستة أشهر في بيت في (شين ووك) ، وأصبحت الحياة محتملة أكثر من ذي قبل ، فقد التقينا بأناس عديدين يشعرون

(١) الكاتب المسرحي البلجيكي الأصل الذي اشتهر بالرمزية في نهاية القرن الماضي .

باللطف والظرف ، مسلين مريحين. وبدأنا نعيش حياة نتصل فيها بالآخرين ولكن كان هذا الاتصال مهدداً دائماً بالتوقف . ولما كنا ، أنا وأليس ، نعيش في نفس البيت فقد كانت تنزل إلى في الطابق السفلى ، بين آونة وأخرى ، بقميص النوم بعد أن تكون قد آوت إلى فراشها ثم ترجوني أن أقضى الليل معها ، وكنت أفعل ذلك أحياناً ولكن النتيجة كانت غير مريحة إطلاقاً . وظل الحال على هذا المنوال تسع سنوات . وكانت أليس تأمل في أن تعيد المياه إلى مجاريها طوال تلك السنين ولم تتعلق برجل آخر . وفي أثناء تلك المدة لم تكن لي علاقات جنسية بغيرها من النساء . وكنت أحاول مرتين في السنة تقريباً أن أعاشرها معاشرة الأزواج على أمل التخفيف مما كانت تستشعره من تعاسة . ولكنها لم تعد تجذبني جنسياً وذهبت محاولاتي هباء . وعندما أمد بصري عبر السنين إلى تلك الأيام أشعر أنه كان ينبغي على أن أكف عن العيش معها في بيت واحد . ولكنها كانت تريدني أن أبقى إلى جانبها بل إنها هددت بالانتحار إذا تركتها . ولم تكن هناك امرأة أخرى أود الذهاب إليها ولذلك كان يبدو أنه ليس هناك ما يمنع من تلبية رغبتها .

لقد قضينا صيف ١٩٠٣ وصيف ١٩٠٤ في (تشيرت) و(تلفورد) ، وتعودت على التجول في الحقول المحيطة بالبلدة كل ليلة من الحادية عشرة مساءً إلى الواحدة ، وبهذه الوسيلة توصلت إلى تمييز أصوات ثلاثة لطائر اسمه السبد (ومعظم الناس لا يعرفون له إلا صوتاً واحداً) وكنت أحاول بكل جهدى أن أحل التناقض الذي سبقت الإشارة إليه . فكنت أجلس كل صباح وأماي ورقة بيضاء ، وأمضي النهار كله ، باستثناء فترة قصيرة للغداء ، محملاً فيها وعندما يحل المساء تكون الورقة في معظم الأحيان مازالت بيضاء على حالها . وكنا نمضي الشتاء في لندن ولم أكن أحاول العمل في فصل الشتاء ولكن صيف ١٩٠٣ وصيف ١٩٠٤ يرتبطان في ذهني بالكساد العقلي ، وكان واضحاً لي أن من غير الممكن أن أتقدم بدون حل لهذه التناقضات ، وصححت عزيمتي على ألا تحول أية صعوبة بيني وبين إتمام كتاب (أصول الرياضيات) ، ولكن كان يبدو محتملاً

٢٣٧

جداً أن تذهب البقية الباقية من عمرى فى الحملكة فى تلك الورقة البيضاء .
وما جعلنى أضيق بها كثيراً أن التناقضات كانت تافهة ، وأن وقى كان يضيع
فى أشياء يبدو لى أنها لا تستحق اهتماماً جدياً .

ويجب ألا يتبادر إلى الذهن أن وقى كله كان يستغرقه اليأس والمجهود
الذهنى فى أن أذكر مثلاً تلك المناسبة ، التى سبق الحديث عنها ، والتى تتعلق
بزيارة (مينارد كينز) لنا فى (تيلفورد) ، من يوم السبت إلى الاثنين .

وابتداء من ١٩٠٥ بدأت الأحوال تتحسن . وقررت أنا وأليس أن نسكن
قريباً من أكسفورد وبنينا لنا بيتاً فى (باجلى وود) ، (ولم يكن فى تلك المنطقة
أى بيت آخر وقتئذ) وانتقلنا إلى هناك فى ربيع ١٩٠٥ وبعد استقرارنا بقليل
اكتشفت « نظرية الأوصاف » التى كانت أول خطوة فى سبيل قهر الصعاب
التي ظلت تحيرنى طويلاً فى علوم الرياضيات . وبعد ذلك مباشرة علمت بموت
(ثيودور ديفيز) الذى تحدثت عنه فى فصل سابق .

وفى عام ١٩٠٦ اكتشفت « نظرية الأنماط » ولم يبق بعد هذا إلا تحرير مادة
الكتاب . وكان عمل هوايتهم كعلم لا يدع له الفراغ الكافى للقيام بهذه المهمة
الآلية . فتوفرت عليها ما بين عشر واثنى عشرة ساعة يومياً لمدة ثمانية أشهر
فى العام ، وذلك من ١٩٠٧ إلى ١٩١٠ وتضخم المخطوط فى الحجم . وفى كل
مرة كنت أخرج للنزهة ، كان ينتابنى الخوف من أن تشتعل النار فى المنزل ويحترق
المخطوط . ولم يكن المخطوط بالطبع من النوع الذى يمكن كتابته على الآلة
الكاتبة أو حتى نسخه . وعندما ذهبنا به أخيراً إلى مطبعة الجامعة ، كان من
الضخامة بحيث اضطررنا لاستئجار عربية ذات أربع عجلات لحمله . وحتى
بعد نقله لم تنته المتاعب ، فقد قدرت المطبعة أن الكتاب سيخسر ستائة جنيه ،
وأبدى الناشرى استعدادهم لتحمل خسارة قدرها ثلثمائة جنيه ولكنهم قرروا
أنهم لا يستطيعون تجاوز هذا الرقم فى الخسارة ، وهنا تقدمت الجمعية الملكية
وتفضلت بدفع مائتى جنيه ، وتعين علينا أن ندفع المائة الباقية . وهكذا كان
ما خسره كل منا بعد عمل عشر سنوات خمسين جنيهاً . وهى خسارة سجلت

رقماً قياسيًّا، في هذا المجال ، يفوق الرقم الذي وصلت إليه ملحمة « الفردوس المفقود » للشاعر جون ميلتون .

وكان لوطأة الشقاء الذي كنت أشعر به وللإرهاق الذهني الشديد الذي امتد بي من ١٩٠٢ إلى ١٩١٠ أثرهما الهائل على^(١) . وكنت أتساءل في تلك الفترة : ترى هل يقدر لي أن أخرج من السرداب الطويل المظلم الذي يبدو أنني تورطت فيه ؟ كنت أقف على القنطرة الصغيرة في (كنجتون) بالقرب من أكسفورد ، أشاهد القطارات وهي تمر تباعاً وأعتزم أن ألقى بنفسي تحت أحدها . وعندما يأتي الغد كنت أجد نفسي وقد عاودني الأمل في أن أنهي من (أصول الرياضيات) في يوم ما . وكانت الصعاب التي تعترضني تبدو لي فوق ذلك وكأنها تحديات لا بد من قهرها ، وهكذا تابرت على العمل حتى فرغت من الكتاب آخر الأمر ، ولكن ذهني لم يشف تماماً من الإجهاد المضو، الذي تعرض له . ومنذ ذلك الوقت ضعفت قدرتي عما كانت عليه من قبل في معالجة المجردات الصعبة ، وهذا يفسر جزئياً تغير طبيعة العمل الذي اضطلعت به بعد ذلك وإن لم يكن يفسره تماماً .

وفي أثناء تلك الفترة كنت أقضي شهور الشتاء من هذه السنوات غالباً في الاهتمام بالقضايا السياسية . وعندما بدأ تشمبرلن يدعو للحماية الجمركية وجدت نفسي متحمساً لإطلاق حرية التجارة . وكان التأثير الذي تركه في نفسي (هوينز) فجعلني أومن بالإمبراطورية وبالاتحاد الجمركي الاستعماري قد تبخر في لحظات المحنة التي مرت بها عام ١٩٠١ ، فأصبحت داعية للسلام . ومع هذا أصبحت في ١٩٠٢ عضواً في ناد صغير للعشاء كان يسمى « المعامل » أنشأه (سيدني وب) بغرض تناول المسائل السياسية من وجهة نظر استعمارية بصورة أو بأخرى . وفي ذلك النادى تعرفت بالكاتب (هربرت جورج واز) ولم أكن قد سمعت به من قبل . وكان أكثر تعاطفاً مع وجهة نظري من أي

(١) انظر خطاباتي إلى لوسي .

عضو آخر ، بل إن معظم الأعضاء أصابوني في الواقع بصدمة عميقة ، وما زلت أذكر عيني (لايمري) وهما تتقدان كلما وردت على خاطره فكرة حرب مع أمريكا تستحق ، كما قال لي في زهو وحماسة ، أن يجند لها كل الذكور البالغين من سكان بريطانيا . وفي ليلة من الليالي ألقى السيد (إدوارد جراي) ولم يكن في الحكومة إذ ذاك خطبة يجند فيها سياسة التفاهم الودي ، ولم تكن هذه السياسة قد تبنتها الحكومة بعد . وأبدت اعتراضى على هذه السياسة بقوة شديدة وبينت أنها ستؤدى إلى حرب محتملة ولكن لم يتفق معى في الرأى أحد فاستقلت من النادى . ومن هذا يتضح أنى بدأت معارضتى للحرب العالمية الأولى في لحظة مبكرة جداً . وبعد ذلك اعتدت التحدث مدافعاً عن حرية التجارة باسم هيئة « رابطة إطلاق حرية التجارة » ولم أكن قد حاولت التحدث في اجتماع عام ، ولذلك كنت في أول الأمر خجولاً مضطرباً لدرجة أنه لم يكن لكلامى أى تأثير . ولكنى بالتدريج تخلصت من الشعور بالاضطراب . وبعد انتخابات ١٩٠٦ وعندما فقدت قضية الحماية الجمركية أهميتها في أذهان الناس ، تحولت للدفاع عن قضية إعطاء المرأة حق الانتخاب . واستناداً إلى مبادئ المناهضة للحرب كنت ضد القائلين باستعمال العنف وفضلت دائماً أن أعمل مع الحزب الدستورى . بل إننى في سنة ١٩٠٧ رشحت نفسى للبرلمان في انتخاب فرعى رافعاً شعار إعطاء المرأة حق الانتخاب وكانت الحملة الانتخابية في (ويمبلدون) قصيرة ومشتعلة الحماس . ومن المحال على من هم أصغر منى سنّاً أن يتخيلوا مبلغ المرارة التى قابل بها الناس الدعوة لمساواة المرأة بالرجل . وعندما قمت في السنوات اللاحقة بحملة ضد الحرب العالمية الأولى لم تكن المقاومة الشعبية التى واجهتنى لتقارن بالمقاومة التى لقيتها الداعيات لإعطاء المرأة حق الانتخاب في عام ١٩٠٧ . وكان الموضوع كله ، عند الغالبية الساحقة من الناس ، يعالج باعتباره موضوعاً للتفكه . فكان الجمهور يصرخ في عبارات ملؤها السخرية موجهاً كلامه للنساء : « لماذا لا تعدن إلى البيوت وتوجهن عنايتكن للأطفال ؟ » وموجهاً كلامه للرجال قائلاً : « هل تعلم أمك

أنك تركت البيت وجئت إلى هنا ؟» وكان هذا الكلام يوجه بصرف النظر عن عمر المتحدث . وكان البيض الفاسد يصبوب إلى وقد أصاب زوجتي بعضه فعلا . وفي أول اجتماع لي كانت الفئران تطلق لتخويف السيدات بل كانت المشتركات في المؤامرة ضدى يصرخن متظاهرات بأنهن مدعورات حتى يلطخن جنسهن بالعار . وهنا صورة من هذه الاجتماعات فيما كتبتة إحدى الصحف في ذلك الوقت .

ضجة انتخابية

إطلاق الفيران لتخويف المطالبات بحقوق المرأة

معركة في ويمبلدون

افتتح صاحب السعادة برتراند رسل ، المرشح عن دائرة ويمبلدون والذي ينادى بإعطاء المرأة حقوقها السياسية ، حملته الانتخابية يوم السبت الماضى . فقد خطب في اجتماع حاشد صاحب في قاعة « و يربل » وكان استقبال رئيس الجلسة السيد او . ه . بيتي (وهو عضو مجلس إدارة رابطة حزب الأحرار) استقبالا اختلط فيه الاستحسان بالاستهجان . وكان المتحدثون في الاجتماع هم : حرم برتراند رسل وهى مرشحة والسيد / سانت جورج كلين فوكس بت الذى لم ينجح في الانتخابات العامة عن حزب الأحرار ، وحرم فيليب سنودن والآنسة أليسون جارلاند وغيرهم ممن لهم صلة بالاتحاد القوى للجمعيات المطالبات بحقوق المرأة .

وكان واضحاً من البداية أن قسماً من الجمهور — حوالى ألفين — معاد لمروجى هذه الدعوة وكثيراً ما كان رئيس الجلسة يطلب إلى المجتمعين أن يكفوا عن الكلام دون جدوى . وفي ظرف عشر دقائق من ابتداء الجلسة حدثت معركة في ركن من القاعة اختلط فيها الحابل بالنابل وانقضت خمس دقائق قبل أن يسود الهدوء مرة أخرى . وقد قفز كثيرون على المنصة والكراسى وأخذوا يشجعون المشتبكين في العراك .

وفي مرحلة أخرى من مراحل الاجتماع أطلقت فيران كبيرة الحجم من حقيية ، واندفعت تجرى على أرض الصالة في كل اتجاه بين عدد من السيدات الجالسات في الصفوف الأولى . وقد ساد المرح والمرح لحظة ، وقفزت السيدات فوق الكراسي في حين أخذ الرجال في صيد الفيران من بين المقاعد واستطاعوا آخر الأمر أن يقتلوا . وفي نهاية الاجتماع أخذوا فأراً من الفيران الميتة إلى (فكتوريا كرسنت) وألقوا به في غرفة اللجنة الانتخابية للمرشح .

على أن الهرج الذي ظهر في الاجتماع اقتصر على حشد ضخم من الرجال والشبان الذين لا يشعرون بالمسؤولية والذين كان يجب ألا يسمح لهم بدخول الاجتماع ، وليس من الإنصاف لوم ناخبي ويمبلدون جميعاً على التصرف المشين الذي بدا من الغوغاء المشتغلين بالسياسة .

وقد قابل المجتمعون السيد رسل بالتصفيق الحاد وبمقاطعة حديثه ، ولما استمرت المقاطعة توجه رئيس الجلسة إلى المجتمعين قائلاً : « ليست هذه بالتأكيد هي الطريقة التي يعامل بها رجال ويمبلدون ونساءها ضعيفاً غريباً » وهنا انطلق صوت يقول : « هل يؤثر هذا في عزيمتنا ؟ » وأجابته صرخات كثيرة « لا » وبعد ذلك بدقيقة أو اثنتين طلب رئيس الجلسة إلى المشاغبين مرة أخرى أن يكفوا ، ولكنه لم ينجح في تهدئتهم إلا لمدة قصيرة وبعد أن ناشدهم ألا يجلبوا العار على اسم ويمبلدون . وأعلن السيد / رسل أنه مرشح أولاً وقبل كل شيء للمناداة بإعطاء المرأة حقوقها السياسية على قدم المساواة مع الرجل ، وبالشروط التي تمنح للرجل . وصاح صوت من القاعة : هل نريد ربات الحجال ؟ وأجابته صيحات مدوية : كلا . واستأنف المرشح كلامه قائلاً إنه يؤيد الحكومة الحاضرة ، (صيحات استحسان وصخب في نفس الوقت) وإن أهم مسألة يختلف عليها الحزبان ، الأحرار والمحافظة ، هي مسألة إطلاق حرية التجارة ، ومن المسائل المتصلة بحرية التجارة مسألة ربط الضريبة على الأرض حسب قيمتها . وهنا نهض السيد / فوكس بت ، وقد كست وجهه ابتسامة عريضة . وكان ينوي أن يتحدثهم عن شيء من تاريخ السيد / تشابلن ولكن الحاضرين لم يمكنوه من ذلك فاستسلم يائساً . سرق الذاتية

أما حرم فيليب سنودن فقد أبدت همة أعلى ، وعلى الرغم من أنهم قابلوها في البداية بالصفير والسخرية إلا أنها استطاعت أن ترغمهم على الإنصات بدرجة لا بأس بها. وقد تحدثت أيضاً حرم آرثروب والآنسة أليسون جارلاند والسيد والتر ماكلايرين . ووافق المجتمعون على قرار بتأييد السيد برتراند رسل بأغلبية ساحقة .

كانت دراسة الذكور المهددين بفقدان سيادتهم على النساء أمراً مفهوماً ، ولكن لإصرار أعداد ضخمة من النساء على إطالة بقائهن في وضع مزر بخنسن كان أمراً عجيبيّاً حقّاً . فلمست أذكر أن السود في أمريكا أو عبيد الأرض في روسيا قد لجأوا إلى أعمال العنف ضد حركة تحريرهم ولكن في إنجلترا كانت الملكة فكتوريا من أشد أعداء منح المرأة حقوقها السياسية .

ومنذ أن قرأت في سن المراهقة كتاب الفيلسوف (جون ستيوارت مل) في الموضوع وأنا من المتحمسين لمساواة المرأة بالرجل . وكان ذلك قبل أن أعلم بأشراك والدتي في حركة تحرير النساء في الستينيات من القرن الماضي . وليس هناك ما يدعو للدهشة أكثر من انتصار قضية المرأة في العالم المتحضر بهذا الشكل السريع الحاسم . وإني لسعيد بأنني شاركت بنصيب في أمر قدر له هذا النجاح .

ومع ذلك فقد أصبحت أعتقد أن الحقوق السياسية المحدودة التي كنا نطالب بها للمرأة في ذلك الوقت كانت أصعب منا من الحقوق الموسعة التي لو طالب بها الأحرار لفازوا وهم في السلطة بمزايا كبيرة . ولكن الداعين في ذلك الزمان لإعطاء المرأة حقوقاً محدودة كانوا يمانعون في توسيع هذه الحقوق ، لأنها كانت ستؤدي إلى إتاحة الفرص أمام عدد أكبر من النساء ، إلا أنها لن تساوى في الحقوق بينهن وبين الرجال . وبذلك لن يتحقق مبدأ المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة . وعند هذه النقطة تركت المتطرفين من أعضاء الحركة وانضمت لجماعة كانت تدعو إلى منح حق التصويت لبالغي سن الرشد من الجنسين . ومؤسسة

٢٤٣

هذه الجماعة هي مرجريت ديفيز (أخت كرومبتون ديفيز وأخت نيود ورديفيز) ورئيسها هو آرثر هندرسون . وكنت في ذلك الوقت لا أزال عضواً في حزب الأحرار وحاولت أن أتصور آرثر هندرسون ثورياً عنيفاً ، ولكنني لم أكن موفقاً في تصوري هذا .

كانت السنوات الثمانية ما بين ١٩٠٢ و ١٩١٠ سنوات أليمة جداً بالنسبة لي ورغم ما تخللها لفترات قصيرة من الشعور بالراحة والطمأنينة . صحيح أنها كانت سنوات مثمرة جداً من ناحية العمل ، ولكن اللذة التي كنت أستملها من كتابة « أصول الرياضيات » اقتصرت فقط على الشهور الأخيرة من ١٩٠٠ وبعدها ثقلت عليّ وطأة العمل فلم تدع مجالاً للذة . وكانت السنوات الأخيرة خيراً من السنوات الأولى لأنها كانت أغزر منها ثماراً . ولكن الهبة الوحيدة الحقة التي شعرت بها نحو هذا العمل لم تتم إلا عندما سلمت النسخة المخطوطة لمطبعة جامعة كامبردج .

خطابات

من وإلى جلبرت مري

كلية داوننج

كامبردج

٢٦ من فبراير ١٩٠١

عزيزي جلبرت

فرغت من قراءة ترجمتك لمسرحية « هيبولايتس » ليوريبديس وأراني مدفوعاً إلى التعبير لك عن تأثيرها العظيم علي . فن يحبون الشعر منا يقرأون روائع الأدب الحديث قبل أن يتاح لهم أن يعرفوا الانفعالات القوية التي تنخر بها هذه الروائع القديمة . والتقدم إلى رائعة جديدة بعقل أكثر نضجاً بشكل تجربة رائعة ، وجدتها تكاد تغطي على كل ماعداها .

لم تحدث لى هذه التجربة من قبل ولم أكن أصدق إلى أى مدى ستؤثر فى .
وهذه المأساة التى ترجمتها تحقق تماماً فيما يتراعى لى الغرض من إظهار ذلك
الجانب النبيل الرائع فى شعورنا بالحزن . وهى بالنسبة لأولئك الذين لا يعتنقون
منا ديناً معيناً ، تشكل العزاء الوحيد الذى لا يستطيع عرض الدنيا أن يحرمنا منه .

إن المسرحية الأصلية كانت جديدة علىّ وقد شعرت بقوةها بشكل حاد
ولكنى أشعر أيضاً أن شعرك أنت يستحق موضوعه تماماً ، ويجب أن يدرج
فى شريحة خاصة محدودة جداً تشتمل على القصائد الإنجليزية العظيمة حقاً .
وأشد ما استهوانى من قصائد تلك القصيدة الغنائية التى ختمت بها قراءتك
الشعرية فى كلية (نيونهام) . لقد حفظتها عن ظهر قلب فى الحال ، وظلت
عالقة بذهنى منذ ذلك الوقت إلا أن هناك كلمة واحدة لست راضياً عنها
تماماً وهى كلمة bird-drove فهى من ناحية القافية فى محلها تماماً ، ولكن
يبدو لى أن كلمة drove تعنى شيئاً يسوقه أحد ، وهذا يتنافى مع مانوحى به
الفكرة إلى ذهنى من الهدوء والسكينة .

أخوك إلى الأبد

برتراند . رسل

بارفورد تشيرت

فارنهام

٢ من مارس ١٩٠١

عزيزى برنى

لن أقول إننى مسرور ومنشرح الصدر لاستمتاعك بهيولاييتس لأن
مشاعرى مختلفة تماماً . ولكن مدحك القوى يمثل شبه مرحلة فى حياتى ونظرتى
إلى أعمالى . لقد شعرت طبعاً بانفعال كبير وأنا أعلم فى هيولاييتس فقد كانت
تسحرنى ، ولكن الفكرة التى كانت دائماً تراودنى أن هناك عشرات من التراجم
لكتاب المأساة الإغريق فى كل المكتبات التى تباع الكتب المستعملة ، وأننى

لا أستطيع أن أقرأ أيّاً منها بأقل نصيب من الاهتمام ، وربما كان مؤلفوهذه الكتب جميعهم يشعرون كما أشعر أنا تماماً بروعة الجمال وقوة البيان فيما يتصدون لنقله . والمترجم ، إذا وفي الترجمة حقها ، إنما يدرك قصد المؤلف أكثر من القارئ العادى ، ومن حين إلى آخر توحى له القصيدة بشيء قريب مما كان يقصده المؤلف .

إن كل المؤلفين طبعاً ، وبدرجات متفاوتة ، يفشلون فى توصيل المعنى الذى يريدونه . والمترجمون فشلهم أكبر من باب أولى ، لأن قدرتهم على الكتابة أضعف والمهمة التى تواجههم أعسر . هذا ما يجرى عادة فى مثل هذه الأحوال ولكن الذى يبدو أنه حدث فى حالتنا هو أنك استطعت بطريقة أو بأخرى أن تفهم وتشعر بكل ما أردت أن أوصله للقارئ .

ولا أعنى أن هناك شيئاً غامضاً أو شيئاً غير عادى فيما أقول ، ولكن ما أعنيه ببساطة هو أنه حتى فى حالة الشاعر الردىء أو رجل الشارع فى بعض أطواره إذا أمكنك أن تفهم حقيقة ما يدور فى ذهنه فإن هذا يكون شيئاً جميلاً ومدهشاً إذا قورن بما يحصل عليه الإنسان عادة إذا قرأ قصيدة غاية فى الجودة . وعندما أضيق بالشعر يساورنى الشعور دائماً أننى ببساطة لأفهم الشاعر أو أنه لم يعبر عن نفسه ، إذ من المحتمل أن يكون هناك شيء لطيف جداً لم يجد طريقه إلى التعبير . وفى لحظة من لحظات الإشراق ، يستطيع المرء أن ينفذ إلى أعماق الشاعر ويستخلص ذلك الشيء اللطيف .

إننى أدرك ما ترى إليه بالنسبة لكلمة Bird-Drove وسأحاول أن أغيرها ولكنى لا أستطيع أن أجده بديلاً خيراً منها حتى الآن . لقد وصلتنى المخطوطات .

أخوك إلى الأبد

جلبرت مري

فرايداي ز هل

١٣ من أبريل ١٩٠٢

عز يزى جلبرت

ألاحظ في كل مناقشاتنا حول المسائل الأخلاقية اختلافاً بيناً حول المقدمات المنطقية ، وتعارضاً حقيقياً فيما يختص بالمقاييس التي تقيس بها السلوك . ولما كنت حريصاً على توضيح رأيي في موضوع النوازع الأخلاقية التي تنبع من داخل النفس مباشرة (وكل الأخلاق ، كما هو بديهي ، لابد أن تعتمد على هذه النوازع) ، ولما كان التعارض حول الأساسيات يثير الشكوك ، لذلك أود أن أحاول تبين هذه الاختلافات بشيء من الدقة والتثبت وخاصة أن موقف كل منا لا يحتمل التوفيق مع موقف الآخر الأخلاقي .

إن خلافتنا ، فيما يبدو ، ناشئة من أنك تؤمن بالمذهب النفعي في الأخلاق في حين أحكم أنا على اللذة والألم باعتبارهما أقل أهمية من المعرفة مثلاً ومن تذوق الجمال وتأمله والتفوق الذهني الحقيقي الذي يعتبر مزية بصرف النظر عن تأثيره العملي في واقع الحياة . والذي أريد أن أتحقق منه هو ما إذا كانت مبادئك الأخلاقية ليست مستمدة من المذهب النفعي وليست بالتالي مما نتفق عليه . (لا بد من ملاحظة أن طريقة سدجويك في كتابه عن الأخلاق ، طريقة خاطئة ، فهو يناقش فيه عدداً من المسلمات الأخلاقية ويبرهن على أنها ، بصفة عامة ، كتلك التي يعتبرها المذهب النفعي ، على درجة متوسطة من الأحكام الأخلاقية ، وذلك إذا قبلنا طريقة سدجويك في تحليل الأساس الفطري العام أي أن نظريته مؤداها أن النوازع الفطرية المباشرة هي المصدر الوحيد للأحكام الأخلاقية ، وذلك لأن هذه الأحكام إذا كانت تعبيراً عن وعي أخلاقي فيجب أن تقبل حتى في تلك الظروف الاستثنائية التي تتعارض فيها مع المذهب النفعي ، وهكذا فكل حكم لا يستمد بصفة مباشرة من المذهب النفعي لا يمكن أن يتفق معه) .

ويحسن هنا أن أبادر بالاعتراف بأنه كان يبدو لي بدهياً لسنين طويلة

أن اللذة هي الخير الوحيد . أما الآن فإن العكس يبدو إلى بدهياً . وسبب هذا التغير الذى طرأ على تفكيرى يرجع إلى ما يمكن أن أسميه بتجربتي الأخلاقية . فالفيلسوف العادى سيقول لك إن التجربة لا صلة لها بالأخلاق ، لأنها تدلنا على ماهو واقع فقط ، لا ما يجب أن يكون ، ولكن هذا الرأى يبدو لى خاطئاً من الناحيتين الفلسفية والعملية . وهو يعتمد على نظرية مشهورة فى المعرفة يعتنقها للأسف كثير من الشبان ، فلاسفة المستقبل . وأنا أعلم أن الذى يحدث فى عملية الإدراك ، هو أن المعرفة ليس سببها الشئ المدرك ، ومن الواضح أنه ، إذا كان الإدراك تجربة فكذلك كل ما يتكون فى إطار الزمن لأى سبب من الأسباب بالنسبة للمعرفة التى نتوصل عليها عن طريق معرفة أخرى بالاستنتاج . إن الظروف من شأنها أن تولد معتقدات أخلاقية ملموسة تماماً . فهذا أو ذاك مما هو حاضر الآن ، خير أو شر ، وبسبب قصور فى الخيال يستحيل عادة التكهن سلفاً بما سيكون عليه رأينا الأخلاقى فى أى حقيقة من الحقائق . ويبدو لى أن التوازن الأخلاقية الأصيلة هى من هذا النوع الملموس ، وأننا فى الحقيقة نرى الرأى فى الأشياء بالخير أو الشر كما نرى أشكالها وألوانها . والرأى بأن الأحكام الأخلاقية مستكنة فى الضمير يبدو لى خطأ شجعت عليه الوصايا العشر . وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن الطريقة المثلى فى علم الأخلاق هى الاستنتاج من حقائق تتأكد بالتجربة ، وتتخذ من ذلك العمل الأخلاقى الذى تقدمه الحياة لكل من يفتح عينيه لها . وهكذا تجد أن المبادئ التى أود أن أدعوها هى استنتاجات من مثل هذه التجارب الأخلاقية المباشرة الملموسة .

لقد كان أول ما حولنى عن المذهب النفعى هو إيمانى بأنه ينبغي على أن أدرس الفلسفة ولو أنه لم يكن يخامرنى شك (ولا يخامرنى الآن) فى أن دراسة الاقتصاد والنظريات السياسية أكثر تحقيقاً لمزيد من سعادة بنى البشر . فقد كان يبدو لى أن كرامة الوجود الإنسانى لا تتحقق بالانقطاع لوجوه الحياة الآلية ، وأنه مالم يتوفر لنا تأمل الأشياء الخالدة ، فلن يكون حال الإنسان خيراً من الخنازير المعلوفة جيداً . على أنى لأعتقد أن مثل هذا التأمل سيؤدى

بنا إلى السعادة بوجه عام . إنه يعطى لحظات من البهجة ، ولكن هذه اللحظات تقابلها سنوات من الجهد والضنى . وقد فكرت أيضاً في أن قيمة العمل الفنى ليست لها علاقة من أى نوع باللذة التى يجدها هذا العمل الفنى ، وكلما قلبت هذا الموضوع فى رأسى آثرت التشف والزهة وفضلتهما على الترف والنعيم . ويبدولى الآن أن الرياضيات فيها من الجمال الفنى قدر مماثل لما فى الموسيقى إن لم يكن قدراً أكبر ، لا لأن اللذة التى تتحقق (ولو أنها لذة خالصة) يمكن مقارنتها ، سواء فى حدتها أو فى عدد الذين يشعرون بها ، باللذة التى تتم عن طريق تذوق الموسيقى ، ولكن لأنها توفر صورة من الكمال المطلق ، ذلك الخليط الرائع الذى يميز الفن العظيم والذى يتكون من حرية تشبه حرية الآلهة والإحساس بالقدر الغلاب الذى لا مفر منه . فالرياضيات فى الحقيقة تبنى عالماً مثالياً كل ما فيه كامل وإن كان أيضاً حقيقة واقعة . ثم إنه فيما يتعلق بوجود الإنسان ، أراى أجد الذين يشعرون بمأساة هذا الوجود ، والذين يفكرون فى الموت والذين يضيقون بالتواضع والسخافات حتى إن كان لا مناص منها . على أن هذه الأمور جميعها لا تحقق السعادة فيما يبدو ، بل تفسدها ، ليس فقط بالنسبة للذين يملكونها بل بالنسبة لكل من يتأثرون بها . وأحسن حياة فى نظرى هى ، بعامة ، تلك التى تجعلنا نفكر بحق ونشعر بعمق حيال كل ما يتصل بالإنسان ، وتتيح لنا ، علاوة على هذا ، أن نتولى الجمال ونستمتع بالحقائق المجردة . وهذا الاستمتاع بالحقائق المجردة هو أقوى عامل يبعدنى عن المذهب النفى . فأنا أؤمن بأن كل معرفة تتعلق بالأشياء الموجودة فعلاً ، أى بكل ما يسمى عادة بالعلوم الطبيعية ، ليست إلا ذات قيمة ضئيلة إذا قورنت بتلك المعرفة الأخرى التى تتمثل فى الفلسفة والرياضيات مثلاً بما يتعلق بالأشياء المثالية الخالدة التى تحررت من ربة هذه الحياة الدنيئة .

إن النقطة التى أريد تأكيدها من وراء هذا كله هى أن كل من تعينهم الأخلاق ومن لا ينحازون لنظرية معينة ، يشاركونى هذا الرأى الذى أراه . لقد كان (أرشميدس) فيما أعتقد محترماً من كل المشتغلين بالهندسة فى عصره

لأنه استخدم الهندسة في ابتكار اختراعات مفيدة . وقد كان أصحاب المذهب النفعي حريصين حرصاً غريباً على إثبات أن حياة الخنازير ليست أسوأ من حياة الفلاسفة ، وهذا موقف مثير جداً للشك والارتياب . ولو قدر لهم أن يفحصوا الأمر جيداً لما وصلوا إلى هذه النتيجة جميعاً . وكذلك الشأن في الفن ، وقد استطعت أن أقنع برأى فيه كل من له رأى بصير ، فليس هناك من يفضل أغنية من الأغاني الشائعة على موسيقى باخ . ويجب أن ننوه في هذا الصدد إلى أنه يتحتم على أصحاب المذهب النفعي أن يؤمنوا بأن الشيء الجميل ليس جميلاً في ذاته ، ولكنه جميل باعتباره وسيلة لشيء آخر ، وهكذا يصبح من الصعوبة بمكان أن نفهم لماذا يكون خيراً لنا أن نتأمل الجمال ، لأنه لا سبيل إلى إنكار أن هذا الشعور الذي يشعر به من يستطيع تذوق الجمال في الشيء الجميل يمكن أن يحصل عليه شخص آخر إذا نظر إلى شيء قبيح . ولا يمكن تعريف الشخص الذي يتذوق الجمال إلا بأنه ذلك الشخص الذي يختبر هذا الشعور الذي ذكرته من خلال تعرضه للجمال لا للقيح . على أننا جميعاً نحكم على شخص ما بأنه أفضل من غيره لأن عنده ذوقاً ، ولا يمكن إلا لشخص يتبع النظرية تبعية عمياء الاعتقاد بأن الذوق بهذا المعنى يؤدي إلى السعادة وينمىها ، وهنا مشكلة بالنسبة لأصحاب المذهب النفعي .

كل هذه الحجج التي أسوقها قديمة قدم أفلاطون . ولكني أريد أن أعرف منك ، عندما يتوفر لديك الفراغ الكافي ، بماذا يرد أصحاب المذهب النفعي عليها . إن الكتب لا تحتوى إلا على سفسطة وأكاذيب وآراء ربما كانت منطقية فقط بالنسبة لمن يعيشون في غرفة مكتبهم ولا علم لهم مطلقاً بالحياة ، ولكنها لا تستقيم بالنسبة لكل من يواجه هذه الحياة القميئة بكل ما فيها من خسة ، والتي لا يظفر فيها المحسن إلا بالعقاب ولا يظفر فيها المسيء إلا بالثواب والتي يحيا فيها صاحب الرذيلة بالرذيلة فإذا مات ، مات بها سعيداً مكرماً .

أخوك للأبد

برتراند رسل

١٤ شينى ووك

تشلسى . ج . غ .

٢٧ من نوفمبر ١٩٠٢

عزى جليبرت

كنت أقرأ (الباكاي) مرة أخرى ، وتبدو لي هذه المسرحية أعظم من هيبوليتس وأروع في الحقيقة من أية مسرحية قرأتها على الإطلاق ، ربما باستثناء مسرحية هاملت ومسرحية الملك لير ^(١) . لقد أخذت تستحوذ على بالتدريج منذ قرأتها للمرة الأولى ، وهى كشأن كل الأشياء العظيمة لا يمكن إطلاقاً أن نعيها بالكامل ، ولكن تتكشف لنا نقاط جديدة فيها على الدوام .

إن الشعور العجيب الغامض الذى يسمو بالمرء وهو يقرأ كلام الجوقة له تأثير طاع متسلط ، وهذا العالم الجبار الذى يصوره ، مزيناً من روعة الجمال وأفانين الأوهام ، يصمد حتى النهاية أمام العالم الدنيوى الذى نعيش فيه عامة يومنا . وأعترف أن المسرحية فى مجملها ليست معضلة فى فهمها على الإطلاق بل إن فهمها يسير وهين على الذين تملؤهم النشوة المقدسة سخطاً على أولئك المتشككين الذين يشدوهم من جديد إلى مألوف الحياة . ومن الأشياء المعروفة أن عبادة الجمال تؤدي إلى القوضى . لم يكن من المعقول جعل (بنثيوس) شخصية تثير الرضا . وأعتقد أنه يمثل الجمهور البريطانى ورغبة الطبقة الوسطى فى أن تحظى بالاحترام والتوقير . فهؤلاء المحترمون ، وإن كانوا من الناحية الأخلاقية أعلى قدراً من عباد باكوس (إله الخمر) ، إلا أنهم لا يحركون شعوراً بالحجة نحوهم فى الصراع الذى يثيرونه .

أعتقد أن البحور الشعرية التى تستخدمها ، وذلك بعد أن درستها وفحصتها . بحور جميلة جداً ومناسبة تماماً للمشاعر التى تعبر عنها ولو أنه ربما لا يوجد

(١) لير وهاملت من مسرحيات وليام شكسبير .

كلام جوقه بجمال الكلام الذى جرى على لسان الجوقة فى هيبولايتس ، إذ أعتقد أنك أظهرت هنا براعة أكثر مما فعلت هناك . وإذا وضعنا كل شىء فى الاعتبار فلا بد أن تكون جديراً تماماً بالتهنئة . ألا ترى أنك تحسن صنعاً لو مضيت فى مثل هذه التراجيم ؟ إن الترحمتين اللتين قمت بهما كانتا بالنسبة لى عوناً كبيراً فى أوقات الشدة ، إذ عاونتاى على الإيمان بالجمال وبكرامة الإنسان التى لا بد أن تنتصر فى النهاية ، وبعد أن كنت مهدداً بفقدان هذا الإيمان . ولولاهما لوجدت يومى بالتأكيد أثقل وطأة فى المضى إلى غايته . لا بد أن يكون هناك كثيرون يشعرون بنفس الشعور ، ومادامت عندك القدرة فلا بد أن تشعر بواجبك نحوهم أيضاً ، أليس كذلك ؟ إن كلاً منا أشبه بشخصية أطلس فى الأسطورة اليونانية يحمل عل كاهله مثله العليا . والشاعر . أكثر من سواء ، يجعل الحمل خفيفاً على الكواهل التى أصابها الكلال والإجهاد .

ياليتنى أعلم كيف أوفق بين عالم الجمال وعالم الأخلاق . هناك فضائل معينة لا شك فى أنها جميلة ولكن هناك فضائل أخرى كثيرة ليست كذلك فيما يظهر .

كنت أقرأ جمهورية أفلاطون ، وأنا مع أفلاطون فى أن شعراء المأساة يجب أن يشعرونا بأن فى الفضيلة جمالا ، ويجب (بصفة عامة) أن يتحاشوا مدح الرذيلة . إن تشدد أفلاطون فى مسائل الفن يحظى منى بالرضا ، لأنه ليس من قبيل التشدد أو السخط الذى يتشدد به المتزمتون من أهل الماديات .

الممتن لك

برتراند رسل

١٤ من شينى ووك

تشلسى ج . غ .

٤ من ديسمبر ١٩٠٢

عزيزى جليبرت

سرني أن تقديري لعملك كان مشجعاً لك . صحيح أن قضاء وقت الفراغ في ترجمة الروائع الكلاسية ليس فيما يبدو بالذى يدرج ضمن مآثر الميت عندما يعلن موته . ولكن على المرء أن يختار عبارات أكثر إشراقاً لوصف مثل هذه المخاطر . لقد عدت إلى كلام الجوقة الذى يبدأ بهذه العبارات « أيتها الكلاب النابحة المغناة » وليس فيه أدنى صعوبة في الفهم . ويبدو محتملاً جداً أن عبارة « القمارورات القديمة » فيها المعنى الحقيقي للوحشية . ولكن من السهل ، إذا استهوت الشخص مثل هذه الأشياء ، أن يبحث لها عن تفسير سيكولوجي . هل خطر لك يوماً وأنت تتأمل غروب الشمس أن يقطع عليك هذا التأمل من يصيح : « يا اللعنة . يا للجحيم . لقد نزل علينا فلان الزائر ! » . في مثل هذه الظروف يمكن أن يكون زائر أشبه بالذى (يتلصص على من أخذته الجلالة) . ولعلك لا تعلم أنه عندما يزورك أحد ممن أعماهم حب المادة ، وعندما يقطع عليك خلوتك في عالمك اللطيف الذى تمثله في خيالك ، يحدث التذبذب بين حالتين نفسيتين ، حالة يعز عليك فيها أن تتخلى عن صفائك ، وحالة يستبد بك فيها شعور بالغضب من ذلك الفظ الغليظ القلب الذى دنس عليك قدس الأقداس . هل تذكر ما أشار إليه الشاعر (وليام بليك)^(١) عن تدنيس المعبد المقدس في عباراته التى يبدأها بقوله : « لقد رأيت معبداً مصنوعاً كله من الذهب » وينتهى بقوله : « لذلك رجعت إلى مربوط الخنازير ، وشاركتها ماهى فيه » . إن هذا يصدر عن شخص يعبد إله الخمر باكوس بعد أن عجز أمام بنثيوس ولعله بسبب توارد هذين الاثنين دائماً ، ضربت أنت المثل (بليفين) . ولكنى أشعر أنك لجأت إلى ذلك من قبيل التوضيح ، وهذا هو الذى جعل (الباكاى) تبدو سهلة القراءة في الترجمة .

(١) وليام بليك ١٧٥٧ - ١٨٢٧ شاعر وفنان وصوفي إنجليزي .

٢٥٣

نعم أعرف من هم آل ستورز ، وأستطيع أن أتخيل كيف يصعب عليك أن ترحل في الوقت الحالي ، ولا بد أن غيابك سيضاعف العبء على ماري .
يؤسفني أنك مؤرق مهموم . أحياناً تكون ليالي الأرق فرصة للتفكير في أشياء تكون مصدراً للراحة النفسية طوال النهار . إنني أجد الظلام يساعدي في استخلاص جوهر الأشياء والتركيز عليها بالكامل . ولكنني فهمت من خطابك أنك لا تجد مثل هذا العزاء .

أليس بخير . والنهر يتألق كالبرونز الذي يلمع تحت شمس تشرق على الصقيع ، والزوارق الطافية تنساب بظلالها المعتمة في وسط هذا الضياء وكأنها أضغاث أحلام من ذكريات الطفولة .

تحياتي لزوجتك ماري ، اكتب ثانية كلما وجدت الوقت . فإني أحب أن أعرف كيف تسير الأحوال المنزلية - وكيف حال روزالند إلى آخر هذه الأنباء .
أخوك إلى الأبد

برتراند رسل

١٤ شينى ووك

تشلسي ج . غ

١٢ من ديسمبر ١٩٠٢

عزيرى جلبرت

يناسبنا جدا أن نراك اليوم الاثنين على الغداء ، وقبل موعد الغداء إذا أمكنك الوصول مبكراً . سأنتظرك حول الساعة الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة . ولكن يبدو أن مس هاريسون ستكون قد رحلت . لقد كنا نحاول أن نبقى ولكنها تؤكد (حالياً) أن هذا غير ممكن . وهي ترجو أن تذهب لرؤيتها بعد الغداء وبأسرع ماتستطيع وذلك في عنوان لا أعرفه ، ولكنها ستخبرك به ولا شك في الوقت المناسب .

سيسرني جداً أن أراك وأنا أتطلع إلى هذه المناسبة بلهفة وتشوق ، ولكنني آسف لأنك لن تقابل مس هاريسون . لقد غلبتني فنشرت قصيدتك مطبوعة .

أحضر لى نسخة معك يوم الاثنين . ألا تستطيع أن تمضى ليلة الاثنين معنا هنا ؟
 سيسرنا جداً أن ندبر لك فراشاً . وذلك فى حالة غياب عمى روزالند فى المدينة
 ولكننا ستعشى خارج المنزل . إن لندن مكان متعب ، ومن المستحيل التفكير
 أو الشعور بشيء جدير بالإنسان وكرامته — إننى أشعر بالضيق القاتل هنا .
 ليس لى هنا أصدقاء إلا النهر وطيور النورس وهذه لا تؤتى مالاً ولا سلطة .
 تعرفت فى الليلة الماضية على (مكيل) وزوجته وقد سررنا لذلك . إن زوجته
 جميلة حقاً . وقد سمعت الكثير عن اتزانها وحكمته فدهشت عندما وجدته
 متعصباً إلا أنه بالنسبة لى ديمقراطى جداً — قال لى إن المرأة التى تنظف له
 المدخنة على صلة بواقع الحياة أكثر من أى إنسان عرفه — ولكن ماذا يمكن أن
 تعرف هذه المرأة عن أرواح العظماء أو تاريخ الإمبراطوريات التى بادت أو الرؤية
 الفنية والفكرية ؟ كنت أريد أن أقول هذا كله وأكثر منه ، ولكن الكلمات
 وقفت فى رحلى . ولا داعى لأن نخدع أنفسنا ونتعلق بأمل كاذب يصور لنا
 أن فى وسع كل منا أن يحصل على أعظم ألوان الانفعال العاطفى حيث لا يصاحبه
 فكر يمكن أن يصل بنا إلى أعلى المستويات . كل هذه التفاؤلات تنطوى على
 خطر بالنسبة للحضارة وهى عبارة عن تمنيات قلب لم يتعذب بما فيه الكفاية بعد .
 من الأمثلة السائدة فى القديم « مت من أجل نفسك » أما « أحب جارك كما تحب
 نفسك » فمن العبارات الجديدة فى هذا المقام ولكن فيها شيئاً من الحقيقة . « من السماء
 إلى إخواننا فى البشرية » — هذا ما يجب أن توجه إليه أنظارنا ، ولا داعى لأن
 نتخلى عن السماء إلهنا على الأرض ، بل يجب أن نحب جارنا من خلال حبنا لله ،
 وإلا كان حبنا من النوع الدنيوى . أو هكذا يترأى لى . ولكن برود هذه
 النظرية التى أنادى بها شيء منفر لى اللهم إلا فى لحظات يتجلى فيها حب الله
 إن الحياة الحديثة صعبة وأتمنى لو عشت فى دير ألبس قميصاً من الشعر وأنام
 على الصليب . ولكن الحياة الآن من شأنها أن تحد فى نطاق معين كل نزعة من
 نزعاتنا وتجعلنا نرتدى ستره سوداء ونتمسك بأهداب الوقار ، يا إلهى الحى .

أنخولك إلى الأبد

برتراند رسل

تالى ، ستينيانو

فلورنسا

٢٨ من ديسمبر ١٩٠٢

عزيزى جلبرت

تم لقاءنا ورحلتنا بنجاح وبدون ضجة ، وهذا أجمل ما فى الموضوع .
يا ليتك استطعت أن تحضر . لقد نعمنا بيوم بعد يوم من الشمس الساطعة -
صقيع فى الصباح ودفع فى النهار يجعل الجلوس فى الحلاء مستحباً . وخلف
المنزل يوجد تل مغطى بأشجار الزان والصنوبر والسنديان التى مازالت تحتفظ
بأوراق الخريف . والجو ملئ بأجراس إيطاليا ذات النغم العميق . لقد قام
على تأثيث المنزل بذوق رفيع (بيرنسون) وبه عدد من اللوحات الجميلة ومكتبة
من النوع الممتع جداً . ولكن حكاية الاستمتاع بوجود الإنسان ، إلا إذا
كان هذا استعداداً موروثاً ، تؤذى دائماً شعورى باعتبارى من المتطهرين
فى الدين - وتراود ذهنى بصفة دائمة أفكار عن الطرف الشرقى من لندن
(حتى الفقراء) وعن سيدات ذكيات يضحكن بجهاتهن ليجمعن بنسات ،
وعن شبان مضطربين للاشتغال ببحوث علمية - ولكنى لا أحاول تبرير شعورى
هذا ، مادام ينبغى أن يكون هناك من يتمسك بالمثل العليا فيما يتعلق بالبيوت
الجميلة وما يجب أن تكون عليه . على أنى أرى أن الإنسان يشغل فى طلباته
بالنسبة للأثاث الذهنى حيث المظهر الخارجى يوحى بالعناية والدقة ، وكثيراً
ما يصاب الإنسان بصدمة عندما يرى السقطات التى يحتملها عادة . . .

إننى مسرور لأنك تركت مشروع قراءة كتاب فى الرياضيات لأن أى
كتاب فى التكامل والتفاضل لا بد أن يحيطك بأكاذيب ، ولا أعتقد أن كتابى
للأسف ، يستحق منك عناء القراءة إلا فى فقرات منه . وإذا كانت له
قيمة عامة فهى مطمورة فى دقائق الموضوعات وفى مجادلات لاتصلح فى الحقيقة
إلا للمتخصصين فى مثل هذه المسائل . إن الجزء الأخير من كتابى فى الرياضيات ،

٢٥٦

والذى لن يكون معداً للطبع إلا بعد سنتين أو ما يقرب من هذا، سيكون فيما أمل تحفة قيمة . ولكنه لن يكون كذلك إلا للمشتغلين بالرياضيات . أما هذا الجزء فإنه يدعوني للتقزز عموماً . وعلى الرغم من أنى أنكرت ما قاله (لينارد هوبهاوس) بشأن الفلسفة ، إلا أنها على العموم من المواد التى لا يرجى منها أمل . ولا أدرى كيف أقدر قيمتها التى أعترف بها فى أوقات كثيرة . ياليتنى عشت فى أيام الفيلسوف سبينوزا عندما كان ممكنا التوصل إلى فروع جديدة فى المعرفة .

أنخوك للأبد
برتراند رسل

١٤ شينى ووك

تشيلسى . ج . غ

٢١ من مارس ١٩٠٣

عزى جليبرت

نظريتك فى الجمال لا تصدنى بحال من الأحوال ، بل إننى فى الحقيقة متفق معها اتفاقاً تاماً فيما عدا سخريتك من المتخصصين . إن التخصص أسمى للكفاءة والكفاءة نوع من الإيثار . ومهما بلغ من ضيق أفق المتخصص فلا بد أن نتسامح معه إذا اتقن عمله . إننى أومن بهذا إيماناً قوياً لأن إغراء التشويق والإثارة ، بدلا من الفعالية فى مجال التخصص ، إغراء يؤدي إلى المخاطر .

سيسعدنى أكثر مما أستطيع التعبير عنه أن أراك مرة أخرى فى العهدة . ولو أننى لن أستطيع أن أمنحك شيئاً ذا قيمة فى حديثى . لقد طغت على مؤخرًا رتابة المشاغل وشعور الملل والزيغ الذى يصاحبها . لا شئ يثرنى ، لا شئ يبدو أنه يستحق أن يعمل فى الماضى أو المستقبل ، والشئ الوحيد الذى أشعر بقوة أنه يستحق أن يعمل هو أن أقتل أكبر عدد أستطيع قتله من الناس وذلك لكى أقلل من الحساسية والوعى فى العالم . هذه الأزمنة خلقت لكى نمر فيها ، ولا شئ يمكن أن نفعله بها .

أنخوك إلى الأبد
ب . رسل

خطابات إلى لوسى مارتن دونللى

ميل هاوس
جراثشستر . كامبردج
تلجرامز ، ترامينجتون
٢٣ من مايو ١٩٠٢
عزيزتى لوسى

ستعجبين أنى أكتب إليك . الحقيقة أننى فرغت اليوم من العمل العظيم الذى تعرضت فيه لأصول الرياضيات والذى استغرقنى منذ سنة ١٨٩٧ . لقد ترك لى الآن فراغاً وحرية بحيث أستطيع أن أتذكر أن هناك أحياء فى هذا العالم . وهذا ما كنت أحاول جاهداً أن أنساه . لا أدري هل تدركين مدى الجهد والتضحية (بما فى ذلك تضحية الآخرين) وقوة الإرادة ، والصرامة التامة فى كبت حتى ما هو خير ، مما تتطلبه كتابة كتاب له وزنه ، عام يتلوه آخر وأنا أعثر على أخطاء فى عملى وبعدها يتعين على أن أعيد كتابة الكتاب كله من البداية للنهاية . فى كل نظام منطقى أى خطأ يحدث يؤثر على البناء كله . لقد تركت أصعب الأجزاء إلى النهاية حين تناولته فى الصيف الماضى على أمل أن أفرغ منه وأستريح ، ولكن فجأة اعترضتنى صعوبة تفوق كل ما عرفت قبلها من الصعاب وكانت من التعقيد لدرجة أن مجرد التفكير فيها كان يقتضى مجهوداً فوق طاقة البشر منذ أمد طويل وأنا أشعر بضيق من العمل كله إلى حد الغثيان ، لدرجة أننى كنت أتمنى أن أفكر فى أى شىء آخر تحت الشمس ، ولقد أصبح مجرد التعب الجسمانى يشلنى عن العمل . ولكن الآن وقد انتهى الأمر أشعر ، كما لا بد أن تتخيلى ، أنى إنسان جديد . لأننى فقدت الأمل فى الانتهاء من هذا العمل . إن العمل المجرد ، إذا أراد المرء أن يعمل على وجه الإقتان ، لا بد أن يمكنه من القضاء على إنسانيته فالإنسان يقيم أثراً من الآثار هو فى الوقت نفسه مقبرة

يقبر فيها نفسه تدريجيًّا بمحض إرادته . إن آلهة الفكر لا تسمح بأن يشرك بها المؤمنون . فهي آلهة غيرة جداً . ولا تظنى ، إذا أردت الكتابة أن النظرية السائدة عن ضرورة ممارسة التجارب بالنسبة للفنان ليست نظرية صائبة . لا بد أن يكون للفنان مشاعر عميقة ولكنه ينجذع نفسه إذا تصور أن من مصلحته الانغماس في الشهوات . كما أن النظرية التي تقول بأن الكتابة تأتي من مجرد إقتان الصنعة هي الأخرى نظرية خاطئة . إن الكتابة هي المخرج من المشاعر المستبدة بالنفس التي يمكن مع ذلك الإفلات من قبضتها والسيطرة عليها لا بد من التمكن من شيئين : سمو المشاعر والسيطرة على هذه المشاعر وكل شيء آخر بمحض الإرادة . ليس هناك شيء من هذه الأشياء مفهوم في أمريكا كما هو مفهوم في العالم القديم^(١) . بل إن سمو المشاعر يبدو أنه يعتمد في المقام الأول على وعى متصل بالماضي وبقوته الهائلة الرهيبة وبوعى عميق بالفرق بين الحقائق الخالدة والعرض الزائل الذي يتمثل في المشاعر التي تتعلق بالحياة الشخصية . إذا ذكرت هذه الأشياء كلها للفصل الذي تدرسين له فن الكتابة الجميلة ، فستكون معلوماتهم أقل مما لو تمسكت بأهداب الصمت .

سلامي وتحيتي لهيلين . ونصيحتي لكل من يكتب أن يحفظ كنوز الأدب وذخائره عن ظهر قلب . وأن يتجاهل ماعدا ذلك بقدر الإمكان .

المخلص إلى الأبد

برتراند رسل

ملحوظة : هذا الخطاب ليس لكاري أن تقرأه .

(١) العالم القديم هو أوروبا والقارات التي تم اكتشافها قبل أمريكا وكانت هذه تعرف إذ ذاك بالعالم الجديد .

ترينتى كولج - كامبردج

٦ يوليو ١٩٠٢

عزيزتى لوسى

تقبلى شكرى على خطابك الطريف جداً ، ووصفك الممتاز لهارفارد وباريت وندل . ما أفتح أن تقوم الجامعة بتدريس الصحافة . كنت أظن أوكسفورد هى الوحيدة التى تقوم بهذا العمل . إن هذا الاحترام الزائد للغواء والدهماء هو الذى يقضى على هذه الحضارة . لقد بلغت الفحة وسوء الأدب بأحدهم أن يصرح فى حضورى بأن كل طالب يجب عليه أن يوضح وجهة نظره للجماهير فى اجتماعات شعبية مفتوحة ، ووجدتني أرفع صوتي محتجاً لمدة ربع ساعة اضطر بعدها صاحبنا إلى الإخلاد للسكينة واحترامى كما تحترم الوحوش الضارية - أعتقد أن شخصية (وندل) فى الحياة أفضل مما تبدو فى كتبه . ولقد أصبت بخيبة أمل فيما يتعلق بأدبه الأمريكى ، مع أننى أشركه الرأى فى أن أمريكا ، شأنها شأن الحيوانات الثديية ذات الكيس ، أثر طريف من آثار عصر اندثر ، إلا أننى لا أكثرث بما يقال من أن كتاب أمريكا انحدروا من عائلات كريمة ، وأن هارفارد تفوق ييل دان بكثير^(١) . وهذا التقصير فى حق الشاعر (واث هويتان) ، والإحجام عن إعطائه حقه من التقدير شئ مؤذ جداً . إن وندل يذكر قصيدة هويتان عن قوارب بروكلين وما أشبه ، وينسى قصيدته عن (مهد الطفل الذى يهتز اهتزازاً لا ينقطع) وقصيدته عن « زهور الليلق التى تفتحت آخر مرة عند عتبة الباب » وهذا يبدو لى مجازاة للذوق الشائع وللأحكام الفجة الشائعة بشكل يدعو للراء وخاصة بالنسبة لهويتان .

عندما تم كتابى ، أخذت أجازة من عشرة أيام بعدها كنت أعمل كالمعتاد ، فيما عدا أربعة أيام قضيتها مع عمى أجاثا فى بمبروك. لودج . وكان

(١) هارفارد وييل من أشهر جامعات أمريكا وبينهما تنافس كالذى بين أوكسفورد وكامبردج .

وقتنا كتيباً عجيباً ذلك الذى قضيته معها . تحدثنا عن النعماء التى استحالت إلى شقاء منذ أمد طويل ، وعن المآسى التى ذهب المشاركون فيها ، وعن الأحزان التى تولت إلا من ذكرى باهتة . إن حياة الحاضر قد أصبحت مقطوعة الصلة فى ذهنى بما هو قائم ، وبدت أشبه بالحلم ، بينما تمثل لى الماضى المحيد الذى ثبتته مرور الأيام وملأته الحكمة التى يقصر عنها الوصف — تمثل لى (وسيطر) على كيانى كله . إن الماضى ليس إلا رباً رهيباً وإن كان يعطى الحياة كل ما فيها من جمال أخاذ تقريباً . أعتقد أن أولئك الذين قضوا طفولتهم فى أمريكا ليس فى وسعهم أن يتصوروا مدى تسلط الماضى علينا فى العالم القديم . واستمرار تيار الحياة ورسوخ التقاليد وتوالى مراحل العمر من الشباب إلى الشيخوخة إلى الموت فى موكب أبدي . كل هذه المعانى يبدو أنها ضاعت فى زحمة التفكير فى المستقبل التى تسيطر على الحياة فى أمريكا . وهذا سبب من الأسباب التى تحول دون إنتاج أدب عظيم فى أمريكا على يد الأمريكان من مواطنيك .

أنا أقيم فى الوقت الحالى بمفردى فى الكلية . وليس معى أحد من أصدقائى ، وعندما ينتهى وقت العمل ، أجد الفراغ الكافى للتأمل . لقد كنت أقرأ مؤلفات ميترلنك من أولها إلى آخرها . وقد فرغت منها كلها تقريباً . إن كتابه « الزمن المقيور » يبدو لى كتاباً يدعو حقاً إلى الإعجاب ، من الناحية الأدبية ومن الناحية الأخلاقية ، وعلى الرغم من عالم الآنسة جوين ومستر هودر الجاد الوقور (فأنا لست جاداً أوقوراً) فإننى ساذج فى تفكيرى إلى حد أنى لا أعتقد أن من الضرورى أن تكون للأدب أهداف لا أخلاقية . إننى أكره فكرة أن يكون الكاتب أميناً فى نقله عن الحياة ، فالحياة ، والله الحمد ، هى فى معظمها من صنع إرادتنا ، والمثل العليا ليست لها صلة بالواقع بالنسبة فقط لأولئك الذين يريدون لها أن تكون كذلك . أبلغنى الآنسة جوين ، مع تحياتى ، أن كل كلمة فى « اعترافات » القديس أوغسطين أمينة فى النقل عن الحياة ، وأن حب الشاعر دانتي لبياتريس قطعة من الواقعية التى لا تشوبها شائبة من زيف . ومالم يدرك الناس هذا فلا بد

أنهم سيُحرمون من أجمل وأندر وأثمن ما في الحياة من تجارب . وعلى كل فهذا موضوع كبير .

المخلص

برتراند، رسل

فرايديز هل

هاسلمير

١ من سبتمبر ١٩٠٢

عز يزنى لوسى

إن الغرور في كتابة الخطابات ليس بالنزعة التي تستحب . أصدقاء المرء يسرون حتماً لأخباره، حتى إذا لم توصف بعبارات خلافة . ولكنى وجدت خطابك في الحقيقة هاماً جداً . نعم إن أهل الإنسان مصدر متاعب . إنهم أشبه بالكاريكاتير الحى بالنسبة له ، وهم أشبه في تأثيرهم المهين ، بتأثير القرد في حديقة الحيوان . وشعور الإنسان حينما يراهم هو شعور من يعثر بالحقيقة العارية بلا رتوش في نهاية المطاف . والأهل بالنسبة لمعظم الناس هم في الحقيقة أقرب إلى الواقع الحى من أى إنسان يتعرف عليه المرء حتى ولو كان زوجاً أو زوجة . قد تلاحظين ذلك بالنسبة لكارليل وأهله في (أنانديل) ، كان وجودهم حقيقياً بالنسبة له أكثر من وجود زوجته التي لم يحس بها إلا بعد أن ماتت . والناس أقل انطواء على نفوسهم من الأطفال ، وأولئك الذين نعرفهم في طفولتنا يتركون فينا أثراً لا يمحو ولا يمكن لأى معرفة لاحقة أن تمحو أثرهم . إنهم يعيشون في ماضينا أشبه بنزعة فطرية كامنة . وهذا مصدر دائم للمتاعب في الزواج — إننى لم أقرأ أحداً من كتاب عصر إليصابات في إنجلترا منذ أن كنت طالبة في الجامعة . وعندما أتذكرهم فكل ميزتهم حصيلة لغوية غاية في السخاء والجزالة . إن الدراما القديمة ليست كالإنجيل الذى يبعث فيك الحياة فإن العالم الذى تصوره عالم لا يمكن أن يتحقق في الواقع . إن حياتك كما تقولين هى بالطبع حياة أوراق ، أى أن التجزبة تأتي عن طريق الكتب ولا تأتي

مباشرة من الحياة . ولن يشفيك من ذلك مزيد من الكتب . إن الحياة الحقيقية هي الدواء الوحيد لما تشكين منه . ولكن هذا مطلب عسير المنال . فعنى الحياة الحقيقية هو أن يكون لها صلة بحياة كائنات بشرية أخرى — أما ما ينادى به (هودر) من حياة عاطفية فشئ لا وجود له في الواقع على الإطلاق . وبمعنى آخر فالحياة الحقيقية تستتبع ممارسة الشخص لا تفاعلات هي التي يستخدمها الدين والشعر . أما الطريق إليها فهو نفس الطريق الذي يصلح لمن يريد أن يقوم بتأسيس دين جديد . فعليك أن تتعرضي للصلب ثم تقوى في اليوم الثالث من بين الأموات .

إذا كنت مستعدة لما تتطلبه هذه العملية بشقيها فلا ضير إذن من ممارسة الحياة الحقيقية . ولكن في العصر الحديث ، الذي يقوم بالصلب هو الشخص نفسه وبمحض إرادته ، والقيامه أيضاً تتطلب ، من أجل العثور على آمال جديدة في مزيد من الصلب ، عزيمة وهمية . ويبدو أن الصعوبة التي تلاقينها تأتي من أن عالمك خال من الناس الحقيقيين . فالصغار لا يمكن أبداً أن يكونوا في وجودهم حقيقيين بالنسبة لك ، وغير المتزوجين قلما يكونون كذلك . وعلاوة على هذا ، إذا سمحت لي ، فإن مدى تمكن العاطفة في أمريكا أقل ، وهي أكثر جنوحاً إلى الخفة والسطحية والتفاهة مما هو الحال في أوروبا ؛ هناك تفاهة في الشعور تجعل الناس الحقيقيين نادرين — أنا أجد في إنجلترا أن معظم النساء في سن الخمسين وما فوقها قد خاضوا تجربة التعرض للعذاب واحتماله بمحض الرغبة على مدى سنوات طويلة ، وهذا يعطى لطبائعهن عمقاً وخصباً لا يمكن أن تتصوره نساء أمريكا باستخفافهن وسعيهن وراء اللذة . إن الحياة الحقيقية ، لا تتوفر على العموم ، كما يريد هودر أن يقول لك ، في المغامرات الغرامية مع المتزوجين . إذا كان كل ما يريد المرء عبارة عن تجارب غير مألوفة فإن قليلاً من التشف وقليلًا من أداء الواجب سيعطيه إحساسات غير عادية أكثر بكثير مما يجده في العواطف الجاثمة التي يزخر بها العالم . ولكن حياة القراءة والكتب فيها هدوء وسكينة ، صحيح أن التطلع لشئ أكثر جدية يغالب

المرء أحياناً ، ولكنه يكون خالياً من الشعور بالندم والخوف والعذاب وتلك الحسرة المريرة بسمها القاتل الذى يؤدي إلى الجنون . أما بالنسبة لى فإننى أبني ديراً فكرياً تعيش فيه روى الداخلية فى سلام . وصورة منسوخة منى هى التى تتعامل مع العالم الخارجى . هناك قدس الأقداس حيث أجلس وأهيم بين أطراف الفكر . بالأمس وأنا أتحدث فى الشرفة ، تمثلت لى جميع المناسبات الماضية حيث نهضت الأطياف وقامت وسارت أمانى فى موكب رهيب — أطراف ميتة ، لها آمالها ومخاوفها ، مباهجها وأحزانها ، تطلعاتها وشبابها الذهبى ، وقد ذهبت ، ذهبت جميعاً فى خضم الحماقة الإنسانية الذى لا قرار له . وكلما أمعنت فى الحديث ، شعرت بنفسى وبالأخرين وقد جرفنا الماضى وأصبحنا صغاراً جداً — بكفاحنا وآلامنا وكل شىء قد أصبح سراباً وضجيجاً خالياً من كل معنى . وهكذا أحصل على الهدوء ، وعود القدر تصبح مجرد حكايات للأطفال يخيفونهم بها . الحياة هنا دائماً — فى الصيف — خليط غريب من الأوهام — زارتنا بالأمس (جريس) وعائلة (آموس) وعائلة (روبسون) والمستر (ج ب . روبرتسون) الرجل الذى أخذ مكانة الملحد الإنجليزى الذى رفض أن يحلف اليمين على الإنجيل فى البرلمان الإنجليزى فى القرن التاسع عشر واسمه برادلو . كان لابد من إنقاذ الآتية (كريتون) ، لأن روبرتسون بدأ يناقش فيما إذا كان الله مصنوعاً من جبن أخضر أو أن له سوائل — وسائر هذه الاحتمالات التى لا تنتهى .

كنا جميعاً نقرأ باستمتاع كبير آراء وليام جيمس فى ^(١) (التجربة الدينية) وكل شىء فى الكتاب ماعدا النتائج الأخيرة التى استخلصها لاغبار عليه . كما كنت أقرأ للمرة الثانية أعظم وأجمل كتب كارليل فى التاريخ واسمه (العقد الماسى) . إن كارليل هو المؤلف الوحيد الذى يدرك قيمة التاريخ بين الفنون الجميلة . سلامى لهيلين .

المخلص
برتراند رسل

(١) وليام جيمس الفيلسوف الأمريكى صاحب مذهب البراجماتية .

١٤ شينى ووك

تشلسى جنوب الغرب

٢٥ من نوفمبر ١٩٠٢

عز يزنى لوسى

شكراً كثيراً على خطابك . أنا ممتن لك لكتابتك عن نفسك . وليس في
 وسع الناس أن يتحدثوا فيما هو أهم من شعورهم تجاه الحياة . ومن دواعى الراحة
 والسرور أنك الآن في صحة أحسن وتستطيعين مرة أخرى أن تستمتعي بالحياة ،
 وهذا الذى تكتبين عنه قلما يعثر عليه الناس في واقع الحياة . ولكنى لم أكن
 أفكر ، عندما كتبت لك عن « التجارب » إلا في المعرفة الحقيقية التى تأتى
 من الانفعال القوى . هذا ، إذا كان الإنسان سليماً ، يحتاج إلى حد أدنى
 من المناسبات الخارجية التى تطهره . وهذا القدر المطلوب يكتفى لتطوير الشخصية
 ولبعض أنواع الكتابة . ولكن لا فائدة من الانفعال إلا إذا تعلم المرء أن يسيطر
 عليه ويجرده من الشعور الشخصى . لأن أمثالى وأمثالك ، ممن تشغلهم القراءة
 والكتب ، أميل إلى الاعتقاد بأن تجربة الحياة يجب أن تكون بقدر الإمكان
 مستعاضاً عنها بشيء آخر ، وإذا كانت لدى المرء قدرة على التعاطف الطبيعية ،
 ففى وسعه أن يتعرف على التاريخ الحقيقى لمجموعة من الناس ، ويستطيع كذلك
 بصور أو بأخرى أن يخلق عالمه الخاص . أما الانغماس فى صميم الحياة فإنه
 يستهلك وقتاً ومجهوداً طائليين ، وهولا يتفق عند معظم الناس مع ما يريدون
 أن يتمسكوا به من موقف المتفرج على ما يجرى . ويحتاج المرء فى تفسيره
 لتجربة غير تجربته ، معاناة شخصية لشقاء كبير ، ولكن هذا شيء لا يحتاج
 المرء أن يبحث عنه ، إنه يأتى عفواً ودون ما حاجة إلى عناء . وعندما يتوفر لدى
 الشخص هذا المفتاح الذى يفض به تجارب الآخرين ، يصبح ذلك الخليط
 من الناس فى تعلقهم بالأمل ومعاناتهم للعذاب ثم تعرضهم للموت ، كافياً فى
 صورته الغريبة المؤسفة هذه ، دون أن يحتاج المرء للقيام بدور فعلى ، إلا إذا

كان ذلك على هيئة كلمة طيبة يشجع بها الآخرين في مناسبات معينة كلما أمكن ذلك .

لم أقرأ كثيراً مؤخراً .. شأقتنى خطابات فتزجيرالد ، وكذلك تاريخ كامبردج في طبعته الجديدة وهكذا يمكن بواسطته تجميع أشياء قرأها القارئ بشكل متناثر ، إن ترجمات جلبرت مري عن يوريبيديس قد ظهرت ، وأنا أذكها (الناشر جورج آلن) . وقد كنت أحاول الاهتمام بالسياسة دون جدوى . إن الإمبراطورية البريطانية ليس لها وجود حقيقي بالنسبة لى ، إننى أتمثل البلد الأم والمستعمرات على هيئة فرخة تنادى على فراخها الصغار ، والأمركله يبدو لى باعثاً على الضحك والسخرية . إننى أعرف أن هناك كثيرين من أهل الجلد يأخذون هذه المسألة مأخذاً جدياً ولكنها تبدو لى غير ذات شأن كبير إذا قورنت بالحقائق العظيمة الخالدة . أما أهل لندن ، الذين يتمثل لهم الخلود فيما تكتبه المجلات الشهرية ، فإنهم يرتقون إلى هذا المستوى فوق المستوى الذى تمثله الجرائد اليومية . هؤلاء الناس أشبه فيما يبدو لى بالدمى ، إنهم تجسيد أعمى لقوى الطبيعة ، ولن يحصلوا على ذلك الشعور بالحرية الذى يأتى لمن يتوقف عن اشتها الأشياء ويبدأ فى إدراك أسرار التأمل .

بالفكر وحده يستطيع الإنسان أن يرقى إلى مرتبة الآلهة ، أما فى أفعالنا وشهواتنا البهيمية ، فنحن عبيد للظروف التى لا نتحكم فيها .

المخلص جداً

برتراند رسل

كانت حياة لوسى دونللى على مدى سنين طويلة تدور حول صداقتها لهيلين توماس . فلما تمت خطبتها للدكتور سيمون فلكسندر ، قاست لوسى عذاباً بالغاً . والخطاب التالى محاولة للتخفيف عنها .

١٤ شينى ووك

تشلسى . جنوب الغرب

٧ من فبراير ١٩٠٣

عزيزتى لوسى .

سمعت بنجر خطبة هيلين . وسررت من أجلها ، لقد كان يبدو لى دائماً أنها تحاول العثور على زوج ، وأن حياة الكلية كانت بديلاً لها عن الزواج إلى حين . ولكن بالنسبة لك ، ولا شك ، الموقف صعب جداً ، صعب غاية الصعوبة . إن لمن أخطر الأشياء أن يدع المرء أحاسيسه الوجدانية تتركز كلها فى شخص واحد ، لأنها عرضة لأن يعترضها عائق ، والحياة نفسها لا يمكن الاعتماد عليها لتقلب أحوالها . وما أكثر ما يتعلمه المرء سنة بعد سنة كلما ثقلت عليه أعباء الحياة ، وأعتقد أن على رأس ما يتعلمه هو القدرة على الارتفاع بجميع أنواع الحب إلى حد التأمل المجرد . هل قرأت قصيدة والت هويتان «من وسط عباب المحيط يأتى الحشد الخاشد» ؟

يتعلم الإنسان فى الحياة أن يحب كل ما هو خير بنفس الدرجة ، حباً واعياً بالذات ، حباً يجعله هذه المعرفة الذاتية أذكاً وأعمق ، ولكنه حب بعيد عن المكاسب الشخصية ولا يستهدف إلا الرغبة المجردة . ولا شك أن هناك مزايا حقيقية فى ذلك الشعور بالخسارة ، فالحب يصبح أوسع مدى ؛ وقدرة الإنسان على النفاذ إلى سرائر الآخرين تكون أعمق . وكل من يعرف حياة البشر حق المعرفة لابد أن يشعر فى الوقت نفسه بذلك الشعور الغريب بالوحدة الذى تحسه كل روح منعزلة على حدة . إن الوحدة تخلق رباطاً جديداً قوياً . وتنمى شعوراً بالرحمة يزداد حدة وقوة حتى يصبح بديلاً عما فقدناه وخسرناه .

٢٦٧

أعلم أن العبارات لا طائل وراعاها ، ولكنها تساعد على احتمال الشقاء ،
ومواجهة المرء للحياة بمفرده ، وبلا سند يستند إليه وهي بداية الحكمة والشجاعة .
اغفرى لى أنى أكتب فى هذه المسائل الخاصة جداً ، ولكن الدنيا أحياناً
تكون جادة بحيث لا ينفع التجميل والأدب المصطنع .

سنأمل أن نراك كثيراً عندما تحضرين إلى إنجلترا ، وأملى كبير أنك
ستحضرين إلينا . وسيسرني جداً أن أسمع منك كلما نازعتك الرغبة فى الكتابة .
المخلص جداً
برتراند رسل

تشرت ، فارنام

١٣ من أبريل ، ١٩٠٣

عزيزتى لوسى

من المستحيل أن أخبرك كم كان جميلاً كإشراق الشمس بالنسبة لى أن
أعرف أن خطابى قد بعث الراحة إلى نفسك . ولكن وأسفاه . فمن السهل
أن يرى الإنسان الخير ، ولكن ليس من السهل أن يمارسه . وبالرغم من أن
الزمن قد أبلى جدة هذا القول المأثور ، إلا أننى لم أعود عليه بعد . ولم أستبن
جليته . غير أنى رأيت وعرفت ، فى بعض الأحيان ، حياة أعلى فى المستوى
بكثير من حياتى الحاضرة . وإن آرائى لأسمى بكثير من أى شىء أنجح فى
الوصول إليه . نعم ، إن منطق الحياة لشىء رائع : وإنى لأفكر أحياناً فى تأليف
بعض الأقوال المأثورة ، أسميها « أفراح الشيطان » وذلك مثل : العطاء يسبب
الحب أما الأخذ فيسبب الضجر . إن الحب الصادق هو جزاء مانسديه من
خدمات للغير : وهذا ملخص لقصة حياة الأمهات ، وكثير من الزوجات .
إن الانغماس فى الشهوات يشوهها كما أن الكبت يقضى عليها : ولا مفر من
الخسارة فى كلتا الحالتين : وهكذا . . .

غير أنه بالرغم من أن هذه الحقائق المريية جديدة بأن يعترف بها بقدر ماهى

صبيحة ، فليس التفكير فيها بالشئ المستحب . فكلما شعر الإنسان بالمرارة ، كان ذلك دليلاً على الفشل العاطفي أما سعة الصدر وضبط زمام النفس فإنهما يتركان حزناً خفيفاً هادئاً مكان صبيحة الألم الغريزي . وإن أحد الأشياء التي تجعل الأدب عزاء كبيراً ، هو أن مآسيه تنتمي كلها للماضي ، وتبعث فينا ذلك الشعور بالتكامل ، وبالراحة ، الذي يأتي نتيجة لكونها لم تعد في متناول إرادتنا وإنه لمن المفيد تماماً إذا اشتد حزن الإنسان ، أن ينظر إليه على أنه شئ قد حدث في الماضي السحيق : وأن ينضم بالخيال ، إلى تلك الجماعة الحزينة من الأرواح القائمة التي ضحت بحياتها للآلة الضخمة التي مازالت تدور . وإني لأنتظر إلى الماضي ، على أنه منظر طبيعي يسطع بنور الشمس ، قد كف نأخو العالم فيه عن النواح . فعلى ضفاف نهر الزمن ، يسير موكب الأجيال البشرية الحزين ، ببطء نحو القبر . غير أنه في بلاد الماضي الهادئة ، يجد الشاردون المتعبون راحتهم ، ويبطل عويلهم .

أما بالنسبة لي ، فلم أشعر بعواطف من أى نوع ، إلا في مناسبات نادرة ومنذ زمن طويل . وهذه حالة تلائم العمل كثيراً ، بالرغم من كتابتها . ونحن نحيا حياة ريفية هادئة : أليس بخير ، إلا من حين لآخر ، وليوم أو يومين . ونحن نقرأ (مونتين)^(١) بصوت عال : وهو ممتع ومريح ، ولكنه غير مثير بالمرّة . أما أنا فأقرأ لنفسى تاريخ روما في العصور الوسطى بقلم جريجوريوس وهو كتاب ممتع . وقد أخبرني جاراننا جلبرت مري عن ألواح أورفية^(٢) ، وما عليها من إرشادات للروح بعد الموت : ولسوف تجد شجرة سرو ، وبجانب الشجرة ينبوعاً ، ويجوار ينبوع ، ملاكين حارسين ، ولسوف يقولان لك : من أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ ولسوف تجيب : أنا ابن الأرض والسماء المرصعة بالنجوم . لقد تشقق حلقي عطشاً ، إني أموت ، ولسوف يخبرانه بأن

(١) مونتين كاتب فرنسي ١٥٣٣ - ١٥٩٢ مشهور بمقالاته المحشوة بالتأملات .

(٢) نسبة إلى أوفيدوس أعظم موسيقي ومنن في الأساطير اليونانية .

٢٦٩

يشرب من ينبوع ، وأحياناً يتكلم ينبوع نفسه . هذه غيبيات جميلة
بلا شك .

المخلص

برتراند رسل

فرايديز هل

هاسلمير

٢٩ من يوليو ، ١٩٠٣

عزيرتى لوسى

من المستحيل أن أخبرك عن مدى سرورى لكون خطاباتنا عوناً لك .
إن أعظم مكافأة يحصل عليها الإنسان من فقدان الشباب ، هو أن يجد نفسه
قادراً على أن ينفع الآخرين . ولا أستطيع أن أعبر عن شعورى بعظمة هذه
المكافأة ، دون أن أظهر بمظهر الثرثار ، وأرجوك ألا تشعرى بأى حرج
من عرض كل متاعبك ، فأنا أنتظر سماعها والتفكير فيها بفارغ الصبر . . .
نعم فإن الطريقة التى ينظر بها الناس إلى العلاقات الحميمة باعتبارها
فرصة لهم السعادة شئ مفزع للغاية . . أليس مفزعاً أن يراقب الإنسان ، فى معظم
الزيجات ، ذلك التنافس بين الزوجين أيهما يقوم بالتعذيب وأيهما يتعذب .
وبعد سنوات قليلة على الأكثر يحسم الأمر ، وبعد أن يحسم ، تكون السعادة من
نصيب طرف منهما والفضيلة من نصيب الطرف الآخر . ويبتسم القائم بالتعذيب
ابتسامة مصطنعة ويتكلم عن السعادة الزوجية ، أما الضحية ، فإنها ، خوفاً من
أن يحدث ما هو أسوأ ، تبتسم مؤمنة فى فزع فللزواج ككل العلاقات الوثيقة المشابهة ،
إمكانات للألم لانهائية لها . ولكنى بالرغم من ذلك أعتقد أنه من المفيد أن يكون
للإنسان علاقة وثيقة بالناس . وإلا ، فسيقى الإنسان جاهلاً بالكثير مما
يحسن معرفته ، لمجرد أنه يزيد الإخاء الإنسانى الذى يجعلنا نقاسى ما يقاسيه
الآخرون . غير أنه من الصعب ألا نلحظ فى لحظات الضعف ، لحياة سهلة ،

حياة مع الكتب والأشياء ، وبعيداً عن الأسى الإنساني وإني لأدهش أمام العدد الهائل من الناس الذين لا يحتمل بؤسهم . حقاً إن الألم هو زاد الإنسان . وعلى الإنسان أن يتعلم أن ينظر إلى السعادة ، بالنسبة للآخرين وبالنسبة له ، كشئ عديم الأهمية ، بشكل أو بآخر – ولكن بالرغم من أنني أظل أردد لنفسى هذا الكلام ، فلم أومن به كلية ، وبشكل تلقائي ، بعد .

يسعدنى أن أسمع أن هيلين قد استراحت . ولم يدهشنى أنها لا تكتب لى . ولكن أخبر بها ألا تنساني ، وأن تكتب لى ثانية حينما تستطيع . إن رؤية جريس قبيل رحيلها ، منذ أيام ، جعل أمريكا تبدو أقرب . وإني أشعر عادة ، حين أكتب لك أو لهيلين ، كأننى أكتب ، تقريباً ، لموتى قرأت عنهم فى الكتب – فالمكان يبدو بعيداً جداً ، وغارقاً فى ذكريات شخص مختلف جداً باختلاف – كان يعيش داخل جسدى منذ سبع سنوات ، حتى لئننى لا أكاد أصدق أنه حقيقى ، أو مأهول بأناس حقيقيين . ولكنك حين تأتين فى الحريف سوف أشك فيما إذا كنت فى أمريكا حقيقة كل هذا الوقت .

فى الأربعة الشهور الأخيرة كنت أعمل بجهد كالحصان ، ولكنى لم أنجز شيئاً ذا بال . واكتشفت على التوالى ، سبع مصاعب جديدة تماماً . قمت بإيجاد الحلول للست الأولى منها ، فلما قابلتنى الصعوبة الأخيرة ، فرت همتى ، وقررت أن أقوم بإجازة قبل أن أواصل العمل . وكانت كل صعوبة تتطلب بدورها ، إعادة تشييد لبنائى كله . وأقيم الآن مع آل ديكسون ، وسوف أكون فى المدينة خلال الأيام القليلة المقبلة ، وأنغمس فى مسألة حرية التجارة (كطالب فقط) . فنحن فى غاية الاهتمام بموضوع حرية التجارة . إني أعتبرها آخر ما تبقى لنا بما يمكن أن نسهم به فى تدعيم العلاقات الدولية السليمة فإذا ضاع فإنى سوف أشعر بهيميل لأن أقطع رقبتى . غير أنه يبدو أن لا فرصة هناك لنجاح تشمبرلن – فكل العقول فى كل طبقات المجتمع ، ضده .

المخلص

برتراند رسل

١٤ تشينى ووك ، تشلسى

٢٨ من فبراير ، ١٩٠٤

عزيزتى لوسى

. . . حقاً إن الشعور بتفاهة ما يقوم به الإنسان، حيث لا يكون هناك مبرر له ، لهو آخر ملجأ لحب الذات . إذ أنه يأتى نتيجة لما عند الإنسان من مثل أعلى يحاول أن يصل إليه — وهو نوع من الكبرياء . هذا سبب ، والسبب الآخر هو الثورة على شقاء الإنسان الخاص ، لا يقضى عليه إلا عمل عام ضخم . غير أنى أعرف أنه من الصعب جداً أن نطرد حب الذات هذا من ذلك الحصن المنيع . وأنا ، بكل تأكيد ، لم أنجح فى ذلك بعد . ليتنى كنت الآن معك ، ليس فقط من أجل جمال صقلية ، ولكن لأنه يسعدنى كثيراً أن أراك ، ولأنه سوف يكون من السهل بمكان أن أقول هذه الأشياء التى تبث فىك احترام النفس الذى تستحقينه . إنك فى الحقيقة متواضعة جداً . غير أن حب أصدقائك يجب أن يقتنعك بأن لديك ما تعطينه مما يقدره الناس ، ولقد وجدت أن السبيل الوحيد إلى الخلاص من الذات هو العمل . ولما كنت غير قادر على العمل ، فذلك الخلاص صعب جداً بالنسبة لى .

يسعدنى أن هيلين تكتب خطابات لطيفة . ولكنى أفهم مما تقولين أن سعادتها ليست من العمق بحيث تنسى الألم . وهذا مما يؤسف له . ومع ذلك فربما يكون ذلك واقعياً ضد آلام أعظم فى المستقبل . هذه الأفكار معروفة للجميع ، وأنا أعترف أنه من الأجدى أن يعرف الإنسان الألم واللذة فى أشد درجاتهما من أن يعرفهما بدرجة معتدلة . غير أنه لا يجب أن نرفض التعازى ، حتى ولو كانت عادية . .

لاجلد هذا يذكر . ولقد كنت منهمكاً فى العمل ولكنى الآن انتهيت بالفعل مما كنت أقوم به . وسوف نمضى فى كامبردج يومين هذا الأسبوع . ولسوف

تقوم آليس بزيارة لوجان و بالبحث عن أرض للبناء في أكسفورد ، كما كنت أقوم بقراءة بعض الروايات : وآخر روايتين قمت بقراءتهما هما : ديانا وحياة بوشامب ، وكتابات ميرديث النفسية جيدة بوجه عام ، بالرغم من أنني لا أظن أن حياة ديانا مقنعة . ولقد وقعت في غرامها في الحفلة الراقصة . وظللت أحبا في كل مغامراتها .

ذهبت مساء أمس إلى ضاحية بعيدة في لندن كي ألقى محاضرة في الفرع المحلي للجمعية المهندسين المتحدة . وهم يجتمعون في بار ولكنهم لا يسمحون بالشرب أثناء اجتماعاتهم . وهم كما يبدو أناس ممتازون ، ومحترمون جداً - وفي الحقيقة ما كنت لأحسبهم عمالا . وهم ينتمون إلى كافة المذاهب السياسية من أول المحافظين حتى الاشتراكيين . وقد طلب منهم رئيس الجمعية . بعد أن انتهت من محاضرتي ، ألا يتملقوا المحاضر كما هي عادتهم . وحتى بالرغم من ذلك ، لم ألق كثيراً من النقد . ولقد فسر لي السكرتير ذلك . ونحن عائدون ، بقوله إن « حججى قد أفحمتهم » ولقد أحببتهم جميعاً ، وشعرت باحترام متزايد للعامل الماهر الذى هو في العادة جدير بالاحترام .

سوف أنهى ، خلال أسبوعين ، من الأمور المالية ، وبعد ذلك سوف أقوم بحولة على الأقدام في ديفونشير وكورنوال قبل أن أعكف على الفلسفة . وسوف يذهب مكارثي معي .

اكتسب لي بمجرد أن تسمح لك الظروف . وأشعر أنى أريد أن أقول أكثر مما قلت رداً على خطابك ، غير أن السياسة قد شتت أفكارى ، حاول أن ترفعى من معنوياتك ، وأرجوك ألا تتخيلي أن حياتك عديمة النفع .

المخلص

برتراند راسل .

سانت كاترينز هاوس
فندق درجة أولى
فوى ، كورنال
٢٩ من مارس ، ١٩٠٤
عزيزتى لوسى

. . . أما من ناحية العمل فأنا لم أفكر بتاتاً ، سواء عن رضى ، أو بالعكس ،
فى الناحية المالية لعملى الذى انتهيت منه على خير — فهذه الفترة من حياتى
قد ولت . كما أنى لم أفكر كثيراً فى الفلسفة بالرغم من أننى حين أفكر ،
فإن أفكارى تبعث إلى حد ما على السرور . وقد تركنى مكارئى الذى كان لى
نعم الرفيق منذ خمسة أيام . ومنذ ذلك الوقت وأنا وحدى . ولقد كان الوقت ثميناً
جداً . إن شعوراً بالسلام يستولى على وأنا أسير فوق التلال الخضراء التى تطل على
البحر ، بلا إنسان أستشير ، وبدون أن يزعجنى أحد . وأنا أفكر ، بطريقة
غريزية هادئة (وهو شىء غير عادى بالنسبة لى) فى المضاعب العملية التى
بدت لى بلا حل ، وأختزن راحة عقلية لتكون عوناً لى أثناء اضطرابات ومتاعب
الحياة العادية . وحين لا أفكر فى الطريق الممتد أمامى أو فى المناظر فأنا أفكر فى
أمور الناس ، محاولاً أن أصل إلى الحقائق مباشرة ، وأن أقرر ما يمكننى عمله
لتحسين هذه الحقائق . وإنى أحتاج إلى وقت كبير وتفكير عميق ، كى
أتخيل نفسى فى موقف ما ، وأرى إذا كنت أستطيع أن أصل إلى نتيجة هامة
يكون لها تأثير . ولكم تسخر منى نفسى حين أفكر فى معرفتى الكبيرة بأمور
الناس ، وفى رغبتى فى أن أكون موضع ثقتهم ، غير أنى أحاول جاهداً أن أجعل
النفس قادرة فى هذا الإطار على أن تخدم أغراضاً صالحة . .

وعندما أصل إلى حانة ما ، أجد متعة فى مشاهدة الرواد بعد تجولى وحيداً
لفترة طويلة . إننى ألاحظ صغائرهم ، وأقارن بين صاحبة حان وأخرى ، وأصغى
إلى ثرثرتهن حول ما يجرى من حولهن من أحداث ، وكما أصغى إلى ما يقال
سرى الذاتية

عن متاعب حياة أصحاب الفنادق . يمكننى أن أكتب بإسهاب عن هذا الموضوع ، وإن كان ما أكتبه سيبدو وكأنه شيء مماثل لما كتبه ديكنز فى رواية « مستر بيكويك » .

فى هذا الفندق الذى نقيم فيه نكون عائلة سعيدة ، تجتمع كلها على مائدة العشاء . وعندما نزلت مرة إلى الطابق الأسفل رأيت سيدة فى منتصف العمر تضع اللمسات الأخيرة لزينتها أمام مرآة فى بهو الفندق . ولقد ألفت نظرة سريعة إلى ثم تابعت زينتها عندما تبينت أننى لست رجلها الذى تنتظره .

وكانت هناك امرأة أخرى فى منتصف العمر رائعة الجمال ، نحيلة الخصر ، رزينة . كانت تشعر بالزهو لأن الشاب الذى تحبه كان قد أعطاها باقة من زهور البنفسج تتزين بها . ثم هناك المنظر الذى لا بد منه ، ألا وهو منظر سيدة عجوز تجلس على مائدة منفصلة وتشترك فى الحديث بين الحين والحين ، بأن تلقى ملاحظة عن جمال زهور الربيع مثلاً - وهناك رجل متعاطف كان يقول : « حسن ، فى رأى أن المديرين قد أضاعوا هباء ١٢,٠٠٠ ألف جنيه من أموال حملة الأسهم » . وكنت بين هذا الجمع أشعر بخجل لأننى لم أرتد الملابس المناسبة للمقام ، وأعتقد أنهم كانوا ينظرون إلى بازدراء لنفس السبب ، ولذا كنت كالرجل الذى وقف وحيداً عند دفة السفينة « سنارك » لا يكلم أحداً ، ولا يوجه إليه الحديث أحد ما ، وإن كان هذا لا يعنى أننى لم أتمتع بوجودى وسط هذا الجمع . وقضيت أمس فى مكان يسمى « ميفاجيسى » ، حيث كانت تجرى انتخابات مجلس الأبرشية . وكانت ابنة صاحبة الفندق تعد لى العشاء عندما سألتها إذا كانت المنافسة بين مرشح من الأحرار وآخر من المحافظين . فأجابت : « كلا ، يا سيدى ، إن هناك محاولة من البعض لترشيح دكتور اللاهوت ، بينما البعض الآخر يعارض لأنه ليس من بلدة ميفاجيسى إذ أنه لم يعيش فيها أكثر من سب أو سبع سنوات » .

فأردفت قائلاً : « إن هذا أمر مشين » .

إنه مشين بالطبع . وعندما أخذ الرأى على الموضوع برفع الأيدى لم يكن

له إلا أنصار قليلون ، ولذا فإنه طالب بإجراء انتخاب ، يأمل الصيادون أن يفوز فيه .

فاستطردت قائلاً : « على أى حال ، يبدو أن فرصته في الفوز ضئيلة جداً » .
 « أنت ترى يا سيدى أن أنصاره أناس ذوو نفوذ ، إنهم تجار سمك ، يشتري بعض الصيادين منهم شباكهم ، ثم إن من بين أنصاره ما يسمونهم الناس "المسيحيون" ، هؤلاء الناس الذين يناصبوننا العداء ، نحن أصحاب الحانات » فقلت : « آه ، إن الأمر يتضح لى شيئاً فشيئاً — أهو من المنشقين على الكنيسة ؟ »

« طبعاً ، يا سيدى ، إنه ليس من أتباع الكنيسة » — قالت هذا بنبرة تم على الاحتقار .

ولقد اكتشفت أن مناصريه من الأثرياء المنشقين عن الكنيسة وأنهم عطوفون للغاية على من يبتعد عن شرب الخمر ، وفي منتهى القسوة على السكارى المخمورين ، الأمر الذى أغضب منهم عديداً من أصحاب الحانات . ومن الطريف أن أتبين أن رجال الكنيسة يرددون كلمة « مسيحي » على أنها تعنى رجلاً ليس من أتباع كنيستهم . وتبينت أيضاً من صاحبة الفندق أن هؤلاء الوحوش الذين يتنكرون في زى بشر (تقصد المنشقين على الكنيسة) قد اقترحوا نظاماً جديداً للمجارى ونظاماً جديداً لتوفير الماء ، على الرغم من أن العوائد التى يدفعونها مرتفعة لدرجة فظيعة .

عندما سألتها عن مدى ارتفاع العوائد التى يدفعونها ، أجابت : « لا أدرى ، يا سيدى ، ولكنى أعلم أنها مرتفعة لدرجة فظيعة » .
 ولم ينجح الدكتور في الانتخاب ، لكن وجدت عزاء في أن القس لم يقدر له النجاح أيضاً . إن هذه الأمور الصغيرة التى كان الذهن يشرد فيها بين الحين والحين لم تترك لى لحظة أشعر فيها بالملل .

المحب

برتراند راسل

قلعة هوارد

يورك

١٥ من أغسطس ١٩٠٤

عزيزتى لوسى

إننى أقيم فى بيت كبير يرجع طرازه للقرن الثامن عشر ، ويتمثل فيه على حد سواء كرم المحتد والافتنان بالعقل . إنه حفل عائلى يجمع عائلة مارى التى تعرفينها ، ثم سيسيليا وروبرتس—أما عن سيسيليا فهى تكرس ولاءها لعائلتها. وعلى الأخص أمها ، وهى هادئة فى العادة وإن كانت تنفجر فجأة بغضب عنيف تستخدم فيه عبارات ضخمة من عبارات السب والقدح . وباستثناء هذه الحالات فهى قديسة سميئة مرحة ، ومن الغريب جداً أنها من المنشقين على الكنيسة . أما زوجها روبرتس فرجل طويل ، نحيف ، عصبي ، يرتعد كشجرة الحور عند ما تهب عليها الريح ، مثالى خاب ظنه فى المثالية فانقلب إلى الانتهازية . وهناك أيضاً هوارد الذى عاد مؤخراً من نيجيريا حيث كان يدير باقتدار ونجاح باهر شئون مقاطعة استولينا عليها منذ عهد قريب ، تحوى مدينة يبلغ عدد سكانها ٥٠٠,٠٠٠ نسمة لم يكن بينهم رجل أبيض سواه تقريباً . إنه ذكى ، نحيف رقيق ، متمسك بالتقاليد تخفى رقة سلوكه قسوة شرقية وقوة غضب تتسبب فيه والدته وينصب على زوجته — وعلى الأقل قد يحدث هذا فى المستقبل — وهو وزوجته غاية فى الجمال ، وكلاهما منشق على الكنيسة . وزوجته كذلك ذكية جداً وشديدة التمسك بالتقاليد ، وإن كانت طيبة القلب حقاً ، وشخصية لطيفة على وجه العموم . ويبدو ظاهراً للعيان أن كلاهما منهما متم بالآخر ، وإن كان الواحد منا يشعر شعوراً خفياً أن وراء هذا يكمن ذلك النوع من الغيرة الذى يؤدى إلى جريمة قتل إذا ما أثبتت نائزته : وإن كان أوليفر يشبه أمه فى شخصيته إلا أنه يختلف عنها فى كل الآراء ، ومن ثم فالعلاقات بينهما متوترة لدرجة مؤلمة ثم هناك دوروثى التى تبدو لى كجذتى من أمى — فهى غشوم ، قاسية أحياناً ، جريئة ، شديدة التمسك بالشرق ومليئة

بالحيوية الفطرية والأحاسيس السليمة ، وتسيطر عليها بشكل غريب مبادئ أمها ، وأخيراً هناك ليف جونز^(١) السكرتير الخاص لليدى كارليل وهو شخص محبوب للغاية ، ويقدم كل عون لكل إنسان . وضحي بمستقبله وبرغباته الذاتية ، وبكل أمل في حياة خاصة من أى نوع ، ولذا تنظر إليه الأسرة على أنه شيء ثابت في حياتها . ولا تنتظر منه أية مطالب على الإطلاق أكثر من توقعها أن ينطق الحجر الأصم طالباً طعاماً . وتوجه لىدى كارليل الحديث بشكل يجعل منه مباراة في المهارة من أجل مراهنات كبيرة - إن الحديث دائماً يتخذ طابع جدال تتجاهل فيه بكل ما أوتيت من قدرة فنية ، الالتزام بالموضوع ، فهي تغير موضوع الجدل حتى تحين الفرصة المواتية لها ، وحينئذ تهاجم وتشتت العدو كالتبن الذى تذروه الرياح وتوجه نسبة كبيرة من ملاحظاتها لإيلام أى شخص يبدو منه استقلال فى الرأى. أو كان سبباً في إثارة أى لون من ألوان الغيرة العديدة . إن لها عيوب النساء اللاتي عرفهن نابليون وإن كانت أقل منهن كذباً وأكثر قسوة ، وإنه لأمر فظيع أن ترى فيها هذه الرغبة في إثارة الشجار الذى ينتهى بالتصافح والتصافى . ومن الناحية الأخرى ، أن لها روحاً اجتماعية كبيرة . ولذا فهي تكرر وقها ومالها للقيام بأعمال عظيمة حقاً. إنها تتسم بالانزان والشهامة بالرغم من أنها شخصية معقدة .

المحب

دتراند رسل

اوديرن فييستر

٣ من أكتوبر ، ١٩٠٤

عزى زقى لوسى

ليس هذا بخطاب بالمعنى الصحيح إذ أنه فقط يصحح ما قلته في الخطاب السابق . فبمجرد رحيلى بدأت أنظر للأمور في أبعادها الحقيقية ولم

(١) الآن لورد رايدر (١٩٥٢) .

أعد أرزح تحت وطأة الأمور المعقدة . على أى حال لقد عازمت بوجه عام على ألا أكوّن علاقات وثيقة مع أناس لا أحترمهم ، أو أحاول مساعدتهم إذ يبدو أن هذه مهمة لا أصلح لها .

إن مقاطعة بريتانى رائعة تماماً — فيها كثير من الجمال الربيفى الصافى ، بغاباتها وجداولها وحقول التفاح التى تمتد إلى مالا نهاية وهى مملأى بالتفاح الأحمر الكبير الذى يملأ أرجح الهواء — وفوق ذلك كله فهى تجمع ما بين جمال مقاطعة ديفون ومقاطعة كورنوال . وكنا نسير مؤخراً حول الساحل الجنوبي الغربى حيث يسيطر المحيط الأطلسى كإله . وتوجد فى كل قرية صغيرة كنيسة قوطية كبيرة وعادة ما تكون فى غاية الجمال . وهناك كنائس كثيرة منعزلة تواجه البحر كشاهد على شجاعة القدماء — وتعجبت أول الأمر من هؤلاء الناس الذين يؤمنون بالله مع وجود شيء أكثر عظمة وأكثر قوة كالبحر ، ولكنى سرعان ما جعلتنى قوة البحر الرهيبة أرى أن الله ينتمى إلى عالم البشر ، وأنه يبدو فى أذهانهم كقائد لجيش وهم جنوده . إن الله هو أكبر دليل على أن العالم لا تتحكم فيه المادة فحسب . ولهذا كان الصيادون ولا يزالون أكثر الناس تديناً . إن هذه المقاطعة الغربية مقفرة ، كثيرة التعرض للرياح ، ازدهرت فيها فى الأزمان الغابرة مدن ، حيث كان يعيش ازولت فى قلعة تطل على البحر ، وحيث تبدو الأساطير القديمة أكثر أصالة من الحاضر . حتى الأطفال يبدوون كباراً فى السن ، فهم لا يلعبون أو يصيحبون ، كما يفعل الأطفال الآخرون ، بل يجلسون فى سكوت ، مكتوفى الأيدي وعلى وجوههم عناء الاستكانة فى انتظار للأحزان التى سيأتى بها الزمن لأمحالة . أما الرجال فتعشاهم الكتابة التى يحاولون التخلص منها بشرب الخمر . إننى لم أرقط فى حياتى أناساً مدمنين على شرب الخمر مثل هؤلاء القوم ، فى كل قرية رأينا عديداً من السكرارى يتمرغون فى الوحل . إن الأيام العادية هنا مملة ، مثلها مثل يوم عطلة البنوك عندنا إلا أن السيدات ، كما أظن لا يكثرن من شرب الخمر . وعلى النقيض من سكان مقاطعة بريتانى رأيت صاحب آخرحانة نزلت

بها ، وتقع في مكان يسمى « سان جينوليه » . بالقرب من بونى دى بناراش ، وهو رجل طويل ، معتدل القامة ، ذو لحية سوداء ضخمة ، يقوم بحركات سريعة ، قوية ومثيرة ، ونظراً لأن المطر قد بللنا فقد جلسنا في المطبخ حيث كان يطهو طعام العشاء بنشاط ومتعة لم أر مثيلهما قط . وسرعان ما تبينت أنه من باريس ، إن له أختاً متزوجة من صاحب فندق في لانكاستر ، وأختاً أخرى تعمل في خدمة اللورد جيرارد في مصر . ولقد كان هذا الرجل يعمل طاهياً على سفينة تعمل في الشرق الأقصى ، وانتهى به المطاف بالبداية بهذه المجازفة بعد أن اقتصد ما يكفي من رأس المال . ولقد أخبرنا أنه في الحقيقة نحات وليس بطاه ، وأنه في الشتاء عندما لا يأتي رواد للحانة بكرس وقته في صنع التماثيل . ويتمتع بصوت عال يمكن أن يملأ دويه أرجاء قاعة ألبرت للموسيقى ، ويستخدم صوته هذا بدلا من جرس العشاء . وفي الحقيقة ، أن روحه المرحية تتجلى في كل الأحوال فراه يجار بنكتة ما أو يصدر أمراً مما يجعل حوائط الفندق تدوى من علوصوته . وكان طهيته ممتازاً ، بلا شك . ولقد رأينا صياداً فقيراً يبيع له سردينياً للعشاء ، وكانت كمية كبيرة جداً ، بثلاث بنسات ، أنفقها هذا الشقي التعس ، على ما يبدو لي ، في الشرب في بار الحان .

المحب

بتراند رسل

٤ شارع رالستون

شارع تاييت ، جنوب غرب لندن

٨ من فبراير ، ١٩٠٥

عزيزتى لوسى

والآن وقد عدنا إلى تشلسي ، كثيراً ما أتمنى أن تعودى إلينا ، وعندما أتجول في متنزه باترسى أفتقدك كثيراً . إن به كثيراً من روائع المحيط الأطلسي . وهذا العام ، عندما أقوم بالتنزه ، أصطحب عادة ماكارثي الذي أجد في صحبته راحة

وهدهوءاً وفي مزاحه اللطيف ما يبعث على البهجة . وأسسير أيضاً في صحبة جورج تريفيليان الذى يعتقد أن العالم أفضل مما أظن ، وإن كان اعتقاده هذا يتسم بكآبة تبتدونكى عن التفاؤل ، إذا ما قورنت بها ، مرحلة للغاية . وبهذه المناسبة أود أن أقول إن زوجته من أحب الشخصيات التى رأيتها . لأنها قليلة الكلام ، وكثيراً ما أشعر أن الحديث بدأ يفتر عندما أكون معها . رغم هذا فهى تزخر بعواطف الحب والصدقة الكريمة ، وتتجلى فيها الأمانة والإخلاص لدرجة نادرة الوجود . إنها تجهل هذا العالم ، مثلها مثل كل شخص لم ير فى حياته إلا الكرم وحسن الطالع ، ولهذا تتوقع تلقائياً من كل من تقابله حسن المعاملة . وهذا يجعلها تكسب عطف الشباب ، وتجعل الواحد منا تواقاً لأن يجنبها الأحزان ، ورغم ما فى هذا من استحالة . لقد أحببت واحترمت أناساً أكثر منها ، لكن لم تكن لدى رغبة لأن أقيم من الآلام ، لأننى أشعر نحوها بنفس الشعور الذى أوليه لطفل ما .

وفى لندن نرى الآن كثيراً من الشخصيات ، فالليلة الماضية تناولنا العشاء ، عند سدنى وب لنقابل ليون فيليمور ، وماكندر الذى تعرفينه بلا شك — ذاك الحيوان عميد كلية الاقتصاد — وجرانفيل باركر^(١)، الممثل الشاب الوسيم الذى يخرج مسرحيات شو، ومرى^(٢) — وسير أوليفر لودج العالم، المؤمن بتناسخ الأرواح — وآرثر بلفور^(٣) ، ثم وورنر أعظم الجميع شأنًا وهو صاحب شركة وورنر وأكبر مليونير فى جنوب أفريقيا . إنه رجل ألماني طيب القلب ، خفيف الظل ، بدني ويحمل كذلك سلسلة ساعة ذهبية سميكة ، ويتكلم بلهجة ألمانية قوية (هو نموذج لأعظم المستعمرين البريطانيين) . لا يكاد يشعر بوزر دماء الشعوب التى دمرت والكراهية التى تولدت ، واستعباد الصينيين وفساد الإنجليز ، وهى أشياء كان ينبغى ، طبقاً للقواعد القديمة ، أن ترهق كاهله كما لو أنها قبة من رصاص . إن هذا العشاء مناسبة لطيفة . وعندما حضر جميع الضيوف ماعدا

(١) جلبرت مرى مترجم مسرحيات اليونان القدماء وصديق راسل .

(٢) آرثر بلفور وزير خارجية إنجلترا إذ ذاك .

بلفور وورنر طلبت منا مسز وب أن نرى منَ منهما يظن أنه أكثر أهمية من الآخر ، ويأتى آخر الجميع . وبكل تأكيد ، لقد حضر وورنر آخر المدعوين وعلى الرغم من أن بلفور يتحكم فى الإمبراطورية فإن وورنر يتحكم فيه . إن بلفور إنسان لطيف للغاية لاتصدر منه أية حركة أو إشارة تم على أنه شخصية هامة ، عطوف ، وتواق لأن يصغى أكثر مما يتكلم . وكثيراً ما يضع أصبعه فى فمه ، كما لو كان طفلاً مستغرقاً فى التفكير . ومن الواضح أنه ضعيف ، وأنه يفتقر إلى العواطف القوية ، وأنه لطيف ولكن غير كفء . على الأقل لم ألاحظ شيئاً يدل على مقدرة ما ، اللهم إلا لباقته وهى السبب الرئيسى ، على ما أظن ، لنجاحه . ولقد صرح أنه لا يدرى إذا كانت الحكومة ستبقى أسبوعين آخرين أم لا ، كما ذكر أنه لم يتمكن من مشاهدة مسرحية شو خوفاً من احتمال إجراء انتخابات عامة . لقد اعتبرت هذا الكلام نوعاً من المداهنة والتملق . ولقد جرنى للحديث عن فلسفة مور ، ثم أصغى إلى محاضرة ألقتها مسز وب عن « المبادئ الأولية للحكومة ، للمبتدئين » وكان يمكن أن يكون هذا على الأقل عنواناً مناسباً لما جرى على مائدة العشاء من حديث .

أما سير أوليفر لودج فقد بدا لى لطيفاً ، برغم شعورى بالتحامل عليه من جراء اختلاف عقائدها الدينية . إنه هادى ، يميل إلى الفلسفة وإلى النظر للأمور نظرة موضوعية ، أما ما كنلر التعس فقد أثر جانب السلام مع بلفور ودخل معى فى جدال ، كان مصدر متعة كبيرة لى ، وكان امتحاناً مريراً تخلى فيه عن السلوك الملهذب ومراعاة شعور الغير^(١) .

لأننى لا أقوم بعمل ما فى هذه الآونة ، إذ يقتصر نشاطى على مقابلة الناس وقضاء وقت أمتع فيه نفسى . وتنتابى نوبات من الضيق قصيرة الأمد ، ولقد تأثرت إلى حد معقول بالمآسى التى حدثت للغير مؤخراً ، بعضها كشف عن سلوك سيئ لأصدقاء حميمين ، الأمر الذى سبب لى عظيم الألم ، والبعض الآخر كان مبعث عذاب أكبر إذ أنه كان على أن أراقب ما تحدثه من آثار

(١) لقد كتبت مسز وب وصفاً لحفلة العشاء هذه فى كتابها « جهادنا المشترك » ص ٣٠٠ .

مدمرة ، وأنا أقف عاجزاً بلا حول ولا قوة لإزاء هذا الأبله عديم الإحساس الذى يقول إن حب الناس يجلب السعادة للإنسان. على أية حال ، ورغم كل الآلام التى يسببها هذا الحب ، فإنه يعين الإنسان بالفعل على تحمل متاعب الحياة .

الحب
برتراند رسل

لووركويس
باجلى وود ، أكسفورد
١٣ من يونيو ، ١٩٠٥

عزيزتى لوسى

لا أذكر ولم يتطرق إلى علمى أن مجلة الإسيكتاتور قد تحدثت عن مؤلفاتى ولذا فإن إشارتك قد جعلتنى متلهفاً لمعرفة ما كتبت . لأننى لم أكتب شيئاً جديداً من هذا النوع من الكتب ، وإن كنت أسير قدماً فى ذلك . ومنذ عهد طويل أناقش بين الفينة والأخرى هذا اللغز : إذا انطبق اسمان أو وصفان على شىء واحد ، فإن ما يصبح على أحدهما يصبح على الآخر . أراد جورج الرابع مثلاً أن يعرف إذا كان سكوت هو مؤلف روايات « ويفرلى » ، وسكوت فى الحقيقة هو نفس الإنسان الذى ألف روايات « ويفرلى » . ومن ثم فإذا نحن وضعنا الإنسان محل المؤلف ، تبين لنا أن جورج الرابع أراد أن يعرف إذا كان سكوت المؤلف هو سكوت الإنسان الأمر الذى يوحى باهتمام بقوانين الفكر أكثر من اهتمامنا بمعرفة أول إنسان سكن القارة الأوربية . إن حل هذا اللغز الصغير غاية فى الصعوبة إذ أن الحل الذى اكتشفته هذه الأيام يلقى ضوءاً على أسس علم الرياضيات وعلى مشكلة العلاقة بين الأفكار والأشياء... إنه لأمر عظيم جداً أن تجد لغزاً ما إذ أنه طالما ظل بلا حل فإن هذا يعنى أن الإنسان لم يصل بعد إلى أعماقه .

إننى عازم على ألا أقوم ، طالما حييت ، بعمل مضن كما فعلت فى العامين

السالفين . إن عملي هذا العام ، وحتى هذه اللحظة ، لم يصل بعد إلى هذه الدرجة من الصعوبة ، إذ ما زلت أجنئ ثمار عملي السابق .

إن هذا المكان مناسب للغاية . البيت جميل مريح ، وأقوم بكثير من البحث والاطلاع لدرجة تكاد تكون مخجلة ، فالمنظر الريفية التي تحيط بالبيت مثال لما نراه في إنجلترا من جمال الحقول والمروج والمنظر الفسيحة الشاسعة التي تضم أكسفورد والنهر . ويبدو أن أليس معجبة بهذا المكان تمام الإعجاب وصحتها هنا على وجه العموم أفضل مما كانت عليه وهي تعيش في المدن .
— إنني أشعر بالمازيا العظيمة التي أجنيها من اختلاطي بالناس في أكسفورد — إذ أنه لما ييسر على الإنسان الاحتفاظ بالرغبة في العمل ، أن يربط بينه وبين اهتمامات الغير . وكان على أن أسير على نظام صارم ، تيسر لي بفضل وجودي هنا .

أرجو أن تكتبي لي ثانية بأسرع ما يمكنك وأن تفيدني بأخبار هيلين ، إذ أن خطاباتك مبعث سرور لي دائماً . إنني الآن وسط نوبة من نوبات الحماس للعمل ، وسرعان ما تنتهي على الرغم مني . إن الحياة بسيطة وممتعة لو أن الانسان تمكن من التمتع بأداء واجباته ، كما يفعل البعض ، وتكون أكثر بساطة إذا قام الإنسان بواجبات لا يشعر فيها بمتعة ما . وإذا لم يتيسر له هذا أو ذاك فإن الحياة تكون معقدة لحد مفرع . إنني أعيش الآن على أمل الوصول إلى منتصف العمر ، الذي يجعل كل شيء على حد قول البعض ، سهلاً ميسوراً .

الحب

برتراند رسل

١، شارع بارتون

وستمنستر

٣ من أغسطس ١٩٠٥

عزيزتى لوسى

قبل أن يصلك خطابى ربما تكونين قد علمت بالكارثة التى حلت بنا جميعاً؛ لقد غرق تيودور ديفيز عندما كان يستحم بمفرده فى بركة بالقرب من كيركبي لونسدیل ، ومن المعتقد أن رأسه اصطدم بصخرة أثناء غطسة أفقدته الوعي . إنها خسارة للعديد من الناس ، وسنشعر بها طالما حيينا ، ولا يتسنى لأحد أن يقدر مدى خسارة الشعب الإنجليزى بفقدته . إلا أن هذا يتضاءل إذا ما قورن بالخسارة التى يشعر بها كرومبتون إذ أنهما كانا دائماً متلازمين ، متفاهمين فى كل شيء ، بل كان تيودور يعزى كرومبتون ويشمله بحنان الأم لابنها ، وبرغم أن كرومبتون يحتمل الصدمة بشجاعة مذهلة ويصبر عقله عليها فى جلد ، إلا أننى أشك فى مدى احتمال بدنه لهذه المصيبة . ولذا فإننى هنا أحاول أن أفعل كل ما أستطيع من أجله - وإن كان هذا لا يزيد كثيراً عن الجلوس معه فى صمت ومشاركته الأسى . وحالما تسنح له الظروف للرحيل ، فسأرافقه فى السفر للخارج . إننى أقيم الآن فى منزل مس شبشانكس التى كان لطيفاً منها أن تؤجره لى ، نظراً لرحيلها ورحيل السكان الآخرين . ولقد جزعت أليس جداً عندما سمعت خبر وفاة تيودور ، وكنا وقتئذ نهم بالرحيل إلى إيرلندة لنقيم مع عائلة مونتيجلز ، وبما أنه من الخير لها ألا تترك وحيدة بمفردها فقد اصطحبها إلى إيرلندة ، وعدت إلى هذا المكان . وستمضى هناك حوالى عشرة أيام أخرى فى رعاية هؤلاء الناس الطيبين . إننى لا أدري كيف أحتمل رؤية الأسى الممض الذى يشعر به كرومبتون ، وإن كنت أجده عزاء فى شعورى بإمكاني تقديم بعض العون له . لقد كان لتيودور وأصدقاء أوفياء كثيرون ولقد عمل هؤلاء ما يوسعهم وساعدوا كرومبتون على تخطي الصدمة الأولى . ولكن سيستمر القلق على كرومبتون لفترة طويلة فى المستقبل .

٢٨٥

لقد كتبت مقالا عن جورج الرابع في مجلة « الفكر »، سينشر في الوقت المناسب ، وستجدين فيه « الجراب » . . .

إنني مرهق لدرجة لاتمكنني من الكتابة أكثر من هذا . لقد أردت أن أقصر خطابي على تيودور الذي ملأ على كل تفكيرى .

الحب

برتراند رسل

روزارين ، جريشوت

هاسلمير ، سرى

٣ من سبتمبر ١٩٠٥

عزيزتى لوسى

أشكرك جداً على خطابك الرقيق . لقد سافرت مع كرومبتون إلى فرنسا لمدة أسبوعين ، وهى كل الإجازة التى استطاع أن يحصل عليها . وأعتقد أن هذه الفترة كان لها أثر طيب عليه . لقد أقمنا أول الأمر مع عائلة فرأى ثم عائلة هوايتهد . وبرغم أنه مضت عشرة أيام لم أراه فيها منذ عودتنا ، إلا أننى عظيم الرجاء فى أنه سينجو من الانهيار التام .

وعلى نحو أقل من كرومبتون كانت هذه الفترة مريعة بالنسبة لى . إنها جعلتني أنظر لكل شىء نظرة ريبة وشك مادامت تتحكم فيه الصدفة المحضة، ولذا كان من الصعب على الإنسان أن يحتفظ بهدوئه وبسكينة وهو يشعر بالخوف من فقد كل غال وثمين . كما أنها أحييت ، كما تفعل المصائب دائماً ، ذكرى الأحزان الدفينة التى كان الإنسان قد عزم على نسيانها تماماً . بدأت هذه الأحزان تندفع من قبورها واحدة بعد أخرى ، وترفع عويلها فى صحراء العقل وكأنها ريح عاتية . ولم تكن هذه الحالة التى مررت بها تسمح بفلسفة على الإطلاق – فلم أر أى شىء يمكن قوله للتخفيف من وقع الكارثة . على أية حال ، لقد ملكت زمام نفسى الآن ، وغدا سأعاود العمل بعد جولة لمدة

٢٨٦

أسبوع أقوم بها بمفردى وسأكون يوم الأحد مع عمى أجانا لنتحدث عن الأمور الغائبة وعن الموتى وعن الذكريات القديمة ، وهو حديث يشعر الإنسان بشيء من الراحة . من الغريب أن المشاعر العائلية يثيرها أى شيء يجعل الإنسان يعتقد أن الكون عدوله .

الحب

برتراند رسل

لوور كوبس

باجلى وود ، أكسفورد

١٠ من نوفمبر ١٩٠٥

عزيزى لوسى

إنه مبعث سرور عظيم لى أن أسمع منك ثانية . إننى أعتقد أن الخطابات لها أهمية أكبر مما نظن . فإذا لم يكتب الإنسان فلن يتسنى معرفة أعماله وحالته الفكرية العامة ، وعندما يحين الوقت للشرح والإيضاح يجد الإنسان أن هناك تهديدات كثيرة لدرجة تجعل التعبير عنها كتابة أمراً مستحيلاً . وأرجو ألا يحول بينك وبين الكتابة الخوف من الإطناب - ولا يصح أن تنتظري حتى تكونى فى أوج حالاتك النفسية . إن ما تقولينه عن أليس و «الطريقة السليمة» لحياتى تجعلنى أشعر بأن هناك ثمة خطأ ما - استغرق فى الحديث عن المهنة والفضيلة لأننى بالتأكيد أعرف أناساً أفضل منى فى طريقة حياتهم ، كما أنهم أقدر على إنجاز واجبات صعبة طويلة دون أن تصيبهم لحظة ضعف أو وهن ، إلا أنهم لا يتحدثون كثيراً عنها كما أفعل ، ولذا لا يعلم الناس مدى صعوبة الواجبات التى يقومون بها فى صمت .

إننى شاكر سؤالك عن هيلين وأدرك تماماً ذلك الألم الذى يعاودك حين تربئها ، والفرع من مواجهة وقائع الحياة بما فيها من عذاب ممض بعد الاستكانة إلى الحياة الروتينية . إننى أشعر بالأسف لأن الأمور مازالت على حالها من

{ ٢٨٧ }

السوء . وإن كنت أتساءل عما إذا كان هناك أناس يشعرون بهذا ، ماعدا السفهاء . إن الحياة عبء ثقيل إذا وجد . الإنسان أن من يوليهم أعظم حبه يفضلون غيره عليه ، وإذا لم يجد ركنًا في هذا العالم يقضى فيه على الوحدة التي يشعر بها . إنه من الصعب أن أدرك كيف تكون الحياة غير هذا . ومشكلتك هي أن تواجهي هذا كله بشجاعة ، مع الاحتفاظ بقدر الإمكان بكل اهتمامك وقد يكون أيسر على الإنسان أن يتخلى عن كل شيء دفعة واحدة ، ويقضى بذلك على أشد ما يهواه ، وإن كان هذا سيفضي إلى الصلابة التي تتطور آخر الأمر إلى صرامة ، كالتى يشعر بها الناسك . إن السبيل الآخر له مضاره كذلك ، فهو مرهق للذهن والبدن ، محطم لراحة البال ، ويجعل الإنسان يفكر دائماً في كيفية الاحتفاظ بقيمته دون التعدى على حدود غيره من الناس . إنه أمر غاية في الصعوبة . وتراودنى نفسى أحياناً بأن أجعل حياتى الواقعية كلها ذكرى وخيالاً ، لا مجال فيها لقيود الواجب والحقائق ، وأن أجعل علاقاتى الحالية مع الناس مجرد ظل زائف ، وهذا سبيل من مزاياه الاحتفاظ بالماضى نقيماً بلا شوائب .

لكن لتتحدث عن أمور عملية أكثر . إننى أعتقد أنه إذا كان هناك شخص لا يحتل المكانة الأولى في حياة شخص ما ، فن الضرورى ، على ما فى هذا من صعوبة ، أن يجعل مشاعره تجاه هذا الشخص مجرد مشاعر سلبية . أعنى أنه يجب ألا يعطى رأياً ، إلا إذا سئل فيما يجب على هذا الشخص أن يقوم به من أعمال ، ويجب ملاحظة حالاته النفسية ، بحيث يقتصر على ترديد صداها فلا يظهر إلا قدرًا من العاطفة مساوياً لحالته النفسية ، ويكبت من المشاعر ما يجاوز هذا النطاق ، ويجب أن يكون على استعداد بأن يشعر بألا يرتب لنفسه حقوقاً ، ولن يرضى بما حصل عليه . وهذا يشبه على سبيل المثال موقف الأم الطيبة تجاه ابنها المتزوج . ورغم ما فى هذا الموقف من صعوبة فهو أمر عادى بالنسبة للعواطف ، وواجب على الإنسان أن يروض نفسه على القيام به دون أن يعرض نفسه لموت روحى .

إننى أقابل كرومبتون ديفز كثيراً هذه الأيام . وهو مازال يشعر بشقاء عميق ، وأعتقد أنه سيظل كذلك لفترة ما ، كما أنى لا أعتقد أن الزواج أو أى شيء آخر سيسبب جراحه ، وبرغم هذا فهو شجاع ويتظاهر بالجلد أمام الناس ، كما أنه محبوب بين أصدقائه لدرجة نادرة .

يبدو لى أن التحالف مع اليابان أمر عظيم للغاية — ولقد سررت لأن إنجلترا بدأت تدرك أن الرجل الأصفر رجل متحضر ، ولا أشعر بأسى كبير لما يتضمنه هذا الإدراك من نزاع مع أستراليا . لقد كفت حكومة بلفور عن القيام بأعمال ضارة ، بعد أن أصبحت عاجزة تماماً . ويسود الاعتقاد بأنه سيستقيل فى فبراير ، وأنه يحاول دفع الأحرار لتأليف وزارة قبل حل البرلمان . ومهما يحدث فإن الأحرار على ثقة تقريباً من الحصول على أغلبية ساحقة فى البرلمان المقبل .

من الطريف أن أعلم أن هناك من يتعلم على فى برين مور ، ولقد قام شابان أحدهما يسمى هنتنجتون فى جامعة هارفارد ، والآخر يسمى فييلن فى جامعة برنستون ، بتأليف كتب فيها إشارة كريمة لى . وثانيهما على الأقل ، شاب ممتاز كفاء .

لقد طلبت منى أليس أن أخبرك أنها لم تستطع كتابة خطاب إليك يلحق بريد يوم السبت . إنها جده مشغولة ما بين استقبال الزوار وحضور الاجتماعات وتشعر بإرهاق شديد . على العموم إن صحتها جيدة هذه الأيام ، ولقد طلبت منى أيضاً أن أذكر لك قصة فورستر « حيث يتخرج الملائكة من الدخول » — يبدو لى أنها قصة بارعة ، فيها كثير من الأصالة ، وإن كان فى أجزاء منها إقراط فى الهزل . كما أن الخاتمة عاطفية بدرجة مبالغ فيها . إن فورستر أحد أفراد مجموعتنا فى كمبردج ، وأظن أنه يبلغ حوالى السادسة والعشرين من العمر ويبدو أنه يتمتع بموهبة أكيدة .

لقد ظهر كتاب ديكنسون الجديد المسمى « معرض الآراء الحديثة » ،

٢٨٩

إنه كتاب رائع أظهر فيه تحمساً وموالة للمحافظين أكثر من الأحرار ، وإن كان تحمسه وتعاطفه لم يفتر إلا عند حديثه عن جلادستون وعالم البيولوجيا . ونرى في الكتاب بجانب جلادستون ، دزرائيلي وهنرى سدجويك وأصدقاء عديدين مثل بوب تريفيليان وفرديناند شيلر وأودبون وأشتاتاً من الشخصيات أمثال بيرنسون وسانتيانا وسدني وب وآخرين من غير ذوى الشأن . إنه كتاب لا بد من قراءته .

لقد سار عملي هذا الصيف على مايرام ، على الرغم من فترة انقطاع طويلة نظراً لوفاة تيودور ، وأحرزت تقدماً كبيراً أكثر من المعتاد . ولكن نهاية المجلد الثاني تبدو بعيدة المنال — فالعمل ينمو باستمرار . فيما عدا هذا ، كنت منهمكاً في مصائب الغير — وبعض هذه المصائب المؤلمة لدرجة غير عادية اعترضت طريقي في الفترة الأخيرة . وبما زاد من وطأتها استحالة الحديث عنها للغير — على أى حال ، لا قبل لى بتحمل الحياة ما لم تكن لى علاقة بأناس يفرضون على مشاركتهم الأسى والأحزان . وأينما وجدت الأحزان فإننى أؤثر معرفتها ، فقط ولكنى أشعر شعوراً متزايداً بالعجز أمام المصائب فقد كنت قادراً من قبل على مواساة الناس بكلمات مشجعة ، ولكننى أشعر الآن بالكلال أكثر من اللازم ، ولم أو من بغير الصبر والتجملد دواء للأحزان .

الحب

برتراند رسل

لوور كوبس

باجلى وود ، أكسفورد

١ من يناير ١٩٠٦

عزيزتى لوسى

سرنى أن إحساسك بالقيم قد تغلب على تزمك البيوريتانى ، وأنا واثق أن إحساسك بالقيم كان صادقاً . إن الخطابات هامة جداً ، وأهتم كثيراً بوصول

خطابات منك ، إذ أنها السبيل الوحيد الذى لا يجعلنا نلتقى كغرباء مادامت اللقيا لا تتيسر إلا بعد فترات من البعد تقاس بالسنين . على العموم أعتقد أنك محقة فى عدم تكريس أفضل ساعاتك للعمل الروتينى ، إذ أن الناس الذين يفعلون ذلك يجرفهم الروتين بكل تأكيد لدرجة تجعلهم يفقدون كثيراً من شخصيتهم ومهارتهم الروتينية كذلك . وفى هذا المجال ، على الأقل ، أنفذ عملياً ما أنادى به ، فأنا أقضى الساعة الأولى والنصف ساعة فى جدل حول الأخلاقيات مع الشاب آرثر داكينس وهو على ما أعتقد تلميذى الوحيد هنا ، وإن كان تلميذاً عنيداً صلب الرأى دائم السعى وراء المعتقدات الفلسفية الكاذبة التى ينادى بها أتباع الفيلسوف هيجل . (لأننا نقيم مع أهله فى هسلمير) وأبوه رجل لطيف ، يتمتع بود ومشاعر كريمة نادرة الوجود ولقد ورث عنه ابنه كثيراً من جاذبيته وباستثناء عائلة مدى فهو الشخص الوحيد الذى أعده صديقاً بحق — ومن عداه فهم غرباء ، لا أعرفهم إلا قليلاً .

إننى تواق جداً لزيارتك ، وأرجو رجاء حاراً ألا يحدث ما يحول دون إتمامها ولن أكون منهمكاً فى العمل فى ذلك الوقت ، إذ أننى سأكون قد قمت بعمل مستمر طوال الربيع ، وأخشى أن تجدنى قد اكتسبت كثيراً من صفات الكهولة وقلت قدرتى على التحلل من الواجبات المفروض على القيام بها ، فمشاغل الحياة وأعباؤها كثيرة ومن شأنها أن تضعضع الكيان الروحى للإنسان بما تسببه من الإرهاق الشديد . لقد بدأت اعتاد شيئاً فشيئاً على شغل بالى بما ينبغى على القيام به من أعمال يوماً بعد يوم ، مما باعد بينى وبين أشياء تفوقها فى الأهمية ، قد يكون هذا أمراً لا مفر منه ، لكنه أمر مؤسف إذ بدأت أشعر بأننى أصبحت أكثر ميلاً للانقباض . وعلى الرغم من ذلك فإن هذا المنهاج يتناسب مع عملى لدرجة مذهلة . فعلى خلال عام ١٩٠٥ أفضل كمّاً وكيفاً من العمل الذى أنجزته فى أى عام مضى ، باستثناء العمل الذى أتممته عام ١٩٠٠ . إن الصعوبة التى صادفتنى فى عام ١٩٠١ والتى شغلتنى كثيراً طوال فترة إقامتك فى أوروبا قد انتهت تماماً ، على حد تقديرى . ولقد نشأ الإشكال من جراء تساؤلنا

عما إذا كان ملك فرنسا أصلع الرأس — وهو سؤال أجبت عليه في نفس المقال الذى أثبت فيه اهتمام الملك جورج بقانون التطابق — وعلى هذا فن المنتظر أن تسير الأمور بينى وبين هوايند سيرا طيباً إلى حد ما من الآن حتى نشر كتابنا الذى أرجو أن يتم فى بحر أربع أو خمس سنوات . وفى الفترة الأخيرة كنت أعمل بمعدل عشر ساعات فى اليوم ، وأعيش فى حلم لا أرى فيه عالم الواقع إلا من خلال ضباب معتم . وبما أنه على أن أزور عمى أجاتا فى هندهد وبعد ذلك عائلة داكين ، فإننى أصحو على حين فجأة من الحلم الذى أعيش فيه لكنى الآن سأعود إليه حتى أسافر إلى الخارج مع مستر ديفيز وابنته يوم ٢٥ يناير .

لقد وجدت عند عودتى اليوم هديتك الرقيقة إلى أليس التى لم تستلمها بعد لأنها سافرت إلى وستام للاشتراك فى الدعاية الانتخابية للاستمران ، وما هو بالشخص الذى أُرشحه لو كان الأمر بيدى ، ولكنها كانت قد وعدته منذ مدة طويلة بأنها ستساعده فى الانتخابات . إن المستقبل السياسى يبشر بالخير على وجه العموم . لقد أحسن الأحرار صنعا فى منعهم جنوب أفريقيا من استرقاق الصينيين ، وقد أحدث كل من كامبل وبانرمان ضجة شديدة بتصريحهم التى تؤيد منح الحكم الذاتى لإيرلندة ، ولكن اليوم نصح كل من ردموند ودوق ديفونشر الناخبين ليدلوا بأصواتهم مع الأحرار ، وهكذا ضمن كامبل وبانرمان أصوات أنصار الحكم الذاتى دون أن يفقدوا أصوات الاتحادات التى تنادى بحرية التجارة . ولولا الحظ ، لانعكست الآية . على أية حال ، قبل أن يصلك خطابى ستبدأ نتائج الانتخابات فى الظهور . إن مجلس الوزراء الجديد ممتاز ، ولقد سررت لأن جون بيرنز من أفراد الوزارة التى أرجو ألا تتحطم بعد ذلك على صخرة المشكلة الأيرلندية . إننى الآن أتنفس الصعداء لأن هؤلاء الأوغاد قد تركوا الحكم ، وأتوق لمعرفة الأغلبية التى سنحصل عليها والقضية الآن هى : هل فى وسع الأحرار عدم الاعتماد على الأيرلنديين ؟ من المؤكد أن النتيجة ستكون متقاربة سواء فاز هذا أو ذاك .

أتمنى أن تتمتعى بقراءة كتاب « معرض الآراء الحديثة » ، الذى ألفه

٢٩٢

ديكنسون ، وستعرفين فيه على بوب تريفيليان وسدنى وب ، إننى شديد التعلق
بالكتاب .

المحب
برتراند رسل

١٤ شارع بارتون

وستمنستر

١٨ من فبراير ، ١٩٠٦

عزيزتى لوسى

لقد انتابتنى كتابة فطبيعة فى الأيام الأخيرة . فرجريت ديفيز مازالت
فى هاوية الشقاء ، وتحتاج إلى قدر كبير من العزاء الصامت ، وهو أشد إرهاقاً
من العزاء الذى يجهر به المرء ، وتجديننى كالمعتاد أرزح تحت وطأة عديد من
الشاغل وألوان شتى من القلق لا أستطيع الكلام عنها ، إننى أتحرق شوقاً
للعمل ، الذى اعتبره ملاذى . ونظراً لأنى أرهقت نفسى قبل السفر إلى الخارج
فإنى ما زلت أشعر بشيء من الفتور ، ولذا فقد أمد فترة عطلتى . أحياناً يستولى
على شعور بالآأأوقف عن العمل أبداً ، ولكن هذا ما تعجز عنه قوة الإنسان
البدنية ، إننى أجد راحة كبيرة فى علم الرياضيات ، إذ بدونه لا أدرى كيف
تسير إلى الأمور . فلست أنا الذى يصلح لإسداء النصيح عما يبدد الكتابة ،
ومع هذا فليس أأأى إلا أن أقدم لك هذه النصيحة التى أعلم أنها ليست مجدبة
ورغماً عن هذا فهناك شيئان أأأألا فى نفسى حقاً مزيداً من السعادة ، أولهما
نتيجة الانتخابات العامة التى تعنى أنه فى السنين القليلة المقبلة على الأقل
ستسير الأمور فى إنجلترا حسبما يتمنى المرء ، وثانيهما أمر شخصى يتعلق بالتقدم
المذهل الذى أحرزته فى عملى والذى كان من نتيجته أن توصلت إلى حل
أعوص المشكلات التى كان على أن أتصدى لها ، ولهذا فإننى أنوقع تقدماً

٢٩٣

سريعاً ميسوراً لعدة سنين مقبلة . لقد قضيت أياماً قليلة في باريس ، أعدت وأ فيها حفل عشاء تكريماً لي ، جمع فلاسفة وعلماء في الرياضيات . وكان جميلاً . أن أقابل الناس وأشعر بتقديرهم لي ، وكان طريفاً أن ألاحظ ، بعد أن استعرضت أنوف المدعوين وشكلها المتميز ، أن غالبيتهم من اليهود ، وكان يبدو عليهم سياء التحضر ، وروح الخدمة العامة وشغف شديد بالعلم . وذكر أحدهم أنه قرأ قصيدة باللغة الإنجليزية تسمى «الجندى العجوز» ولم أستطع أول الأمر أن أتذكر الشاعر الذي كتب هذه القصيدة ، إلا أنه سرعان ما خطر ببالي أنها للشاعر هود . ولقد تمتعت أيضاً في باريس بمقابلة الأنسة منتيرن وسانتيانا — سأعود إلى أكسفورد في نهاية الأسبوع المقبل . أليس في صحة جيدة هذه الأيام ، ولا تشعر بإرهاق من جراء الجهد الذي تبذله في الدعاية الانتخابية في وستهام . أرجو أن يصلني منك خطاب في القريب العاجل .

المخلص

برتراند رسل

بروفيدانس هاوس

كلوفيللي . بالقرب من بيدفورد

٢٢ من أبريل ١٩٠٦

عزيزتي لوسي

... . إني هنا في عزلة مطلقة منذ حوالى شهرين ، وأجد فيها حتى الآن ما يحقق الغرض منها . فالبلدة جميلة ، فوق ما يتصور العقل — غابات ملتفة تشبه الجميلة النائمة ^(١) ، وهي تنحدر إلى البحر ، ووديان صغيرة مليئة بنباتات الخنشار والطحالب والأزهار البرية من جميع الأنواع . وأقوم بعد الظهر من كل يوم بجولات طويلة على الأقدام ، وأعمل بقية النهار والمساء . أما في أثناء تناول الطعام فأقوم للمرة الثانية بقراءة قصة «الحرب والسلام» ^(٢)

(١) إشارة إلى الأسطورة التي تقول بأن إحدى الأميرات الجميلات ، كانت قد استسلمت بفعل السحر ، للنوم في قصر تحيط به الغابات الملتفة .
(٢) القصة المشهورة التي ألفها تولستوي في القرن الماضي .

التي أقدر أنها ستشغل معظم وقتي . أما في أثناء سري ، فلإني أتوقف وأقرأ بعض فقرات كتاب والطن عن « حياة العظماء » ، أو غيره من الكتب التي تسمو بالنفس . وهكذا يسير عملي بخطوات حثيثة ، وإني لأستمد منه متعة بالغة ^(١) . وحينما أكون وحدي ، أهرب من عناء التفكير في مسائل أخرى ومن البت في مسائل لا قبل لي بحلها الآن لشدة تعقدها . ولهذا فلإني قانع ، وأجد لدى ما يكفي من العمل لشغل تفكيري ، وما يكفي من النشاط ليجعل من العمل متعة لا عذاباً .

أما عن الشهرة ، التي تتحدثين عنها ، فليست لدى رغبة واعية في الحصول عليها . وهم ينظرون إلى في أكسفورد ، بكل تأكيد ، كمغرور ، وكأنسان بلا روح ، يهتم بالشكليات . ولكني لا أهتم كثيراً بآراء الناس فيما أقوم به من أعمال . ولقد كنت فيما مضى أهتم ، حتى توفر لي من الثقة بالنفس ما يكفي لأن يجعلني أستغنى عن مدحهم . وإن البهجة التي أتحصل عليها من مدحهم الآن ، لأقل من تلك التي أتحصل عليها من يوم صحو جميل . وأشعر أنني أقدر من أي إنسان آخر ، على الحكم على قيمة عملي ، هذا إلى أن المديح الذي أحصل عليه من الجمهور المثقف هو قطعاً بسبب أشياء كتبها منذ وقت طويل ، وهي تبدو لي الآن ، مليئة بالنقائص إلى الدرجة التي لا أحب معها أن أتذكرها . فالعمل ، إذا سار على ما يرام ، هو في حد ذاته متعة كبيرة ، وإني لأنظر إلى أي عمل قيم أقوم به ، بنفس الرضا الذي يشعر به الإنسان بعد أن يتسلق جبلاً . وأهم شيء بالنسبة لي هو احترام الذات الذي أحصل عليه من العمل — أما إذا فعلت شيئاً أندم عليه (وهو كثيراً ما يحدث) فإن العمل يعيد لي الشعور بأن الحياة أفضل لي من الموت . وشيء آخر أقدره كثيراً ، هو نوع من الاتصال الروحي بالمختبرين في الماضي وفي المستقبل وكثيراً ما أعيش في محاورات خيالية مع لا يبتتر أقول له فيها إن أفكاره قد آتت أكلها ، وإن النتيجة أجمل بكثير مما كان يتوقعه . وفي لحظات الثقة بالنفس ،

(١) لقد اتضح أنه كلام فارغ .

٢٩٥

أتخيل طلبة يأتون بعدى ، ويكون لهم عنى أفكار مماثلة . فهناك اتصال روحى بين الفلاسفة ، تماماً كالاتصال الروحى بين القديسين ، وذلك هو الذى يحول بينى وبين الشعور بالوحدة . على كل ، إن هذا البحث يبين كم يصبح الإنسان مستغرقاً فى ذاته حينما يكون وحيداً . .

بسعدنى أن أسمع أن صاحبتك الريفية قد تزوجت الرسام . والعبرة بالخواتيم ، والمرثية التى سوف أضعها على شاهد قبرى لو كنت آخر رجل على قيد الحياة .

وأنا على العموم راض عن بيرل . ولقد ارتكبت الحكومة بعض الأخطاء الفاحشة ، ولكنها على العموم حكومة لا بأس بها .
اكتبى ثانية حينما تسنح الفرصة ، على العنوان الحالى .

المخلص
برتراند رسل

إلى لويس ديكنسون

ليتل بكلاند

تورث برودواى ، رشستر

٢ من أغسطس ، عام ١٩٠٢

عزىزى جولدى

. . . هذا الحى الذى لم أكن أعرفه من قبل ، له جاذبيته ، فالقرية مبنية كلها من نوع جيد من الأحجار ، ومعظم المنازل على الطراز اليعقوبى^(١) أو الطراز السابق له . ويوجد سهل عظيم ملء بأشجار الصفصاف التى تتخللها أشعة الشمس الغاربة ، وفى الناحية الأخرى ترتفع جبال عالية . ونحن نقيم فى منزل ريفى قديم وجميل جداً . والمكان يبعث على النشاط ، وأنا أعمل بين ثمانى أو تسع ساعات يومياً ، مما أصاب ذهنى بالبلادة فى نهاية الأمر . ولسوف يظهر كتابى ، وربما أيضاً كتاب مور ، خلال الشتاء . ومن وقت لآخر

(١) طراز القرن السابع عشر فى المعمار .

تأثني أصول الكتاب ، الذي يبدو لي عديم القيمة . وحينما أفكر فيما كان ينبغي أن يكون عليه الكتاب ، تتضاءل قيمته في نظري ، لقد حضر هوايته إلى الكلية . ولكني لم أره إلا قليلا ، حيث إنه كان منهمكاً في تصحيح أوراق الامتحان . وإنه حقاً لنظام مضحك ذلك الذي تتناسب فيه مكافأة الأساتذة عكسياً مع قيمة عملهم . وأتمنى أن يوجد نظام أفضل . لاشك أن الحياة في كامبردج ممتعة ، وأستطيع أن أقول إنني سوف آتي لأعيش فيها يوماً ما . . ولكن ليس الآن قطعاً . وعلى كل فإننا سوف نعود إلى لندن بعده ١١ سبتمبر ولمدة ستة أشهر . وأمل أن تزورنا أثناء رحلاتك الأسبوعية إلى هذا المكان الذي يعج بالحركة والضجيج في غير ما هدف ، وحينما أرى الناس الذين يسعون خلف المال أو الشهرة ، أو السلطة ، أجد أنه من الصعب تخيل الفراغ العاطفي الذي يعيشون فيه ، والذي 'يترك' لهم وقتاً للتفكير في مثل هذه التفاهات .

المخلص
برتراند رسل

العنوان . فرايديز هل

هاسلمير

ليتل بكتلاند

قرب بردواي ، ورشستر

٢٦ من أغسطس ١٩٠٢

عزيزي جولدي

سررت كثيراً لخطابك ورأيت نفسي متفقاً معك في كل ما قلته عن الفردوس^(١) على الرغم من أنه قد انقضت على قراءتي له سنوات كثيرة . كما أنني أتعاطف تماماً مع ماقلته عن إيطاليا وبلاد الشمال ، وإن كنت في أعماقي أختلف معك في الرأي . فأنا لا أعتقد ، باديء ذي بدء ، أن من الممكن اعتبار دانتي إيطاليا ، فالقومية الإيطالية لا تبدأ إلا بعد عصر النهضة ، أما فكر العصور الوسطى^(٢)

(١) كتاب الفردوس تأليف الشاعر الإيطالي دانتي . (٢) الذي سبق عصر النهضة .

فهو فكر مشترك بين كل الدول . ولكن إيطاليا بالنسبة لى تتميز بخاصة شاعت فى باقى أوروبا فى القرن الثامن عشر ، وهى البعد عن الغموض تماماً . إن ضوء الشمس شىء محبب ، ولكن الضباب والغيوم لهما من الآثار ما لا يمكن لضوء الشمس أن يرقى إليه . وصدقنى إن النظرة التعقلية إلى الحياة ، الحالية من الغموض ، تبدو لى وكأنها تلغى أهم وأجمل ما فى الحياة . صحيح أنه ليست هناك حقيقة لم يدركها العقلانيون ، يستطيع الصوفى أن يكشف عنها ، ولكن الصوفية تخلق الحقيقة التى تؤمن بها ، بنفس الطريقة التى تحس بها الحقائق الأساسية كشعور الإنسان بالعجز أمام سطوة الزمن ووطأة الموت ، وأعماق الشعور الغريبة التى تظل كامنة ، حتى يدعونا أحد آلهة الحياة إلى عبادته . ويبدو لى أن الدين والفن جميعاً محاولات لإضفاء صفة إنسانية على الكون بادئة دون شك ، بالإنسان ، فإذا رفضت إحدى الحقائق العنيدة أن تغادر الوعى فلا سبيل على النفس للدين أو الفن إلا إذا أفسحت مكاناً لهذه الحقائق ، وهكذا يصبح الدين كله قوة فعالة ، وانتصاراً ، وتأكيداً بأنه على الرغم من أن الإنسان لا حول له ولا قوة إلا أن مثله العليا ليست كذلك . وكلما ازداد عدد الحقائق التى يأخذها أى دين من الأديان فى اعتباره كان ذلك دليلاً على اقتدار أعظم ، وهذا هو السبب فى أن الديانات المجردة عن الزخرف ، تطيب للأمزجة البيوريتانية^(١) . وتقديرى لدين من الأديان يتناسب مع ما فيه من صرامة — فإذا لم يكن صارماً ، بدا لى مجرد لعبة من لعب الأطفال ، تنبذ من أول لمسة للآلهة الحقيقيين ، ولكننى أخشى أن أى دين ، مهما كان صارماً ، لا بد أن يكون أقل صرامة من الحقيقة . ومع ذلك فأنا لا أحتمل أن يكون العالم مفتقراً إلى شىء من الوقار والهيبة ، وشىء من الجلال والجد . فتعاقب الحياة والموت ، والرغبة والأمل والتشوق والحب فى عالم مادى ، لا يدرك الخير والشر ، عالم يحطم بغير اكتراث كل ماخلفه بطريق الصدقة ، وذلك على الرغم مما بذله من إخلاص

(١) البيوريتانيون هم جماعة من البروتستانت الذين اعتبروا إصلاح الكنيسة الذى تم على يد الملكة إليصابات الأولى فى إنجلترا لم يكن كاملاً ، ودعوا إلى مزيد من التطهير والبعد عن الطقوس الكنسية الكاثوليكية .

وتجرد — كل هذا لا صلة له بضوء الشمس ، ولا بالمناظر الطبيعية التي ترى من خلال الهواء الصافي ، ويرفرف عليها السلام ، ولكن الحياة لها القدرة على أن تطيع هذه الأشياء في روح الإنسان حتى يبدو كل ماعداها تهاة ولغواً باطلاً . ولأن يختص مجرد جزء من الكون بمعرفة الخير وحبه — ولأن يصير هذا الجزء العوبة في يد قوى هائلة تفوق العقل ولا سبيل إلى دفعها ، فهذا دعاية تنطوي على القسوة من جانب الله والقدر ، وأعتقد أن أفضل الكتب المقدسة هو كتاب الرواقيين ، ومع ذلك فتحى هذا مبالغة في التفاؤل ، فالمادة تستطيع في أية لحظة أن تدمر حبنا للفضيلة .

وبعد كل هذا الكلام الكثيب ، سيتأكد حبك بلجنوب أوروبا ، وهذا ما أشعر به أيضاً ، ولكن باعتباره وسيلة للخلاص من وطأة الحياة الجادة . وأنتم تعلمون يا أصدقائي ، بأي نخب نمرح ، ولا شك أن لابنة الكرم سحرها وغوايتها ، كشأن غوايات إبليس كلها . فلتذهب إلى الجحيم وحدة الوجود ، وجلال الفن ، والفراسة التي تبصر الخير في آلام الآخرين فهذا كله ثقل على نفسى (وإن كنت أعلم أن له نصيباً من الصدق) .

نعم ، يجب أن يتعلم المرء أن يعيش في الماضي ، وأن يسيطر بهذا عليه حتى لا يكون شبحاً مقلقاً أو طيفاً مهزراً . فظيماً يمشى مختالاً خلال الأهباء الفسيحة العارية التي كانت يوماً ما تفيض بالحياة ، وليكن الماضي رقيقاً مؤنساً يذكر المرء بإمكان فعل الخير ، ويرده عن الغلظة والقسوة على أن هذه غوايات لا أظنك تعاني منها . أما أنا ، من جانبي ، فلا أرغب حتى في أن أعيش مع الأشياء الخالدة ، وإن كنت غالباً ما أمتدحها بطرف لسانى ، ولكننى في أعماق أؤمن أن أفضل الأشياء هي تلك الأشياء العرضية الزائلة ، وأجد في الماضي سحراً لا يتوفر في الأزل السرمدي . وفضلاً عن ذلك فليس هناك ما هو أكثر خلوداً من الماضي — فالحاضر والمستقبل مازالا يخضعان للزمن ، أما الماضي فقد أفلت إلى رحاب الخلود — فرغماً عما أنزله بنا الزمن من كوارث ، إلا أنه ما زال يعيش بيننا .

٢٩٩

لا يدهشني أن تمت العودة إلى نظام حياتك العادي مرة أخرى . فبعد أن يكون الإنسان قد تمتع بحريته الفكرية ، وسمح لآرائه وعواطفه أن تنمو وتوسع ما أثقل عليه أن يعود إلى السجن وأن يربط مشاعره بسياج من التزمّت العاطفي والحرى وراء شهواته العاجلة ومنفعته المادية — باللسخف ولكن ما أسرع الأشرار إلى اقتناص ما في الحياة من طيبات — حتى الفضيلة لا سبيل إلى المحافظة على سلامتها إلا بوضعها في صندوق زجاجي مغلق بحيث لا تستخدم إلا للزينة .

لقد كنت أعمل تسع ساعات يومياً حتى الأمس ، أعيش في حلم لا أفكر إلا في فضاء الكون الرحيب . أما اليوم فقد بدأت أدرك أن فيه أشياء وأن هذه الأشياء تبدو عموماً أنها ليست خيراً منه ، لكنني أرجو أن أراك في المدينة .

المخلص إلى الأبد

برتراند رسل

تشيرت ، فارنام

١٦ من يولية ١٩٠٣

عزيزي جولدي

أرفق مع هذا الخطاب الترجمة ، ولكنني أود لو أنك استعنت بشخص له معرفة أوثق باللغة الفرنسية ليلقي عليها نظرة ، حيث إن فرنسيتي ليست سليمة وبالمناسبة فإنني أتوقع ، أن تكون كلمة « مذكرات » أفضل من كلمة « مقال » لكنني لست واثقاً من هذا .

يسرنى أنك تكتب عن الدين . فلقد حان الوقت لكي تقال أشياء نعلمها جميعاً ، ولكنها غير معروفة بشكل عام . ويبدو لي أن موقفنا من الموضوعات الدينية موقف يجب علينا أن نبشر به في حدود إمكاننا ، وهو يختلف عن موقف أى معارض من معارضي المسيحية المعروفين . فهناك التقليد الذي وضعه

قولتير ، وهو يسخر من الأمر كله من وجهة نظر عقلانية ، شبه تاريخية ، وشبه أدبية ، وهذا بالطبع ، لا يكفي إطلاقاً ، إذ أنها تتناول النظم التاريخية بأحداثها وآثارها . ثم هناك الاتجاه العلمى ، وهو اتجاه داروين وهكسلى ، الذى يبدو لى صحيحاً كل الصحة ، ومدمراً تماماً ، إذا فهم على وجهه الصحيح وهو شديد البرودة فى نقده ، وأبعد ما يكون عن العواطف ، وهو لا يستطيع فضلاً عن هذا ، الوصول إلى جوهر الأمور دون سند من الفلسفة . ثم هناك الفلاسفة ، من أمثال برادلى ، الذين يحتفظون بأثارة من دين ، لاتسمن ولا تغنى من جوع ، ولكنها كافية لهدم كل ما بنوه من نظم فكرية . أما ما ينبغى علينا أن نفعله ، وما نفعله فعلاً فيما بيننا وبين أنفسنا فهو معاملة التزعة الدينية باحترام عميق ، ولكن يجب أن نصر على أنه لا يوجد أى نصيب أو ذرة من الحقيقة فى أى من الميتافيزيقيات التى توحى بها . وأن نخفف من هذا بأن نحاول أن نبرز جمال العالم والحياة ، حيثما وجد ، وأن نصر فوق كل هذا على التسليم بجدية الاتجاه الدينى ومنحاه فى طرح أسئلة عن المطلقات . وإذا كانت السير الطيبة هى أفضل ما نعلمه ، فإن فقدان الدين يعطى مجالاً جديداً للشجاعة والتجلى ، وقد يجعل الحياة الطيبة أفضل من أى حياة كانت ممكنة أيام كان الدين بمثابة مخدر فى وقت الشدة .

وكثيراً ما يراودنى الشعور بأن الدين شأنه فى هذا شأن الشمس ، قد طغى على النجوم الأقل لمعاناً وإن لم تكن أقل جمالاً ، تلك التى تشرق علينا من ظلام كون بلا إله . إننى أشعر فى قرارة نفسى بأن روعة الحياة الإنسانية أكثر عظمة بالنسبة لأولئك الذين لاتعشى أبصارهم أنوار القداسة ، ويخيّل إلى أن الأخوة الإنسانية تصبح وثيقة العرى ، رقيقة الحواشى ، إذا ما اعتبرنا أنفسنا أشبه بالمنفيين على شاطئ مهجور لا خير فيه .

المخلص

ب . رسل

تشرت ، فارنام

١٩ من يوليو ١٩٠٣

عزيزى جولى .

أشكرك شكراً جزيلاً لإرسالك المقالات الثلاث عن الدين . وأرى أنها جيدة للغاية ، وأنها تقول أشياء يجب أن يقال . وكل فقراتها البليغة تبدو لي موفقة تماماً ، كما أن المثل الذى ضربته في نهاية كلامك مثل يروق لي كثيراً وأرفق مع هذا بضع ملاحظات على بعض النقاط البسيطة التى عرضت لي أثناء القراءة — وأغلبها نقط لفظية .

أعتقد أننا بحاجة ماسة إلى الهجوم على الروح الكنسية ، ويجب أن أقول إنك تقلل من خطر الروح الكنسية في هذا البلد . فحينما تقابلنى بياتريس كرمبتون بالصدفة أشعر بهذا الخطر تماماً ، فهى تبرهن على قيمة توضيح نقطة من أسوأ النقاط من وجهة نظر عملية ، وهى أنه حتى عندما يتوفر لرجل ينتمى إلى نظام كنائسى أن يكون متحرراً واسع الأفق ، فإنه يتحاشى دائماً هذه الخاصية عند غيره ممن يستطيع التأثير فيهم .

لماذا تفترض أننى أرى من السخف أن يتمنى الشخص أن يرى الناس الذين يحبهم ؟ هل هناك ما هو أكثر عوناً لنا على احتمال الحياة ؟ إننا نقف على شاطئ محيط نستصرخ الليل وأحياناً يجيبنا صوت من أغوار الظلام . ولكنه صوت إنسان يغرق ، ثم يسود الصمت بعد لحظة . إن العالم يبدو لي خيفاً تماماً والتعاسة التى يشعر بها معظم الناس هائلة ، وكثيراً ما أتساءل كيف يحملونها فعرفتك للناس معناها معرفتك لآسهم . فعادة ما تكون هذه هى المحور الذى تدور حوله حياتهم . وأعتقد أنه إذا لم يتيسر لهؤلاء الناس أن يعيشوا بقلوبهم فيما يعترض حياتهم بين لحظة وأخرى فإنهم سيعجزون حتماً عن مواصلة الحياة .

المخلص

ب . رسل

٣٠٢

آني لودج
تيلفورد فارنهام

٢٠ من يولية ١٩٠٤

عزيزي جولدي

نعم ، أعتقد أنه يجدر بك أن تعيد طبع مقالاتك عن الدين في كتاب . ومن الصعب أن أحدد ما يمكن أن يستخلصه المرء منها بطريقة بناءة . ومع ذلك في هذه المقالات شيء إيجابي على وجه اليقين . وأعتقد أن المرء يقتنع في النهاية بالحقيقة التي تتضمنها الفقرة التي تقتبسها من ميترلنك ، ألا وهي أن العاطفة التي نتأمل بها العالم قد تكون دينية ، حتى ولو لم تكن لدينا معتقدات لا هوتية محددة . (لاحظ أنه لو لم يكن ميترلنك يكتب بالفرنسية ، لقال نفس ما تقوله قصيدة « الذكرى » للشاعر تينسون « إن في الشك الصادق كثيراً من الإيمان » وهذه ملحوظة لغوية) ومن المحتمل أن تقنع عدداً معيناً من الناس بأن فقدان العقيدة لا ينتج عنه عدم التفكير بطريقة دينية ، وهذا مفيد بالنسبة للشخص الذي يصر على ضرورة العقيدة لكي ينقذ حياته الدينية ، وللشخص الذي يكف عن التفكير بجدية لأنه قد فقد عقيدته .

لقد بدا لي شيلر في مقاله ، أحرق بصورة تدعو إلى الأسف فقد تشبث بالمذهب البرهاني (١) : كما ينشبت الغريق بقشة . وأنا متفق معك تماماً في أن الفلسفة لا يمكن أن تمنح الدين للإنسان ، أو أن تعطيه حقاً في أي شيء له أكثر من قيمة فكرية . ويبدو لي بدرجة تزداد وضوحاً مع الأيام أن ما يمنح المرء المعتقدات التي يعيش بها شيء له طبيعة التجربة . وهو إدراك مفاجئ ، أو ربما إدراك تدريجي ، للقيم الخلقية التي كانت سابقاً موضع شكه وكانت تؤخذ على علاقتها ، وهذا الإدراك ، في تصوري ، ينشأ ، كقاعدة ، من موقف يتضمن الأشياء التي يدرك المرء أنها خيرة أو شريرة . وعلى الرغم

(١) المذهب الذي أسسه ويليام جيمس .

٣٠٣

من أننى لا أظن أن الفلسفة نفسها تعطينا أشياء ذات أهمية إنسانية ، فإننى أرى أن التدريب الفلسفى يمكن المرء من الحصول على تجارب أكثر ثراء ، وأن يستغل تلك التجارب التى يكتسبها فعلاً استغلالاً أفضل . وأنا لا أتمنى أن تقتنع البشرية اقتناعاً راسخاً بأنه لا يوجد طريق يفضى من الفلسفة إلى الدين ، لأننى أعتقد أن محاولة إيجاد مثل هذا الطريق مفيدة جداً ، إذا لم تقض على صراحة الإنسان مع نفسه .

وفى رأى أن قيمة تولستوى تكمن فى قدرته على الأحكام الخلقية الصحيحة وإدراكه للحقائق الملموسة ، أما تنظيراته فهى طبعاً عديمة القيمة . إن أعظم كوارث الجنس البشرى هى أن له قدرة ضئيلة على التفكير .

إننى لم أقرأ قط كتابات ليدى ويلبى . ولكنها أرسلت لى بعض ملاحظات على كتابى ، وصلت فيها إلى الحكم بأنها مهمة بمسائل عديدة تهمنى . ومع ذلك فأنا شديد الشك فى فهمها لكتابى ، وليست معرفتى بها بالدرجة التى تسمح لى أن أحكم إذا كانت تفهمنى أم لا . أعتقد أن برنارد شو على العموم رجل فاسد الأخلاق أكثر من كونه عبقرياً ، وإن كنت أعترف له بالاقتدار . ولكنى لأسلم بأنه أخلاقى . وأعتقد أن الحسد يلعب دوراً كبيراً فى فلسفته ، بمعنى أنه لو سمح لنفسه أن يعترف بقيمة الأشياء التى تعوزه والتى يملكها الآخرون فإن الحسد سيتمكن منه إلى الدرجة التى لاتطاق معها الحياة . وهو أيضاً يكره التحكم فى النفس ويختلق نظريات بقصد البرهنة على أن التحكم فى النفس له أثر مدمر . لم أستطع أن أكمل قراءة مسرحيته « الإنسان والسوبرمان » ، لقد أثارت اشمئزاضى . ولا أعتقد أن روحه ستحمى فى نار جهنم على حديد متوهج أحمر ، وإنما ستلظى فى جحيم من الغرور المريض والخوف القاتل من التعرض للسخرية ..

إن بيرنسون^(١) معنا الآن ، وشد ما أنا متلهف على ما تود أن تقوله عن الموسيقى ولم أقرر تماماً إذا أتيح لى أن أنشئ جمهورية على غرار جمهورية أفلاطون ،

(١) بيرنسون ناقد فى أمريكى مشهور .

٣٠٤

ما إذا كنت سأسمح لفاجر أو حتى يتهوفن بالدخول فيها . ولكن لن يكون السبب أنى لا أحبهما .

إننى أعمل بهمة فى الجزء الثانى وعندما يسير العمل بشكل مرض يبعث ذلك فى نفسى سروراً بالغاً ، أما إذا تعسر على العمل فإن عذابى وشقائى بنفس الدرجة من القوة .

المخلص

برتراند رسل

ابنى لودج

تيلفورد ، فارنهام

٢٢ من سبتمبر ١٩٠٤

عزيزى جولدى

أشكرك على إرسال الكتاب المرفق طيه ، الذى قرأته باهتمام . وأظن أنك تحدد موقفك بوضوح وبشكل طيب ، وهو ليس موقفاً أستطيع أن أتفق معه . إننى أوافق على أن « الإيمان بشكل أو بآخر يبدو شرطاً ضرورياً تقريباً ، إن لم يكن للحياة ، فلأنبل أنواع الحياة وأكثرها خصوصية » . لكننى لا أوافق على أن الإيمان من الممكن أن يكون مشروعاً ، طالما أنه يحتل منطقة لم تغزها المعرفة بعد . وأنت توافقنى على أنه من الخطأ أن نقول : « إننى أعتقد ، وإن كانت الحقيقة لا تشهد فى جانبى ، وسأذهب إلى أبعد من ذلك ، فى رأى أنه من الخطأ أن نقول إننى أعتقد » ، وإن كانت الحقيقة تشهد ضدى ، فى اعتقادى أن الصديق يتطلب قطعاً أن نشك فيما يبعث على الشك بنفس الدرجة التى ينبغى علينا بها أن نكذب ما هو زائف ، ولكن من الضرورى هنا وفى كل المحاولات بشأن المعتقدات التى لا يقوم عليها دليل ، أن نميز بين القضايا التى يمكن أن نقول إنها لا تحتاج إلى برهان ، والتى تهىء بالتالى أساساً لبرهان غير مباشر ، وبين القضايا التى يتحتم أن تقوم على أدلة كى يتسنى تقبلها . وهذه عملية

صعبة ، وقد لا يتوفر أداؤها بدقة . أما فيما يختص بالإيمان ، فأنا أعتقد : (ا) أن هناك قضايا معينة يؤدي الإيمان بها ، بغض النظر عن سوء الاعتقاد فيما هو زائف ، إلى تحسين حال المؤمن بها ، (ب) أن أكثر هذه القضايا زائف ولكنني أظن أن الإيمان مشروع في عالم الأحكام الخلقية ، حيث إن هذه الأحكام من النوع الذي ينبغي ألا يحتاج إلى برهان ، ولا ينبغي أن يتطلب إقامة الدليل عليه . ولممارسة هذا الإيمان ، يبدو لي أنه يمكن الوصول إلى درجة عالية جداً من الانتفاع به من خلال الإيمان بجزارة في إصلاح أشياء معينة طيبة فعلاً ، والتي تستطيع أفعالنا أن تخلقها بشكل ما . وأنا أعترف أن حب الله إذا كان هناك إله ، قد يمكن بني الإنسان أن يكونوا أفضل مما هو ممكن في عالم بلا إله . ولكنني أظن أن الإيمان الخلقى الذى له سند يعطى أغلب الأشياء الضرورية لأرقى حياة يمكن تصورها ، وكل ما هو ضرورى لأرقى حياة ممكنة ، يتضمن ، شأن كل ديانة ، أحكاماً خلقية وأحكاماً تتعلق بالحقائق ، والأخيرة تؤكد أن أعمالنا تؤثر ولو إلى حد بسيط ، فى القيمة الأخلاقية للعالم . وأنا أجد فى هذا ما يكفى من الإيمان لكى أعيش به ، وأعتبره مستنداً إلى المعرفة ، وما أبعد من ذلك فيبدو لي زيفاً ، وإن لم يكن من السهل التدليل على زيفه .

أبلغنى ردك وأرسله على عنوانى هنا ، برغم أننى سأكون مسافراً . فسأذهب غداً إلى بريتانى مع تيودور لمدة أسبوعين . أرجو أن يكون عرق النسا قد تحسن .

المخلص

برتراند رسل

٣٠٦

آى تاتى

ستسنيانو ، فلورنسا

٢ من مارس ١٩٠٣

عزيزى برتى

لقد قرأت مقالك ثلاث مرات . وفى كل مرة كان حجبى له يتزايد . ولعل أعظم ما يمكن أن يخطئ به من تقدير هو أنه ليس منافياً لروح القطعتين الرائعتين اللتين كتبتهما . بل هو منسجم معهما وجدير بهما . وليس لدى أى اعتراض على هذا النوع من المقال ، وليست لى رغبة معينة بخصوص الشكل الذى تأخذه كتابتك . فما أتوق إليه هو أن تعبر عن نفسك عاجلاً أو آجلاً ، وفى هذه الأثناء لابد أن تكتب وتكتب حتى تبدأ فى الشعور بأنك تقول ما تريد أن تقوله ، بالطريقة التى تريد الآخريين أن يفهموا بها قولك .

كان أعظم حدث حقاً فى الأسابيع القليلة الماضية هو جلبرت مرى . وأشعر أننى قد أنزلت إلى مستوى فتيات المدارس إذا تجاسرت على أن أقول لك كم أحبه . وستحكم أنت على هذا عندما أقول إنه لم توجد امرأة واحدة فى سنى شبابى تجعلنى أتكلم عن نفسى أكثر مما فعل هو . كان الحديث يمتد أمامنا كشئ لانهاى ، أو بالأحرى كشئ يتفتح بطريقة أنبل وأعظم كلما امتد بنا الحديث . وقد وجدته رقيقاً ، معقولا ، يكاد يكون الرفيق المثالى . بل إننى قد أغفر له حبه لديكتر وتيسون . وقد كان مسئولاً عن تأخير تسليط هذا ، لأنه استوعب معظم نشاطى . أما القليل الذى تبقى منه ، فقد أنفقته فى مراجعة أصول الطبع . وقد أنهيت لحسن الحظ منها تقريباً .

ويسعدنى أن أليس قادمة ، هذا فضل منها ، ولسوف تمتعنى زيارتها وترفع من معنوياتى . أخشى أن ديكسون سيفقد الكثير إذا قارناه بمرى .
إننى فى منتصف كتاب أكرمان « محاورات مع جوته » وهو كتاب شيق للغاية . . . ماذا فعلت ببحثك فى الرياضيات ؟ . . .

المخلص

ب . ب . بيرنسون

جريشوت

هاسلمير ، سرى

١٠ من يناير ١٩٠٤

عزيرى برنى

أسفت جداً جداً عندما سمعت أنك لم تكن فى جنازة دورا (كانت دورا مريبتى السويسرية السابقة ، مس بوهلر) وكنت متأكدة تماماً أنك ستكون حاضراً ولا يمكن إلا أن أتصور أن المانع عذر قهرى – إننى أعلم أنك قد تشعر أن مثل هذا الشاهد الأخير على الاحترام لا يعنى إلا قليلا ولا جدوى منه . لكننى واثقة تماماً وبعد كل ما أسديته إليك فى الماضى وبعد كل ما منحتك من حنان أن أختها وأصدقائها قد تألموا لتغيبك – ليته كان فى استطاعتك أن تذهب . شكراً جزيلاً لأليس على خطابها وسجل الذكريات الصغير الذى أرسلته – وقد استنتجت أن لديكما واحداً . ربما لا تكون قد سمعت هذا قط عند قبر إنسان تحبه – ولكن مراسيم الدفن من أكثر الأشياء تأثيراً وجلالاً، وخصوصاً مع الموسيقى التى تكون أحياناً عوناً حقيقياً فى ساعات الأسى الرهيبة على الارتفاع بمعنويات الإنسان إلى آفاق أرحب منها – لقد وصلنى خطاب ثالث من شقيقة دورا التى كتبت إليها لتعاطف العميق معها : بالأسف الهائلة – فهى تعيش وحدها وكانت تأمل أن تعيش دورا معها يوماً . أرجو أن تكون قد كتبت إليها .

يحتمل أن تذهب مس سدچفيلد (رفيقة عمى) يوم الثلاثاء إلى هاييجت لمدة أسبوع وهى تأمل أن تحضر محاضرتك يوم الجمعة المقبل . ويجوز أن تراها ولكن أرجوكم على أى حال أن تطلب من أليس انتظارها . ولقد أرسلت خطاباً فى طلب تذاكر . كما طلبت منى أن أخبرك أنها تأمل على وجه الخصوص أن تجعل كلامك مفهوماً لأقل المستويات ذكاء – وغير مسموح بأى زوايا ومربعات ومثلثات ولا ميتافيزيقيات أو رياضيات .

بلغ أليس شكرى الجزيل لما أرفقته بخطابها الذى سرنى أن أجده طريفاً

٣٠٨

للغاية كما أننى أريد بعض الصور لإرسالها إلى بضعة أشخاص قد يهمهم هذا .
لكنى لا أحب الحملة الخاصة بالثأر فالكلمة وحدها كريمة وقد كشفت عنها
في قاموس جونسون - فكلمة « يثأر » ليست من الكلمات التى يقرها تولستوى
أو تقرها المسيحية بالأحرى . - أرجو أن تتضمن محاضراتك شيئاً من الحرارة
وبعض المثل العليا . فحتى من وجهة نظر النجاح الرخيص ستكون محاضراتك
أكثر فاعلية - كم أود لو أننى كنت أستطيع أن أحضر وأسمعك - وسأقرأ
المحاضرة في مجلة أذنبرة ولكنها تكون أكثر طرافة لو أننى سمعتها . وأنا لم أسمعك
أو أسمع أليس مرة واحدة .

مع مزيد الحب إليكما وأطيب تمنياتي لعملك في سبيل الهدف السامى
(قضية حرية التجارة) .

المحبة

عمتك

آينى لودج

تيلفورد ، فارنهام

١٧ من مايو ١٩٠٤

عزيزى برنى

أرجو ألا يسوءك أننى أكتب إليك خطاباً حقيقياً في يوم عيد ميلادك .
إننى أحاول جاهدة أن أكون سطحية ، كما تريد ، ولكننى واثقة أنك ستذكر
كيف أن بعض المشاعر تنشد التعبير عن نفسها .

إننى أريد مجرد أن أخبرك كم أحبك ، وكم أنا سعيدة أننى جزء من
وجودك . فعندما أمكننى أن أشاركك حياتك وأن أعتقد أننى ذات فائدة لك
كانت هذه أعظم سعادة عرفها إنسان . إننى ممتنة لهذه الذكرى ، وممتنة أننى
مازلت أستطيع أن أكون قريبة منك وأن أراقب تطورك . فعندما تكون في حالة
طيبة وسعيداً وتودى عملاً طيباً ، أشعر برضا تام ، وأتمنى فقط لو أننى كنت

٣٠٩

امرأة أفضل، قادرة على أن أعمل أكثر وأن أكون أهلاً لك . فأنا لا أستيقظ في الليل أو أفكر فيك في النهار دون أن أدعو بالخير لحبيبي ، وسأظل أحبك دائماً ، وأرجو أن يتزايد حبي إيثاراً لك .

المخلصة إلى الأبد
أليس

كامبو
نورثامبرلاند
(يوليو ١٩٠٤)

عزيزى برنى

أود أن أقول لك إلى أى حد استهوانى ذلك الجزء الأخير من مقالك . لو أنني كنت أستطيع من آن لآخر أن أكتب بهذا الأسلوب لشعرت بالتأكيد أكثر مما أشعر الآن أنني على حق في اتخاذ الكتابة مهنة لى .

عندما أسافر إلى الجنوب مرة ثانية في بداية أغسطس أود أن أتحدث معك فعندى الآن الكثير مما أريد أن أسألك عنه . فلقد جعلنى خطاب تولستوى المنشور في التايمز أفكر — أو بالأحرى أشعر — بقلق بالغ . فإنه يملأنى (١) بإحساس جديد بالشك والمسئولية فيما يتعلق بأسلوب حياتى (٢) — وفيما يتعلق بهذه الحرب ، وأشعر كما لو كنا جميعاً نعيش في مدينة الخراب ولكننى لست متأكداً مما إذا كان ينبغى على أن أهرب — أو إلى أين ؟

قد لاتصل الأمور إلى شيء محدد ، ولكنها على الأقل ستختلف وراءها روحاً مختلفة .

لقد كنت لفترة طويلة سعيداً جداً وقانعاً بكل شيء بما في ذلك عملى . ولكن السموات الخلقى الشديد الذى ينطوى عليه موقف الذين رفضوا الحرب من المحندين من أتباع تولستوى بدد ذلك الشعور بالرضا والارتياح الذى أشعر به

٣١٠

كشخص إنجليزى محافظ :

١ - فى نصف صفحة ، هل تتفق مع رأى تولستوى بشأن الحرب ؟

٢ - أين تكون فى أغسطس ؟

المخلص لك

جورج تريفيليان

كامبو نورثامبرلاند

١٧ من يوليو ١٩٠٤

عزيزتى برتى

إننى شديد الامتنان لك لكتابتك مثل هذا الخطاب الطويل الذى أمعنت فيه النظر بروية . ولكنه لم يكن مضبغة للوقت . إننى شديد الاهتمام به وأظن أننى متفق مع ما جاء به تماما .

ومن ناحية أخرى أعتقد أنك على حق فى افتراض أن الاستعداد للحرب وظيفة من وظائف الدول الحديثة الضرورية ، بالروح وبالقيود التى ذكرتها . وبرغم ذلك فإن إحدى الوسائل التى ستقضى على الحرب فى النهاية هى مقاومة المجندين السلبية فى البلاد التى يوجد بها نظام التجنيد الإجبارى (التى قد نلحق بها إذا ساءت الأمور) وسوف تنقضى مئات السنين قبل أن يقضى على الحرب ، وسوف تكون هناك قائمة متوهجة من الشهداء . وعلى رأس هذه القائمة أولئك المجندون من أتباع تولستوى . فهؤلاء الناس الذين رفضوا الحرب سيتزايد عددهم بشكل مستمر فى طول أوروبا وعرضها ، وسيحركون فى شعوب أوروبا فى النهاية الإحساس بالحرز بحيث تنظر إلى الحرب والكراهية الدولية بنفس منظارك ، بدلا من أن تنظر إليها كما تفعل الآن ، فالتغيرات العظيمة تحدث عموماً بهذا الشكل . ولكن بعملية مزدوجة - تغيير تدريجى فى الشعور العام وفى نوع العمل يقوده ويحض عليه قوم لهم فكر وعمل متطرف يستنكره عامة الناس ، وإن كانوا يتأثرون به .

٣١١

فأهلاً بخطاب تولستوى برغم كل هذا . وأنا أظن أيضاً أن أى اقتراح لإدخال نظام التجنيد الإجبارى فى إنجلترا لا بد أن يلقى مقاومة على هذا الأساس (ضمن أسس أخرى) وهو أن الحكومة لا حق لها فى أن ترغم ضمير شخص على القتال أو التدريب للحرب إذا كان يرى فى هذا خطأ .

وأظننى أتفق معك أيضاً بشأن واجبنا فى أن نحيا ونعمل فى مدينة الخراب ، بدلا من الهروب منها . ولكن القيام بمثل هذا الواجب هو فى نفس الوقت متعة . وإن يكن مع ذلك واجباً يحمل فى أطوائه أخطاراً . ومن الصعب بمكان ، عندما يحاول المرء أن يحتفظ بالجزء الأكبر من ممتلكاته ووقت فراغه رهن إرادته ، أن يعيش بهدى هذا المبدأ ، إن للمرء حظاً فى ذلك القدر من الممتلكات الذى يؤدى أكثر إلى رفاهية الآخرين فى المدى الطويل .

أرفق مع هذا خطاباً ونشرة دورية . هل تنضم إلينا ؟ لقد فعلت أنا ذلك وأظن أنه من المحتمل أن ننتخب جولدى ديكنسون الذى أبدى استعداداً للانضمام . وسيكون هناك بالتأكيد مناقشة حرة تماماً وسيكون الناس أهلاً لأن تتعرف بهم . وليس هناك إلزام على الأعضاء لقراءة الأبحاث ، وأظن أن وجهات النظر العديدة التى يؤمن بها المتدينون الذين هم فى نفس الوقت باحثون أحرار عن الحقيقة (وهم فئة ضئيلة) تستحق منك أن تتعرف عليها . وقد عبروا عن آمالهم الكبيرة فى أن تنضم .

المخلص للأبد

جورج تريفيليان

٨ تشرينى جاردنز

الثلاثاء

١١ من أكتوبر ١٩٠٤

عزيزى رسل

سرني أن أراك ثانية . كانت تجميش بصدري قصة كرب ويأس أريد أن أزيحها — غامضة ، وإن لم تكن غامضة تماماً ، هكذا بدت بينما كنت أقلبها

٣١٢

في ذهني هذا الصباح ، ولكنني بعد أن قضيت معك فترة وجيزة لم أشعر أنني
تعس تعاسة تستدعي أن أشتط في لغة اليأس . فقد تذكرت أشياء كثيرة جدية
بالتذكر . وبدت لي متاعبي شيئاً لا يستطيع الجلد أو العقل . أو القواعد
المألوفة أن تتغلب عليه .

إنني أطلع إليك أكثر من أي شخص آخر لكي تساعدني في هذه اللحظة
بالذات . وأشعر أن كل تلك الرقة التي ترمقها بعين الشك ليست إلا من قبيل
الضعف . إن شعوري أنك لا تتمسك بقواعد صارمة فيما يجب وما لا يجب أن
يقوله شخص لشخص آخر يعني الكثير بالنسبة لي ، ومع ذلك فأنا أعلم
كم تكره أن يضار أحد في حياته الزوجية .

لا ترسل ردّاً على هذا الخطاب مالم تكن تريد ذلك أو مالم يكن لديك
شيء تريد أن تقوله . إننا نستطيع أن نتكلم في أي شيء حتى نبليغ قراره وهذه
نعمة النعم .

أريد أن أبقى في لندن لمدة أسبوعين لكي أنتهي من بعض العمل . عندئذ
سأكون أقدر على أن أقول لك كيف حالي . فيجب على أن أبدأ بالأمل
قليلاً قبل أن أستطيع أن أتكلم عن يأسى .

الحب لك
ديزموند مكارثي

٤١ جروفنر رود

جسر وستمنستر

١٦ من أكتوبر ١٩٠٤

عزيزي برقي

كان كريماً منك أن تكتب لي برأيك في كتيب لينارد هوبهاوس ، ويسعدني
أنه يلتقي تماماً مع رأيي . فأنا أوافقك تماماً في اعتقادك أنه ليست هناك علاقة

بين « نظام الأشياء » وبين الشعور بأن « الحالة النفسية » لها خطرهما (مثل الاعتقاد الغريزي بوجود قانون التحرج الأخلاقي ، واعتقادي الغريزي بجدوى الصلاة) .
 إنني أفصل فصلاً تاماً بين عالم البرهان (أى المعرفة بمسار الأشياء) وبين عالم التشوف أو الإيمان (اختيار أهدافك) وكل ما أطلبه لهذا العالم الأخير أن يوجد التقبل والتسامح ، أى سياسة المعاشة . وفى تفسيرى لسياسة المعاشة قد اختلفت فيه معك ومع لينارد هو.هاوس حيث إننى أسمح بأن تقوم كل جماعة محلية بنشر شكل « التشوف » والإيمان الخاص بها وأن ينفق عليها من مخصصات عامة . بل إننى أرغب فى هذا لأولادى . إذ أننى قد اكتشفت أنه بدونها كان من الممكن أن ينحط وجودى ، ولولاه ما كنت « أرغب » فيما نسميه بنبل الهدف : فإننى أتمنى الوسائل التى يمكن تحقيقه بها . ولا علم لى بأى سبيل آخر لاكتشاف هذه الوسائل إلا الخبرة والتجربة ، ولقد أدت لى تجربتى وخبرتى حتى الآن إلى النظرية القائلة بالصلاة التى لا تنقطع . ولا أود على الإطلاق أن أفرض على الآخرين ممارسة هذا ، ويسعدنى أن أمول أى مدرسة تقوم بتجربة التقريب بين الدين والدنيا (ضد معرفة مسار الأشياء وحدها) أو أى فرقة مسيحية أخرى . وكل ما أرغب فيه هو أن يكون كل قطاع أوجهة حرة ، فى حدود الإمكان ، فى أن تقوم بتدريس ما تراه أو ما لا تراه .

هل تستطيع أن تحضر مع أليس للغداء يوم الخميس ١٠ نوفمبر لتقابل مستر بالفور ؟ فسأصطحبه إلى مسرحية برنارد شو . ألم تستطع حجز تذكرة ذلك المساء ؟ سيكون من مصلحتك أن تعرف مستر بالفور فقد ينفعل فى تعيينك أستاذاً بمنحة ملكية وما شابه ذلك .

الخلاصة دائماً

بياتريس وب

روزلدين جريشوت

هاسلمير . سرى

٢٠ من مارس ١٩٠٥

عزيزى برنى

أكتب إليك اليوم عن موضوع واحد أود أن أخبرك عنه . فلقد كنت قد أخذت ساعة جدك الذهبية وسلسلتها واحتفظت بها بعناية منذ موته — ولست بحاجة لأن أذكرك كم هى عزيزة جداً جداً علىّ ، لأنها ستذكركنى دائماً به . ولكنى أود الآن أن أهيا لك — بشرط واحد فقط ، وهو أن تتركها لآثر — أو لجونى إذا لم يتيسر هذا — إذ أننى حريصة على أن تظل ملكاً لآل رسل . وأنا لا أذكر إذا كان لديك الآن ساعة أو إذا كنت ترتدى واحدة لها ذكرى قديمة — إذا كان الأمر كذلك فلا تتردد فى إخبارى وسأحتفظ بهذه لآثر فيما بعد . ولكنك تستطيع طبعاً أن تتخلى عن ساعتك الحالية (أو أن تحتفظ بها إذا كنت تفضل ذلك) . أما إذا لم يكن الأمر كذلك — فإنى أود أن أشعر أنك سترتدى هذه الساعة وتستهملها — وأنتك لن تنحيا جانباً — ولكنك على أى حال ستخبرنى بهذا .

عزيزى برنى ، يسعدنى أن أشعر أنك ستحاول دائماً — وأنا أعلم أنك ستعمل فعلاً فى هذا السبيل — أن تكون جديراً بصلتك به كحفيد له ، فقد كان حقاً واحداً من أفضل من عرفه العالم — كان باسلاً رقيقاً ، صادقاً ، ذا طبيعة نادرة ، فيها أجمل ما لدى الأطفال من بساطة وصرحة . يطيب لى أن أعتقد أنك تذكره ، وأن آخر كلماته لك « يا ولدى الصغير الطيب » ، والتي قالها بفيض من الرقة والحب وهو على فراش الموت ، ستظل معك مصدر إلهام ودفعة للخير طوال حياتك . بيد أنه من الطبيعى أن تقصر ذاكرتك ويقصر فهمك عن الإحاطة بكل نواحي شخصيته . ومع ذلك فإذا كان مما يروقك أن

٣١٥

تحتفظ بساعته فإنه لما يسعدنى أن تلبسها وتحفظ بها تذكيراً منه ، وذكراً
للأيام القديمة العهد والتي قضيناها فى منزل طفولتنا الحبيب (١) .

وليباركك الله
عمتك المحبة

عرضت الساعة للفحص فى لندن ، وهى فى حالة ممتازة . وستكون معدة
فى الثامن والعشرين . أشكرك لرسالتك الرقيقة التى تسلمتها فى الأسبوع الماضى .

الابريشية

كيركبي لونسديل

٢٧ من يوليو ١٩٠٥

برنى

مات تيودور . . غرق وهو يستحم وحده يوم الثلاثاء فى بركة وسط
الهضاب ، ولعله فقد وعيه إذ ارتطم رأسه وهو يقفز من عل ، ثم غرق .
سأعود إلى لندن يوم الاثنين . بودى لو رأيتك قريباً .

كرومبتون

٣١ من أكتوبر ١٩٠٥

عزيزى برنى

أرفق بهذا صورة فوتوغرافية أرجو أن تفى بالغرض . لدى صور أخرى
لـ « تيو » أود لو أطلعتك عليها . متى تأتى لتبضى ليلة معى ؟
فشلت محاولاتي مع (٢) كانت تأمل أن تفعل أى شيء من أجل
ولكنها ترفض بإصرار أن تصبح زوجة لى ولذا انتهى الأمر عند هذا الحد .

(١) لم تفارقنى هذه الساعة والسلسلة منذ سنة ١٩٤٩ .

(٢) المرأة التى أحبها تيودور ، وبعد وفاته أراد كرومبتون أن يتزوجها .

٣١٦

عزمت أنا وهارى على الرحيل إلى جرانتشستر يوم السبت القادم . لم
أتمكن حتى الآن من زيارة بداليز .
أعددت وصيتك ، ولكنى سأحفظ بها حتى أراك وتنهياً لنا فرصة تدارسها
سويّاً .

لا أكاد أصدق أن تيودور قد مات ، فوته يبدو أشبه بالأوهام ، فهذا
الخليط العجيب من أحلام الليل وأفكار النهار من الذكريات والحقائق يتركى
في حيرة من أمرى ، ولكنى أشعر وريداً وريداً بآثار ما تبقى لى من حياة عرجاء ،
كأنما قد حرم الجسد من أطرافه وقوته ، ولم يعد يستطيع أن ينهض دون معاونات
صناعية ونظام طبي للتغذية ، أو أن يرضى بالتخلي عما اعتاده من إنجاز للآمال
وتطلعات في أيام الصحو والإشراق .

قلبي يهفو إليك وليباركك الله لما أسبغته على من محبة وفضل .

كرومبتون

ستوكس كوتج

ترينج

٢٣ من مايو ١٩٠٧

عزيزى برنى

الآن وقد خضت المعركة الانتخابية ، حق عليك قول توفلسدروك، إن هذه
الخبرة تأتى فى المرتبة الثانية بعد خبرة الحب باعتبارهما أهم الخبرات الإنسانية .
وإننى لأشعر بالجنين أنى لم أقدم على مثل ما أقدمت عليه ، وأغلب الظن
أنى لن أفعل . فى اعتقادى أن السنوات المائة القادمة لن تشهد مرشحين على
هذا القدر من التناقض الموجود بينك وبين تشابلن .

يا لك من مغامر . فى المرة القادمة ، عندما يستولى النمسيون على إيطاليا ،
سيرتدى كل مناقميصاً أحمر ويزحف إلى حيث نموت فى هدوء فى أحدممرات جبال الألب .
لم أكن أتصور أنك ستصبح مغامراً ، وأن تحتفظ بهذا القدر من الصفات الآدمية

العتيدة ، حتى عدت إلى الوطن (كما فعلت الأم هوبارد العجوز) وإذا بي أراك تقود حملة انتخابية . .

أجزل شكرى لك للمقال الذى كتبته فى أدنبره ريفيو ^(١) لقد أفاد الكتاب فائدة جلية ، وساعد على بيعه بعد أن بدأ التوزيع بطيئاً . فهمت من إليوت أنه لم يتسع لك الوقت للكتابة فى هلدوء ، وهو سر شعورك بالضيق ، بيد أنى أود أن أؤكد لك أنى أقدر هذه التضحية ، من جانبك ، التى أملتأ صداقتنا ، وأن مما أفادنى حقاً أن ينشر التعليق فى أبريل .

اهتممت كثيراً بنقاط متعددة فى مقالك ، وبالأخص الجملة التى وردت فى مطلع ص ٥٠٧ عن المهام التى يضطلع بها الثوريون . ولم أكن قد اهتمت إلى شخصية الكاتب حتى أخبرتنا أليس ، ولو أنه كان يمكننى أن أضمن مصدرها من قصتك الخاصة بتعليق جويت على ماتزنى .

أمل أن تكونا قد عدتما إلى العش الأكاديمى ، وأن يكون لهدوء أكسفورد أثره المحجب بعد كل هذا الصخب .

أخوك

جورج تريفى

٦٧ بلسايز بارك جاردنز

هامبستيد . الشمال الغربى

٢٣ من أكتوبر ١٩٠٧

عزيزى رسل

قرأت مقالك عن الرياضيات (فى مسودة الطبع) ولا أستطيع أن أقاوم إغراء الكتابة لأقول لك إنى تأثرت بها تأثراً عميقاً . كم هى رائعة حقاً ، إنها تنقل المرء إلى آفاق سامية ، لعلها أسمى من أى شىء آخر . إن عرضك للجانب الحيوى منها يبدو لى غاية فى الوضوح والإقناع ، إنه يعطى للمرء مفهوماً جديداً

(١) مقال لجورج تريفيليان « دفاع غاريبالدى عن الجمهورية الرومانية » .

عن أجماد العقل الإنسانى . إن التشبيه الذى أوردته عن الحصن الإيطالى لفت نظرى إلى جماله بصفة خاصة ، كما أن لبساطة التعبير أثرها الواضح . ما أقطع هؤلاء المحررين الذين يدعون أنهم « المستقلون » ^(١) . وما أحققهم . أستطيع أن أسترسل فى كتابة صفحات وأنا على هذه الحال من التأثر والحماس . عظيم أن أتصور أنى أعرفك ، وأنى أستطيع أن أتحدث إليك ، وحتى أن أخالفك الرأى . أوه . سوف أطلب أن تنقش هذه العبارة على شاهد قبرى : لقد عرف مور وراسل . وحسبى هذا .

المخلص

ج . ل . ستريتشى

٥٧ جوردون سكوير

لندن ، المنطقة الوسطى من الحى الغربى

٣ من مارس ١٩٠٨

عزيزى برنى

قرأت فى الصحف أنك أصبحت زميلاً فى الجمعية الملكية . ياله من شرف . . خاصة فى هذه السن المبكرة . منذ أن قرأت النبأ وأنا أمشى بين الناس مختلاً . وقد تولانى الزهو . إن هذه هى أول مرة أرى فيها الفلسفة وقد عادت بالخير على أصحابها . إلى هذا الحد يستطيع المرء أن يفهم . إذا لم يتيسر له فهم كتبك .

أهنتك تهنة حارة . كنت دائماً أعتبر لقب زميل فى الجمعية الملكية أرفع من أى منصب آخر فى العالم ، بل لعله يتجاوز منصب رئيس الأساقفة أو رئيس الوزراء . وما زال هذا الشعور يلازمى بالرغم من أنى أعرف عدداً كبيراً من هؤلاء عن كتب .

من رسل المخلص

فندق تشارنج كروس

٤ من أكتوبر ١٩٠٨

عزيزى رسل

قضيت ثلاثة أيام من الأسبوع الماضى فى أكسفورد ، وراودنى الأمل حتى آخر يوم فى أن أزورك ومسر رسل ، ولكن كانت هناك مقتضيات أخرى استحال معها تنفيذ ما اعتزمت عليه .

قابلت شلر وقضيت ليلة فى غاية الإمتاع فى منزل ماكلوجال . كنت أرجو أن أتمكن من قضاء ليلة معك ، لأعوض الطريقة الجافة التى اعتذرت بها عن قبول دعوتك لى فى يونيو الماضى . كنت حينذاك متعباً جداً ، وقد استرددت نشاطى نسبياً الآن ، وقد رزقت منذ ذلك الحين بولد وبنت ، ومطالبيهما كما هى العادة ، تبدوا أكثر إلحاحاً من مطالب والديهما . ومن ثم فقد قصر الوقت عن أداء أعمال كثيرة كنت آمل أن أقوم بها . وينتظر أن يبقى الابن فى أكسفورد ، مع عائلة أ . ل . سميث (مدرس فى باليول) . أما نحن فننتوى أن نبحر على الباخرة ساكسونيا فى يوم الثلاثاء القادم .

إن من أول الأعمال التى أرجو أن أقوم بها عند عودتى إلى مكتبى هى أن أقرأ مرة أخرى الفصل عن الحقيقة فى كتابك فلسفة الرياضيات ، وهو أمر لم أفعله منذ أن صدر الكتاب . أود أن أتفهم بدرجة أعمق من تلك التى تتوافر لديك عن نظريتى أن ملاحظاتك عن ديوى (بالرغم من دقة صياغتك للعبارات) فى مقالك الأخير تبين أنك لم تتمكن من الموضوع بصفة عامة . إن نصيحتى الأخيرة لك هى : « ودّع المنطق الرياضى إذا أردت أن تحتفظ بصلتك بالحقائق المحسوسة » . تحدثت وبرجسون فى هذا الصباح مدة ثلاث ساعات ، ولعل فى هذا ما يفسر عبارتى السابقة . تحياتى لكما ، وهى تحيات كان يمكن أن تشرك فيها زوجتى لو كانت هنا .

المخلص

ويليام جيمس

٣٢٠

٨ جروفنر كرسنت

الجنوب الغربى

٢٦ من أبريل ١٩٠٩

عزيزى برتراند رسل

إنه ليسعدنى كل السعادة أن أعلم أنك انتخبت عضواً فى نادى الأثينيوم...
إن تجربتى فى هذا الصدد - والى ترجع إلى عام ١٨٧٧ - لم تكن سهلة
لدرجة أنى أشعر بسرور عندما أرى صديقاً ، يتعرض لنفس هذه المحنة ويمتازها
بنجاح ، إني لم أتأخر عن حضور هذه المناسبة ، بل قضيت جزءاً كبيراً من
المساء أثناء عملية الانتخاب .

إن وجودك كعضو سيضيف كثيراً إلى اهتمامى واهتمام الكثيرين بالنادى^(١).
صديقك المخلص

جورج . تريفيليان

١١ ، كرانمرود

كامبردج

٢٧ من مايو ١٩١٠

عزيزى برتى

قرر مجلس الكلية اليوم أن يعرض عليك منصب محاضر للمادى المنطق
وأصول الرياضيات ، وسيستمر عملك مدة خمس سنوات ، على أن تكون
واجباتك كالاتى :

١ - أن تعطى برنامجاً من (٢٤ محاضرة) فى كل فصل دراسى .

٢ - أن تقيم فى كامبردج أثناء الفصل الدراسى .

يضاف إلى هذا أن من حقك أن تقيم فى مكان مخصص لك فى الكلية

(١) لا أفهم لماذا لم أقابل سير جورج تريفيليان هناك .

٣٢١

وأن تحصل على عشاء بالحجان بشرط أن تلتزم بقضاء عدد من الساعات في الجامعة (أعتقد أنه ١٥ ساعة أسبوعياً أثناء الفصل الدراسي) . وذلك مقابل ٢٠٠ جنيه في العام .

إن كل هذا بالطبع لم يتخذ بعد طابعاً رسمياً . ولعلني لست في حاجة لأن أعبر عن مدى سروري بهذا العرض ، إذ سبهي لك فرصة رائعة لعرض الموضوع وهو عين المراد . وبهذه المناسبة يحق لي أن أقول إنه ليس هناك ما يوحي بأن هذا المنصب سيستمر إلى ما بعد خمس سنوات ، إن المشكلة كلها في هذه الناحية ناشئة من عدم إقبال أعداد كثيرة من الطلاب الذين سوف تقوم بالتدريس لهم مباشرة في المحاضرات ، على قدر ما أستطيع التنبؤ به . وهناك أمل أن تتوافر فرص للقيام بما هو أكثر مما هو معروض بصفة مؤكدة في الوقت الحالي ، ما دمتنا قد عرفنا الموضوع الأثير لديك . ولكن العرض الحالي يستمر خمس سنوات لا أكثر ، إما مباشرة أو بطريق غير مباشر .

كان المجلس كثير الإنجازات ، فقد اخترنا في نفس الجلسة محاضراً في مادة الكيمياء الحيوية .

هذه كل الأنباء في الوقت الحاضر .

صديقك المخلص

ا.ن. و .

ترينتي لودج

كامبردج

٣ من يونيو ١٩١٠

عزيزي ب . رسل

أسعدنا أن نسمع أن هناك أكثر من أمل في أن تكون معنا مدة مقبلة من الزمن ، لست أدعي أنني قمت بأي دور في تحقيق الخطوة السديدة التي اتخذناها ، ولكن يسرني أننا وافقنا بقلوبنا على نصيحة أصدقائك العاملين في ميدان العلم .

٣٢٢

أملى ضعيف أن أعاصرك طوال السنوات الخمس السعيدة التي ستقضيها معنا .
ولكنى على الأقل أتطلع إلى أن أقدم لك مبكراً تحياتى القلبية .
مع أطيب تحياتنا جميعاً لمسز رسل .
ثق أن صديقك المخلص جدّاً هو
مونتاجيو . بتلر

لا أعتقد أن هناك كثيرين من الأحياء قد رأوا مثلى ، اللورد جون رسل
يسير من الفندق في كالندر تحت وابل من المطر الإسكتلندى ، في عام ١٨٥٠ .
حتى يصل إلى نزل « استرح واشكر الله » . ترى هل تعرف هذه الأماكن
الجميلة ؟

مرتون كوليدج

أكسفورد

١١ من أبريل ١٩١٠

عزيزى مسز رسل

أشكرك لخطابك . لا يساورنى أى شك أنى فى رسالتى إليك قد أسأت
فهمك على نحو ما ، ولعل هذا هو الذى ثنائى عن الكتابة ، ولكنى لم أجد أحداً
فيما يبدو يتقدم ليكتب إليك . إنى أتطلع إلى قراءة المستخرج من مقالك من
الريفيو وسأندارس ما كتبت فى خطابك .

وأعترف أنى أشعر بشيء من الخوف لإزاء احتمال انشغالك بالسياسة ، إذا
كان هذا يعنى أن وقتك لن يتسع للفلسفة . ألا يمكن الجمع بينهما ؟ إذا لم
يتيسر هذا فليس لى أن أغامر بالحكم على أى من الاتجاهين تشعر بأنك أقدر
على المضى فيه . والشىء الوحيد الذى أحسه بوضوح هو أنه لن يقوم بعملك
فى الفلسفة ، بقدر ما تسمح به الاحتمالات الإنسانية ، شخص آخر . لا أعتقد
أن من حقى أن أقول أكثر من هذا .

٣٢٣

إذا كان في استطاعتك أن تكتب أى شىء لمجلة « العقل » فإننى على ثقة أن القراء سيرحبون به ، ولن يكون ترحيبي أقل منهم .

المخلص

ف . ه . برادلى

لا أعرف من سيحصل على منصب الأستاذية . سمعت أن فرصة ويب كبيرة على أساس أن رجلى الدين سوف يمنحانه صوتهما ، وكذلك وارين . ولكن ليس هناك شىء محقق .

مرتون كوليدج

أكسفورد

٢٠ من أبريل ١٩١٠

عزيزى مستر رسل

يسعدنى حقاً أن أسمع أنك لا تنتوى أن تنتجه إلى السياسة بصفة دائمة ، وما من شك أنها يمكن أن تستغرق معظم وقتك . ومن الناحية الأخرى فلعل من الأنسب أن يغير المرء عمله مؤقتاً ، ولا بد أنك أضفيت نفسك بالعمل في ميدان الفلسفة عدة سنوات ، وما من شك أنه في دراسة الفلسفة ، وربما في دراسات أخرى ، يصبح شيئاً مرهقاً أن يعمل المرء وحده . لست أرى علاجاً لهذا ، فدى تعاون المرء مع غيره ضئيل جداً . لم يحدث أن كانت صحتى تسمح لى أن أغير عملى ، ولو أنى أخشى أن أكون قد اضطررت إلى التغيب في عطلات كثيرة عن عملى كبديل لبقائى فيه مدة أطول . ولعله كان من الأنسب أن أجد عملاً آخر .

أظننى من بطاء التفكير الآن بحيث لا أستطيع أن أقرأ مقالاً حتى لو حصلت عليه ، ومع ذلك فإننى أتطلع إلى قراءته .

إنى دائماً أحترم كتاباتك ، ولا يخالجنى أى شك في أن الفلسفة ستخسر

٣٢٤

كثيراً لو انسحبت من ميدانها نهائياً . لا أعتقد أن هناك من يمكنه أن يقوم
بالعمل في هذا المجال سواك وهو عمل أشعر أنك ستحب أن تقوم به ، بل
أمل أن تقوم به فعلاً .

صديقك المخلص

ف. ه. برادلي

الفصل السابع

كامبردج مرة أخرى

عندما فرغت من كتابي « أصول الرياضيات » شعرت بشيء من التوزيع والحيرة . وكان ذلك الإحساس على الرغم من ذلك لذيذاً ، يشبه إحساس من أفرج عنه من السجن . ولما كنت في ذلك الوقت شديد الاهتمام بالصراع بين الأحرار وبين اللوردات حول الميزانية وحول القرار الذي اتخذته البرلمان ، فقد شعرت بميل نحو الاشتغال بالسياسة . وتقدمت بطلب دائرة انتخابية إلى قيادة حزب الأحرار ، واتخذت توصية بترشيحي عن دائرة بدفورد ففضيت إليها وألقيت خطاباً أمام (رابطة الأحرار) ، وقوبل خطابي بالحماس . غير أنهم اقتادوني ، قبل أن ألقى خطابي ، إلى حجرة خلفية صغيرة تعرضت فيها لاستجواب عسير على الوجه التالي فيما أذكر :

س : هل أنت عضو في كنيسة الدولة ؟

ج : لا ، فقد ربيت منشقاً عليها .

س : وهل ظللت منشقاً ؟

ج : لا ، لم أظل منشقاً .

س : هل نفهم من هذا أنك غير ملتزم في الدين ؟

ج : نعم ، هذا ما يجب أن تفهموه .

س : هل ترغب في الذهاب إلى الكنيسة من آن لآخر ؟

ج : لا ، لا أرغب .

س : هل ترغب زوجتك في الذهاب إلى الكنيسة من آن لآخر ؟

ج : لا ، لا ترغب .

س: هل هناك احتمال أن يعرف عنك أنك غير ملتزم في الدين ؟
ج: نعم ، من المحتمل أن يعرف هذا .

ونتيجة لهذه الإجابات اختاروا مرشحاً غيرى ، مستر كيلاوى الذى أصبح مديراً للبريد وكان يتمسك بالآراء المقبولة أثناء الحرب ، ولا بد أنهم شعروا أنهم كانوا محظوظين لتخلصهم منى . ولكننى أيضاً شعرت أننى كنت محظوظاً لتخلصى منهم ، فبينما كانت بدفورد تتشاور فى الأمر ، تلقيت دعوة من كلية ترينتى بكامبردج لكى أصبح مدرساً فى أصول الرياضيات (١) . وكان هذا أكثر إغراء لى من السياسة ، ولكن لو أن بدفورد قبلتنى لرفضت كامبردج . ومع بداية الفصل الدراسى فى أكتوبر ١٩١٠ انتقلت إلى مسكنى بكامبردج . وتمكنت أنا وأليس من العثور على مسكن فى شارع بريدج ، وكان لى جناح فى مجموعة حرف I فى فناء نيفيل . وقد أحببت هذا الجناح الذى كان أول مكان خاص لى وحدى منذ أن غادرت كامبردج فى عام ١٨٩٤ . وقد قمنا ببيع بيتنا فى غابة باجلى ، وبدا لنا أن الحياة تسير بنا إلى مستقبل جديد .

غير أن الأيام أثبتت عكس هذا . فى انتخابات يناير ١٩١٠ . عندما كنت لا أزال أعيش فى غابة باجلى ، قررت أنه ينبغي على أن أساعد الأحرار قدر استطاعتى ، غير أنى لم أكن أريد مساعدة عضوا الدائرة التى كنت أعيش فيها؛ لأنه كان قد حث ببعض التعهدات الهامة فى رأى . ولذلك قررت أن أساعد عضوا الدائرة المجاورة التى تقع على الضفة الأخرى من النهر . كان هذا العضو هو فيليب موريل ، الذى كان يدرس بجامعة أكسفورد مع شقيق زوجتى ، لوجان ، وكان شديد التعلق به . كان فيليب موريل قد تزوج من ليدى أوتولين كافنديش بنتنك ، شقيقة دوق بورتلاند . وكنت أعرفها معرفة طفيفة منذ نعومة أظفارنا ، فقد كان لها عمه اسمها مسز سكوت (٢) وكانت تعيش

(١) انظر الرسائل .

(٢) جدة الملكة الوالدة ، إليزابيث .

في هام كومون . وكانت هناك تجربتان مازلت أذكرهما بجلاء ترتبطان بمنزل مسز سكوت ، ولا تتعلق أيتهما باوتولين . أولى هاتين التجربتين عن حفل للأطفال تذوقت فيه لأول مرة « الآيس كريم » وقد ظننت أنه مجرد « بودنج » عادي ، فتناولت ملعقة كبيرة منه . وكان نتيجة الصدمة التي تلقيتها أن انفجرت في البكاء . مما أفزع الكبار الذين لم يتبينوا ما حدث ، وكانت التجربة الثانية أكثر إيلاماً . فعندما كنت أغادر العربة خارج منزلها ، وقعت على أحجار الرصيف ، وأصبت في قضيبي . واستلزم الأمر بعد ذلك أن أجلس مرتين في اليوم في حمام ساخن وأن أدلكه بالأسفنجة بعناية . ولما كنت قد تربيت حتى ذلك الوقت على أن أتجاهله . فقد أثار حيرتي . وقد استشاط لوجان غضباً وغيره عندما تمت خطبة فيليب لأوتولين ، وراح يسخر منها بقسوة . غير أنه امتثل فيما بعد ، على أية حال . وكنت أراهما هي وفيليب من آن لآخر ، ولكنه لم يكن في يوم من الأيام موضع تقدير ، كما كانت هي تسعى إلى ترمي البيوريتاني بما كنت أعتبره إسرافاً في استعمال الروائح والمساحيق . وكان كروميتون ديفز أول من أقنعني بأن أراجع رأيي فيها . لأنها كانت تعمل في منظمة تقييم الأرض التي أسسها بطريقة حازت إعجابه .

وفي انتخابات يناير ١٩١٠ كنت أخطب في الاجتماعات السياسية داعياً لفيليب موريل في معظم الليالي ، وأقضي معظم الأيام في الحملة الانتخابية . وأذكر أنني استملت إلى جانبنا عسكرياً متقاعداً برتبة عقيد في إيفلي كان قد اندفع من إحدى الحجرات الجانبية إلى الصالة وهو يصيح « أنظن أنني سأعطى صوتي لوغد كهذا ؟ اخرجوا من المنزل ، وإلا أطلقت عليكم الكلاب » . وألقيت خطباً في كل قرية تقريباً فيما بين أكسفورد وكافرشام . وفي أثناء هذه الحملة الانتخابية أتاحت لي فرصة معرفة الليدي أوتولين . واكتشفت أنها امرأة تعطف على كل أنواع الناس بدرجة غير عادية وأنها تأخذ الحياة العامة مأخذ الجد . ولكن فيليب فقد مقعده ، شأن كل المرشحين الأحرار في هذه الناحية ، ثم عرضت عليه دائرة جديدة في بيرنلي أصبح نائباً عنها ابتداء من

ديسمبر ١٩١٠ حتى الانتخابات التي كانت تنادى بشنق قيصر ألمانيا . وكانت النتيجة أنني لم أر آل موريل كثيراً فترة من الوقت لكنني في مارس ١٨١١ تلقيت دعوة لإلقاء ثلاث محاضرات في باريس ، واحدة منهما في السوربون ، واثنين في مكانين آخرين . وكان من المريح أن أقضي الليل في لندن في طريقى إلى باريس ، وطلبت من آل موريل أن أنزل ضيفاً عليهم في بيتهم ، ٤٤ ميدان بدفورد ، وجدت ذوق أوتولين مذهلاً ورائعاً ، وكان بيتها آية في الجمال . أما زوجتي فقد كانت دائماً فريسة لصراع بين نقشف الكويكرز وشغف أخيها لوجان بالجمال . كانت ترى أنه من المناسب أن يتبع المرء أفضل القوانين الفنية في حياته العامة ، مثل ارتداء أفخر الثياب عند ارتياد الصالونات أو اعتلاء منصة الخطابة ، ولكنها إذا خلت لنفسها وجرت على سجيئها غلبت عليها بساطة الكويكرز ، فكانت على سبيل المثال ترتدى دائماً قمصان نوم من الفانلة. أما أنا فقد كنت دائماً أحب الأشياء الجميلة ، وإن كنت عاجزاً عن إحاطة نفسي بها . وقد غدى جوبيت أوتولين في نفسى شيئاً طال حرمانى منه طوال سنوات زواجى الأول . فما إن دخلت البيت حتى شعرت براحة من متاعب العالم الخارجى . وعندما وصلت هناك في ١٩ مارس ، في طريقى إلى باريس ، وجدت أن فيليب قد اضططر على غير انتظار أن يذهب إلى بيرنلى ، وأننى وحيد مع أوتولين . وأثناء العشاء دار بيننا الحديث حول بيرنلى ، والسياسة ، وأخطاء الحكومة . وبعد العشاء أصبح الحديث بالتدرج أكثر ألفة . وعندما راودتها على استحياء ، لم أجدها لدهشتى أى صدى لمحاولاتى من جانبها . ولم يكن قد خطر ببالى حتى تلك اللحظة أن أوتولين كانت امرأة تسمح لى أن أطارحها الغرام ولكن بالتدرج عندما تقدم بنا الليل ، اشتدت بيننا هذه الرغبة وألحت . وتغلبت الرغبة أخيراً ، ووجدت لدهشتى أننى كنت أحبها حباً عميقاً ، وأنها تبادلت هذا الشعور . وحتى تلك اللحظة لم تكن لى علاقات كاملة مع أية امرأة فيما عدا زوجتى أليس . ولأسباب خارجية وعارضة ، لم أصل مع أوتولين في تلك الليلة إلى نهاية المطاف ، لكننا اتفقنا على أن نصبح عشاقاً في أسرع وقت ممكن . كان شعورى جيئاشاً غامراً ، ولم أبال بما يترتب على هذا . كنت

أريد أن أنفصل عن أليس ، وأن أطلب من أوتولين أن تنفصل عن زوجها فيليب . ولم أبال قط بما يمكن أن يظنه فيليب أو يشعر به . ولو أنني علمت أنه كان سيقفلنا معاً (كما أكدت لي مسز هوايتهد) لرضيت بدفع هذا الثمن لقاء ليلة واحدة مع أوتولين . فلقد وصلت السنوات التسع التي قضيتها في إنكار الذات المشحون بالتوتر إلى نهايتها . لم يكن هناك من الوقت ما يسمح لنا بتنظيم خطط للمستقبل خلال تلك الأمسية الوحيدة . وكان الوقت متأخراً عندما تبادلنا أول قبلة ، وبرغم أننا لبثنا حتى الرابعة صباحاً ، إلا أن الحديث أصبح بعد ذلك منقطعاً . وفي اليوم التالي كان على أن أذهب مبكراً إلى باريس ، كان على أن أحاضر بالفرنسية جمهوراً على مستوى عال من القدرة على النقد ووجدت صعوبة في تركيز تفكيري على ما يجب أن أفعله ، وأظن أنني ألقيت محاضرة سيئة . كنت أعيش في حلم ، وبدأت الأشياء المحيطة بي غير حقيقية تماماً . كانت أوتولين ذاهبة إلى ستدلاند (التي كانت في تلك الأيام مكاناً صغيراً) وقد اتفقنا على أن ألحق بها لمدة ثلاثة أيام . وقبل ذهابي ، قضيت عطلة نهاية الأسبوع مع أليس في فريهرست . وقد بدأت العطلة بذهابي إلى طبيب الأسنان ، الذي أخبرني بأنني قد أكون مصاباً بالسرطان . ونصحتني أن أعرض نفسي على أخصائي . لم أستطع على أية حال أن أراه مدة ثلاثة أسابيع لأنه كان قد سافر لقضاء عطلة عيد الفصح . وقد أخبرت أليس عندئذ عن أوتولين . فاستشاطت غضباً ، وقالت إنها ستصر على طلب الطلاق ، وأنها ستذكر اسم أوتولين . ولكن أوتولين كانت راغبة عن الطلاق ، بسبب طفلها ، وبسبب المودة الصادقة التي كانت تكنها لزوجها ، ولهذا تخم على ألا أزج باسمها في الموضوع . قلت لأليس إنها تستطيع الحصول على الطلاق في أي وقت شاءت ، على ألا تزج باسم أوتولين ، ولكنها مع ذلك أصرت على أن تذكر اسمها . وعندئذ أبلغتها بهدوء وحزم أنها ستجد ذلك مستحيلاً . فلو أنها أخذت أي خطوة في هذا السبيل ، فإني سأقدم على الانتحار . وكنت أعني ما أقول ، ورأت هي أنني جاد في قولي ، وعندئذ ازدادت سورة غضبها

إلى درجة لا تتحتمل . وبعد أن أرغت وأزبدت بضع ساعات أعطيت درساً في فلسفة لوك لابنة أختها ، كارين كوستيللو ، التي كانت على وشك أن تجلس في الامتحانات الشفوية للسنة النهائية في كامبردج ، ثم ركبنا دراجتي رحلت ، وبذلك انتهى زواجي الأول ، ولم أر أليس مرة أخرى حتى عام ١٩٥٠ ، عندما التقينا كصديقين متحابين .

وبعد هذه المشاحةنة انتقلت مباشرة إلى ستدلاند ، وأنا مازلت أعتقد أنني مصاب بالسرطان . وفي سوانيدج حصلتُ على عربة عتيقة يجرها حصان بطيء للغاية . وأثناء رحلته البطيئة بلغت روجي الحلقوم وهو يتهدى صاعداً وهابطاً فوق التلال . ورأيت أوتولين ، على أية حال ، تجلس في غابة صنوبر يجوار الطريق ، فترلت ، وتركت العربة تكمل الرحلة بأمتعتي . ولا تزال الأيام الثلاثة بلياليها التي قضيتها في ستدلاند ماثلة في ذاكرتي مثل لحظات تبدو فيها الحياة وقد تم لي فيها ما أريد إلا قليلاً ، فنادراً ما تصفو الحياة تماماً . ولم أخبر أوتولين ، بالطبع ، أنني كان لدى من الأسباب ما يحملني على الاعتقاد بأنني كنت مصاباً بالسرطان ، ولكن فكرة احتمال وجود هذا ضاعفت من سعادتي ؛ فقد اكتسبتها تركيزاً ، كما ساعد على هذا إحساسي أنني كنت أنتزع هذه اللحظات من بين أنياب الهلاك . فعندما أنبأني الطبيب بهذا كان أول ما خامرني هو التوجه بالشكر لله على أنه تمكن مني في النهاية في الوقت الذي بدت فيه السعادة قيد ناظري . وأظن أنني في جزء خفي من نفسي كنت أعتقد في إله يجد متعته في صنوف مبتكرة من التعذيب . ولكنني خلال الأيام الثلاثة التي قضيتها في ستدلاند ، كنت أشعر أن هذا الإله الحبيث لم ينجح تماماً برغم كل شيء . وعندما رأيت الطبيب الأخصائي أخيراً ، اتضح أنه لم يكن في الأمر شيء . كانت أوتولين طويلة القامة جداً ، ذات وجه نحيل طويل أشبه بوجه الحصان ، وشعر جميل للغاية ذي لون غير مألوف أقرب إلى لون مربة النارج . وإن زاد عنها دكنة بعض الشيء . وكانت السيدات اللاتي يحسن الظن يعتقدن أنه مصبوغ ، ولكنهن كن مخططات في هذا الاعتقاد . وكانت ذات

صوت رقيق بديع رخم ، وذات عزم لا يقل ، وإرادة من حديد . ولكنها كانت شديدة الحياء . وكان كل منا ، في البداية ، يستحي من الآخر ، ولكن حينا كان عميقاً ، وكان تلاميضي الحياء بالتدريج متعة إضافية . كان كلانا متحمساً غير متمسك بالتقاليد ، أرستقراطياً بحكم المنبت والتقاليد دون الترفع المقصود الذي كانت بيتنا تقضى به . وكان كلانا يكره القسوة ، والخطرة التطبيقية . وضيق أفق الأرستقراطيين ، ومع ذلك فقد كنا معاً كالغربيين في العالم الذي اخترنا أن نعيش فيه ، وهو عالم كان ينظر إلينا بعين الريبة وعدم الفهم لأننا كنا غربيين عنه . وكنا نتقاسم كل المشاعر المعقدة التي نتجت عن هذا الموقف كما كان هناك تعاطف عميق بيننا لم ينقطع أبداً طيلة حياتنا . وبرغم أننا لم نعد عاشقين في ١٩١٦ ، إلا أننا ظللنا دائماً صديقين حميمين .

كان لأوتولين أكبر الأثر على وكان أثرها نافعاً من كل وجه تقريباً . وكانت تضحك مني كلما تصرفت بمحذقة الأستاذ أو غروره ، وكلما ظهر مني ميل إلى الاستبداد في الحديث . وقد خلصتني بالتدريج من اعتقادي أنني أبيض بشر مستطير لا يمكنني أن أسطر عليه إلا بأن أملك زمام نفسي بقبضة من فولاذ ، كما جعلتني أقل تركيزاً على نفسي ، وأقل رضاً عنها . وكان لها ميل شديد نحو الدعابة ، حتى إنني أدركت خطورة استشارتها عن غير عمد . وقد جعلتني أقل تزمناً ، وأقل ميلاً للهكم على الآخرين . فقد كانت حقيقة الحب السعيد . بالطبع ، أن جعل ، بعد سنين طويلة من الفراغ ، كل شيء سهلاً . إن الكثير من الرجال يخشون أن يخضعوا لتأثير النساء ، ولكن هذا الخوف حسب تجربتي ، خوف سخيف . فيبدو لي أن الرجال يحتاجون إلى النساء ، وأن النساء يحتاجن إلى الرجال ، عقلياً وجسدياً . وفيما يختص بي أقول إنني أدين بالكثير للنساء اللاتي أحببتهن ، ولولاهن لظللت محدود الأفق إلى حد بعيد .

وبعد الفترة التي قضيناها في ستدلاندا بدأت صعاب عديدة تعترض طريقنا . كانت أليس ما زالت ترغب وتزبد ، وكان لوجان حانقاً مثلها تماماً . وأقنعهما آل هوايتيد ، الذين كانوا يعطفون علينا عطفاً بالغاً في تلك الظروف ،

أن يتنازلا عن فكرة الطلاق^(١) فيزج فيه باسم أوتولين ، وصممت أليس على أن الطلاق في تلك الحالة لم يكن يستحق الحصول عليه . ولقد كنت أتمنى أن تترك أوتولين فيليب ، ولكنى سرعان ما رأيت أن ذلك كان مستحيلا . وفي تلك الأثناء ذهب لوجان إلى فيليب ، وفرض شروطاً اضطر فيليب بدوره أن يفرضها على أوتولين . وكانت هذه شروطاً مجحفة تهدد سعادة حبنا تهديداً خطيراً . وكان أسوأها أننا لا ينبغي أن نقضى ليلة واحدة معاً . واثارت ثائرتي مثلما ثارت نائرة فيليب ولوجان وأليس . وكان هذا مضميناً بالنسبة لأوتولين ، كما خلق جواً من العسير أن نستعيد فيه النشوة الأولى . وفتحت عيناى على تماسك حياة أوتولين ، وعلى حقيقة أهمية زوجها وطفلها وممتلكاتها بالنسبة لها . أما بالنسبة لى فلم يكن هناك ما يضارعها فى الأهمية ، وأدى لى عدم التكافؤ هذا إلى أن أصبح غيوراً صارماً فيما أطلبه . ولكن قوة العاطفة المتبادلة انتصرت على كل هذه العقبات ، على أية حال . كانت تمتلك بيتنا صغيراً فى بيبارد ، فى تلال شيلثيرن^(١) ، حيث كانت تقضى شهر يوليو . وقد نزلت أنا فى أبسدن ، على مسافة ستة أميال من بيبارد ، وكنت أذهب على دراجتى كل يوم ، فأصلها ظهراً ، وأغادرها حوالى منتصف الليل . وكان الصيف حاراً بشكل غير مألوف ، بلغت فيه درجة الحرارة فى أحد أيامه ٩٧° فهرنهايت فى الظل . كنا نحمل معنا غذاءنا إلى غابات الزان ، ونعود للبيت لتناول الشاي فى وقت متأخر . كان شهراً من السعادة الغامرة ، برغم سوء حالة أوتولين الصحية مما اضطرها أخيراً إلى الذهاب إلى مارينباد ، حيث لحقت بها بعد فترة ، وأقمت ، على أية حال ، فى فندق آخر . ومع حلول فصل الخريف عادت إلى لندن ، واستأجرت أنا شقة قرب المتحف البريطانى ، حتى يمكنها أن تحضر لزيارتى . وكنت طوال الوقت أحاضر فى كامبردج . ولكنى كنت أحضر فى الصباح ، وأعود إلى محاضرتى فى الوقت المناسب ، فى الساعة الخامسة والنصف . وكانت تعاني من نوبات صداع فظيعة ، مما كان يجعل لقاءتنا فى أغلب الأحيان مخيبة

(١) سلسلة من التلال تمتد بين أكسفورد ومقاطعتى بدفورد وهرتفورد ، بمقاطعة بكنجهام .

٣٣٣

لآمالنا ، وفي تلك المناسبات كنت أقل مما ينبغي مراعاة لإحساسها . ومع ذلك فقد اجتزنا فصل الشتاء بحادث شقاق خطير واحد فقط جاء نتيجة لاتهمى لها بأنها متدينة . لكن مشاغباتى لها تزايدت بالتدريج لشعورى أنها لم تكن تهتم بى قدر اهتمامى بها . وكانت هناك لحظات يحتفى فيها هذا الشعور كلية ، وأظن أن اعتلال صحتها فى أغلب الأحيان كان يبدو لى عدم مبالاة ، ولكن بالتأكيد لم يكن هذا هو السبب دائماً . وكنت أعانى ، دون علمى ، من تقيح بالثثة ، وكان هذا سبباً فى أن تكون رائحة أنفاسى كريهة . وهو ما لم أكن أشعر به . ولم تكن نفسها تطاوعها على أن تخبرنى بهذا ، ولم تبج لى بتأثيره عليها إلا بعد أن اكتشفت الداء وشفيت منه .

وفى نهاية عام ١٩١٣ ذهبت إلى روما لأراها ، ولكن فيليب كان هناك . وكانت زيارة غير مثمرة . وتعرفت بسيدة ألمانية كنت قد التقيت بها فى الصيف عند بحيرة جاردا . وكنا قد قضينا ، سانجرونا ، شهراً فى رحلة على الأقدام فوق جبال الألب من انزبروك ، ووصلنا إلى بنتوسان فيليو ، حيث لحقنا بمجموعة من الأصدقاء تتكون من مس سيكوكس ، ناظرة مدرسة سانت فيليكس ، وميلان ستاول ، فتاة قاصرة كانت ميلان وصية عليها نسبت اسمها . وجذب انتباهنا امرأة شابة تجلس بمفردها على إحدى الموائد ، ورحنا نتجادل فيما إذا كانت متزوجة أو غير متزوجة . وقلت أنا إنها مطلقة . ولكى نحسم المشكلة تعرفت عليها ، ووجدت أننى كنت مصيباً فى رأى . كان زوجها يشتغل بالتحليل النفسى ، ويبدو أن آداب المهنة كانت تتطلب ألا يستمر فى الحياة مع زوجته . وبالتالي فقد كانت مطلقة فى الوقت الذى تعرفت عليها فيه ، وبمجرد أن ثار كل منهما لكرامته ، تزوجا مرة أخرى وعاشا حياة هنية . كانت صغيرة السن ، جذابة ، وكان لها طفلان صغيران . وفى ذلك الوقت كنت نهياً لرغبتى فى أن أنجب أطفالاً . ولم تكن عيناى تقعان على طفل يلعب فى الطريق دون أن يتنابنى ألم ممض . وصادقت السيدة ، وخرجنا ، فى رحلة إلى الريف . ورغبت فى أن أطارحها الغرام ، لكننى رأيت أن أخبرها عن أوتولين

أولاً . وكانت مستسلمة لى ، حتى تكلمتُ عن أوتولين ، فأقلعت عن استسلامها بعد ذلك . لكنها قررت ، على أية حال ، أنه من الممكن أن تتغاضى عن اعتراضاتها ذلك اليوم فقط . ومنذ ذلك اليوم لم أرها قط ، برغم أننى مازلت أتلقى منها خطابات على فترات متباعدة .

كانت بداية صداقتى لجوزيف كونراد (١) فى عام ١٩١٣ حدثاً هاماً فى حياتى أدين به لصداقتنا المشتركة مع أوتولين . كنت من المعجبين بكتبه لسنوات عديدة . ولم أكن لأجرؤ على السعى إلى معرفته دون أن أقدم إليه . وقد ذهبت إلى منزله قرب آشفورد فى مقاطعة كنت ، فى حالة من القلق والترقب وكان انطباعى الأول عنه مليئاً بالدهشة فقد كان يتكلم الإنجليزية بلكنة أجنبية واضحة . ولم يكن فى سلوكه ما يوحي بأن له صلة ما بحياة البحر . بل كان سيداً بولندياً أرسطوياً من مفرق شعره إلى أخمص قدميه . وكان شعوره نحو البحر ونحو إنجلترا ، شعوراً بالحب الرومانسى — حب من بعيد ، كاف لأن يحتفظ بقصة الحب نقية لا تشوبها شائبة . وقد بدأ حبه للبحر فى مرحلة مبكرة جداً من حياته . وعندما أخبر والديه بأنه كان يرغب فى أن يعمل بحاراً راحا يبحرانه على الالتحاق بالبحرية النمساوية ، ولكنه كان ينشد المغامرة فى البحار الاستوائية والأنهار الغربية التى تحيط بها غابات سوداء ، ولم تكن البحرية النمساوية لتتيح له المجال لإرضاء هذه الرغبات . وذعرت عائلته عندما شرع فى البحث عن عمل فى البحرية التجارية الإنجليزية . ولكن لم يكن من السهل أن يزعموا عزيمته .

(١) عاش جوزيف كونراد بين ١٨٥٧ و ١٩٢٣ وهو روائى إنجليزى كبير من أصل بولندى ، كان أبوه كاتباً بولندياً مجاهداً ونفى بسبب الثورة البولندية على روسيا ، وأغرم كونراد منذ صباه بأدب البحر والبحارة فاشتغل بحاراً أولاً على السفن الفرنسية ثم على السفن الإنجليزية وهكذا ذرع بحار العالم وزار أقصى الشطآن وكل القارات ، وقا . استقبلت باكورة رواياته حفاقة ايلمر فى ١٨٩٥ كباكورة عبقرية جديدة فى فن الرواية . ومن أهم رواياته اللورد جيم فى ١٩٠٠ والإعصار فى ١٩٠٣ ونوستروم فى ١٩٠٤ والعميل السرى فى ١٩٠٧ والانتصار فى ١٩١٥ والنجدة فى ١٩٢٠ . وقد اشتهر كونراد فى الأدب الإنجليزى بقرابة أسلوبه واهتمامه بجمال العبارة مع الاهتمام بالتكوينات الموسيقية فى تركيب الجملة . وأدبه يدور حول حياة البحر والأدغال ويعالج الصراع بين الخير والشر وبين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والطبيعة . وكان شديد الاهتمام بوصف الجوانب المظلمة فى قلب الحياة .

كان كاتباً صارماً في أخلاقياته ، كما تدل على هذا كتاباته ، ولم يكن متعاطفاً مع الثوريين على الإطلاق . ولم نكن هو وأنا على وفاق في معظم آرائنا بحال من الأحوال ، ولكننا التقينا تماماً على شيء أساسي جداً ، إذ كانت علاقتي بجوزيف كونراد مختلفة عن أى علاقة من علاقاتى الأخرى . كنت نادراً ما أراه على فترات تمتد أعواماً طويلة وكنا أقرب ما نكون إلى غربيين في استحكاماتنا الدفاعية ونحن نمضى في حياتنا . ولكننا كنا نشاطر أحدهما الآخر نظرة معينة في الحياة الإنسانية والمصير الإنسانى . مما ربط بيننا ، منذ البداية ، برابط قوى . وقد تلمس لى العذر في الإشارة إلى جملة وردت في خطاب كتبه إلى بعد أن تعارفنا مباشرة . وأشعر أن الحشمة تمنعني من الإشارة إلى هذا التعبير لولا أنه يعبر بالضبط عن شعورى نحوه . كان تعبيره وشعورى المساوى له ، كما صاغه هو في كلماته : (شعور عميق بالمودة والإعجاب ، سأظل أحتفظ لك به دون أن يعثر به تغيير إلى الأبد ، حتى إذا لم ترني مرة ثانية قط ونسيت وجودي غدا) .

ومن كل ما كتبه كونراد كنت معجباً أشد الإعجاب بروايته المخففة « أعماق الظلمة » ، التي يصيب الجنون فيها شخصاً مثالياً ضعيفاً بسبب ذعره من الغابات الاستوائية ووحده بين المتوحشين . وهذه الرواية ، فيما أظن ، تعبر عن فلسفته في الحياة تعبيراً كاملاً — وقد كان شعورى ، برغم أنني لا أدرى إذا كانت هذه الصورة الذهنية ستحوز قبوله ، أنه كان يرى أن الحياة الإنسانية المتحضرة التي يمكن تقبلها خلقياً أشبه شيء بطريق تحف به الأخطار يمتد فوق قشرة رقيقة من اللحم البركانية التي لم تبرد والتي قد تنهار في أية لحظة لتغوص بالإنسان الغافل القليل الخيطة إلى أعماقها المتأججة . وكان كونراد عارفاً أتم المعرفة بأشكال الجنون العاطفي العديدة التي يتعرض لها الناس . وكان هذا هو ما ملأه بكل هذا الإيمان العميق بأهمية النظام ، وربما أمكن القول بأن وجهة نظره كانت على نقیض وجهة نظر روسو ، فهو يؤمن بأن الإنسان يولد مكبلاً بالأغلال ، ولكنه قادر على أن يصبح حراً ، وأعتقد أن كونراد يؤمن

بأن الإنسان يصل إلى حريته لا عن طريق إطلاق العنان لنواذعه ، ولا عن طريق الاستسلام للصدفة بدون سيطرته على نفسه ، ولكن عن طريق إخضاع قوة الإصرار في الإنسان لخدمة غرض عام .

ولم يكن كونراد يهتم كثيراً بالأنظمة السياسية ، برغم أنه كان ذا مشاعر سياسية قوية . وكان أقوى مشاعره السياسية حبه لإنجلترا وكرهه لروسيا ، وقد عبر عنهما في رواية « العميل السرى » ، أما بعد الثورة ، فهو ما يصوره بقوة فائقة في رواية « تحت العيون الغربية » . وكانت كراهيته لروسيا هي الكراهية التقليدية في بولندا ، وقد بلغت به حدًّا جعله لا يعترف بقدر تولستوى أو دوستوفسكى ، وقد أخبرنى مرة أن ترجينيف هو الروائى الروسى الوحيد الذى كان يعجب به .

وفما عدا حبه لإنجلترا وكرهه لروسيا ، لم تكن السياسة تعنيه كثيراً . وإنما كان ما يهمه هو الروح الإنسانية الفردية في مواجهة اللامبالاة التى تحكم الطبيعة ، وفي مواجهة عداوة الإنسان للإنسان بوجه عام . وفى تعرض النفس للصراعات الداخلية بعواطفها الجارفة التى تؤدى للتهلكة سواء أكانت هذه العواطف خيرة أم شريرة . وكانت مآسى الوحدة تشغل الجزء الأكبر من فكر كونراد وإحساسه . ومن رواياته النموذجية رواية « الإعصار » . وفى هذه الرواية يخرج الربان ، وهو إنسان بسيط ، بسفينته من الورطة بشجاعة لا تتزعزع ، وبعزيمة لا تفل . وعندما تنتهى العاصفة يكتب لزوجته خطاباً يروى لها قصة العاصفة ويحكى لها دوره هو بمنتهى البساطة . إنه أدى واجبه كربان ، كما يمكن أن يتوقع أى إنسان طبعاً . ولكن القارئ يدرك ، من خلال سرده ، كل ما كابده وما واجهه وما تحمله فى جساره . وقبل أن يرسل الربان خطابه ، يقرأه خادمه خفية ، ويكون خادمه هو قارئه الوحيد لأن زوجته تجد الخطاب مملاً وتلقى به دون أن تقرأه .

والموضوعان اللذان يشغلان بال كونراد أكثر من غيرهما فيما يبدو هما الوحدة والخوف من كل ما هو غريب . ورواية « طريد الجزر » ، شأنها فى هذا شأن « أعماق الظلمة » تصف الخوف من كل ما هو غريب . والموضوعان يمتزجان

٣٣٧

في روايته المؤثرة « إيمى فوستر » . وفي هذه الرواية تكتب النجاة من حطام سفينته لفلاح صقلى جنوبى ، وهو فى طريقه إلى أمريكا ، وتلقى به الأمواج على شواطئ قرية من قرى مقاطعة كنت . وتحشاه القرية كلها وتسيء معاملته ، ماعدا إيمى فوستر ، وهى فتاة بسيطة على قدر من البلادة الدهنية تحضر له الخبز وهو يتضور جوعاً ، ثم تتزوجه فى النهاية . ولكنها أيضاً يتركها الخوف من غرابته ، عندما يعود إلى الهذيان بلغته الأصلية فى نوبة حمى ، فتختطف طفلها وتهجره . ويموت وحيداً مغلوباً على أمره . ولطالما تساءلت بينى وبين نفسى إلى أى حد شعر كونراد ، وهو بين الإنجليز ، بمثل هذا الشعور ، ولكنه استطاع أن يكبحه بإرادة لا تلين .

وقد كانت وجهة نظر كونراد أبعد ماتكون عن روح العصر . فقد كان يرى أن هناك فلسفتين فى العالم الحديث . فلسفة تنبع من روسو وترفض النظام رفضها لشيء غير ضرورى ، وفلسفة تجد التعبير الكامل عنها فى النزعة الشمولية وترى أن النظام شيء مفروض أساساً من الخارج . وكان كونراد يكره الفوضى ، ويكره النظام الذى يأتى من الخارج فى وقت واحد .

وفى هذا كله كنت أجد نفسى على اتفاق تام معه . وفى لقائنا الأول رحنا نتكلم بمودة تتزايد بشكل مستمر . وخيل إلى أننا كنا نفوض خلال طبقة إثر طبقة من القشرة الظاهرية حتى وصلنا بالتدريج إلى جوف الأرض الملتهب . وكانت تجربة مختلفة عن أى تجربة أخرى مررت بها . كنا ننظر فى عيني أحدهما الآخر ونحن نتأرجح بين الخوف والنشوة إذ نجد نفسينا سوياً فى مثل هذه المنطقة وكان شعوراً قوياً أشبه بالحب المتأجج ، وشاملاً فى آن واحد . وانصرفت وقد تملكنتى الحيرة ، وأنا أكاد أجد صعوبة فى التعرف على طريقى وسط الأمور العادية .

ولم أر كونراد خلال الحرب أو بعدها حتى عودتى من الصين عام ١٩٢١ . فعندما ولد ابنى الأول فى تلك السنة وددت لو أن كونراد كان أباه فى العباد دون إقامة احتفال رسمى . وكتبت إليه قائلاً : « أود بعد إذنك ، أن أسمي ابنى سرق الذاتية

جون كونراد ، فقد كان اسم أبى جون ، واسم جدى جون . واسم جدى الأكبر جون ، وكونراد اسم أرى فيه مزاياء ، وقبل وسارع بتقديم القدر المألوف فى تلك المناسبات إلى أبى .

ولم أره كثيراً ، لأننى كنت أعيش معظم العام فى كورنول ، كانت صحته قد بدأت فى التدهور . ولكننى كنت ألقى منه رسائل ساحرة ، وخاصة رسالة عن كتابى عن الصين ^(١) . إذ كتب يقول : « لقد كنت دائماً أكن الحب للصينيين ، حتى أولئك الذين حاولوا قتلى (وقتل آخرين) فى فناء بيت خاص فى تشانابون ، بل حتى الشخص الذى سرق كل أموالى ذات ليلة فى بانكوك ، لكنه نظف ملابسى بالفرشاة وطواها بعناية لكى أرتديها فى الصباح ، قبل أن يختفى فى أغوار سيام (وإن لم أكن أحبه قدر حبى للآخرين) . ولقد أسدى إلى صينيون عديدين الكثير من المعروف . وهذا ، بالإضافة إلى حديث مع سكرتير صاحب السعادة تسنج الذى التقيت به ذات مساء فى شرفة أحد الفنادق وقمت معه على مفضل بدراسة إحدى القصائد اسمها "الصينى الوثنى" وهذا كل ما أعرفه عن الصينيين» . ولكننى بعد قراءة رأيك الشيق فى المشكلة الصينية ، بدأت أنظر بتشائؤم إلى مستقبل بلدهم ، وراح يقول إن آرائى عن مستقبل الصين « تبعث البرودة فى روحى » خاصة وأنى ، كما قال ، كنت أعلق آمالى على الاشتراكية الدولية . وعلق على هذا بقوله : « وهو الأمر الذى لا أستطيع أن أجده له معنى محدداً . فلم يحدث مطلقاً أن وجدت فى كتاب خطه أى إنسان . أوفى حديث مع أحد ، أى شىء مقنع يستطيع أن يصمد للحظة أمام إحساسى العميق بالقدرية التى تحكم هذا العالم الذى يعيش فيه الإنسان » . وواصل كلامه قائلاً : إنه بالرغم من أن الإنسان قد شرع فى الطيران إلا أنه لا يطير مثل النسر ، بل يطير مثل الخنفساء . ولا بد أنك لا حظت أن طيران الخنفساء قبيح ومضحك وأبله . وفى مثل هذه الملاحظات المتشائمة ، شعرت أنه كان يبدى من الحكمة أعمق مما أبديته فى آمالى الزائفة بشأن حل مشاكل الصين

حلاً موفقاً . ولا بد لي أن أقرر أن الأحداث قد أثبتت حتى الآن صحة رأيه .
 كان هذا الخطاب هو آخر ما بيني وبينه . فلم أره بعد ذلك مرة ثانية
 لأتبادل معه الحديث . ورأيت مرة عبر الشارع . وقد انخرط في حديث جدى
 مع شخص لا أعرفه ، وكانا واقفين أمام باب بيت كان يوماً ما بيت جدتى ،
 لكنه أصبح بعد موتها نادياً للفنون . ولم أشأ أن أقاطع هذا الحديث البادى الجدى ،
 فانصرفت . وعندما مات بعد ذلك بفترة وجيزة أسفت على أنني لم أكن أكثر
 جرأة . ولقد ذهب البيت ، دمره هتلر . وأظن أن كونراد في سبيله إلى أن ينسى ،
 ولكن نبلة الشديد الذى يفيض حماسة ، يتلألاً في ذاكرتى مثل نجمة نراها من
 قاع بحر . وكم أود لو استطعت أن أجعل نوره يتلألاً للآخرين مثلما كان يتلألاً
 بالنسبة لى .

وفى ربيع عام ١٩١٤ ، دعيت إلى بوسطن لإلقاء سلسلة من المحاضرات
 تعرف باسم محاضرات لويل ، ولأعمل في نفس الوقت أستاذاً مؤقتاً للفلسفة
 فى جامعة هارفارد . وأعلنت عن الموضوع الذى اخترته لمحاضرات لويل ، ولكننى
 لم أجد القدرة على التفكير فيما أقوله . كنت أقضى الوقت جالساً فى فندق
 (الحنفساء والوتد) فى مولسفورد ، وأنا أتساءل عما يمكن قوله عن معرفتنا بالعالم
 الخارجى ، وهو الموضوع الذى كان على أن ألقى سلسلة المحاضرات عنه قبل
 مضى وقت طويل . وعدت من روما إلى كامبردج فى يوم رأس السنة ١٩١٤ ،
 ولما كنت أرى أن الوقت قد أزف لكى أعد محاضراتى ، فقد رتبت الأمر مع
 كاتبة مختزلة على الآلة الكاتبة على أن تحضر فى اليوم التالى ، رغم أننى لم يكن
 لدى أقل فكرة عما ينبغى على أن أقوله لها عند ما تحضر . وعند ما جاءت إلى
 غرفتى ، بدأت أفكارى تنتظم ، ورحت أملى عليها بشكل منظم تماماً وبدون
 انقطاع حتى انتهى العمل . وقد نشرت هذه المحاضرات فيما بعد فى كتاب بعنوان
 (معرفتنا بالعالم الخارجى باعتباره ميداناً للأسلوب العلمى فى الفلسفة) .

وأبحرت على الباخرة «موريتانيا» فى ٧ من مارس . وكان سير هيوبيل موجوداً
 على ظهر السفينة . وقد قضت زوجته الرحلة بطولها تبحث عنه ، أو تضبطه
 مع فتاة جذابة . وحينما كنت ألتقى به بعد ذلك بعد غرق الباخرة «لوزيتانيا»

كنت أجدّه يؤكد أنه كان قد أبحر على الباخرة لوزيتانيا .

ومن نيويورك سافرت مباشرة إلى بوسطن ، ومن دواعي راحتي في القطار أن سمعت حديثاً يدور بين جاريّ الاثنين عن جورج تريفيليان . وفي هارفارد التقيت بكل الأساتذة ، وبكل فخر أقول إنني شعرت بكرامية عنيفة نحو البروفيسور لويل الذي اشترك فيما بعد في جريمة اغتيال ساكو وفانزيتي . لم يكن لدى في ذلك الوقت باعث على كرهه ، ولكن الشعور كان قوياً بنفس درجة شعوري نحوه في السنوات التالية عندما برزت خصائصه كمنقذ اجتماعي . وكان كل أستاذ أقدم إليه في هارفارد ، يلقي بالخطبة التالية : « إنك تدرك يادكتور رسل ، دون شك ، أن هيئة التدريس بقسم الفلسفة قد منيت بثلاث خسائر فادحة . فلقد فقدنا زميلنا المبجل بروفيسور ويليام جيمس بموته المأسوف عليه و بروفيسور سانتيانا قد استقر به المقام في أوربا لأسباب يراها هو دون شك وجيهة ، وأخيراً ، وليس آخراً ، أصيب بروفيسور رويس بالشلل ، وإن كان يسعدني أن أقول إنه مازال معنا » ، كان هذا الخطاب يلقي بهدوء وجدية وعظمة . وجاء الوقت الذي شعرت فيه أنني يجب أن أفعل شيئاً لزاء هذا . ولذلك رحلت أتشدق في المرات التالية ، عندما كنت أقدم إلى أحد الأساتذة بالكلام بأقصى سرعة ، وأثبتت هذه الحيلة ، على أية حال ، عدم جدواها فقد كان الأستاذ يجيبني قائلاً : « نعم ، يادكتور رسل ، تماماً كما لاحظت . لقد منيت هيئة التدريس . . . » وهكذا مضت الخطبة حتى نهايتها المحتومة . ولا أدري إن كان هذا ينطبق على جنس الأساتذة أم أنه يتعلق بالأمريكيين وحدهم ، وأعتقد أنه ربما كان الغرض الأول هو الأصح . كما لاحظت شيئاً آخر عن أساتذة جامعة هارفارد : وهي أنهم كانوا دائماً يرشدونني إلى الطريق إلى منزلي ، عندما كنت أذهب لتناول العشاء معهم ، بالرغم من أنني كنت آخذ طريقى عند ذهابي إلى بيوتهم دون مساعدة منهم ، وكانت هناك حدود لانتشار الثقافة بهارفارد . فقد كان سكوفيلد أستاذ الفنون الجميلة ، يعتبر الفريد نويس شاعراً عظيماً جداً .

ومن الناحية الأخرى كان انطباعى عن الطلبة ، وخصوصاً طلبة الدراسات العليا ، انطباعاً رائعاً . فقد كان قسم الفلسفة بهارفارد ، حتى الوقت الذى منى فيه بهذه الحسائر الثلاث التى سبق ذكرها ، أحسن قسم فى العالم . ففى عام ١٨٩٦ كنت أقيم فى هارفارد مع ويليام جيمس ، وأعجبت بإصرار رويس على إدخال المنطق الرياضى فى برنامج الفلسفة . وكان سانتيانا ، الذى كانت روابط الصداقة تربطه بأخى ، معروفاً لى منذ عام ١٨٩٣ . وبقدر ما كنت أختلف معه ، كنت أعجب به . كان التراث الذى خلفه هذان الرجلان مازال قوياً . وكان رالف بالون بيرى يبذل غاية جهده لكى يحل محلهما ، وكان ممتلئاً بالحياة الدافقة التى كانت تغذى ما كان يطلق عليه « الواقعية الجديدة » وكان قد تزوج شقيقة بيرنسون . لكنه كان يصدر فى تصرفاته عن أخلاقيات نيوانجلند التى كانت سبباً فى إفلاسه الفكرى وذلك عند نشوب الحرب العالمية الأولى . وفى إحدى المناسبات التقى فى منزل برورث بروك^(١) ، الذى لم يكن قد سمع عنه . وكان روبرت عائداً إلى أرض الوطن من جزر البحر الجنوبى ، وكان يتحدث بإسهاب عن تحلل الرجولة التى جاءت نتيجة الكف عن أكل لحوم البشر فى هذه المناطق . وقد ألم هذا القول بروفيسور بيرى . أو لم يكن أكل لحوم البشر خطيئة ؟ ولا يخالنى أدنى شك فى أن بروفيسور بيرى اشترك فى تمجيد روبرت بعد موته ، ولا أظن أنه أدرك بتاتا أن الشاب المستهتر الذى التقى به فى مسكنى كان هو نفس الإله الذهبى الشعر الذى بذل حياته فى سبيل الوطن .

وعلى أية حال ، فقد كان الطلبة ، كما قلت ، مثيرين للإعجاب . كنت أقوم بالتدريس لفصل من طلبة الدراسات العليا يبلغ عددهم اثنى عشر طالباً . وكانوا يحضرون لتناول الشاى معى مرة كل أسبوع . كان أحدهم ت.س. إليوت ، الذى كتب فيما بعد قصيدة بعنوان « مسر أبوليناكس » ولم

(١) شاعر إنجليزى عاطفى رقيق مات فى الحرب العالمية الأولى . ترجم له كمال الدين الحناوى ديوانه (أحزان المساء) إلى اللغة العربية ، عاش من ١٨٨٧ إلى ١٩١٥ .

أكن أعلم عندئذ أن إليوت كان يقرض الشعر . وأظن أنه كان قد انتهى فعلا من كتابة قصيدتي « صورة سيدة » و « بروفروك » ، ولكنه لم يجد المجال ملائماً لذكر هذه الحقيقة . كان صامتاً بدرجة غريبة ، وقد أبدى مرة واحدة فقط ملاحظة أذهلتني . كنت أثني على هراقليطس ، فقال : « نعم إنه يذكرني دائماً بـ «بشيون»^(١) وأعجبت بالملاحظة التي أبدتها حتى إنني صرت أتمنى أن يبدي واحدة غيرها . وكان أحد الطلبة الآخرين الذين أثاروا اهتمامي شاباً يدعى ديموس كان يونانياً ، كان أبوه راعياً إنجيلياً اهتدى على يد المبشرين . وكان ديموس قد نشأ في آسيا الصغرى ، ووصل إلى وظيفة أمين إحدى المكتبات الصغيرة هناك . ولكنه شعر بعد أن قرأ كل الكتب التي كانت في تلك المكتبة أن آسيا الصغرى لم يكن عندها ما تعطيه أكثر من ذلك . ولذلك ادخر حتى يستطيع دفع ثمن الرحلة إلى بوسطون . وبعد وصوله هناك اشتغل جرسوناً في أحد المطاعم ، ثم التحق بهارفارد وكان يعمل بمجد كما كان ذا قدرة فائقة . وبمرور الوقت أصبح في النهاية أستاذاً . ولقد شرح لي في عام ١٩١٧ أنه وإن كان يرى وجهة النظر التي تعرضها الدول الأخرى المشتركة في الحرب ويدرك بوضوح زيف حججها إلا أن الأمر كان مختلفاً تماماً في حالة اليونان ، التي اشتركت في الحرب على أساس خلقي أصيل .

وعندما انتهى الفصل الدراسي الأول في هارفارد ، ألقى محاضرات متفرقة في بضع جامعات أخرى . ومن بينها جامعة آن آر بور ، حيث طاف بي المدير بكل المباني الجديدة ، وعلى الأخص بالمكتبة ، التي كان شديد الاعتزاز بها ويبدو أن فهارس المكتبة كانت على أحدث نظام علمي في العالم ، وأن أسلوب التدفئة المركزية كان حديثاً لدرجة غير مألوفة . وبينما كان يشرح لي كل هذا ، كنا واقفين في منتصف قاعة واسعة ذات مناظر تثير الإعجاب . سألته : « وهل يقرأ الكتب أحد على الإطلاق ؟ » . وبدت عليه الدهشة ، لكنه أجاب : « بالطبع هاهو ذا رجل يقرأ الآن » . ومضينا لنراه ، فوجدناه يقرأ رواية للتسلية .

(١) Villon شاعر فرنسي عاش في القرن التاسع عشر .

ومن جامعة آن آر بور ذهبت إلى شيكاغو ، حيث أقمت مع طبيب شهر في أمراض النساء . وكان هذا الطبيب قد ألف كتاباً يتضمن صورة أمامية للرحم . وقد أهداني هذا الكتاب ، ولكنني وجدته مخرجاً بعض الشيء . فأعطيته في النهاية إلى صديق طبيب . وكان هذا الطبيب متحرر الفكر في الدين ، لكنه كان متزمتاً في الأخلاق . ومن الواضح أنه كان رجلاً ذا فورات جنسية شديدة ، وكانت محاولة السيطرة على نفسه قد عاثت في حياته فساداً . وكانت زوجته سيدة عجوزاً جذابة ، أربية في مجالها ، تقف للجيل الشاب بالمرصاد . وكان لهما أربع بنات وابن واحد . ولكنني لم أر مطلقاً هذا الابن الذي مات بعد الحرب بوقت وجيز . وقد جاءت إحدى بناتهما إلى أكسفورد لتدرس اليونانية على يد الأستاذ جلبرت مري ، عندما كنت أسكن في غابة باجلي ، وجاءت بخطاب توصية من مدرس الأدب الإنجليزي في جامعة (برين مور) ، موجه إلى أليس وإلى . وقد رأيت هذه الفتاة عدة مرات في أكسفورد ، فأثارت اهتمامي إلى درجة كبيرة ، ووددت لو عرفتها معرفة وثيقة . وعندما ذهبت إلى شيكاغو ، كتبت إلى تدعوني للإقامة في بيت والديها . وقابلتني في المحطة ، وشعرت في الحال أنني كنت أستريح إليها أكثر من أى شخص آخر قابلته في أمريكا . واكتشفت أنها تكتب شعراً جيداً ، وأن حبها للأدب قوى إلى حد غير مألوف . وقضيت ليلتين في بيت والديها ، وقضيت الليلة الثانية معها . وقامت شقيقاتها الثلاث بالحراسة ، لكي نحذرننا إذا اقترب الأب أو الأم . وكانت ممتعة للغاية ؛ لم تكن جميلة بالمعنى التقليدي ، ولكنها كانت حامية غريبة الأطوار وتهوى الشعر . وكانت قد قضت فترة الشباب وحيدة تعسة ، ويبدو أنني كنت أستطيع أن أعطيها ماتريد . واتفقنا على أن نحضر إلى إنجلترا بأسرع ما يمكن وأن نعيش معاً علناً ، وربما تزوجنا فيما بعد إذا استطعت الحصول على الطلاق . وعقب هذا مباشرة عدت إلى إنجلترا ، ومن الباخرة كتبتُ إلى أوتولين أخبرها بما حدث ، ووصلني منها في نفس الوقت خطاب تقول فيه إنها تود أن تصبح علاقتنا من الآن فصاعداً علاقة أفلاطونية . ولكن

ما أرسلته لها من أخبار وكوفى قد شفيت في أمريكا من تقطيع اللثة جعلها
تغير رأيها . كانت أوتولين مازالت قادرة ، عندما تريد ، على أن تكون ممتعة
لدرجة أن مسألة هجرها كانت تبدو مستحيلة . وعدت إلى إنجلترا في يونيو
ووجدتها في لندن . ودرجنا على أن نذهب كل ثلاثة إلى برنامج بيتش ،
لقضاء اليوم كله . وكانت آخر هذه الرحلات في اليوم الذي أعلنت فيه
النمسا الحرب ضد الصرب . وكانت أوتولين في أحسن حالاتها وفي تلك الأثناء
كانت فتاة شيكاغو قد أقنعت أباه ، الذي كان يجهل الأمر ، أن يصاحبها
إلى أوروبا وأبحرا في الثالث من أغسطس . وعندما وصلت الفتاة إلى إنجلترا
لم أكن قادراً على التفكير في شيء سوى الحرب . ولما كنت قد صممت على
أن أجاهر برأيي ضد الحرب ، لم أشأ أن أعقد موقفي من الحرب بفضيحة
شخصية قد تجعل أي شيء بلا جدوى . لذلك شعرت أنه من المستحيل أن أقوم
بتنفيذ ما خططناه . وأقامت الفتاة في إنجلترا وكان لي معها علاقات من آن لآخر ،
ولكن صدمة الحرب قتلت عاطفتي نحوها ، وقطعت نياط قلبها . وفي النهاية
سقطت صريعة مرض غريب ، أصابها بالشلل أولاً ، ثم بالجنون .
وفي جنونها باحت لأبيها بكل ما حدث . وكانت آخر مرة رأيته فيها في عام
١٩٢٤ . وفي ذلك الوقت كان الشلل قد جعلها عاجزة عن المشي ، ولكنها كانت
تستمتع بلحظات من الصفاء . غير أنني عندما تحدثت إليها استطعت أن
أحس بأفكار مجنونة سوداء تكمن في خلفية عقلها . وقد علمت أنها منذ ذلك
الوقت لم تمر بلحظة صفاء . وقبل أن يهاجمها الجنون كانت ذات عقل نادر
متوقد ، رقيقة الطبع إلى حد غير مألوف . ولو لم تتدخل الحرب لكان من المحتمل
أن ننفذ الخطة التي وضعناها في شيكاغو ، وأن يأتينا تحقيقها بسعادة عظيمة .
وما زلت أشعر بالأسى لهذه الفاجعة وكأنها حدثت بالأمس .

الرسائل

١٥ من يناير ١٩١١

نادى كولونيال

كامبردج

ولاية ما ساشوسيتس

عزيزى رسل

أبعث إليك بشكرى على كتابك « مقالات فلسفية » وإن جاء متأخراً بعض الشيء ، ولكنك سوف ترى فى القريب العاجل دليلاً لا يمكن أن تخطئه على اهتمامى الشديد بها . إذ أننى أقوم بكتابة عرض مستفيض ، فى ثلاث مقالات ، لمجلة الضريح المبيض ، وهو الاسم الذى نطلقه على (صحيفة الفلسفة) بكولومبيا . إلخ . ولا تتوقع منى أن أتفق معك فى كل ماورد بها ، ولكن مهما كان رأيك فى أفكارى ، فإننى أشعر على الدوام أن أفكارك ، وأفكار مور أيضاً ، تؤدى إلى إعادة بناء الفلسفة بشكل أرحب . إن إحدى الروابط القوية بيننا أننا نكره نفس الأشياء ، وربما كانت الكراهية ذات دلالة أعمق على طبيعتنا الحقيقية أكثر من المشاعر الودية الصريحة . إذ أن الأخيرة قد تكون وليدة الظروف ، بينما النفور هو رد فعل ضدها .

كنت أأمل أن أحضر إلى كامبردج فى يونيه ، ولكننى قد رتبت أمورى الآن على أن أذهب بدلا من هذا إلى كاليفورنيا التى لم أزرها أبداً . وأنا مغتبط وآسف على هذا فى آن واحد ، ولكن يحسن بى أن أرى الغرب الأقصى^(١) مرة واحدة فى حياتى ، خصوصاً وأننى قد عقدت العزم على أن أدير وجهى فى القريب العاجل فى الاتجاه المضاد .

مرة ثانية أشكرك شكراً جزيلاً لإرسالك الكتاب إلى .

المخلص

ج. سانتيانا

(١) الغرب الأقصى بالنسبة للولايات المتحدة يشمل ولاية كاليفورنيا مثلاً .

٣٤٦

(يونية ١٩١١)

كلية نيونام

كامبردج

عز يزي برنى

لقد تسلمت خطاباً من أليس . ولا أستطيع إلا أن أقول إننى آسفة من
أجلك ومن أجلها أيضاً - وأنا أعلم أنك مررت بوقت عصيب - كما ينبئ
وجهك بهذا .

هل لى أن أقول مجرد هذا ؟ لقد وقفت على الدوام إلى جانبي مدافعاً عن
التقوى والتعشف وسأظل دائماً أذكرك - حتى تطلب منى أن أكف عن ذكرك -
لنضالك فى سبيل كل ما هو قويم وصعب المنال .

المخلصه إلى الأبد

جين . ا . هاريسون

هذا الخطاب لا يتطلب ردّاً ، واغفر لى أننى كتبته . فلا بد أنك مررت
خلال الأيام الثلاثة الماضية بفترة عصيبة لدرجة أنك لا تريد أن ترى الناس .
ولكن مجيئك يسعدنى دائماً .

تلجراف هاوس

تشستر

٦ من يونية ١٩١١

عز يزي برنى

تلقيت أنا وموللى أنباءك بأسف شديد . وقد كان لدينا فكرة كما تقول ،
ولكنها كانت مجرد فكرة . إن الإخلاص الذى بدأتما به حياتكما قد انتهى ،
وإن كلاً منكما قد وجد الآخر مرهقاً ، ولكننا كنا نأمل ألا يصل الأمر إلى
شئ بعينه مثل الانفصال . فإن ذوى الأخلاق الطيبة غالباً ما يستطيعون أن

٣٤٧

يواصلوا حياتهم في نفس البيت ، إذا ما اتفقا على ألا يتفقا ، ومن أجل راحتكما أنما الاثنين ، ومن أجل راحة أصدقائكما أرجو أن يكون هذا هو الحال بينكما . ولكنكما بالطبع الحكمان الوحيدان الممكنان في هذا الشأن .

ولا يسعنا في نفس الوقت إلا أن نأسف على المضايقة التي تسببها إعادة ترتيب حياتكما وانهايار وحدة كانت تبشر بالخير في البداية . فإن الزواج المحطم مأساة دائماً .

المخلص

ج . مري

كلية ترينتي

كامبردج

١١ من يونية ١٩١١

عزيرى جلبرت

أشكرك شكراً جزيلاً على خطابك الرقيق . إن القرار ^(١) كما تعلم ، ليس فجائياً ولا متسرعاً ، ورغم أن الحاضر مؤلم ، إلا أنني لا أشك أن كلاً منا سيكون في المدى البعيد أسعد حالاً .

وصحيح أنني أراك أندر مما اعتدت قليلاً — وكما أود لم يكن هذا هو الحال؛ ولكن يبدو أن العمل يستغرقني أكثر وأكثر . وخلال إقامتي بأكسفورد لم أكن أستطيع أن أتخلل من العمل إلا بالرحيل . وأظن أن هذا هو جوهر الكهولة . ولكنني لا أجد أن مشاعر الود تتأثر بهذا السبب — فلا يتأثر بهذا إلا المظهر فقط .

أرجو أن تبلغ ماري حبي .

المخلص إلى الأبد : رسل

(١) قرار الانفصال عن أليس .

١٧ من يونية ١٩١١

تأتى

سيتنيانو (فلورنسا)

عزى برنى

تسلمت الآن تواتاً برقية تنبئى بنجاح كارين فى الامتحانات الشفوية النهائية . ولا يسعنى إلا أن أكتب إليك لأعبر عن امتنانى للدور الكبير الذى قمت به فى سبيل تحقيق هذا . إننى أشعر حقاً ببالغ الامتنان . ولا أستطيع إلا أن أرجو أن تكلفها بمزيد من العمل المماثل وبصورة مغرية ، إذ يبدو أن لديها القدرة على أن تؤديه بشكل طيب . وقد يجعل هذا منها شيئاً ، على حد القول . لذلك أرجو ألا ينصرف ذهنك عنها . وأن تقترح عليها أى عمل تراه مجدياً .

لن أقول شيئاً عن القرار الذى اتخذته أنت وأليس . إلا أن أبعث إليك بحبى وتعاطفى مع كل مالا بد أنك كابدته حتى استقر رأيك على هذا ، وأن أؤكد لك مودة ب.ب. (١) الدائمة ومودتى وأطيب تمنياتنا .

المخلصة

مارى بيرنسون

سلسلة كتب الجامعة المنزلية (من جلبرت مرى . بشأن

١٤ شارع هنريتا كتاب مشاكل الفلسفة)

كوفنت جاردن ، غرب وسط لندن

١٠ من أغسطس ١٩١١

يسر شركة السيدين ويليامز وفورجيت (٢) أن تحقق لمستر رسل رغباته فى حدود الإمكان ، ولكنها تجد بعض الصعوبة فى فهم وجهة نظره . فإذا

(١) برنارد بيرنسون .

(٢) ناشر سلسلة كتب الجامعة المنزلية التى كان جلبرت مرى أحد رؤساء التحرير بها .

كانت شكوك مستر رسل بشأن وجود حشرة (أبي قفص) في غرفته تقلق راحته فإنها على استعداد أن تدفع لصائد فئران (يكون معتاداً أيضاً على اصطيد حشرة أبي قفص) شلنين في الساعة لكي يبحث عنها ويتأكد من وجودها . على ألا يزيد المبلغ المدفوع كله عن عشرة شلنات . وستعتبر الحشرة في حالة اصطيدائها ملكاً لمستر رسل . ولكن لن يعتبر اقتناصها ، أو القشل في اقتناصها ، معقياً للسيد رسل بحال من الأحوال من العقد الذي أبرمه مع السيدين ويليامز ونورجيت . وإذ إنه بخصوص شكوى مستر رسل الأخرى من أنه لا يعرف إمبراطور الصين فإن شركة السيدين ويليامز ونورجيت لا يمكنها أن تعزو هذا إلى أي سهو أو إهمال من جانبها . فكان ينبغي على السيد رسل أن يشترط تقديمه للإمبراطور قبل أن يوقع العقد . أما بشأن ما ذكره السيد رسل عن إفطاره وافرعاجه الذي يعاوده بشكل مستمر خوفاً من أن تسبب له الوجبة التالية أي تسمم ، فإن شركة السيدين ويليامز ونورجيت تعبر عن بالغ تعاطفها مع السيد رسل في هذا الموقف العسير ، ولكنها تود أن توجه نظره إلى أن الاحتجاجات يجب أن تقدم إلى رئيس الطبائخين بكلية ترينتي لا إليها . وهي في نفس الوقت لا تتجاوز حدودها حين تذكر السيد رسل أن الفيلسوف ، حسب قوله ، لا يجب أن يركز تفكيره على مثل هذه الموضوعات . وهي تود أن تبدي ملاحظة أن رئيس التحرير قد سر أبلغ السرور من تسليم السيد رسل الصريح بأن الرجل الأصلح رجل برغم كل شيء في حين أن جملته التالية كانت سبباً في بعض المتاعب بين أعضاء هيئة التحرير . فالمحررون الثلاثة كلهم ذوو قوام رشيق ، أو على الأقل ليس بينهم من يمكن إطلاق لفظ « بلدي » في هذا الخصوص عليه . وربما كان مستر رسل يقصد مستر بيريس^(١) ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فإننا على أي حال لم نفهم تماماً من هو المقصود بكلمة الشاعر . ونود أن نتجاسر فنقترح إلغاء كل هذه المسائل الشخصية ، فهي إذ ترضى شخصاً واحداً إنما تؤلم الآخرين دائماً .

٣٥٠

فندق ميستشيف

شارع مادينجلي

٢٦ - ٨ - ١٩١١

عزيزى رسل

أرسل إليك كل ما استطعت أن أجده من المذكرات التى أرسلها إلى (فريج) للدراسة التى أقوم بها عنه .

قد أخبرنى هاردى عن ترجمتك لقصة شقيقة الزوجة انراحلة إلى الأسلوب الرمزي . فهل تسمح بإرسالها إلى إذا سمح بذلك وقتك لكى أضممها كتاب فلسفة مستر برتراند رسل^(١) . وقد أخبرنى هاردى أيضاً عن إثباتك وجود الله عن طريق تركيبة معقدة للغاية من قضايا منطقية زائفة^(٢) . فهل أستطيع الحصول على هذا أيضاً ؟

المخلص إلى الأبد

فيليب جوردين

كان جورج كانتور ، موضوع الخطاب التالى ، فى رأيى ، واحداً من أعظم المفكرين فى القرن التاسع عشر . والمجادلة التى يذكرها مع بوانكاريه ما زالت (١٩٤٩) مستعرة ، رغم أن الشخصيات الرئيسية قد ماتت من زمن بعيد . وبعد قراءة الخطاب التالى ، لن يدهش أحد عندما يعلم أنه قضى رداً من حياته فى مستشفى المجاذيب . ولكنه كرس فترات صفائه لخلق نظرية الأرقام اللانهائية .

وقد أعطانى كتاباً عن مسألة بيكون - شكسبير ، وكتب على الغلاف : « أرى أن مبدأك هو "كانط أو كانتور" ولسوء الحظ أننى لم ألتق به قط » .

(١) ملخص فكاى لأحاديثى مع جوردين .

(٢) لسوء الحظ نسيت هذا البرهان ، ولا يوجد لدى أى مذكرة به ، ولذلك يتحتم أن يظل هذا الأمر الهام موضع شك .

٧٥ شارع فيكتوريا

جنوب غربى لندن

١٦ - ٩ - ١٩١١

عزيزى مستر رسل

التقيت اليوم صديقة بروفيسور جورج فاكنتون^(١)، أستاذ الفلسفة بجامعة هال ، وأمينته الرئيسية أن يلتقى بك أثناء إقامته فى إنجلترا ، وأن يحدثك عن كتبك . وقد غلبه السرور عندما علم فى معرض حديثنا عن كامبردج أنني أعرفك قليلا . وأرجو أن تغفر لى تفاخرى بمعرفتى لعالم رياضة إنجليزى^(٢)، وقد اضطررت إلى أن أعده بأن أحاول أن أرى ما إذا كان يستطيع مقابلتك . وهو يقيم الآن لمدة أسبوع فى ٢٦ ميدان نيفيرن ساوث كنزنجتون ، ويقترح زيارة كامبردج يوم الثلاثاء وأكسفورد يوم الخميس .

كانت مقابلتى له ممتعة للغاية رغم أنك ، إذا تكرمت بمقابلته ، ستعاطف مع شعورى بالإرهاق بعد أن قضيت أربع ساعات تقريبا فى الحديث معه . كان — بالنسبة لى — أشبه بالنفير الذى يدوى فى الضباب فى حديثه عن الرياضيات وعن نظرية بيكون^(٣) .

هل يمكنك كتابة خطاب إليه ، أو إلى على عنوانى وودجيت ، دينهل ، سسكس . إنه سليل عائلة جيهيمراث وما إلى ذلك . وأستطيع أن أسرد عليك تاريخ عائلته بأكمله .

المخلصة لك ومع اعتذارى الشديد
مارجرى ا. كوربت آشبي

(١) كان يرى أن يكون كتب مسرحيات شكسبير وأن المسيح هو الابن الطبيعى ليويسف النجار .

٣٥٢

١٩ من سبتمبر ١٩١١

صاحب الفخامة برتراند رسل
كلية ترينتي ، كامبردج

٢٦ ميدان نيفيرن
ساوث كنزنجتون
لندن .

سيدى وزميلي العزيز

أتقدم إليك بالخطاب التالى من مسز مارجريت كورت آشبي . إننى أقيم الآن هنا لمدة أسبوع تقريباً ، مع ابنتى ماري . وقد تستمر إقامتى حتى يوم الأحد ٢٤ سبتمبر وهو التاريخ الذى يحتمل أن أرحل فيه إلى باريس لمدة أسبوع ، أو أن أعود للوطن . وستكون سعادتى بالغة إذا استطعت أن ترافقنا إلى باريس . فقد نستطيع أن نلتقى هناك بمسيو بوانكاريه ، وسيكون هذا (ثالوثاً) ممتعاً .

أما عن نفسى فربما تعلم أننى غارق فى كثير من المسائل العلمية ، والأدبية أيضاً ، ولأضرب لك مثالين فقط : فأنا من أنصار بيكون فى مسألة بيكون شكسبير - وخصم عنيد لكانط العجوز الذى أرى أنه أضر أبلغ الضرر بالفلسفة ، بل وبالإنسانية ، كما يمكنك أن تتبين بسهولة من الانحراف البالغ فى تطور الميتافيزيقا فى ألمانيا فى كل من جاءوا بعده ، مثل فيخته ، وشيللنج ، وهيجل . وهيربارت وشوبنهاور ، وهارتمان ، ونيتشه ، الخ . الخ . حتى يومنا هذا . إننى لم أستطع يوماً أن أفهم هذا ولا لماذا انقادت شعوب معقولة نبيلة مثل الإيطاليين ، والإنجليز ، والفرنسيين وراء ذلك المتعصب السفسطائى . الذى كان عالماً رياضياً سيئاً .

ولقد وقع مسيو بوانكاريه فى غرام هذا المومياء الكريه ، الذى هو كانط ، اذا لم يكن قد وقع تحت تأثير سحره . وأنا لهذا السبب أفهم تماماً سر معارضة مسيو بوانكاريه لى ، هذه المعارضة التى تشرفنى رغم ثقى أنه لم يقصد أن يشرفنى . وإذا كان يظن أننى سأرد عليه لأدافع عن نفسى فهو مخطئ تماماً .

٣٥٣

وأظن أنه يصغرني بعشرة أعوام . ولكنني قد تعلمت أن أنتظر في كل الأمور، وأنا أتنبأ الآن أنني لن أكون الخاسر في هذه المعركة . لكنني أتركه يفعل مايجلوه ولا أجدني مضطراً إلى الدخول في المعركة ، فلسوف يورطه آخرون في ذلك تاركين لي الفرصة لكي أوجه اهتمامي إلى أشياء أعظم وأكثر أهمية . أما بخصوص الاختلافات الضئيلة بيني وبينك فأنا واثق أنها ستختفي بعد حديث معك .
إنني أنوي أن أزور الراحل ماكماهون اليوم . أرجو أن أراك هذه الأيام في كامبردج أو لندن ، وسأظل ياسيدي .

المخلص جداً

جورج كانتور

لقد قبلنا دعوة لقضاء يومى الخميس والجمعة مع مسز كونستانس بوت ، وهى صديقة قديمة لى من لندن كنت أبادل معها الرسائل ، وتقيم الآن فى فوكستون ، ١٥ كليفتون كرسنت .

أما بخصوص كانط وأتباعه فإنني أرى السبب الحقيقي لوقوفه فيما يبدو على أرض صلبة من النجاح والاحترام والتبجيل والتقدير ، وسأوضح لك ذلك السبب . إن البروتستانتية الألمانية فى تطورها نحو (التحررية) تحتاج إلى أساس تبنى عليه مسيحيتها الظاهرية ، ولذلك تلتقط اللاهوتيين البروتستانت من المدارس المختلفة ، مثل كانط أو أحد أتباعه ، ليكون الدعامة التى تركز عليها . فإحدى اليدين تغسل الأخرى ، والواحدة تعتمد على الأخرى ، ولا بد أن تهوى الواحدة مع الأخرى .

لم أسئ قط إلى مسيو بوانكاريه ، بل على العكس أجد به بقوة فى رسالتى .

٣٥٤

صاحب الفخامة برتراند رسل
كلية ترينتي ، كامبردج

لندن
١٩ من سبتمبر ١٩١١

سيدى العزيز

كنت قد انتهيت من كتابة خطابى الأول إليك عندما تسلمت رسالتك — ولو كنت حراً لا أعتد على مشيئة آنستين ألمانييتن ، هما مارى وابنة شقيقى الآنسة أليس جوتمان من برلين ، لحضرت اليوم بالذات لأقابلك فى إبسدن ولننجزورد . ولذلك فيحتمل ألا أحضر .

المخلص

جورج كانتور

عندما فرغت من هذا الخطاب الثانى ، وصلتني الرسالة التالية من زوجتى العزيزة فى ألمانيا . « إريك مريض ، عد سريعاً إلى هالى » .

هل ترى ياسيدى العزيز ، كيف يعيث فى القدر . لقد ذهب الآنستان اللتان أشرت إليهما لتوها لرؤية وستمنستر .

إنه ابنى الوحيد إريك ، الذى كان فى أتم صحة عندما تركته ، وهو طبيب فى إحدى وحدات مستشفى كبير للمبعدين بنزلاء (سيليزيا) وهو فى الثانية والثلاثين من عمره .

أرجو ألا يكون المحذور قد وقع .

لقد تزوج منذ ثلاثة أشهر مضت ، وحضرنا حفل زفافه إلى فتاة لطيفة طيبة ذكية ، وهى ابنة أحد دباغى الجلود فى بلدة نوسن السكسونية الصغيرة فى مملكة سكسونيا .

عنوانى فى هالى هو : ١٣ شارع هاندل . وسنسافر هذا المساء . وأرجو أن أعود فى النصف الأخير من أغسطس ١٩١٢ لحضور المؤتمر الدولى .

كنت أكتب الآن وصفاً قصيراً لزيارتى التى قمت بها إلى سانت أندروز وإقامتى فيها ، وأتوى تقديمها إلى رئيس تحرير (مجلة المجالات) .

٣٥٥

لم أستطع أن أذهب إلى الرائد ما كاهون كما كان في نيي أن أفعل . كما ذكرت في خطابي الأول .

لقد سررت سروراً بالغاً بلقائي مع صديقي الطيب مستر هوبسون في سانت أندروز ، وهو من كامبردج ، وكان في طريقه إلى المؤتمر الذي يعقده مستر فيليكس كلاين ، وهو كبير العلماء الرياضيين الألمان . لم يكن أبي ولا أمي من أصل ألماني . فقد كان الأول دانمركياً ، ولد في كوبنهاجن وأمي من أصل نمسوي هنغاري . ولا بد أنك تعلم ، ياسيدي ، أنني لست ألمانياً بمعنى الكلمة ، فقد ولدت في ٣ مارس ١٨٤٥ في بطرسبرج ، عاصمة روسيا ، ولكنني رحلت مع أبي وأمي وإخوتي وأخواتي وعمري إحدى عشرة سنة في عام ١٨٥٦ إلى ألمانيا ، وأقمنا في فيسبادن . ثم زيورخ فبرلين فجوتنجن ، ثم جننا في عيد الفصح عام ١٨٦٩ للإقامة في هالي حيث قضيت الآن أكثر من اثنتين وأربعين سنة .

سيدى العزيز

إن آخر كلمة أكتبها إليك تحمل أنباء سعيدة فلقد تلقيت الآن من زوجتي البرقية التالية : « تحسنت حالة إريك » ولكنك تدرك أننا ينبغي أن نعود إلى أرض الوطن .

٤١ شارع جروفنر

جسر وستمنستر .

١١ من أكتوبر (١٩١٢)

عزيزى برتراند

يوسفنى جداً أنني لم أرك عندما حضرت لزيارتنا ، وأشعر أنني لا أستطيع أن أدع هذه الزيارة تمر دون أن أكتب إليك .

لا تغضب مني إذا طلبت إليك أن تضع نفسك في مكاننا . فافترض أنك أنت وأليس كنتما تعيشان في سعادة مطلقة ورفقة كاملة ، وشعرتما أن سيدنى قد لفظني ، وأننى أعيش في حالة من اليأس المطبق أو لسم تكونا :

لتشعرا ، أنتم الاثنان ، أنكما متألمان من سدى ؟

إننى لا أعلم شيئاً عن سر نفوركما ، كل ما أعلمه أن أليس تريدنا أن نكون أصدقاء لكما . وهذا أيضاً شعورى الشخصى . ولقد كنت دائماً معجبة بكائك الخارق ، ورغم أن الشكوك كانت تساورنى أحياناً فى قوة شخصيتك ، إلا أننى كنت أشعر تماماً بسحرها العجيب .

لذلك لا تظن أننى قد سحبت صداقتى ، وإذا استطعت فى أى وقت من الأوقات أن أكون ذا فائدة لك ، سواء أوليتنى كامل ثقتك أم لا ، فأرجو أن تبلغنى وأن تحضر لزيارتى . والآن وقد عبرت بصراحة عما يدور بخلدى تعال وزرنا إذا شعرت برغبة فى هذا ، وناقش معنا أمور العالم دون أدنى إشارة إلى متاعبك ومتاعب أليس .

لقد قضينا وقتاً ممتعاً فى الشرق الأقصى والهند — وهناك نظرات جديدة مدهشة فى الهدف الإنسانى والمصير الإنسانى ، فى كل من اليابان وبين الهندوسيين فى الهند . ولكننا عجزنا تماماً عن تقدير الصين ، كما عجزنا عن التعاطف مع الهند المسلمة .

أما الآن فنحن غارقون فى المشاكل البريطانية . ولكن ذكرى رحلاتنا تعيد إلينا نشاطنا على الدوام . لماذا لا تسافر أنت فى إجازة طويلة من أجل تغيير أفكارك تغييراً كاملاً ؟

صديقتك المخلصة

بياتريس وب

٧٣ ميدان الفريد

ساوث كنزنجتون ، جنوب غربى لندن

١٣ من أكتوبر ١٩١٢

عزيزى مستر رسل

أشكرك على خطابك الرقيق . وسأطلب من دكتور سيل أن يزورك فى كامبردج حتى تتاح لك فرصة التعرف إليه .

قرأت مقالك عن جوهر الدين فى العدد الأخير من مجلة (هيرت) بشغف عظيم . وقد ذكرتنى ببيتين من الشعر فى الأدب السانسكرىتى الميتافيزيقي يجريان على النحو التالى :

« عنده ترتد الكلمات ، كما يرتد العقل ، متحيره . ولكن من يعرف بهجة براهمان (اللانهاى) يتحرر من الخوف » .

فأنت لا تستطيع سبر غور اللانهاية من خلال المعرفة ، ولكنك تدرك البهجة الكبرى التى تعلو على كل متع حياتنا الأنانية وآلامها ، عندما تعيش فى اللانهاية ولا تصبح مقيداً داخل حدود النفس المحدودة ، وبذلك تتحرر من كل أنواع الخوف .

وهذه البهجة نفسها هى الإدراك الإيجابى لبراهمان . وهى ليست عقيدة تفرضها علينا السلطة ولكنها إدراك مطلق للانهاية التى لا نستطيع الوصول إليها إلا بالتحرر من إसार النفس الضيقة وتحرير إرادتنا وحبنا .

المخلص

رابندراناث طاغور^(١)

(١) طاغور ١٨٦١ - ١٩٤١ شاعر هندى حاز على جائزة نوبل للأدب .

كلية ترينتى

١٣ من فبراير ١٩١٣

عزيزى جولدى

أسعدنى أن أتسلم رسالتك ، وقد أثارت الأجزاء التى استطعت أن أفك طلاسمها اهتمامى ، (والواقع أنه لم يكن فى النهاية إلا أقل القليل الذى لم أستطع أن أفهمه) . وقد أثار اهتمامى أن أعلم أن الهند أكثر تديناً من أن تحتلمها . إن مسألة الدين والخبز اليومى — الإيمان بالخرافات والبطن — أمر لا يروق لى ، وأتوق أن تجد الصين أكثر إثارة — وأكثر تحضراً وأكثر إدراكاً للقيم الخفية — على الأقل إذا استطعت أن تتصل بالناس المتعلمين .

ليس لدى أخبار كثيرة . وأظنك قد علمت أن المحافظين قد ألغوا الضرائب على الطعام ، وأنهم يعملون جاهدين فيما يتعلق بفرض حماية على التجارة ؟ وأيضاً أن الألمان قد قبلوا إنقاص نسبة بحريتهم من ١٦ إلى ١٠ ، وأن العالم سعيد بهذا النبأ . وكل شىء يجرى فى كامبردج كالمعتاد . وهناك هياج آخر بشأن الامتحان الأول فى اليونانية ، والجميع يرددون ما كانوا يرددونه دائماً . والأمر كله يبدو أبعد ما يكون عن الأهمية الحقيقية . ولقد انتخب صديقى فيتجنشتين للجمعية ، ولكنه رأى أن فى هذا مضيعة للوقت ، فحذا حذو جون روبرى (١) وانصبت عليه اللعنات . وأعتقد أنه على حق برغم أنى حاولت أن أثنيه عن عزمه . إنه أقدر من عرفت منذ مور وأشهدهم إخلاصاً لرسالته .

لم أفعل شيئاً فى بحى . فقد حاولت جاهداً طوال الصيف الماضى أن أستعيد الحالة النفسية التى بدأت كتابته فيها ، ولكن لما كان الشتاء على أية

(١) انتخب هنرى جون روبرى عضواً فى الجمعية ، ولكنه كتب قائلاً إنه كان أكثر انشغالا من أن يستطيع حضور الاجتماعات ، وقد صبت اللعنات عليه بطريقة طقوسية . فأصبح اسمه منذ تلك اللحظة يكتب بأحرف صغيرة ومنذ ذلك الوقت واللعنة تقرأ بكل وقار عندما ينتخب عضو جديد .

٣٥٩

حال ميثوساً منه لمثل هذا النوع من الكتابة فقد أجلت العمل فيه مؤقتاً .
 وشرعت في العمل في فلسفة المادة التي يبدو أنني أرى فيها منفذاً إلى شيء هام ،
 وأن مسألة معرفتنا بالعالم الخارجي داخلية بأسرها فيها . وسأذهب في ربيع العام
 القادم إلى هارفارد لمدة ثلاثة أشهر لإلقاء بعض المحاضرات . وأشك في أن الناس
 هناك يرحبوا منهم الكثير ، ولن يكون الأمر مثيراً . لقد أصدر سانتيانا كتاباً
 جديداً « النظرية في مهيب التغيير » ، ومعظمه عن برجسون وعنى . ولم أفضل
 أكثر من تصفحه حتى الآن . وهو يحوى خصائصه المألوفة ، وقد قرأت كارين
 ذات يوم بحثاً أمام الجمعية الأرسططالية تمتدح فيه برجسون — وهاجمها مور ،
 وهاجمها أنا بكل العنف الذي يمكنك أن تتخيله ، ولكنها أظهرت شجاعة
 لا تثنين .

سيتزوج فرانك داروين ، كما أظن أنك سمعت ، من مسز ميتلاند .
 والآن — هذا كل ما أستطيع التفكير فيه من أخبار — وكلها تبدو تافهة .
 إننا هنا في كامبردج يشجع أحدنا الآخر على الاستمرار في طريق الاقتراض
 الذي لم نتوقف لحظة لمناقشته وهو أن كل ما نفعله هام ، ولكنني كثيراً ما
 أتساءل هل هذا صحيح في الواقع ؟ إنني أتساءل ما هو الشيء الهام ؟ أظن أن
 موت سكوت ورفاقه في العاصفة الثلجية أمر لا يقبل الشك . وتسجيله لها رائع
 في بساطته . ولكن الفكر يميل إلى التافهة ، إلا عندما تتوهج جذوته .

وأنا أشعر أن المرء لن يكشف الهدف الذي يجب أن يعيش من أجله إلا
 على سرير موته . ويدرك بعد فوات الأوان أنه قد أضاع عمره هباء . إن أى حياة
 عاطفية شجاعة أمر طيب في حد ذاته ، ولكن المرء يشعر أن هناك عنصراً
 من الوهم في إضفاء فيض من المشاعر العاطفية على أى هدف إنسانى ممكن
 التحقيق . وهكذا تتسرب السخرية إلى ينابيع الحياة ذاتها في كيان الإنسان .
 هل تجد السر الأعظم في الشرق ؟ أشك في ذلك . فليس هناك أى شيء من هذا ؛
 بل ليس هناك حتى لغز . فهناك العالم وضوء النهار الصراح والعمل اليومي . والباقي

٣٦٠

ليس إلا أطيايف الغسق . ومع ذلك فأنا أعلم أنني سأغير اتجاه تفكيرى
عندما يحل الصيف .

كم أود لو أنني كنت معك ، أو كنت أنت معى . بلغ . حبي لبوب (١)

المخلص

ب . رسل

مطبعة دفر

أبريل ١٩١٣

عزى برنى

أخيراً انتهى تجليد كتب ميلتون وأرسلتها لك على عنوانك فى ترينتى . لقد
كنت أنا أيضاً فى ترينتى فى مثل هذا العام من نصف قرن مضى . وفى
نفس هذه السنة ومن نفس هذه المدة الطويلة رأيت أمك التى كانت فى ذلك
الوقت كيت ستانلى . ولذلك فأنا لست آسفاً إذا كنت قد تأخرت كل
هذا الوقت الطويل حتى أرسل لك هديتى الصغيرة فى نفس هذه السنة .

ستغلق هذه المطبعة أبوابها بعد وقت قصير ولن أقوم بطباعة كتب أخرى .
هل أرسلت إليك أغنية البجعة (٢) التى قمت بطباعتها ؟ لقد نسيت . ولكن
قبل أن أغلق المطبعة سأكون قد طبعت الرسائل فى مناسبتها السنوية ، ١٩١٤
وستكون هذه نهاية ملائمة .

اكتب إلى ودعنى أراك عندما تحضر إلى المدينة فى المرة القادمة .

المخلص

ت . ج . كوبدن — ساندرسن

(١) تريفيان .

(٢) أغنية البجعة هى آخر أغنية قبل المات .

٣٦١

صاحب الفخامة ب. ا. و. رسل

كلية ترينتي
كامبردج . إنجلترا

٢٩ شارع سباركس

كامبردج ، ماساشوسيتس

١٥ من يونيه ١٩١٣

الزميل المبجل

سوف يمنح ابني ، نوربرت فاينر ، هذا الأسبوع درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد ، وقد كان موضوع بحثه « دراسة مقارنة بين نظرية جبر النسبيات عند شرويدنر ونظرية هوايتهد ورسل » . وقد كان يتوقع أن يكون هنا في العام القادم وأن يحظى بشرف كونه طالباً من طلابك في الفصل الدراسي الثاني ، ولما كان قد حصل على درجة زمالة في أكثر من جامعة . فإنه مضطر إلى قضاء العام كله في أوروبا . وهو لذلك يرجو أن يتمتع بخطوة الدراسة على يدك في ترينتي في النصف الأول من العام الدراسي . وقد كان ينوى أن يكتب إليك بهذا الخصوص ، ولكن صغر سنه — فهو في الثامنة عشرة من عمره فقط بما يترتب على ذلك من انعدام الخبرة بما ينبغي له أن يحيط به في إقامته بأوروبا — يدفعني إلى أن أؤدي له هذه الخدمة وأن أسألك النصيحة .

لقد تخرج نوربرت في الكلية ، وحصل على درجة الليسانس ، وهو في الرابعة عشرة من عمره . لا نتيجة لنمو سابق لأوانه أو نضوج مبكر غير عادي ، ولكن أساساً نتيجة لعناية منزلية خاصة خالية من كل ما يضيع الوقت في غير طائل ، وهو أمر أطبقه على كل أبنائي . ونوربرت قوى البنية (وزن ١٧٠ رطلا) متزن تماماً خلقياً وعقلياً . ولا يبدي أي أثر لتلك العلامات التي ترتبط عادة بالنضج المبكر . وأنا أذكر هذا لك حتى لا تظن أنك ستتعامل مع طالب غير عادي أو غريب الأطوار . ولكن مع طالب عادي أحسن توجيه قدراته . وبخلاف دراسته العريضة المتحررة للكلاسيكيات : بما في ذلك من يوناني ، ولايني ولغات حديثة . فقد درس برنامجاً كاملاً عن العلوم ، كما درس حساب التفاضل والتكامل ، والمعادلات التفاضلية ، ونظرية جالوا في المعادلات . وبعض فروع الجبر الحديث (على يد بروفيسور هنتينجتون) وقد قام بدراسة انفسلفة على

أيدى الأساتذة رويس وبيري وبامر ومنستربرجر . وشميدت . وهولت . إلخ ، بجامعتي هارفارد وكورنيل ^(١) . وهو يميل إلى المنطق الحديث ميلاً تاماً . ويرجو أن يفيد خلال سنة أو سنتي إقامته في أوروبا من أولئك الذين قاموا بأعمال شهيرة في ذلك المجال .

فهل في إمكانه أن يدرس على يدك ، أو أن تقوم بتوجيهه إذا حضر إلى كامبردج في سبتمبر أو أوائل أكتوبر ؟ وماذا يستطيع أن يفعله حتى ينال هذه الخطوة ؟ إن أممي دليل الطالب إلى كامبردج لعام ١٩٠٨ . ولكنني غير قادر على التأكد من خلاله من الشروط اللازم توافرها في الخريجين الذين يريدون أن ينالوا تعليماً خاصاً أو توجيهاً خاصاً . ولا أستطيع أيضاً أن أجد أى شيء بخصوص سكنه هناك ، وما إذا كان عليه أن يجتاز امتحان الدخول إلى كلية ترينتي أو يستطيع أن يسكن في المدينة . وهذه نقطة هامة نوعاً ما بالنسبة له إذ يهيمه أن يستطيع العيشة في حدود دخله الشهري الضئيل . وسأكون بالغ الامتنان لك إزاء أى معلومات في هذا الشأن قد تسهل له دخوله إلى عالم غريب عليه إلى حد ما . وسيسعدني أن أشكرك شخصياً على أى رعاية تبديها نحو ابني ، عند ما تحضر إلى كامبردج الأمريكية في العام القادم لإلقاء محاضرات في قسم الفلسفة .

المخلص -- ليوفائير

أستاذ اللغات السلافية وآدابها
بجامعة هارفارد

كابيل هاوس

أورلستون

قرب آشفورد ، كنت

٤ من سبتمبر ١٩١٣

سيدى العزيز

لماذا تحضر راكباً دراجة في هذا الجو العاصف المتقلب ؟ إن الحل الحقيقي هو أن تشتري تذكرة (في قطار ١١ صباحاً من محطة تشارنج كروس فيما أظن)

(١) ومع ذلك فقد أثبت أنه شخص جدير .

٣٦٣

إلى هامستريت (ثم تغير. القطار في آشفورد بعد انتظار بضع دقائق) حيث
سيتنظرك ابني بعربتنا العتيقة ويوصلناك إلى الباب قبل الواحدة والنصف . وهناك
بعد ذلك قطار لا بأس به في الساعة ٤٨ر٥ من آشفورد يصل إلى المدينة بعد
السابعة بقليل .

ولا أدري ما إذا كنت ستجد في ما يعوضك عن مشقة السفر . ولكن
الشيء الوحيد المؤكد هو أن مجيئنا سيسرني أبلغ السرور . ولذلك تستطيع أن
تعتبر الرحلة ذات طبيعة أشبه « بالأعمال الخيرية » وأود أن أقترح عليك يوم
الأربعاء ، إذ لم يصدر حتى الآن ، فيما أعلم ، قانون يحرم سير القطارات
في هذا اليوم من أيام الأسبوع الذي يعد بمثابة يوم أحد دنيوى جديد
بالنسبة لنا .

المخلص
جوزيف كوزراد

كابيل هاوس
أورلستون ، قرب آشفورد
١٣ من سبتمبر ١٩١٣

عزيزى رسل
لقد أتلج خطابك صدرى للغاية . ويبدو أننى كنت أتكلم طول الوقت
في غمرة الإعجاب بالذات . ولكننى في مكان ما من عقلى كنت أومن أنك
ستفهم ثررتى غير المألوفة . فأنا عادة لا أعرف ماذا أقول للناس . لكن شخصيتك
حلت عقدة لسانى ، وأخبرتني عزيزتى أنك لن تسىء فهمى .
أشكرك بحرارة على المتعة التى جلبتها زيارتك وعلى الخطاب الذى كتبته
بوحى من شعورك الودى .

المخلص
جوزيف كوزراد

٣٦٤

كابل هاوس

أورلستون ، قرب آشفورد

٢٢ من ديسمبر ١٩١٣

عزیزى رسل

أرسل لك مجرد كلمة تتسع للتعبير عن أطيب تمنياتنا جميعاً . يسرفنى أننى قرأت الكتاب الصغير قبل أن أقرأ مقالاتك . وإذا كنت قد شعرت أثناء قراءة الكتاب كما لو كنت أنتحرك خطوة خطوة . فى متعة ، على الأرض الصلبة ، فقد أعطتنى المقالات الإحساس برؤيا مترامية فى جو واضح نقي . كانت كلماتك الكاشفة التى جمعت بطريقة لها دلالتها تبدو وكأنما توقف قدرة جديدة فى داخلى ، وهى تجربة رائعة لا يستطيع المرء حتى أن يعبر عن شكره لها — ولا يسعى إلا أن أتقبلها فى صمت كهبة من الإله . لقد نظمت أفكار عمر كامل كانت مشوشة ، وحددت وجهة لحركات الروح الغامضة التى لا تجلب إلا المتاعب على أيامنا المتعبة على هذه الأرض إذا ما تركت دون توجيه . والشئ الوحيد الذى أستطيع أن أقوم به إزاء الصفحات الرائعة عن عبادة الإنسان الحر هى أن أبادلك « أعمق المودة والإعجاب » التى ستكون لك دون أن تتغير إلى الأبد ، إذا لم ترنى مرة ثانية أبداً ، ونسيت وجودى غداً .

المخلص

جوزيف كونراد

ملحوظة — كنت أقرأك أمس واليوم وأنا أستقبل أنواعاً شتى من المتعة « وأنا أتكلم الآن وأنا ممالك لنفسى » حتى إننى لا أستطيع أن أكتب أكثر من هذا اليوم .

٣ شارع كليرمونت

وستون سيوبر-مار

٣١ من يناير ١٩١٤

عزيزى مستر رسل

شكراً جزيلاً على خطابك الذى وصلنى هنا حيث أتغلب على فترة قصيرة من المرض والإعياء . وأنا متأكد أننى لست فى حاجة إلى أن أخبرك أن تعبيرى عن الإعجاب بعملك لم يكن مجرد كلام . ولا يمكننى أن أتفق مع آرائك فى بعض النقاط (كما أفهمها على الأقل) لكننى لا أشعر بأقل شك فى قيمتها العظيمة ، وكلى أمل وتطلع إلى أنك ستواصل عمل ما هو أحسن وأحسن ، رغم أننى أخشى أننى لأستطيع أن آمل أن أكون قادراً على تذوق أى تأملات والتمتع بها لفترة أطول .

أظن أننى أفهم ماتقول به بشأن الطريقة التى تصوغ بها فلسفتك . ويخيل إلى أنها الطريقة الصحيحة وأن ما تعد به ليس مجرد أوهام على الإطلاق ، رغم أنه لا يمكن التمسك بها حرفياً . وربما كان فى الأشياء ككل ما يفتقده المرء إذا ما تأمل النظريات التى أمامه ، (وكما يحدث أحياناً) يشعر المرء أنه يعرف ما يريد به وأنه موجود هناك — لو استطاع فقط أن يجده بشكل أو بآخر — ومع ذلك فلا بد أن أعتقد أن المرء لا يجد الكل المتكامل ، ولا يستطيع أن يجده ، وأنه ليس هناك فيلسوف لم يصل إلى الحقيقة التى ينشدها ، إلا عن طريق التميز ورؤية الأشياء من جانب واحد . وأن هذه هى الطريقة الوحيدة الصحيحة وهذا على أية حال مجرد إيمان لا أستطيع إثباته .

وأنا واثق أننى عمدت فى عملى ، بقدر ما أمكن ، إلى تصوير هذا التحيز — إذا لم أكن قد فعلت أى شيء آخر . وأخشى أننى أكسب دائماً عن ثقة زائدة — ولأ لتخليت عن الكتابة كليةً ، ولا أعتقد أننى بهذا أقترف ذنباً كبيراً أو أفرض آرائى على أحد لآرائه الذاتية قيمة خاصة . وإذا كنت قد علونتك

على وجه من الوجوه بالاعتراضات التي أثرتها ، فهذا فيما أشعر تبرير كاف
لهذه الاعتراضات حتى ولو كانت خاطئة - وسيكون من دواعي ارتياحي دائماً
أن أحظى بحسن ظنك في عملي . ولعل أضيف هنا أنني أشعر بالميل شيئاً فشيئاً
نحو المجهول والذي لا يمكن الإحاطة به - بطريقة أعتقد أنها صائبة وإن كانت
لم تبلغ بعد ما أريده .

أتمنى لك النجاح والتوفيق في عملك وأتجاسر هنا على أن أنصحك بالتريث
ونبذ التعجل .

المخلص

ف. ه. برادلي

من هـ .

شكراً جزيلاً على الزهور التي أرسلتها . وهي مبعث راحة وطمأنينة
لنفسى وكذلك خطابك الذي قرأته مرات ومرات . ما كان أقسى ذلك المساء !
وكم كانت قسوته سترداد لو لم نتلاق ! وقد كنت سأحس بأننا لن نلتقي أبداً ،
ولكن هذا كله ماضٍ الآن وأنا أدرك مشاعرك وأشعر أكثر من أى وقت مضى
أنه في الإمكان تكوين صداقة دائمة عميقة . وأملئ أن يتم ذلك قريباً جداً .
وبمجرد استعادتي لصحتي . ولن يؤثر ما حدث مهما يكن في نهاية الأمر -
وما حدث كان خيراً ولا يعلى عليه .

وداعاً الآن . وإذا جاز للإنسان أن يتحدث عن السلام في هذا العالم
المضطرب فسلام عليك .

هـ .

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٠

